

لجنة التأليف والترجمة والنشر

الإسلام والحضارة العربية

تأليف

محمد كرد علي

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٩٣٤

فهرس الجزء الأول

*

بسم الله الرحمن الرحيم

الداعى الى هذا التأليف

لما قرر المجمع العلمى العربى انتدابى الى تمثيله فى مؤتمر المشرقيات الذى عقد فى مدينة ليدن من بلاد القاع فى صيف سنة ١٩٣١م، رغب إلىّ أعضاؤه المفكرون أن ألقى فيه جملة أعرض فيها لما لا يزال يسرى على أسلات أقلام بعض مؤلفى الغرب، ولا سيما علماء المشرقيات، من أمور نابية عن حدّ التحقيق والنصفة، كلما ذكروا الاسلام وأهله، والعرب ومدنيتهم .

وفى الحق إن المعارف استفاضت فى هذا العصر، حتى لم يبق مجهول إلا علم، ولا بعيد إلا اقترب، ولا صعب إلا سهل . وقد نقل الى لغات الغرب من طرق مأمونة متنوّعة عشرات من الأسفار فى مدنية العرب، المَدينة للاسلام بحسناتها وانبعاثها، فتجلى بها ما كان غامضا على أهل المدنية الحديثة . فليس من الإنصاف إذًا أن يظل بعض من تأثروا بالمؤثرات القديمة على الاستمداد من عصور الظلمات، يُطَرِّسون على آثار من كتبوا من رجال الدين، وهؤلاء ما كان لهم من مصلحة غير تصوير الاسلام فى صور باهتة، وإنكار فضل العرب فى إنشاء مدنية كانت على الجملة من أعظم ما قام فى الأرض منذ عرف تاريخها .

وإن فئة تمثلت أساليب هذا العصر فى البحث والحل، ولم تتحرر الى اليوم من سلطان العوامل الجنسية والدينية والسياسية، لمؤاخذة كل المؤاخذة بأحكامها الجائرة على الاسلام والمسلمين . بيد أن الإعجاب بطرائق أولئك الباحثين لا يمنع من مناقشتهم فى آراء لهم غير سديدة، قال بها من قالوا ذهابا مع أهواء النفس الكثيرة .

وسبيل هذا الموجز الآن، تصحيح هفوات من أساءوا ومابرحوا يسيئون للعرب ودينهم ورسولهم ومدنيتهم، وذكر ما أثرته الحضارة العربية فى أمم الغرب والشرق، وما مُنِى به الإسلام، لما غير أهله ما بأنفسهم، من خصماء غير رحماء، نالوا من روحه وجسمه، فالتاثت أحواله، وتنكرت معالمه، والالماع الى ماقام به المسلمون بعد طول الهجعة، يلوبون على استعادة مجد أضاعوه، وعلقوا اليوم يقطعون اليه أشواطا، حتى لم يبق أمامهم غير مراحل قليلة لبلوغ الغاية .

والرجاء فى هذه الصفحات أن تنفع فى باب اعتبار الأحفاد بذكرى صنيع الأجداد، وأن تنتصف بها حضارتنا ممن ثلموها وما رحموها . والعمدة فى وضعها على ما أطال حكماء العلماء من الافرنج فى بسطه، وفى وصف ماضى الأمة العربية على مقتضبات من أمهات أسفارها المحررة . والمنهاج فيها إطلاق حرية التفكير والتقرير، والتقية ليست مذهبا مجديا فى زمن لم يعرف البشر حرية كحريته، ولا علما أعظم من علم أهله، ولا عقولا صفت كعقولهم، ولا طبقات رشيدة تعلمت حسن الاستمتاع على غرار طبقاتهم .

وأسأله تعالى أن يحل عقدة من لسانى وقلمى، لأجمل ما توفرت من قراب أربعين سنة على الدعوة الى الأخذ به، من حسنات الحضارتين العربية والغربية . وهو الهادى إلى سواء السبيل ٠

دمشق، فى ١٩ جمادى الثانية سنة ١٣٥٢
٨ أكتوبر سنة ١٩٣٣

محمد كرد على

الاسلام والحضارة العربية

الجــزء الأوّل

المخالفون ودواعي الخلاف

إنصاف الإسلام والعرب :

أخذ أبناء الغرب يتمتعون بعد القرن السابع عشر بحرّية الفكر والوجدان ، فنشأت فيه طائفة من العلماء تمّ لها معظم أدوات الفضل ، وقد راعها ما شاهدت وحققت ، فردّت أقوال من ظلموا العرب والإسلام ، متوخية كشف القناع عن وجه الصواب الذى غشيته الغواشي[1] فى الدهر الغابر . ومن أبناء الغرب المعتدلين من استهدفوا للطعن لأنهم لم يمالئوا الكاتبين الأوّلين على ما كتبوه ، وخرجوا عن المألوف فأنصفوا المخالف ، ولم يثنهم عن عزيمتهم نقد ناقد ، ولا طعن طاعن ، وراحوا يهزأون بمن اتهموهم ظلما بأمانتهم ، ويصدعون بالحق الذى تبين لهم .

ولذلك وجب على أصحاب هذه المدنية ، وهذه الدعوة الإسلامية ، أن يشكروا لأولئك المنصفين ، وأن لا يغرقوا باللائمة على من ينظرون الى أشياء غيرهم ، بغير العين التى يبصرون بها أشياءهم . فمن الظواهر الاجتماعية هنا ، ما نرى له ما يماثله فى المجتمع الغربى ، كسيت هناك ثوبا جميلا بفعل الحضارة الممتدّة الرواق ، وبقيت هنا على سذاجتها للتأخر الطارئ من تراجع المدنية . والقوىّ قد تبدو سيئاته فيخيل لقصار النظر أنها حسنات ، أو يفسر معانى غيره تفسيرا يظنه ضعاف النظر آيات بينات ، والضعيف مهما أحسن مغمور مدحور ، وربما قلبت حسناته سيئات ، والعالم على الدهر عبد القوّة القاهرة .

وما دامت المعضلة معضلة تخالف فى عقيدة ، وتخالف فى تربية وعادة ، وتخالف فى عنصر وبيئة ، فمن الواجب علينا أن نسادّ ونقارب حتى تفعل الأيام فعلها : نعذر المنابذ المعتدل ، إذا كان ممن يؤمن بما يقول ، ونشكر للموافق العادل

(١) لحقته الدواهى واحدتها غاشية .

الذى يصدر رأيه عن عقيدة واقتناع . وعلينا أن لاننسى أيضا أن مجتمعنا ما كان فى الحقيقة فى عامة أدواره وأطواره فائضا بالعدل والتسامح ، فقد عهدنا طوائف بالغت فى الحط من المخالف لأفكارها ، فحاربته بكل سلاح تحت كل كوكب ، فأضعفت بعملها العقل ، وقضت على الحضارة بأن وضعت العقبات فى محجتها .

نحن اليوم قد نستفيد من سماع أقوال المخالف ، ومنازع الصريح فى نقده قد تقوّم المعوّج وتصلح الفاسد . لا جرم أن من المسائل ما يصعب تمييز بهرجه من صحيحه ، إلا بمعاناة طويلة ، وأناة وروية ، ورفق جميل . وقد يكون منشأ التعقيد على الأغلب من الواضع الأول ، إما لسوء فهم ، ومشايعة وهم ، أو لتعمد فى إفساد حكم ، بعلم وبغير علم ، فيتسرب الضعف الى العقول ، ويتأصل فيها بمرور الأيام . والضلالة إذا رسخت احتاجت الى جهود طويلة حتى تنزع من الأذهان . والحق إذا اختلط بالباطل وامتزج باللحم والدم استلزم التفريق بينهما معالجة طويلة . وهذا ما يصدق على تاريخ الإسلام ، وحكم بعض الغربيين عليه منذ القديم ، فان الخطأ فيه عندهم عمدا أو عن غير عمد ، قد أتت عليه القرون حتى انتفى ، وظهرت بين ظهرانيهم حقيقته على جليتها . ولذلك يحمد قصد من أنصفوا فى أحكامهم علينا . والعدل من القريب حلو ومن البعيد أحلى ، ومن خالفنا فى مسألة ووافقنا فى مسائل كان أقرب للتقوى .

العوامل فى جفاء الغربيين :

وهناك عقدة مدنية وعقدة دينية ، إذا سهل الخطب فى الأولى عسر فى الثانية ، لأنها صعبة المراس ، متعذرة على الانتزاع ، مهما جهدت بكل جهدك ، وجمعت كل عقلك . وحكم الغرب على العرب منبعث فى الأصل من تباين فى المعتقدات ، والمعتقدات وليدة التسليم والاستهواء والعادات ، ومن الصعب استئصال ما تأصل فى النفوس بمرور الأيام ، لأن العناد فى الاعتقاد ، فطرة لا تبغى عنها النفوس البشرية حولا ، والعاقل من أنصف غيره من نفسه .

وأهم أسباب الجفاء بين الغربيين والشرقيين فى القرون الأولى من الهجرة ، كون الإسلام جاء لهداية البشر كافة ، فأتى على الوثنية فى البلاد التى انتشر سلطانه فيها ، ودخل فيه من الصابئة واليعاقبة والنساطرة والمجوس واليهود وغيرهم جمهور كبير . وخافت أوربا النصرانية من تسربه إلى ربوعها ، فاتفقت كلمة الملوك ورجال الدين على حربه ، حتى وقفت دعوته عند جزيرتى الأندلس وصقلية وما إليهما من أرض الفرنجة ، ثم نشأت الحروب الصليبية ودامت قرنين كاملين ، يجيش فيهما الغرب على الشام ومصر ، حتى كتبت الغلبة الأخيرة للإسلام فى أرض الشام .

وبديهى بعد هذه الطوائل والأحقاد التى طالت لياليها السود — خصوصا بعد أن هزت الدولة العثمانية فى العصور الأخيرة أعصاب أوربا زمنا ، حتى دب الهرم فيها — أن يقول الخصم فى خصمه ما قد يحط من قدره ، ويصغر من أمره ، ولا يفوتنا النظر أن الجهل كان فاشيا فى الغرب وأن الدين كان آخذا بمخنق[1] كل عالم وباحث ، وان آراء المؤرخين حتى فى العهد الحديث تختلف فى الجوهر والعرض أحيانا فى الحادثة الواحدة ، لأن من مظاهر هذا العصر اشتداد سلطان التحزب القومى ، الى ما لم يصل إليه فى عصر من عصور التاريخ .

ولما انبلج فجر الأدوار الأخيرة من القرون الوسطى ، وجاء دور النهضة والانتباه فى الغرب ، أنشأ المشتغلون بتلمس الحقائق يخففون من شرتهم على العرب ، ويقللون من النيل من دينهم ومدنيتهم ، وزادت معرفة الغربى للاسلام ، يوم أنشأت بعض جامعات الغرب دروسا لتعليم اللغات الإسلامية ، وفى مقدمتها اللغة العربية ، وذلك للدعوة الى النصرانية فى الشرق ، ثم انقلب الغرض الى درس الحضارة العربية والإسلام ، من طريق العقل والنظر ، وكان من مجموع هذه الأبحاث بأخرة[2] ، استبطان أحوال الإسلام ودياره ، لغرض الفتح والتجارة .

(١) المخنق : العنق وأخذ منه بالمخنق إذا لزه وضيق عليه . (٢) يقال جاء أخرة و بأخرة أى أخيرا .

يقول قاسم[1] أمين إن العداوة القديمة التى استمرت أجيالا بين أهل الشرق والغرب بسبب اختلاف الدين، كانت ولا تزال الى الآن سببا فى أن جهل بعضهم أحوال بعض، وأساء كل منهم الظن بالآخر، وأثرت فى عقولهم حتى جعلتها تتصوّر الأشياء على غير حقيقتها . إذ لا شىء يبعد الإنسان عن الحقيقة أكثر من أن يكون عند النظر إليها تحت سلطان شهوة من الشهوات، لأنه إن كان مخلصا فى بحثه، محبا للوقوف على الحقيقة ، وهو ما يندر وجوده ، فلا بدّ أن تهوّش عليه شهوته فى حكمه ، وأدنى آثارها أن تزين له ما يوافقها وتستميله إليه، وإن كان من الذين لا منزلة للحق من نفوسهم، وهم السواد الأعظم ، ضربوا دون الحق أستارا من الأكاذيب والأوهام والأضاليل، مما تسوّله لهم شهوتهم ، حتى لا يبقى لشعاع من أشعة الحق منفذ الى القلوب[2] .

صعوبة درس التاريخ :

وليس البحث فى تاريخ بلد واحد بالأمر السهل، على من كتب له حظ من البحث والنظر، فما بالك بتاريخ أمة عظيمة تباعدت أرجاء بلادها كالأمة العربية، ولذلك رأينا الغربيين لما بلغ العلم هذه الدرجة العالية من الإرتقاء والتشعب ، يقسمون التاريخ أقساما كثيرة ، فمن بحث منهم فى تاريخ قرن أو قرون من تاريخ

---

(١) نص الفارابى فى بعض كتبه على أنه لا يسمى العالم بعلم ما عالما بذلك العلم على الاطلاق ، حتى تتوفر فيه أربعة شروط : أحدها أن يكون قد أحاط معرفة بأصول ذلك العلم على الكمال . والثانى أن تكون له قدرة على العبارة عن ذلك العلم . والثالث أن يكون عارفا بما يلزم عنه . والرابع أن تكون له قدرة على دفع الاشكالات الواردة على ذلك العلم ، ومن أجل هذا كان لقب عالم يضن به كثيرا . وقد كان يقال لجبير ابن زهير الحضرمى «عالم أهل الشام» وللخليل بن أحمد «علامة البصرة» ولمالك بن أنس «إمام دار الهجرة» ولعبد الله بن عباس «ربانى هذه الأمة» وخص فى المتأخرين قطب الدين الشيرازى بالعلامة من بين علماء عصره، لأنه سبقهم كلهم فى جميع أقسام العلوم . قال المقدسى : إن مراتب السادات مثل جليل وفاضل ، رسم الرسائل لارسم التصانيف ، ونحن قد جرينا على ذلك فلم نذكر لمؤلف فى مؤلفنا هذا لقبا علميا ولا غيره، نأتى بأسمائهم مجردة على عادة معظم المؤلفين .

(٢) تحرير المرأة لقاسم أمين .

أمة ، لا يتطال الى البحث فى دور آخر من أدوارها ، أو من خاض فى تاريخ إقليم أو بلد يحظر عليه ، أو يحظر على نفسه ، الخوض فى تاريخ إقليم أو بلد آخر . ومن اختص بجانب من تاريخ الرومان، يتعذر عليه معالجة التاريخ الحديث ، ومن تاقت نفسه أن يتناول فى أبحاثه النظر فى حال أمة من أمم الشرق، لا يجوّد تأليفا له فى تاريخ الغرب . ولذلك تقل قيمة سفر يؤلفه واحد على الأغلب، إن كان متشعب المقاصد . فكتب الْمَعْلَمَات أو دوائر المعارف ينشئها مئات ، وأحيانا ألوف من العلماء عندهم ، وكتب التاريخ والجغرافيا والآداب يؤلفها عشرات من المؤرخين والأدباء والجغرافيين ، وربما لا تكتفى أمة بما عندها من الرجال فتستعين برجال من غير أمتها، تلاحظ أنهم أرقى كعبا .

إذًا فالتاريخ اليوم صعب المراس لتنوع أغراضه، فكيف يعتمد على من يقرأ بضعة كتب فى تاريخ العرب، ويحكم على أهله ومدنيتهم، ألا يعدّ من كان هذا شأنه من كتاب العامة، لقلة بضاعته، فما الحال بما يصدره من الآراء، وهو على رأى له قديم اصطنعه ، وما استطاع أن يتحلل من قيوده . وهذا فيما نرى ما دعا "رنان" أن يقول إن التاريخ مجموعة ظنون أو علم صغير سداه ولحمته من الفرضيات البعيدة . وقالوا كل امرئ يحاول أن يدمج فى التاريخ أفكاره من طرف خفى ، وأن يتصوّر الحقيقة ويخلقها، وذلك لقلة الوثائق التى تثبت على محك النظر ، ويحاول المؤرخون أبدا أن يحيوا نظريات قائمة على نظريات أخرى، ويدخلوا الى روح أشخاص يجهلون مزاجهم، وما ورثوه من تربية وأفكار، ولذلك يصعب جدا كتابة تاريخ عصر أو رجل ، وما زال البشر منذ عهد "توسيديد" و"هيرودتس" يحاولون كتابة التاريخ، وقلما وصلوا الى الحقائق، لقلة معرفتهم باكتناهها ، ويحاولون شرح الحوادث ومعرفتها وحفظها ، ليدخلوا شيئا ضئيلا كالخيال من العناصر التى تركها العالم فى ماضيه السحيق . وكان " تاسيت " يحاول أن يضع نفسه فوق الحوادث وأن يحكم عليها ، ويحاول "مونتسكيو" و"هردر" أن

يستخرجا من نصوص التاريخ فلسفة ، وحاول "رنان" أن يوفق بين الحوادث، ويكشف أسرارها الممكنة الظهور، وأن يورد وقائعها ملموسة ذات وحدة ، ولكل مؤرخ طريقته . يقول كارلايل إن التاريخ مجموعة إشاعات ، وفولتير يقول إنه مجموعة أساطير قبلها الضعفاء .

وقال لبون[1] : " منذ القديم كان الإنصاف فى التاريخ صفة جوهرية فى المؤرخ، ويؤكد عامة المؤرخين منذ عهد تاسيت خلوهم من الغرض، وتجردهم عن الهوى . وحقا إن الكاتب يرى الحوادث، كما يرى المصور منظرا من المناظر، بحسب مزاجه وخلقه وروح عنصره، وإذا جئت تضع عدة مصورين أمام منظر واحد، فإنك ترى كل فرد منهم يعبر عنه بالضرورة تعبيرا يخالف فيه صاحبه . ومنهم من يعنى بتفاصيل أهملها غيره ، وعلى هذا تأتى كل نسخة صورة خاصة لمصورها ، بمعنى أنها تمثل شكلا خاصا من التأثير، وهكذا الحال فى الكاتب ، فلذلك تعذر على المؤرخ أن يقول الإنصاف كله، كما يتعذر ذلك على المصور . لاجرم أن للمؤرخ أن يأتى بالوثائق كما هو العرف اليوم، ولكن هذه الوثائق إذا طال عهدها عن عهدنا كالثورة الفرنسية مثلا ، إذ قد بلغ من اتساعها أن حياة رجل لا تكفى للاحاطة بها، وجب الاختصار على لباب ما فيها ، وقد يبلغ بالمؤلف عن عمد أو غير عمد ، أن يختار المواد التى توافق أهواءه السياسية والدينية والأخلاقية . ولذلك تعذر تأليف كتاب فى التاريخ بلغ من الإنصاف مداه ، اللهم إلا إذا اقتصر فيه على إيراد الحادثة فى سطر واحد وفى زمن واحد ، وليس هذا فى طاقة مؤلف ، ولا يؤسف لعدم اقتدار المؤلفين عليه ، وقد بلغ من انتشار دعوى عدم التحزب فى التاريخ اليوم، أن ظهرت للناس آثار تافهة تورث مللا وأى ملل، بحيث يتعذر بالرجوع إليها فهم تاريخ عصر من العصور " . اهـ .

(١) الثورة الفرنسية وروح الثورات لجوستاف لبون Gustave Le Bon: La Révolution française et la Psychologie des Révolutions.

وقيل ان التاريخ[1] رواية يخترعها كل كاتب من توليد خياله ، و ينتحل لها الأسماء والأعلام ، من سير الناس وحوادث الأيام . وكلما اتفق المؤرخون على رواية مسطورة كان ذلك أدعى الى الشك فيها ، والتردد فى قبولها ، لأنه دليل على الأخذ بالسماع والتسليم بغير مناقشة ، فأما إذا اختلفوا واضطربت أقوالهم بين الثناء والمذمة والترجيح والتضعيف ، فأنت إذًا حيال التاريخ فى بابل من الفروض والآراء ، ومضلة من الحقائق والشكوك ، و يحتاج المؤرخ الى كل ما يحتاج اليه القاضى من الشهادات والأسانيد والبينات وقد ينقصه كل أولئك فى أكثر الحوادث التى يتصدى لها بالبحث والتقرير ، فكل حادثة تاريخية قوامها الأشخاص والأخبار والمصالح والآراء ، ولكل عنصر من العناصر آفة تتطرق إليه بالزغل والارتياب ، فالأشخاص يحيط بهم الحب والبغض ، والرغبة والرهبة ، والظهور والخفاء ، والأخبار يعتورها الصدق والكذب ، والفهم والجهل ، والوضوح والغموض ، والمصالح تتفق ولا تتفق ، وتجارى الحقيقة وتناقضها ، وتصبغ الأشياء عامدة أو غير عامدة ، بصبغة تلوح لهذا غير ما تلوح لذاك ، والرأى عرضة لاختلاف العلم والنظر والمزاج ، وكل ما يدخل فى تكوين الآراء وتقدير الأحكام ، واذا تأتى للمؤرخ أسباب الحكم على الأعمال الظاهرة ، فقد تعوزه أسباب الحكم على النيات الخفية ، والبواعث المستورة ، والعوامل التى يحجبها الإنسان عن خلده ، و يغالط فيها ضميره ، وهبه تأتى له كل ما يتأتى للقاضى من الشهادات والأسانيد والبينات ، فهل يسلم القاضى من الزلل ، وهل يأمن الزيغ فى الفهم ، والمحاباة فى الهوى ، وانتشار الأمر عليه فى القضايا التى لها خطر ، وللناس بها اهتمام ، أما سفساف الحوادث فسواء أصاب فيها القاضى أو أخطأ فهى أهون من أن يتعلق بها خبر فى تاريخ أو مذهب فى قضاء . اهـ .

---

(١) ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد .

تفنيد "لبون" أقوال من نالوا من العرب والاسلام :

وما أجمل ما قال لبون فى كتابه حضارة العرب [١] : " واذا كان للأديان تأثير عظيم فى الأخلاق ، كما ينسب اليها فى العادة ، ونحن ممن لا يقول بهذا التأثير على ما يزعم الزاعمون ، فانا نجد المقابلة مدهشة بين الإسلام وسائر المعتقدات التى تزعم مع هذا أنها أسمى منه ، ولقد قال بارتلمى سان هيلير وهو من العلماء المتدينين فى كتابه فى القرآن : تدمثت نفوس قساة الطباع من سادة القرون الوسطى ، بملابستهم العرب وتمازجهم بهم ، وعرف الفرسان بدون أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم شعورا أرق وأشرف وأعرق فى الانسانية من شعورهم . ومن المشكوك فيه أن تكون النصرانية وحدها ، على ما حملت من المنافع ، هى التى ألقت فى روعهم ما ألقت ، وبعد هذا النظر ربما تساءل القارئ ، ولماذا غمط اليوم حق العرب وتأثيرهم ، وأنكر حسناتهم علماء عرفوا باستقلال أفكارهم ، وكانوا بحسب الظاهر بمعزل عن الأوهام الدينية . وهذا السؤال قد سألته نفسى ، وأرى أن لا جواب عليه غير ما أنا كاتب ، ذلك أن استقلال آرائنا هو فى الواقع صورى أكثر مما هو حقيقى ، ونحن لسنا أحرارا على ما نريد فى خوض بعض الموضوعات ، وهذا لأن فينا أحد رجلين : الرجل الحديث الذى صاغته دروس التهذيب ، وعمل المحيط الأدبى والمعنوى فى تنشئته . والرجل القديم المجبول على الزمن بخميرة الأجداد ، وبروح لا يعرف قراره يتألف من ماض طويل ، وهذا الروح اللاشعورى هو وحده الذى ينطق فى معظم الرجال ، ويبدو فى أنفسهم بمظاهر مختلفة ، يؤيد فيهم المعتقدات التى اعتقدوها ، ويملى عليهم آراءهم ، وتظهر هذه الآراء بالغة حدا عظيما من الحرية فى الظاهر فتحترم " .

---

(١) (La Civilisation des Arabes) مما يؤسف له أن كتابا جليلا مثل هذا لجوستاف لبون ألف قبل خمسين سنة ولم ينشر الى اليوم بالطبع فى البلاد العربية ، على ما يحمل من حقائق عن العرب لا يكاد يعرفها أعظم الباحثين من أبنائه ، وقد نقله الى العربية محمد مسعود من كتاب مصر ولم يطبع الى الآن .

" لا جرم أن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوربا ، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم فى عهد شارل مارتيل ، وفى الحروب الصليبية ، وبعد استيلائهم على الاستانة ، يذلوننا بمدنيتهم السامية الساحقة ، وإلى أمس الدابر لم ننج من تأثيراتهم . ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الاسلام وأشياعه فى عدة قرون ، حتى أصبحت جزءا من نظامنا . وكانت هذه الأوهام طبيعة متأصلة فينا ، كالبغض الدوى المستتر أبدا فى أعماق قلوب النصارى لليهود .

"وإذا أضفنا الى أوهامنا الموروثة فى إنكار فضل المسلمين هذا الوهم الموروث أيضا النامى فى كل جيل ، بفعل تربيتنا المدرسية الممقوتة ، ودعوانا أن جميع العلوم والآداب الماضية أتتنا من اليونان واللاتين فقط ، ندرك على أيسر سبيل أن تأثير العرب البليغ فى تاريخ مدنية أوربا قد عم تجاهله . ويرى بعض أرباب الأفكار أن من المذل على الدوام أن يذهبوا الى أن أوربا النصرانية ، مدينة لأعداء دينها بخروجها من ظلمة التوحش . وهناك أمر يحمل فى مطاويه ذلا كثيرا فى الظاهر لا يقبل تحمله إلا بشيء من العنت . وذلك أنه كان للمدنية الإسلامية تأثير عظيم فى العالم ، وتم لها هذا التأثير بفضل العرب ، بل بصنع العناصر المختلفة التى دانت بالإسلام ، وبنفوذهم الأدبى هذبوا الشعوب البربرية التى قضت على الإمبراطورية الرومانية ، وبتأثيرهم العقلى فتحوا لأوربا عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، وهذا ما كانت تجهله ، وعلى ذلك كان العرب ممدنينا وأساتذتنا مدة ستمائة سنة " .

وقال فى حاشية هذا الفصل : إذا استحكمت الأوهام الموروثة وأوهام الثقافة فى رجل ، يعمى مع اتساع معارفه عن تفهم أسرار المسائل ، وما هو إلا أن ينطوى على بغضين : بغض الرجل القديم الذى أنشأه الماضى ، وبغض الرجل الحديث الذى هو ابن الملاحظة الشخصية ، ولا يلبث أن يأتى بصور من التعبير عن الأفكار غريبة فى تناقضها ، ويجد القارئ مثالا من المتناقضات فى محاضرة فى الإسلام

ألقاها فى جامعة السوربون كاتب مبدع عالم، عَنيت السيد رنان ، حاول أن يثبت عجز العرب، فنقض بيده كل مزاعمه ، فقد ذكر مثلا أن ارتقاء العلم كان بفضل العرب خلال ستمائة سنة ، وأبان أن التعصب فى الإسلام لم يظهر كل الظهور إلا لما خلفت العرب عناصر منحطة كالبربر والترك، ثم جاء يؤكد أن الإسلام طالما اضطهد العلم والفلسفة ، مدعيا أنه قضى على العقل فى البلاد التى افتتحها . ولكن باحثا ذكيا كالسيد رنان لا ينام على رأى مخالف لأصول التاريخ الظاهرة . فما إن تزول الأوهام فيه حينا حتى يتجلى فيه العالم فيضطر الى الاعتراف بتأثير العرب فى القرون الوسطى ، وبما بلغته العلوم من الرقى فى إسبانيا مدة استظلالها بظل سلطانهم . ومن الأسف أن الأوهام اللاشعورية تتغلب عليه حالا فيدّعى على وجه أكيد أن علماء العرب ليسوا عربا بأصولهم، بل هم أخلاط من أهل سمرقند وقرطبة وإشبيلية الخ . وبديهى أنه لا يتيسر النزاع فى أصل الأعمال التى خرجت بفضل طرائق العرب ، ولعمرى هل من الميسور إنكار أعمال علماء الفرنسيين ، بحجة أن من تمت على أيديهم كانوا من عناصر مختلفة كالنورميين والسلتيين والإكتيين وغيرهم، ممن كوّنوا فرنسا بتمازجهم . وقد يكتئب هذا المؤلف العالم أحيانا من الأسلوب الذى جرى عليه فى إساءته للعرب، وينتهى الصراع بين الانسان القديم والانسان الحديث الى هذه النتيجة التى لم تكن متوقعة منه، فيأسف لكونه لم يخلق مسلما قائلا : وما دخلت مسجدا قط إلا وعرانى خشوع يمازجه أسف على أنى لم أكن مسلما " . اهـ .

نقد التاريخ وتوحيده :

هذا وقد عقد لبون فى آخر كتاب خطته يده فى السنة الماضية، سماه الأسس[1] العلمية فى فلسفة التاريخ فصلا فى النقد التاريخى قال فيه : رأينا فى الفصول السابقة

(١) الأسس العلمية فى فلسفة التاريخ Gustave Le Bon: Bases scientifiques d'une philosophie de l'histoire .

مدى الشكوك التى تعرض للوقائع التاريخية حتى لما كان منها معروفا ، فاقتضى للحكم عليها أن يتجرد فيها عن التأثيرات القومية والدينية والسياسية التى هى مرجع البت فى معظم الأحكام . ولذلك جاءت التآليف التى كتبت فى مختلف البلدان حاملة تقديرات متباينة فى الحوادث الواحدة . وللأوهام الدينية خاصة سلطان على المؤلفين ، على حين يعتقدون أنهم نجوا من تأثيراتها . لا جرم أن كثيرا من المؤرخين قد اندفعوا بسائق هذه الأوهام فأتوا بآراء بعيدة جدا عن محجة الصواب فى بيان فضل الحضارة الاسلامية . ولا يزال التحامل على العالم الإسلامى القديم بحاله من الشدة ، ولذلك وجب أن يعاد النظر فى تاريخ القرون الوسطى بجميع أجزائه التى لها مساس بانتقال المدنية القديمة الى العصور الحديثة . اهـ .

وبعد فلم يبق من رأى يدلى به بعد هذا الكلام البالغ أقصى حدود الإنصاف والتعقل . وحقيقة إن من كتاب الغرب من إذا ذكروا الإسلام الى اليوم ، وصفوه بكل ما ينقص من قدره ، وإذا اضطروا الى الإشارة الى المدنية العربية كأنهم يقولون بلسان الحال إنها كعلم جابر ، اقرأ تفرح ، جرب تحزن ، علمها لا ينفع ، وجهلها لا يضر . يقول ماكس نوردو : "ولكم كبر مقام أناس بما دون المدونون من أخبارهم ، حتى إن كثيرين ليعجبون من أرباب الرحلات السخفاء عجبهم من كبار الفاتحين المصلحين ، وكم من أناس هم عظماء فى نظر أمة ، ولا يذكرون عند أمة أخرى ، وكم من زلازل وحرائق أثرت فى الانقلاب البشرى أكثر من الحروب والغارات ، وما السبب فى ذلك إلا المؤرخون فإنهم غالوا فى هذه وسردوا أخبار تلك على وجه عادى" .

أما الآن فمن المستحسن جد الاستحسان توحيد التاريخ فى العالم ، وتقليل جميع مصادر الأحقاد بين الأمم ، على ما صرح بذلك رئيس مؤتمر التاريخ فى لندن ، وألح بوجوب السير عليه أحد كبار علماء إيطاليا قبل بضع سنين فى رومية . وترى طائفة من العقلاء فى الغرب نبذ كل ما يثير الحقد ، ويدعو الى الظنة ، وينفك

عرى الألفة . ولن يتم قيام هذا المجتمع الحديث إلا بتعاون الشرق مع الغرب تعاونا حقيقيا يقوم على الحرمة المتبادلة والمصلحة المشتركة، والعدل الذى لا يتجزأ . وللبشر اليوم مقصد أسمى من الخلافات والمناقشات التى جاءت القرون إثر القرون، وما زالت بحالها، لم تورث النفوس إلا اشمئزازا . ولم يترك الزمن الحافز مجالا للناس ليشتغلوا بأمور كان لها ما يبررها فى عصور البطالة والجهالة . البشر بعد هذا التقارب فى المواصلات والأفكار أحوج ما كانوا الى التعارف والتعاطف، وإنصاف بعضهم بعضا، ليقوم نظامهم على الوئام والسلام .

منازع الناقدين والناقمين

نقد مؤرّخ أميركى وكلام فى المذابح الدينية :

اختلفت مناحى الطاعنين على الإسلام فى الغرب منذ نحو مائتى سنة، فكان فيهم المخلص فى نقده فى الجملة . بيد أنه لم يرزق من ثقوب الذهن، ونزع ربقة الهوى، ما يؤهله لإصدار أحكام على العرب ومدنيتهم خالصة من العيوب والنزغات . ومنهم الذى لم يصل إلى درجة من التحقيق يستعد بها لوزن الأشياء بميزان القسط، فأرسل كلامه إرسالا، ظانا أنه أصاب شاكلة[1] الصواب، وما هو منه بقريب . ومنهم من أعمى التعصب المذهبي بصره وبصيرته، فكال الباطل كيلا، وخلط وخبط تحت ستار العلم والبحث ، وهو لو حلف لك بكل محرجة[2] من الأيمان، ليثبت لك خلوه من الغرض مازدته إلا تجهما[3] وسخرية. وللقارئ أن يجعل بعض من وقعوا فى هذه المضايق من الغربيين فى المرتبة التى يراهم أهلا لها ، وذلك بجنايتهم على التاريخ الصحيح، والعلم المجرّد، ولتسجيلهم على أنفسهم جهلا وغباوة .

فمن سخافات المؤلفين الذين ألقوا الكلام على عواهنه[4] فى الإسلام قول كوفين[5] من جامعة واشنطون " إن الشريعة الإسلامية التى دان بها وقدّسها، مائتان وثلاثة

---

(١) شاكلة : مؤنث الشاكل، والشكل الناحية والجانب كشاكلة الطريق وشاكلة الخاصرة .

(٢) المحرّج : المضيق، ويقال حلف بالمحرجات أى بالأيمان التى تضيق مجال الحالف .

(٣) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه عبوس كريه .

(٤) رمى الكلام على عواهنه أى لم يبال أصاب أم أخطأ . والعواهن جمع عاهنة وهى أن تأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام . وكان السلف يرسلون الكلمة على عواهنها أى لا يزمونها ولا يخطمونها وقيل هو من قولك عهن له كذا أى عجل وعهن الشيء إذا حضر .

(٥) تاريخ آسيا لكوفين Herbert. H. Gowen : Histoire de l'Asie

وثلاثون مليونا من الناس[١]، قد حفظت فى تضاعيفها شرورا اجتماعيــة تئن منهــا الإنسانية، ومع هذا قدّست الشريعة هذه الشرور باسم الدين" جمــلة ربمــا قالها الكاتب الأميركى وهو لم ير حياته مسلما ، ولا قرأ كتابا معتمدا من كتب العرب، قالها بدافع هو يعرفه أو فاه بها ليأتى بالغريب، وأميركا مهد الغرائب . وكأنه اكتفى بهذا الاقتضاب علما منــه بأن ماقاله من البديهيات لا يعوزها شرح وتفصيل، ولو أنصف لفسر لنا هذه الشرور التى اتهم بها الإســلام وأنّت منها الإنسانية . كأن الإنسانية لم تئن مثلا من معاملة الجنس الأبيض للأسود فى أميركا . قال فوليه[٢] : "تحدث مشاهد فى الولايات المتحدة لا تورث الأميركان فخرا ، وذلك أن الزنوج يحبون النساء البيض محبة شديدة، حتى لقد يرضون شهواتهم بالعنف أحيانا، ويقضى قانون "لنش" أن يطلى من يأتى ذلك بالقطران ، ويحرق كما تحــرق الشموع ، وتضطر الحكومة السود فى الناحيــة التى وقع فيهــا الفعل الى حضــور مشهد إحراق رفاقهم " .

نعم كأن الانسانيــة لم تئن من الحروب الدينية التى أهلكت فيهــا الامبراطورة تيودورا وحدها نحو مائة ألف من المــانويين فى أواسط القرن التاســع، كما أهلك الكاثوليــك من البرتستانت فى مذبحة سانت بارتلمى مئــة ألف[٣] أيضا . وكأن الإنسانيــة كانت راضية عن أعمــال ديوان التحقيق الدينى الذى قتل فى إســبانيا وحدها ، كما قال ريناخ[٤] ، نحــو مائة ألف إنسان على أقل تعــديل ، وكان

(١) قال كليان فى كتابه أديان العالم C. Clemen: Les religions du monde يؤخذ من تقرير معقول أن عدد من يدينون بالاسلام (٢٥٠) مليونا : منهم (١٧٠) مليونا فى آسيا و (٦٧) مليونا فى إفريقية و (١٢) مليونا فى أوربا أى أنهم نحو سدس البشر تقريبا . ويقرب من هذا تقدير ماسينيون فى كتابه تقويم العــالم الاسلامى Massignon : Annuaire de monde Musulman فقــد قدرهم بمائتين وأربعين مليونا . ولا يبعد أن يقارب عدد المسلمين فى العالم نحو ثلثمائة مليون .

(٢) المزاج والخلق لألفريد فوليه Alfred Fouillée : Tempérament et Caractère

(٣) حرية الوجدان لجول سيمون Jules Simon : Liberté de conscience .

(٤) تاريخ الأديان لريناخ Reinach : Histoire des religions .

الإنسانيـة أقترت المذابح العظيمـة التي قامت في الغرب تنفيذا لرغبـة البابوات في قتـل الملحدين، ومنها ما قضى على أقاليم برمتها بالخراب ، كالحرب التي أعلنها[1] البابا إينوسانت الثالث سنة ١٢٠٨ م لخرب جنوبي فرنسا وأقفرت مدن برمتها ، ومنها كركاسون وبزيه، وكالحـرب التي أثارها الكاثوليك على البرتستانت المفرطين في طلب الاصلاح، وكانوا يدعونهم الأنابابتيست فقتل فيها ١٦٠ ألفـا . وأهلك توركادا الدومنيكي الإسباني (١٤٢٠ — ١٤٩٨) ستة آلاف إنسان بالنار، وطلب جزاء عمله منصب كردينال من البابا، وقد حكم على ٨٨٠٠ بالحرق، وعلى ٩٦٥٠٤ بعقوبات أخرى ، وكانت الحكومة تحميـه بخمسـين فارسا ومائتى راجل . وكانت الأرواح لا قيمه لهـا في نظر المدافعين عن المعتقدات، يرون القسوة فضيلة يثاب عليها فاعلها، وكان المؤمن حقـا من لا تنفثئ[2] سـورة غضبه للدين الذى يتخيل أنه الحق وما عداه باطل . ولو لم تأت الثورة الفرنسية الكبرى على هـذه الفجائع التي امتدت لأواؤها[3] قرونا باسم الدين، والدين منها برىء، لظل سلطان الدينيين فى الغرب الى اليوم بحاله، ولتأخرت المدنية عن سيرها الطبيعي أكثر ممـا تأخرت بصنع رجال الكنيسة ومن جاراهم من الأقيال والأمراء والملوك .

ردّ على رنان وجانو فى الاسلام :

ومن الناقدين من وقعوا فى غلط الحس، فحكموا على العرب والإسلام أحكاما لا مبرر لها ، ربما كانوا يعدلون عنهـا لو ساعدهم الزمن فرجعوا اليوم الى تمحيص ما دوّنوا ، كما وقع لرنان يوم زار فى القرن المـاضى جزيرة أرواد[4] ، فشاكسـه بعض أهلها، فهجا أهـل الجزيرة بأسرهم، بل السوريين بأجمعهـم ، بل المسلمين عامة،

---

(١) حياة الحقائق لجوستاف لبون Gustave Le Bon : La vie des vérités .

(٢) أى لا تسكن حدّته .

(٣) اللأواء . الشدّة .

(٤) بعثة فينيقية لرنان Renan : Mission de Phénicie

وقال : إن غلط الفكر هو مظهر خلق السوريين ، و إن الأرواديين قاوموه للبغض المتأصل فى قلب كل مسلم لما يقال له علم ، وقال فى مناسبة أخرى : إن الذى يميز العالم الاسلامى إنما هو اعتقاد المسلمين أن البحث لا طائل تحته ، وأنه قد يؤدّى الى الكفر . وحكم هذا المؤلف على جماع السوريين، بما رأى من انحطاط صيادين معدِمين فى جزيرة صغيرة، وعلى كل مسلم بأنه عدو العلم والبحث فى فطرته، لا يصح على إطلاقه، لأنه بعيد عن المنطق ،ولا يتلاءم بحال مع حكمة صاحبه وعلمه الواسع . ونظن رنان وهو يكتب قبل زهاءِ سبعين سنة، لو زار بعض البلاد العربية اليوم لغير رأيه فى الحكم على المسلمين ، ولرأى كثيرا من عامتهم قد تحرّروا مما سماه تعصبا أعمى، وألفوا ممارسة الحقائق، وأقبلوا على العلم على اختلاف ضروبه وكان بعضهم بالأمس ينكرونه و يعقونه .

ومثل ذلك وقع أيضا لعالم أثرى مشهور اسمه كلرمون جانو حيث قال : " إن المدنية العربيــة ليست سوى كلمــة خدّاعة، لا وجود لها أكثر من فظائع الفتح العربى، وأنها آخر أنوار المدنية اليونانية والرومانية، طفئت بأيد خرقاء ولكنها محترمة وهى الإسلام". كلام غث فى الحقيقة ينم عن جهل بحقائق التاريخ، و إن كان صاحبه الصدر المقدّم فى علم الآثار. والغالب أنه شق عليه أن لا يرى العرب يرمّون ما عوِر من مصانع اليـونان والرومان، فسلبهم حقهم كله من اشـتراكهم فى خدمة المدنية، وجعلهم فى مرتبة الفانداليين فى التخريب، مدفوعا الى هذا القول على ما يظهر بعاطفته لا بعقله ، وفاته أن معظم آثار من أحبهم من اليونان والرومان خربت بعوامل الزمن الأرضية والسماوية، وما كان الإسلام سبب تداعيها على ما زعم بعض النافخين فى بوق التعصب الدينى، وردّدوا ما طالما أجملوه ثم فصلوه، من أن الإسلام كان السبب فى انقراض[1] الإرث الثمين الذى خلفته بابل وأشور وآسيا الصغرى وسورية وفينيقية فيما يختص بفن البناء والنحت وما إليه . ولو كان جانو حيا اليوم لما أحلناه

(١) مجلة المشرق م ٢٩ ص ٥٥٠

إلا على ما كتبه ابن وطنه سيديليو[1] قال : وما زال الفرنج الى الآن ينسبون الى العرب جميع التخريب الذى يرون اليوم آثاره فى الأقطار التى أغاروا عليها . وقد هوّلت الفرنج فى شأنهم، مع أنهم كانوا فى جميع الوقائع ذوى لطف عند الإنتصار . وسبب ذلك ما رسخ فى عقول الفرنج من الخوف والنفرة من العرب، وكانت وجوههم كالحة من حر الشمس وأعينهم مخيفة، هذا مع شدّة عدوِ خيلهم، وغرابة ملابسهم، وتجريدهم سيوفهم، وتكلمهم بلغة لا يعرفها أهل تلك البلاد، لنشر دين بين هؤلاءِ النصارى المملوءة قلوبهم بتعاليم أساقفتهم، وكانوا لا يتفوّهون إلا بالألفاظ الدالة على العداوة والبغضاءِ لهؤلاء العرب المنكرين ألوهية عيسى بن مريم . اهـ .

ومن أين لأثرى أن يتفهم تاريخ العرب ، وتاريخ الإسلام كما قال لبون : " لم يوفق كثير من عظماءِ المؤلفين الى فهمه، وما زالوا ينكرون فيه إبداع المدنية التى ولدها الدين " . ولو كتب لهذا الأثرى أن يحسن التاريخ، لاقترحنا عليه أن يدلنا على الفظائع التى ارتكبها العرب فى فتوحهم ، ومعظم ما يبالغ فى نسبته اليهم مما تبيحه القوانين الحربية . والرومان وهم مثال الدولة المدنية بزعمه، أتوا فى بضع سنين من أنواع الجور واستعباد الخلق ، ما لم يأت مثله العرب فى القرون الأربعة الأولى، على اتساع رقعة ممالكهم .

وقد أجمع مؤرّخو الغرب على أن فتح العرب فى الأندلس كان أرحم بكثير من فتح الغوط " الويزغوت " . على أن تخريبات الحروب الدينية فى الغرب فى سبيل نشر النصرانية لتحل محل الوثنية، ثم ما نشب هناك من الفتن والغوائل قرونا طويلة دفاعا عن حمى الدين، كل ذلك كانت فظائعه أعظم من كل ما ارتكبته العرب من الفجائع المزعومة . وماذا نعمل وهذا الأثرى كأمثاله ، مأخوذ بحب الأحجار ورصفها ، لا يثبت على ما يظن لأمة مزية إلا إذا جمعت منها جبالا وتلالا بأية طرق كانت ، وما دامت الغاية تبرر الواسطة عنده، فلا يهمه إذا هلك عشرات

(١) تاريخ العرب العام لسيديليو Sédillot : Histoire Générale des Arabes

الألوف من الخلق إن كان من وراء ذلك انشاء معبد أو قلعة أو مسلة أو قوس أو طريق أو مسرح أو ساحة أو حمام .

السبب في قلة آثار العرب :

ولقد رأينا الرومان حكموا الشام سبعة قرون وخرجوا منه ، وهم لم ينهوا بناء هيكل الشمس في بعلبك ، على كثرة من ساقوهم من الخلق ليعمروه . ومن سوء حظ العرب في الإسلام مع هؤلاء الناقمين عليه ، أن السخرة محظورة في شريعتهم ، ولذلك كانت مصانعهم مما عمر على الأغلب بأموال الملوك والخلفاء والأمراء وأهل الخير ، فجاءت أعمال أفراد لا أعمال جماعات . ولكل أمة أسباب قاهرة ليس في مكنتها التفلت من قيودها ، ولكل جماعة مصطلح لا تخرج عنه ، لأنه ربيب عاداتها وأليف خلقها وروحها .

يقول ابن خلدون[1] إن الهياكل العظيمة جدا ، لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة ، والدول العربية لم يطل عهد حكمها قرونا ، كما كانت آماد أمم القبط والنبط والروم والعرب الأولى من عاد وثمود والعمالقة والتبابعة . ولذلك لم تقم للمسلمين العرب مصانع عظيمة كأهرام مصر ، وسد مأرب ، وإيوان كسرى ، تخلد ذكرى ملوكهم ، وتنم عن مدى تفننهم في صناعاتهم . ومن أجل هذا استغنى المسلمون بما وجدوا من مباني غيرهم ، وعمروا ما اشتدت حاجتهم اليه بالطرق المشروعة . ومع هذا كتب لهم في زمن قصير أن يشيدوا مصانع بلغت من الإبداع مبلغا تعرفه العين لأول نظرة ، لأنها لم تألف رؤية أمثاله ، كما قال أحد الفلاسفة المعاصرين . وهناك شيء آخر وهو أن بعض مصانع العرب لم تعمر بالحجر الصلد ، بل اتخذ لها في الغالب الآجر والقرمد والخشب والأتربة ، فكان فعل الطبيعة فيها عظيما . ويقول سكريتان[2] : منذ استعاض الغرب عن البناء بالخشب ، وألف البناء بالحجر ،

(١) مقدمة ابن خلدون .

(٢) الشعب والأخلاق لهنري سكريتان Henri Secrétan: La population et les mœurs

ظهـرت مدنه ومصانعـه بمظهـر غير مظهـرها ، وقد أبطأ الشرق في البناء بالحجر خيفة الزلازل .

ومن ينكر على الرومان تفردهم بين الأمم بإقامة المصانع العجيبة التي أعجب بهـا كارمون جانو وكثير قبله وبعده من أمم الافرنج، أحفاد الرومان وورثة مجـدهم . ولكن هذا الإعجاب بما صنعوا لا ينفي أنهم كانوا كاليونان يستبيحون ارتكاب[1] كل منكر مع أعدائهـم الذين جاهروهم العداء، فكانوا لا يتحرجون من قتـل العزل من أسلحتهم ومن بيع الأسرى كالرقيق، ومن نهب المدن وحرق القرى ، ومع أن هذا الظلم لم يرتكب مثله التتر وبرابرة الشمال، فان المتغنى بعدل الرومان واليونان، المأخوذ بالإعجاب بمـا تركوا من مصانع وتماثيـل ، يحاول تمجيدهم في كل شيء بالباطل والحق، حتى ليعتذر عن ظلمهم وتعذيبهم، ويصورهم كأنهم المثل الأعلى في الإنسانية، والبعد عن الصغائر، ولكل أمة لو أنصفنا مساوئ ومحاسن، تساوى في ذلك القديم والحديث والصغير والكبير منها .

التهمة بحريق خزانة الاسكندرية :

طالت محاولة المتعصـبة الصاق تهمة حريق خزانة الإسكندرية بعمر بن الخطاب، وقد ثبت لعلمائهم أنفسهم أنها حرقت قبل الإسـلام بقرون[2] ومع ظهور الحق في هذه المسألة، بعد أن لاكتها الألسن كثيرا، نرى أناسا يتخيلون أن في ترديد هـذه الأكذوبة على الخليفـة الثاني حطا من قدره، فيذكرونها عند كل موقف، ليـدلوا على جهل الخليفـة، وتصلبه في أفكاره ، وتجافيـه عن الأخذ ممن سلف من الأمم .

حرقت خزانة الإسكنـدرية غير مرة بأمر الامبراطورين ثيودوسـيوس ويوستنيانوس، وآخر حريق لها كان قبل الهجرة بمائتي سنة . ذكر جيبون في تاريخ

(١) السياسة لبلونشلي Bluntschli : La Politique
(٢) مجلة المقتبس م ١ و ٢

سقوط دولة الرومان أن هذه الفرية على المسلمين لفقها أبو الفرج بن العبرى في تاريخ مختصر الدول ، وذلك بعد الإسلام بنحو ستمائة سنة، ولم يتعرض قبل أبي الفرج مؤرخ واحد لذكرها، حتى أن أفتيكيوس بطريرك الإسكندرية مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر، لم يذكر كلمة عن حريق عمرو ابن العاص لهذه الخزانة . وقد ذكر ارفنج وكريستون وفلين وغيرهم أن ما أشيع من مساوئ الإسلام والمسلمين بهذا الشأن ، لم يكن له ذكر قبل نقل كتاب مختصر الدول الى اللاتينية، ومن ذلك الحين ابتدأ الغربيون يبغضون المسلمين ويحتقرونهم .

ومن جملة من نقضوا هذه الرواية من علماء الفرنسيس أرنست رنان، وآلبرسيم . وقد قال رنان من خطاب له فى المجمع العلمى الفرنسى إن العلم والدين الإسلامى لا يجتمعان، بيد أنه لا يعتقد أن عمر هو الذى أحرق خزانة الإسكندرية ، لأنها أحرقت قبله بزمن طويل . وكتب إلينا آلبرسيم (١٤ آب سنة ١٩٠٨) "لشدّ ما استحكم الوهم التاريخى زمنا بشأن عمر وخزانة الإسكندرية ، وها هو الآن آخذ بالاضمحلال . أما أنا فقد اغتبطت بما سنح لى من الفرصة، فكنت من العاملين على مكافحة هذا الوهم، وأثبت بالبراهين التى وصلت يدى اليها ما اعتقدت أنه هو الحقيقة" . ونص عبارته فى كتابه الذى سماه الكتاب (Le livre) وشكرناه عليها :

"ولم تحرق خزانة الإسكندرية التى قال بعضهم إنه كان فيها نحو سبعمائة ألف مجلد على يد الإمام عمر ولا بأمره، كما جاء فى بعض المصادر، فإن هذه الدعوى من الأغلاط التاريخية العظيمة، إذ لم يكن أثر لهذه الخزانة عند ما فتحت العرب مدينة الإسكندرية سنة ٦٤٠ وعلى عهد البطالسة أصبح أمر الخزانة الى ضعف فقسمت شطرين جعل كل منهما فى مكان مستقل، فحرق القسم الأول قضاء وقدرا عند ما استولى يوليوس قيصر على الإسكندرية سنة ٤٧ قبل المسيح، وذهب القسم الثانى وكان جعل فى معبد سيرابيس على يد الأسقف تيوفيل بعد ذلك التاريخ بأربعمائة سنة ، عقيب الأمر الصادر عن ثيودسيوس بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها" .

وقال فوت واهلويلر[١] فى كتابهما "جنايات الأوربين" : "إن تيوفيل هو الذى حرق خزانة الإسكندرية لا المسلمون لأن الدين الاسلامى لا يبيح إحراق الكتب". وقال مسبرك فى كتابه "الإدعاآت الكاذبة" : "إن الافرنج هم الذين أحرقوا خزانة الاسكندرية والمسلمون هم الذين أدخلوا العلم الى أوربا" . وقال استيفونس فى كتابه "التفكر والأديان" : "أحرقت أيدى الجاهلين خزانة الاسكندرية ، وهى مكتبة مهمة و بفقدانها اضمحل العلم ، و بقيت أوربا تخبط فى ظلمات الجهالة الى أن أنارها المسلمون بعلومهم" .

وقال غريفيني من علماء المشرقيات فى إيطاليا : بعد أن فتح عمرو بن العاص الإسكندرية مرت ستة قرون كاملة ، لم يسمع خلالها قول لمؤرخ مسلم أو غير مسلم ، يتعرض لاتهام عمرو بن العاص بإحراق خزانة الإسكندرية ، وينقض هذه التهمة ما اشتهر به عمرو بن العاص من سياسة التساهل التى جرى عليها ، وشهد له بها أشهر المؤرخين النصارى الذين كانوا فى عهده ، كيوحنا النيقيوسى فى كتابه "تاريخ مصر" الذى وضعه باللغة الحبشية القديمة[٢] .

وقال بونه مورى[٣] : يجب أن نصحح خطأ شاع طول القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا خزانة الإسكندرية بأمر الخليفة عمر ، والحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا أشد إعجابا بعلوم اليونان وفنونهم من أن يقدموا على عمل كهذا ، كما أنه معلوم أن قسما من تلك الخزانة كان احترق فى أثناء ثورة الإسكندريين التى باد فيها أسطول قيصر ، وأن قسما آخر أحرقه النصارى فى القرن السادس ، واختط العرب الفسطاط وتركوا للقبط ممفيس ولم يتعرضوا لهم فى دينهم وعاداتهم ، وأطلقوا لهم الحرية فى انتخاب البطريرك وبناء الكنائس ، وغاية ما أبطل عمرو من

(١) مبحث لسليم تنير فى مجلة النبراس . (٢) مجلة المجمع العلمى العربى م ٤

(٣) الاسلام والنصرانية فى إفريقية لبونه مورى Cf. Bonet Maury : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique (عن حاضر العالم الاسلامى) .

العادات القديمة هو ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين من رمى فتاة فى النيل كل سنة التماسا لفيضانه .

وعلى كثرة مارد المنصفون تهمة حريق خزانة الإسكندرية عن عمر بن الخطاب ، لا يزال فريق الإثبات مصرا على رأيه ، لأن هذا العمل مما يحط ضمنا من رجال الإسلام ، وهذه فرصة قلما تسنح للتعصبين حتى يثبتوا أن الرجل الذى يفاخر المسلمون به هو همجى ، ولذلك كان ينقلها الخلف عن السلف بكل أمانة كأنها حقائق ، وكأنهم يشيرون الى أن هذه الخزانة لو سلمت لغيرت وجه الكون . أما اذا وقع شىء من هذا من جماعتهم كحريق الكردينال كسيمنس كتب المسلمين فى ساحات غرناطة ، وكانت ثمانين ألف مجلد على رواية مؤرخيهم ، فإنهم يحاولون أن يبرءوه من هذه الوصمة ، ويقللوا من شأن خزائن الكتب التى أحرقتها إسبانيا وكانت عشرات ، يوم قضت على العرب فى بلادها فى القرن السادس عشر ، وصرفت نصف قرن فى القضاء على كل أثر لهم ، ولولا تلك المترجمات الى العبرية واللاتينية لقضىَ على الحضارة العربية التى امتد رواقها على إسبانيا مدّة ثمانية قرون[1] وعفت آثارها . ولا نذكر أننا قرأنا لبعض نقاد الغربيين نبذة فى تقبيح ما فعله الصليبيون يوم غارتهم على طرابلس ، أوائل المائة السادسة للهجرة ، ويوم أمر صنجيل بإحراق كتب دار العلم فيها . وكانت تقدّر بأكثر من مائة ألف مجلد ، ويوم أخذ الصليبيون بعض ما طالت أيديهم اليه من دفاترها ومن كتب الخاصة فى بيوتهم .

وقع الحق من نفوس بعض المستشرقين :

وقع لنا أن قلنا مرة فى مجلة المجمع العلمى العربى[2] أثناء كلامنا على ما نشره أحد المشتغلين بالمشرقيات من الإسبان من رسالة سماها : ”حديث ذى القرنين“

(١) إسبانيا والعمران العربى لكاباتون تعريب المؤلف مجلة المقتبس م ٤

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى م ٩

ونقلها الى اللغة الإسبانية : "إن هذه الرسالة كبعض الكتب التى تقل الفائدة من نشرها ، لأنها لا تؤيد أصلا من الأصول العلمية أو الدينية، وإذا كان المقصد أن فى الإسلام مثل هذه الحكايات، ويريد أرباب الغايات أن يحملوه إياها ليحملوا عليه ، فان أهل الفريق الآخر يجيبونهم بأن فى خزائنكم من أمثال هذه الأسفار مئات" ونصحنا للناشر يومئذ أن يعنى باحياء كتب ورسائل أخرى للعرب، يأخذها من خزانتى الاسكوريال ومجريط فى بلاده، وبذلك يخدم اللغة والعلم، ويقلل من الخرافات التى تغلغلت فى أحشاء أمته أكثر من كل أمة أوربية" . ولما صدر هذا الكلام قام غراتشقوفسكى المستشرق من لينينغراد يأسف فى مجلة ليترى الدولية(١) لهذا النقد، ويقول إن من المدهش أن يصوّب مثل هذا الكلام على ممثل بلاد أنشأت أمثال ريبرا وآسين، وإن قليلا من العلماء المحدثين قد عاونوا مثلهما على فهم مدنية الاسلام، وما فيه من قيمة جوهرية، وان هذا التقريظ كتب بلسان مهين لأمة بأسرها ، الى آخر ما قال مما لا تأويل له إلا العصبية المذهبية التى تأثر عرقها الحساس، عند ما رأى شرقيا يرد غربيا الى الصواب . وتعالى العلم عن أن يكون آلة مصانعة وعصبية، وعبد شهوات وأهواء .

ونحن اذا لم نوافق بعض المشتغلين بالعلوم الشرقية على منازعهم الخاصة، فليس معنى ذلك أننا نهينهم . فلأصحابنا جولدصهير المجرى ، ومرجليوث الانكليزى ، ولامنس البلجيكى أقوال بعيدة عن محجة الصواب فى الاسلام، وما حال ذلك دون تقديرهم قدرهم يوم يحسنون . واذا كان فى الإسبان أمثال ريبرا وآسين اللذين يأتى الناقد الروسى بهما حجة على ارتقاء اسبانيا، فان انحطاطها قال به قبلنا عشرات من الباحثين المنصفين ، ومنهم بعض مؤرخى الإسبان وعلماء الاجتماع منهم . وظهور شخصين أو أكثر فى أمة لا يقوم دليلا على أنها وصلت ذروة الارتقاء ، وسلمت نفوس خاصتها وعامتها من الخرافات والسخافات . حاشا طبقة راقية تأخذ

(١) مجلة ليترى Litteris م ٦ (سنة ١٩٢٩) .

بمذاهب العلم والأدب وتفاخر الى اليوم بمجد العرب وتاريخهم، وتحرص على إحياء مدنيتهم ودراستها حرصها على كل علم نافع .

وليت ذاك الرصيف الروسى الذى أخذته العزة بالإثم، واستهجن رأينا، يتلو على الأقل ما كتبه فى انحطاط الإسبان ألفريد فوليه فى كتابه "روح شعوب أوربا"[1] إذًا لرآه شعبا متأخرا فى مضمار العلم والتربية، لا يهتم إلا بالظواهر، والعجب المفرط من صفاته، والبطالة هجيراه، والاكتفاء بالقليل شأنه، ولساهمنا رأينا بأن مجموع الشعب المصرى أرقى من مجموع الشعب الإسبانى . وإن كان هذا أوربيا نصرانيا، وذاك إفريقيا مسلما، ولشاهد أن الإسبان يضرب المثل بتعصبهم الذى كان منه فساد أمرهم[2]، وقد ابتلوا كما قال ماريفو[3] بكثلكة ممزوجة بالتخريف والتصوف، تأصلت فى أرضهم فأضعفت فى منتحليها مادة العقل والتفكير . وقال كارلى الايطالى، بعد أن ذكر كيف انحط الإسبانيون بسرعة بعد فتوح أميركا : إنهم أخذوا يحتقرون الأعمال اليدوية، فزاد الشقاء، وكثر التشرد والجرائم، وهذه علامة انحطاط قيم الأمم، وهذا هو الخراب بجملته وتفصيله .

نعم لو قرأ الناقد شيئا مما كتب فى الاسبان لأيقن أن ليس التنافر على أتمه بين ابن الشمال وابن الجنوب فقط، بل بين أهل المدن المتجاورة، وعلى كثرة تحمس الفرد للوطنية، لاتتعدى حماسته أسوار بلده، خلافا للفرنسيس والانجليز والألمان والطليان وغيرهم من الأمم الكبرى، وتاريخ هذه الأمة سلسلة من التعصب الدينى الذميم، استعملوا النار والحديد فى الدعاية للدين، واستكثروا من الرهبنات، حتى كان الرهبان إلى أمس الحاكمين المتحكمين فى البلاد، يملكون ثلث أرضها،

---

(١) اسمه بالفرنسية
Alfred Fouillée : Essai d'une psychologie des peuples européens

(٢) اسبانيا فى القرن العشرين لماريفو Marivaud : L'Espagne au XXe siècle

(٣) غرائب الغرب للؤلف أو كتابه غابر الأندلس وحاضرها .

ويأخذون شطرا عظيما من موازنتها ، وجاء زمن كانوا يحظرون فيه الاستحمام على الناس ، لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم ، فكثرت الأمراض الجلدية ، وتعذر على الأطباء أن يصفوا لمرضاهم النظافة والاغتسال ، مخافة أن يفشو أمرهم فيما يقترحون ، و يقعوا بدعوى مروقهم من الدين تحت طائلة العذاب ، و إلى اليوم ينقص القوم كثير من المبادئ الأولية الشائعة بين الأمم الراقية . فتراهم يدخنون فى كل مكان خاص وعام ، و يبصقون فى القطار والمقهى والنزل والفندق والبيع ، على صورة تشمئز منها النفس ، فالقذارة عندهم فاشية ، والجهل والتشرد من الأمور المتعارفة ، والتواكل والتوكل لا تشبههم فيهما أمة راقية .

واذا كانت كل هذه الإشارات لا تكفى لبيان حال الإسبان ، فاسمعوا ما يقوله لبون : " ساعد الإسبانيين الاختلاف الطارئ بين العرب ، فوفقوا بعد غارات طويلة الى تأسيس عدة من الممالك الصغرى ، كانت تتسع رقعتها كل يوم ، ولما كتب للملكة الإسبانية بعد حروب ثمانية قرون ، أن تستولى على عاصمة آخر مملكة عربية أى غرناطة ، ووحدت ممالك الجزيرة تحت لواء واحد ، ظهرت إسبانيا فى الحال فى مظهر أول دولة حربية فى أوربا . وكان شارلكان وفيليب الثانى بعد فرديناند على جانب من المهارة السياسية ، وكان القرن الذى انقضى من الاستيلاء على غرناطة الى وفاة فيليب الثانى ، عهد عظمة لإسبانيا لن ترى مثله ، والعرب خلال هذه المدة بين صعود ونزول ، تركوا وشأنهم فى تلك الأصقاع ، وكان من تفوقهم العلمى أن أصبحت لهم مكانة سامية ، فكان العلماء وأرباب الصنائع والتجار فى البلاد من العرب ، وكانت كل حرفة ماعدا حرفة الراهب والمحارب مما يحتقره الإسبان . وبعد أن فقدت إسبانيا عظماء رجال الحرب الذين توالى قيامهم على رأسها مدة قرن ، ساغ أن يقال إنها حرمت القوة الحربية بهؤلاء ، والقوة المدنية بطرد العرب ، فباد فيها كل شيء ، وسرعان ماسرى إليها الإنحطاط بعد طرد العرب وتقتيلهم ، وليس فى التاريخ مثل إسبانيا شعب انحط الى مثل هذه الهوة السحيقة ،

فى مثل هـذه المدة القصيرة ... هوت فى سنين قليلة الى أحط درجات السقوط ، وفقد من بنيها الحزم والنشاط ، حتى آلت بها الشقوة الى أنها لم تنتفض من عوارضها إلا باستيلاء الأجنبي عليها ، وتخلت عن سلطانها السياسى والإدارى والصناعى والتجارى ، فكان الفرنسيس والطليان والألمان وغيرهم ، هم الذين يتولون كبر هذا الأمر فيها . جلبت إسبانيا العلماء وأرباب الصنائع من الخارج ، ولكن كيف السبيل الى إحياء الموتى . فقد ذهبت العرب ، وقضى ديوان التحقيق على كل من كان من الذكاء فى درجة فوق المتوسطة ، فكان فيها سكان ، ولكنها فقدت الرجال . وكانت جميع كتب الإسبان كتب عبادة وتبتل وزهد ، ولم يبق فيها كيماوى يعرف البسائط من هـذا العلم . وما كشف أوائل القرن الثامن عشر فى الغرب كان الإسبانيون بمعزل عنـه لا علم لهم به ، بل لا علم لأطبائهم بمسألة دوران الدم حتى بعد قرن ونصف من كشفه . وقد اقترح بعضهم مرة رفع القمامات من أزقة مجريط سنة ١٧٦٠ لمـا كان ينبعث منها من الأمراض ، فقام ديوان الصحة يمانع فى رفعها ، قائلا إن أجدادهم كانوا على جانب من العقـل يعلمون ما يبرمون ، وما حاولوا جمع القاذورات قط ، وعاشوا وسطها ، فعلى أبنائهم أن يسيروا على مثالهم ، لأن إزالة الأوساخ قد تحدث منها أمور لا يعرف ما يكون منها .

قال لقـد بذل كثير من المساعى المحمودة ، ولمـا تهب هذه البلاد من سباتها ، والى اليوم لا تزال الصنائع والزراعة مفقودة فيها ، وأهلها فى كل ما يتجاوز القـدرة المتوسـطة ، عيـال على الغريب ، فالغرباء يديرون معاملها ، وينشئون خطوطها الحديدية ، ويأتونها بالميكانيكيين يسيرون قطاراتها ، وكل ما فيها من العلم والصنائع هى فيه حكرة للأجنبي . ومهما بلغت حكومة من قوة فيها ، فهى عاجزة أمام هذه الحال . وما من بلد يحكم بغير رأى أهله ، ومهما بلغ من انحطاط الحكومة فى إسبانيا فالشعب فيها أحط . إسبانيا أحرزت ظواهر خارجية من المدنية ، وليس فيها غير الظواهر ، والجهل ضارب سرادقه فيهـا ، على نحو ما كان فى القرون الوسطى ،

وإذا عاد ديوان التحقيق الديني إلى عمله ، يجد اليوم الاستعداد له في كل طبقات الأمة . اهـ .

وقال لبون[1] أيضا : " تقدّر أخلاق كل شعب بما رزق من أخلاق خاصة ، فاذا كان ستون ألف انجليزى يخضعون لسلطانهم ثلثمائة مليون هندى يساوونهم في الذكاء ، فذلك بفضل صفات خاصة في الفاتحين . وإذا كان الإسبان لم يستطيعوا أن يأتوا غير الفوضى في الولايات اللاتينية في أميركا ، فذلك لنقص في أخلاقهم . قال : وإذا كانت جزيرة كوبا تحت حكم الإسبان لم تر مدّة ثلاثة قرون غير الظلم والفوضى وإهراق الدماء حتى أقفرت ، وانقلبت في بضع سنين تحت حكم الأميركان جنة أرضية ، فذلك لتفوّق العنصر الأميركى ، وصلاحه للبقاء وإعمار الأرض ، أكثر من الإسبان " . ثم إن تاريخ كل أرض حلها الإسبان وطردوا منها " وما أوسعها في أوربا وأميركا وغيرهما " حلقة من المظالم والمغارم لا يتصوّرها العقل .

هكذا يقول من يكتبون للحقيقة والتاريخ ، أمثال الفيلسوفين المحدثين فوليه ولبون . أما ذاك الروسى المتحمس للاسبان فلا يرضيه إلا أن نصانعهم ونعترف برقيهم ، لأنهم خرج منهم فلان الباحث ، ولكن فوليه يقول إن اسبانيا لم تخرج الى اليوم فيلسوفا يذكر ، بل أخرجت رجالا نصفهم فلاسفة ونصفهم لاهوتيون ، وقال غيره إنها لم تنشئ مؤرّخا واحدا . وذلك أنك بينا ترى مؤرخهم يسرد تاريخه ، إذا هو شاعر يخطب ، وأديب يبالغ ، ومع عادة صراع الثيران المألوف عندهم ، على ما كانت عادة إحراق المتهم بدينه بالنار ، لا ترق حاسة ولا يرتقى شعور ، ولا يتأتى من عادة صراع الثيران إلا التوحش الممقوت ، وما كان التلذذ باهراق الدم ضروريا في تخريج الأبطال . حكم بوكل المؤرّخ الانجليزى على الإسبانيين حكما شديدا . قال :

(١) روح الأزمان الحديثة لجوستاف لبون
Gustave Le Bon : Psychologie des temps modernes .

" لم تبرح إسبانيا فى سباتها ، تنام هادئة لاهمّ لها ، ولا ألم يساورها ، غير متأثرة بالعوامل الخارجية ، ولا بما يحدث فى العالم من مظاهر الرقى ، فهى تنزل هناك فى طرف القارة الأوربية كتلة عظيمة لا حركة فيها ، حتى صح أن تصور بأنها آخر ممثل لشعور القرون الوسطى وأفكارها . ومن مؤسف المظاهر فيها ، أنها راضية عن حالتها ، فهى أحط أمة فى أوربا ، وتعتقد نفسها أرقى أمة ، تفاخر بكل ما كان عليها أن تخجل منه ، كثيرة الاعتداد بعتيق آرائها ، واستقامة دينها ، وصحة يقينها ، معجبة بأمور شتى بسذاجتها التى تشبه سذاجة الأطفال ، وبكراهتها وتحسينها معتقداتها وعاداتها ، تعتز ببغضها للملاحدة ، وبانتباهها الدائم الذى به قضت على كل المساعى التى بذلها من أرادوا النزول فيها " .

ومع كل هذا وذاك ، يريدنا الأديب الروسى أن نسكت عمن يسىء ، لأن هناك من يحسن ، فسبحان من قسم العقول .

اليسوعيون والدعوة الى تآلف الإسلام والنصرانية :

وبعد فان من أعظم العابثين بتاريخ المسلمين ، المنكرين أثر العرب فى الحضارة ، جماعة يدعون الى النصرانية ، وقد جعلوا همهم الأكبر فى دعوتهم تشويه بعض الحقائق الثابتة ، فنازعونا حتى فى البديهيات ، وأملوا ولا يزالون يملون علينا ضروبا من إفكهم . تفننوا فى تنويع أساليب دعوتهم ، وأصحاب هذه المفاخر من أهل البلاد ، قلما حدثتهم أنفسهم فى كف عاديتهم . نسى دعاة التفريق أنهم دخلاء فى بلاد لم يبرح سلطان الإسلام فيها متفوقا ، وجهلوا أنها أحسنت وفادتهم ، أو لم تضق بهم ذرعا كما ضاقت بهم مواطنهم الأصلية ، فطردوا منها مرات ، فكان جزاؤها منهم أن قابلوها بمصادرة عواطفها ، وأغلظوا القول فى دينها ونبيها ومدنيتها ، على حين تجهم لهم حتى أبناء نحلتهم ، وكانوا أحق من غيرهم بالتسامح معهم . ومنهم بل من المقدمين فيهم مؤلف اسمه لامنس ، عاهد تاريخ الإسلام على مناقضته ،

وتمخض للحط من قدر العرب منذ عرفوا بين الأمم . وإليكم أمثلة مما يجنيه على الحقائق ، تعرفون منها افتئاته على العلم ، بحيث تخجل من عبثه حتى أرباب الوجوه الصفيقة[1] .

*

من الكتب المهمة التي تنشر تباعا في مدينة ليدن الهولاندية بلغات العلم الثلاث الفرنسية والألمانية والإنجليزية ، كتاب "معلمة الإسلام (Encyclopédie de l'Islam)" وتعدّ هذه المعلمة ، بما ضمنت لها من مؤازرة أعاظم الباحثين من علماء المشرقيات ، من أجمع ما كتب على الإسلام وأصول أهله وبلدانه وتقويمها . عمل جليل ، لم يخل ويا للأسف وجهه الجميل ، من تشويه قليل أتاه ذاك الذي ينظر الى الإسلام أبدا بعيون البغيض ، وأعني به لامنس ، فأساء الى الحقيقة في مقالاته ، ظانا أن هذه المعلمة أيضا بوق دعاية مذهبية ، وأن على الداعية أن يحتال لبث دعوته ، ولو خان الواجب عليه في عمل آخر وسدّ اليه .

ولقد نسي لامنس هذا وبعض جماعته أمورا ، كان من الحرى بكل من يشتغل بالعلم أن يجعلها قيد نظره . نسوا أو تناسوا المتحتم عليهم من أمانة العلم ، فأخذوا منذ ألقوا رحالهم في الشرق ، يحرّفون آيات القرآن ، ويحذفون من كتب المسلمين ما لا يروقهم ، يخلطون[2] الآيات بأبيات من الشعر ، ويجعلون الأحاديث النبوية من كلام بعضهم ، حتى إنهم لا يذكرون الرسول عليه السلام بما ينوه من شأنه بزعمهم ، وما تحرجوا قط من اقتطاع جملة واحدة من نص طويل ، ليبنوا عليها ما يتخيلونه نافعا لغرضهم . يوردون الخرافات المنقولة بصيغ التضعيف ، حتى في كتب الوضاعين والقصاصين ، ويدّعون مع هذا أنها منقولة من كتب الثقات الأثبات . وقد انتبه بعض النابهين من علماء المشرقيات ، وأشاروا على أولئك

---

(١) الصفيق : الوقح . يقال وجه صفيق أي لا حياء له .

(٢) بحث للؤلف في مجلة المجمع العلمي العربي م ٢

الناشرين أن لا يحرفوا نصوص المؤلفين من العرب ، لرغبة الناس فى أن يقفوا على ما قاله المؤلف بنصــه فى الدهر الغابر ، لا أن يقرأوا مختصرات وافقت رأى ناشر كتابه ، فجاء بها مهزعة منقوصة فى العهد الحاضر .

ألف لامنس[1] تاريخا مختصرا لسورية لم يذكر فيه للاســلام ولا للعرب محمدة مدّة ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، ومما أورد فيه من الأفكار المضحكة ، أن العربى أثبت فى فتوحه أنه جبان ضعيف فى الجندية ، لا يفكر فى غير المغانم ، وأن العرب ظهروا كما كانوا على عهد الرسول وسطا فى القتال ، وعلى استعداد للنهب ، يحجمون أمام الخطر ، وأنهم تركوا لسكان البلاد الأصليين محاكمهم ولسانهم وأنظمتهم البلدية عجزا منهم لا تسامحا ، وأن العرب لا قابلية لهم لشيء من أسباب الحضارة ، بل الفضل كل الفضل لأولئك المتفسخين فى فارس والعراق والشام ومصر وغيرها من الأقطار التى افتتحت ، وأن الحروب الصليبية وقائع البسالة ، وأن الصليبيين كانوا عجبا بأنظمتهم وترتيباتهــم ، وتعامى عمـا ذكره مؤرخو الصليبيين أنفسهــم من فجورهم وخبثهم ولصوصيتهم ، وادّعى أن محاسنة صلاح الدين للصليبيين كانت عجزا وخوفا ، أى أن إبقاءه على الصليبيين يوم فتح القدس ، كان لضعف فيه ، فلم يعاملهم كما عامل الصليبيون المسلمين ، يوم كانوا هم الفاتحين للقدس ، بأبشع ضروب القسوة والعذاب ، وقبح عهد صلاح الدين ، وقال إنه كان قليل البهاء ، ووصفه بأنه طماع ، على حين قد ثبت أن هــذا الطماع ، بعــد أن فتح ما فتح من الممـالك الغنية لم يخلف دارا ولا ملكا ولا مالا ، وكثير من المدارس والرُّبُط والجوامع وأساليب العمران فى بلاد الشام ومصر ، وبعضها باق الى الآن ، هو مما عمره من سهمه من الغنيمة ، ولم يرض أن ينسب اليه ، فعزى الى قواده ومماليكه ، وكان رجاله يخفون عنه ما فى خزائنه من النقد ، لئــلا ينفقه فى وجوه المبرات والإحسان ، والبلاد محتاجة الى المـال تنفقه فى مصالح الدولة .

---

(١) بحث للمؤلف فى مجلة المجمع العلمى العربى م ٢

وادعى أن اليهود عوملوا فى عهد الحروب الصليبية فى الغـرب معاملة حسنة، وأنهم كانوا ممتعين بحقوق الوطنيين عند الصليبيين، مع أن سيوف هؤلاء حصدت أولئك المساكين، وحلت بهم عجائب من ضروب العذاب لأخذ أموالهم مما فصله مؤرخو الغـرب أمثال كونده ، ورينـاخ ، وسيديليو، ودى كاسـترى؛ ولافيس ورامبو، فقالوا إن النصارى أيام الحروب الصليبية مادخلوا بلدا إلا وأعملوا السيف فى يهوده ومسلميه، وذلك يدل على أن اليهود إنما وجدوا مجيرا وملجأ فى الإسلام ، فإن كان لهم باقيـة حتى الآن فى الغرب فالفضـل فيه يرجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم .

وهكذا يوغل هذا المؤلف المضلل فى الحط من قدر العرب والإسلام ، يحاول بكل مالديه من قوة أن يسلبهم مجدهم الأقعس[(١)]، يقول إن العربى وسط فى الجندية، ولكن هذا الوسط فتح من الممالك ماعجز عنه أشجع الأمم وأكبرها استعدادا، وقال إن العرب لا قابلية فيهم لشىء من مشخصات المدنية ، والتاريخ شاهد على أنهم علموا العالم القديم، ونقلوا اليه مالم يعرفه، وأتوا من الأعمال النافعة ما لا يزال العدوّ قبـل الصديق يعترف به، ولكن هـذا المؤلف لا يعترف لهم بمنقبة و بحق ما وصفه العالم " دينه " بأنه فى علم المشرقيات كبطرس الناسـك فى الحروب الصليبية، جهز بهمة لا تعرف الملل، صليبية دعية فى العلم، طمعا بصرع الإسـلام صرعة لا قيام منها . وقال درمنغم فى كتابه" حياة محمد" : "إن كتب الأب لامنس الجيدة قد شوّهت محاسنها بمـا بدا فى تضاعيفها من كراهة الاسـلام ورسوله ، فاستعمل فى التاريخ طرقا بالغ فيها بالنقد ، و بعض المؤلفين يعمد الى مثلها للغض من النصرانية الخ " ونحن قد طالعنا أكثر ما كتب هـذا المتعصب بالعربية والفرنسية فمـا رأيناه غلط مرة واحدة فأنصف العرب ومدنيتهم، أو دوّن لهم أقل حسـنة، ولو كان يكتب

(١) الشـرف عنـد العـرب قبـل الاسـلام لبشر فارس .

Bichr Farès : L'honneur chez les Arabes avant l'Islam.

فى وحوش السـودان، لاستحى منهـم يوما، وذكر لهم ولو بعض ما يستحسن من عاداتهم ومصطلحاتهم .

ومثل لامنس كان صنوه وزميله لويس شيخو، ضرب على نغمة واحدة طول حياته، ولم يأل جهـدا فى جميع تآليفه فى إثبات دعواه أن العرب قبل الاسـلام وبعـده لا شأن لهم فى المدنيـة، واذا كان هناك من حضارة فبنو بجـدتها نصارى العرب، وقد لفق كتابا طويلا[١] ادعى فيه أن معظم شعراء العرب قبل الاسلام كانوا نصارى، وبراهينـه على دعواه أوهى مـن بيت العنكبوت . وهناك طائفة من المتظاهرين بعداء الاسلام وحضارته، يضربون فى النصرانية والاسلام ومقصدهم الحقيق الحط من الاسلام فقط، مثل : مارتن هارتمان الألمـانى فقد كتب الينا منذ سنين يقول : ان الإسلام والنصرانية[٢] حاولا أن ينشئا مجتمعا يقوم بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله إلا أنهما لم ينجحا، وتوسع فى هذا السخف فقال ان دعوى تفوق[٣] الاسـلام على الشعوب الصينية خيال لا يتأتى منه إلا خراب المسلمين وشـقاؤهم، واذا ساعدت الأحوال على صورة غير منتظرة وتحققت أمانى المسلمين هناك ولو مؤقتا فسيلحق من ذلك بلاد الصين ضرر عظيم، لأن الاسـلام ليس دين مدنية، والاسلام قبـل كل شيء عدو المدنية الافرنجية، وصلاح الصينيين بالمدنية الغربية . وهارتمـان كلامنس "وقف عمره[٤] على مجادلة الاسلام وأسلس فى هذه السبيل العنان لهواه وإحنة صدره" .

هـذه أمثلة طفيفة من منازع الناقمين على العرب والاسـلام، أثرناها لأنهـا أثارت على النفوس الساذجة براكين التعصب الدينى، فضربت الحقائق فى محياها فأدمتـه، وعملت على تفريق أجزاء النفوس بين شعوب عاشـوا وتعاشروا وتعاملوا

(١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو . (٢) مجلة المقتبس م ٣

(٣) معلمة الاسلام مادة الصين .

(٤) تعليقات شكيب أرسلان على كتاب "حاضر العالم الاسلامى" .

قرونا، والحب جامعتهم، والإخاء مؤلف بين قلوبهم، وسماحة دين الغالب تمتع المغلوب بحريته، ومن المؤلم للنفس أن تحمل الحضارة الجديدة روح العصبية المذهبية، وأن يجزل حظنا من تجهمنا لغيرنا، وتجهم غيرنا لنا، كلما بعدنا عن الأمية، واستزدنا من نعمة العلم، والتحلي بحلى المدنية. وأن يأتى على العرب حين من الدهر، وهم وحدهم الأمة الرشيدة المتفردة بين أمم العالم، ولا تعبث بمقدسات مخالفيها، بل تبقى عليها وتحترمها، وتعامل أهلها بالحسنى وزيادة. وفى وصايا الخلفاء الراشدين، فمن بعدهم من بنى أمية وبنى العباس بأهل الذمة مايقطع ألسن المفتاتين، ويفقأ حصرما فى عيون المغتابين والعيابين، ولو كان المسلمون كما تحاول متعصبة الغرب أن تصورهم، لما بقى فى الشرق القريب دين يخالف دين الإسلام، ولا معبد ينادى فيه بغير كلمة الشهادة، وغاية رجاء العقلاء اليوم كما قال محمد عبده أن تصبح الملتان العظيمتان النصرانية والإسلام، وقد تعرفت كل منهما الى الأخرى، وتصالحتا مصالحة الوداد، وتعانقتا معانقة الألفة، فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التى طالما انزعجت لها أرواح الملتين.

الشعوبية فى الشرق والغرب

تعريف الشعوبية ومراميهم :

الشعوبية قوم متعصبون على العرب مفضلون[1] عليهم العجم، نشأت دعوتهم بُعَيْد عصر الخلفاء بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط فى خدمة الدولة الإسلامية، فنشأت العداوات بين العرب أصحاب الدولة، وبين العجم الذين انتحلوا الإسلام، وكما حدثت هذه المفاضلة بين العرب والعجم، حدث أمر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية . وصيغت هذه العداوة بعد ذلك فى صيغة أخرى وهى قيس ويمن، هذا مع أن هدى الكتاب العزيز : ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ . وقد قال الرسول فى حجة الوداع : « أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء، ليس لعربى على عجمى فخر إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ويقال على الجملة إن الإسلام الذى جاء لإسقاط الجنسية، حاول بعضهم للحرية التى استمتعوا بها على عهد عز العرب أن يعيدوا نغمتها، وألف الشعوبيون رسائل وكتبا، وصنفوا المسامرات والخطب، وراجت أسواق المادح والمقابح، ورد العرب على العجم برفق لئلا ينفروهم، وكانوا يرمون الى تأليف القلوب لا الى تمزيقها، شأن الأمم العاقلة التى ترمى أبدا الى تكثير سوادها، وجمع القلوب على حبها، تتحامى العبث بمقدّسات الناس، وتحفظ لهم حرمتهم وكرامتهم .

---

(١) بحث للمؤلف فى الشعوبية نشر فى كتابه القديم والحديث .

ونحن هنا نطلق لفظ الشعوبية على كل من ناهضوا العرب فى القديم والحديث، وفى الشرق والغرب وقاموا ينقصون من قدر حضارتهم وتاريخهم، لأغراض فى نفوسهم لا تخفى على أرباب البصائر. ولهؤلاء الشعوبيين طرق غريبة فى الحط من العرب، يتناولون فيها كل مسألة تؤدى مباشرة أو غير مباشرة الى العبث بمزايا لهم، تناصرت[1] الأخبار على تفردهم بها، ولو أنصف الشعوبيون لما ارتكبوا كبيرة إنكار الثابت، وإثبات المنكر. وأنت كلما حججتهم بأقوال الأعلام من علمائهم أصروا معاندين، بل اشتدوا فى الغلو حتى وصموا المعتدلين من جماعتهم بقلة البضاعة فى هذه الموضوعات التى أصبحت لعهدنا على طرف الثمام[2] لكثرة النقل والقشر، وأنت اذا ما أحلتهم على قوانين العقل الطبيعية، فرّوا كأنهم حمر مستنفرة، فرّت من قسورة[3].

ومن أغرب ما قرأنا ونحن نكتب هذا، دعوى أحد هؤلاء الشعوبيين أن رينان لما لم يكن متمكنا من العربية، وأن تين ولامارتين ولبون لما لم يعرفوا كلمة منها كان بحثهم فى العرب غير صحيح. ذلك أنه شق على هذا الشعوبى المتعصب أن يذكر هؤلاء العلماء العرب بشىء من الانصاف، فما وسعه إلا أن ينسب اليهم الجهل بلغة العرب، وما عهدنا أن الحكم على مدنية من المدنيات يشترط فيه أن يكون المرء ماهرا بلغة تلك المدنية، ولو صح هذا النظر لاستلزم أن ندرس اللغة اليونانية لنحكم على مدنية اليونان، ونتلقف اللاتينية لنحكم على الرومان، والهيروغليفية لندرس مدنية الفراعنة. وهكذا لو طمحت أنفسنا الى أن ندرس الهند والصين واليابان، وأجناس البشر من الأصفر والأحمر والأسود والأبيض، لاقتضى لنا أن نتقن لغاتهم، حتى يسوغ لنا بزعم ذاك الشعوبى أن نحكم عليهم. وفاته أن لغات أوربا ولا سيما الأمهات التى يتكلم بها عشرات الملايين من الخلائق، قد نقلت

---

(١) تناصرت الأخبار: صدق بعضها بعضا.

(٢) الثمام: واحدته ثمامة نبت ضعيف لا يطول يقال هو لك على طرف الثمام اذا كان هين المتناول.

(٣) القسور والقسورة: اسمان للأسد.

اليها معظم النصوص العربيــة ، بحيث لا يكاد يفوت البــاحث شيء يلزمه للبحث في حضارة العرب والإسلام .

ومتى كانت الاحاطة بلغــة أمة شرطا أعظم في صحة الحكم على مدنيتها وهــل في مقــدور البشر أن يدرس الفرد عشرات من اللغات، اذا صح عزمه على معــرفة تواريخ الأمم . حقيقة العرب تعرف من القدر الذي ألف ونقل الى كل لغــة من لغات المدنية الحديثــة ، وهو شيء كثير تتألف منه خزانة في كل أمة من الأمم المتحضرة اليوم. سألنا مؤلف كتاب حاضر العالم الإسلامي الأميركي من أين له هذا الوقوف الجيد على تاريخ الإسلام وهو لا يعرف العربية فقال : إنه درس التاريخ الإسلامي عشر سنين عند أستاذه في التاريخ،وكان هذا يحسن العربية، ويستخرج من كتبها كل ما يلزمه لدراسة تاريخ الاسلام ، ولذلك أخذ لباب ما كان أســتاذه متمكنا منه ولم يحتج كثيرا الى تلقف العربيــة للحكم على الإســلام والعرب . ولكن ذاك الشعوبي طلق المنطق فلذ لقلبه إسقاط أربعة من كبار علماء فرنسا المتأخرين، ليسقط بإســقاطهم مدنية أمة عظيمة يرى من مصلحته أن يعمل على حربها حتى لاتقوم لهــا قائمة، ولا تنسب لها في قديم الدهر وحديثه صفة من الصفات الطيبة التي قل أن تتجزد منها أمة عظيمة مهما كان جنسها وهواؤها ودينها .

نقض علماء الغربيين مماحكات الشعوبيين :

وكل ما رددنا عليه آنفا هو رأي الشعوبي لامنس المؤرخ المحابي كما لقبه بعض علماء أوربا، وما فتئ يضعف من شأن أكبر مؤرخي العرب أمثال الطبري، والبلاذري ، وابن ســعد، والأصفهاني، وابن الأثير، وابن خلدون، وأبي الفداء. ويوثق بعض القصاص الوضاع.هؤلاء المؤرخون يغمز قناتهم لامنس البلجيكي بينا هيس السويسري(١) يأسف لتساهل المسلمين في دراسة هذه المدنية الإسلامية البديعة

(١) مجلة المجمع العلمي العربي م ٣

التى يعجب بها علماء المشرقيات ، لما يقرأون من آياتها فى كتب مشاهير المؤلفين أمثال ياقوت، والبيرونى، والخوارزمى، وابن خلدون الخ . قائلا إن المسلمين يزهدون فى مدنيتهم ليتمثلوا نصف تربية أوربية فى المدارس التى قلما تهتم بتعليمهم عظمة الآداب التاريخية والجغرافية والعلمية التى خلفها أجدادهم . اه .

لامنس الشعوبى البلجيكى يسقط من شأن مؤرخى العرب، كما يسقط من شأن علماء الافرنج ، وبراون[1] الانجليزى يقول إن كتب العرب فى التاريخ أوسع الكتب وأدقها . ويرى أن التاريخ فى بعض المؤلفات العربية لم يكتب على نسقه فى أوربا، ويذكر بالاعجاب ابن خلدون ، وابن الأثير، والطبرى ، والفخرى وغيرهم . قال : وفى باب العلم والفلسفة والأخلاق نجد من المؤلفات ما لا يوجد له مثيل .

يطعن الشعوبيون بكتب العرب، ويطعنون أيضا بكتب الافرنج المنصفين للعرب وكلما أوقدوا نارا للفتنة أطفأها العلماء بوثائق كثيرة تصفع النافخين فى أبواق الشقاق ، وتقضى على أمانى الدجاجلة[2] المشعوذين . ولقد كتب أحدهم مؤخرا يقول : فطر الاسلام على الفناء[3] فهو يبنى ولا يعرف الاحتفاظ بما بنى، وشعوره متحرك متحول، ومع هذا يحتفظ على تعاقب القرون بتقاليده البدوية وينكر المدنية، لكنه يقبل الانتفاع من الآلات والأدوات الجديدة . قال وتنوعت المرادات التى أحدثها الاسلام فى حواسنا الغربية، ولطالما شعر لوتى "من أدباء فرنسا" نحو المسلمين بعاطفة شديدة ، وشهد لهم فى كتبه وفى حياته العامة الشهادات الحسنة ، فكان المدافع عن تركيا ، وقام فى حياته الخاصة على تعهد مسجد له أقامه فى داره فى روشفور، وبلغ من تأثير الاسلام فى إيبنهارد أن دان به مختارا . ثم تطرق الى ما بدا فى كتب الأخوين تارو (Tharaud) وهما من أكبر كتاب فرنسا، من العطف

---

(١) مجلة المقتبس م ٢

(٢) جمع دجال ، والدجال الخداع ، وأصل الدجل الخلط . ويقال : دجل اذا لبس وموّه .

(٣) المجلة العالمية (آب ١٣٩١) (La Revue Mondiale.) .

على الاســلام ولا سيما فى مؤلفاتهما "العيد العربى". "الحرب فى أشقودرة البانيا" "طريق دمشق". "رباط الفتح أو ساعات فى مراكش" . "رباط ومراكش" "فاس وأهل المدن فى الاسلام". وقال إنه ظهر تبدل فى عاطفتهما فى هذا الكتاب الأخير، بالقياس الى أول كتاب كتباه فى الاسلام منذ عشرين سنة، فأخذا يعمدان الآن الى طرق النقد والسخرية أحيانا بما يريان من مدنيــة إسلامية الخ . وختم بقوله : نشأ الإســلام فى أصقاع مشمسة، فكان دين الشــعر والخيال والبطالة ، ولما كان الحظر من أهم قواعده، قضى على أهله بالجمود بل بالموت ، وقد عرف الاسلام بتذوق الحاضر والمعجل والزائل، وبالتجاهل المقصود من البقاء، وبعقيدة القضاء والقــدر ، فكان مخربا هائلا . وقال إن العربى يوحى الى الذهن صورة الطفل الذى يبنى على شاطئ البحر قصرا من الرمل ، والرسام الذى يتلف عينيــه بتزيين غرفة مظلمة، أو المطرز الذى ينسج بالذهب والفضة قطعة لا قيمة لها . اهـ .

هــذا الشعوبى يتحامل على الإســلام فيرميه بالتعصب وقلة المسامحــة وعدم ائتلاف من يدين به مع من يخالفه فى عقيدته، يزعم أنه عدو المدنية الأزرق . كلام من أنطقه الهوى، وأعوزته الحجــة لتأييد دعواه المزوّرة، تقــرأ فى تضاعيفه المكر، وفساد الذمة، ومقاومة البديهة. وليوتى (1) من أعظم رجال فرنسا الذين عرفوا الشرق معرفة حقيقية يقول من مقالة له أخيرة : " وإذا كان فريق من ذوى الأغراض الملتوية، يزعم أن الإسلام يبعث على التدمير والفوضى والتعصب، فإنى بصفتى رجلا قضيت بين المســلمين مدّة من الزمان فى الشرق والغــرب ولم أكتف بما قرأته عن الإسلام فى الكتب، أقول إن جميع تلك المزاعم لا نصيب لها من الصحة" .

تسامح المسلمين ودولهم مع أبناء ذمتهم :

لو كان الإسلام كما ادعى ذلك الشعوبى الأخرق متعصبا جامدا ، يسيء الى من يخالفه، ولا يأتلف مع أحد، هل كانت تتم أعماله المدنيــة التى تجلت للعيــان

(1) مجلة لا مارش دى فرانس، تعريب جريدة الأهرام .

بدون بيان ، بل لو كان الإســلام متعصبا جامدا هل كان على الأقل يبقى على أحد ممن يخالف معتقده ، وقد شاهدنا التعصب الدينى فى أوربا لمـا اشـتدت وطأته يقضى بجلاء جزء عظيم من أمة ، حتى يسلم دين السواد الأعظم ، كما وقع للإسبان فلم يرضوا بعد أن خضع العرب لسلطانهم إلا بتنصيرهم أو إجلائهم عن بلادهم ، نخربت إسـبانيا من أجل ذلك . وكذلك جلا البرتســتانت من فرنسا إلى إنجلترا وهولاندة وألمـانيا يوم اشتداد الثورة الدينيــة ، فكان من ذلك أن فقدت البــلاد عشرات الألوف من الأذكياء ، وهاجر ألوف من الخلق من انجلترا لأسباب دينية الى أمريكا الشمالية . ولقد كان الإســلام على العكس من كل هذا فى معظم أيام عظمته ، يبرّ المخالفين ويقربهم ، وينتفع بإحسان المحسن منهم ، ويعــدل فيهم عدلا لم يؤثر عن كسرى ولا قيصر ، وما قامت حرب دينية قط فى ربوع الإســلام قصد منها إبادة أعدائه ، اللهم إلا حوادث عادية تقوم بين متخالفين فتطفئها الولاة لساعتها ، وترد على كل الرعايا حرياتهــم . ذكر ابن عساكر فى ســيرة ابن فاتك الذى شهــد فتح دمشق أنه تولى قسمة الأماكن بين أهلها بعــد الفتح ، فكان يترك الرومى فى العلو ويترك المسلم فى أسفل لئلا يضر بالذمىّ . أهذا عمل من يسىء الى من يخالفــه ؟ ولعــل الشــعوبيين يماحكون فيزعمون أن هــذا من باب الضــعف ، وأين كانت قوة أهل الاســلام يوم عملوا هــذا من قوة غيرهم من أهل الأديان الأخرى فى الشرق والغرب .

مثال آخر : لمـا[1] جمع هرقل صاحب الروم جموعه للسلمين ردّوا على أهل حمص من الروم ما كانوا أخذوا منهــم من الخراج وقالوا : قد شــغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جنــد هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد .

(١) فتوح البلدان للبلاذرى والخراج لأبى يوسف .

مثال ثالث : مرّ عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل ، شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: من أى أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودى . قال : فما ألجأك الى ما أرى . قال : أسأل الجزية والحاجة والسنّ . قال: فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فرضخ[1] له بشىء مما فى المنزل، ثم أرسل الى خازن بيت المال، فقال : أنظر هذا وضرباءه[2]، فوالله ما أنصفناه، أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ . والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

خذ لك مثلا آخر من هذا التسامح الشريف . كتب الإمام الأوزاعى[3] الى صالح ابن على بن عبد الله بن العباس، لما قتل مقاتلة أهل لبنان ، وأجلى بعضهم لما خرجوا على الخليفة : " وقد كان من إجلاءِ أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصه حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى أن لاتزر وازرة وزر أخرى، وهو أحق ماوقف عنده واقتدى به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال : « من ظلم معاهدا وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه[4] » .

قال الجاحظ فى معرض كلامه على أن المسلمين كانوا أعطف على النصارى من اليهود : إنهم نافسوا المسلمين فى لباسهم ومركوبهم وألعابهم وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلىّ واكتنوا بذلك أجمع ... فرغب اليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير، وعقدها آخرون دون ثيابهم ، وامتنع كثير من كبرائهم

(١) يقال رضخ له من ماله رضخة ، أى أعطاه قليلا من كثير .

(٢) الضريب : النظير . وضريب الشىء مثله وشكله : ج ضرباء .

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى .

(٤) الحجيج : المغالب باظهار الحجة . والوزر الاثم . ووزر يزر : أثم .

من إعطاء الجزية . وأنفوا مع اقتدارهم من دفعها، وسبوا من سبهم، وضربوا من ضربهم، وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه، وقضاتنا وعامتهم يرون أن دم الجاثليق[1] والمطران والأسقف وفاء[2] بدم جعفر وعلي والعباس وحمزة. قال : وكان منهم كتاب السلاطين وفراشو الملوك وأطباء الأشراف، ولم يكن اليهودى إلا صباغا أو دباغا أو حجاما أو قصابا أو شعابا[3] .

وإذا كان الشعوبيون يشكون متعنتين فى هذه الأخبار الصحيحة من مسامحة المسلمين فى معظم أدوار عزهم، مع أنه لم يعهد لأمة فيما نحسب أن دونت أيام سعادتها مالها وما عليها، بمثل هذا التدقيق الذى اشتهر به علماء العرب، فما قولهم فيما كتبه عالم معاصر[4] من جامعة الجزائر . قال : "لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية من فضيلة المسامحة لم تكن تتوقع من أناس يحملون دينا جديدا ... وما فكر العربى قط فى أشد أدوار تحمسه لدينه الجديد، أن يطفئ بالدماء دينا منافسا لدينه . وقد جاءنا العالم ميز فى باب التسامح الإسلامى بتفاصيل أشد غرابة من هذه قال : إن من أعظم بواعث الإستغراب كثرة عدد غير المسلمين من رجال الأمر فى الدول الإسلامية، وقد شوهد المسلم فى بلاده يحكم عليه النصارى، وحدث مرتين فى القرن الثالث للهجرة، أن كان من النصارى وزراء حرب، وكان على القواد حماة الدين أن يقبلوا أيدى الوزير، وينفذوا أمره . هذا والدواوين غاصة بالكتاب من النصارى" .

هكذا عامل المسلمون أهل ذمتهم وهكذا عاملهم الخلفاء من الراشدين والأمويين والعباسيين، بل الخلفاء والأمراء فى كل أرض انتصب عليها علم التوحيد، وكان

(١) الجثليق والجاثليق، والجمع جثالقة : متقدم الأساقفة .

(٢) يقال مات عن وفاء أى مات وترك مالا يفى بما عليه .

(٣) الشعاب الذى يلئم الشعب أى الصدع . وحرفته الشعابة .

(٤) أخلاق المسلمين وعاداتهم لغوتية. Gautier: Mœurs et coutumes des musulmans.

الخلفاء بل من اشتهر منهم بتعصبه الديني يبوحون لأبناء الذمة بأسرارهم ، ويطلعونهم على خويصة أنفسهم ، ويوسدون إليهم مهمات أمورهم ، ويأتمنونهم على حريمهم وأرواحهم ، ويرفعون منازلهم ، ويغدقون عليهم إحسانهم [1] . وهل عهدت مثل هذه المسامحة فى بعض ممالك الغرب إلا بعد حروب طويلة وثورات مستديمة ، ومجازر بشرية فظيعة وذلك فى العصر الأخير فقط ،

لما أراد المأمون تدوين العلوم فى بغداد استدعى ثلثمائة عالم من أهل كل دين وجنس ، وحظر عليهم فى اجتماعهم مسلمهم وغير مسلمهم أن لا يستشهدوا بآى القرآن والإنجيل والتوراة وأن لا يتعرضوا للأديان فى مباحثهم . وقد وضع أبوه هرون الرشيد من قبله جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسويه ، وكانت إدارة المدارس فى بلاد العباسيين مفوّضة الى النسطور بين تارة والى اليهود أخرى . وجامعات قرطبة وغرناطة وغيرهما من المدن الكبرى فى الأندلس كانت تدار فى الغالب بأيدى اليهود على ما قال درابر . ولما خربت بغداد فى القرن الرابع أمر عضد الدولة بن بويه وزيره نصر بن هرون وكان نصرانيا بعمارة البيع والديرة واطلاق الأموال لفقرائهم . فماذا يقول الشعوبيون بعد هذا من الباطل ليدحضوا به الحق . وهل من العدل فى شيء أن يعتز الشعوبيون بقوّة الغرب المادية ، فيحطوا من قدر مدنية استغربوا كيف حملها الأجداد على ما يظهر .

نشرت فى العهد الأخير عدّة كتب بلغات الأمم الكبرى فى الغرب فى موضوع الأديان البشرية ، فغمز أكثرها الإسلام من طرف خفى أو جلى . فعجبنا كيف لم يرق البشر بمدنية القرن العشرين . ومن الغريب أن يكتب أبو الريحان البيرونى فى أديان الهند فى القرن الخامس من الهجرة ، ولا يمس عاطفة أحد من أهلها ، كأنه إذا كتب فى نحلة يوهمك أنه هو أحد أبناء تلك النحلة لتلطفه فى وصف شعائرها ، ويكتب علماء اليوم ويخون على من لا يدين بدينهم ، ويجحدون دين

(١) تسامح العظماء للؤلف . مجلة المقتبس م ٢

السواد الاعظم وحده . إن مدنيــة هذا القــرن لم تصفِ النفوس من الشــوائب، فإذا ذكر حتى العظيم من المسلمين ذكر على الأغلب بتقزز ممقوت، وكراهية بادية، أما إذا كان الكلام فى مجموع الأمة الإسلاميــة فإن تصويرهم لهـا يصدر من تصوّراتهم وأوهامهم .

رأينا كتّاب العرب أيام قوتهم يذكرون جميع المخالفين لهم بكل حرمة، وفى كتاب طبقات الأطباء لأبن أبى أصيبعة . وفى طبقات الحكماء لابن القفطى، وفى طبقات الأدباء لياقوت ، وفى الوافى بالوفيــات للصــفدى ، وفى تاريخ حكماء الإســلام للبيهقى ، وفى الجامع المختصر لابن الساعى مثال ظاهر من هذه المسامحة المحمودة . فقد ترجم هؤلاء المؤلفون للمسلم كما ترجموا للصابى واليهودى والسامرى والمجوسى واليعقوبى وغيرهم كأنهم أبناء ملة واحدة . ونحن فى هــذا القرن وهو سيد القرون بتسامحه نرى الكاثوليكى إذا ترجم للبرتستانتى، أنحى عليه وثلمه والعكس بالعكس، وهما فى الحقيقة أبناء نبعة واحدة، وكتاب واحد .

شعوبيان مخرّفان شامى ومصرى :

ومن هؤلاءِ الشــعوبيين فى الشــام هزاء خيالىّ ، دعا الشاميين فى جملة الآراء التى جاهر بها الى أن تصفو نياتهم فينسوا الأجداد الذين يشيدون أبداً بمفاخرهم وينسوا الدول الإسلامية التى يتغنون على الدوام بمجدها . وما عهدنا عاقلا يدعو أمة الى تناسى تاريخها، بل رأينــا كل أمة تدرس تاريخهــا ، مهما كان من اســوداد صــفحاته ، لأنه مهمازها الى العمــل ، وتتمــة ما بدأ به أجدادها : تتوقى شرهم وتقتبس خيرهم . ورأينا من الأمم كبعض جمهوريات أميركا الجنوبية من يصطنع لأمته تاريخاً تتغنى به فيعينهــا على نهوضها . وأنت لو أردت هــذا المتفلسف أن يأتيك برجل يصح لنا أن ننسج على منواله لعجز واكتفى بأن قال لك إن الاسلام لم يأت فيه رجل يذكر، ولاختلق الأكاذيب على من أجمعت الأمــة بل الأمم على صلاحه أمثال صلاح الدين يوسف . ولشوقى فى هذا المعنى :

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عيّ فى الناس انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة يشتكى من صلة الماضى انقضابا

ومن هؤلاء الشعوبيين فى مصر رجل ، يزعم أن الإسلام دين بدوى يتسم بكراهة الترف ، وبشدّة الإيمان بالوحدانية ، وأن الوهابيين اليوم يمثلون روحه أصدق تمثيل ، وأن العرب تقيدوا لأوّل أمرهم بالقرآن ، فلم ينقلوا شيئا من الأدب الإغريقى ، ثم كان الروح البدوى سائدا أيضا ، فقوطعت الفنون الجميلة لأن البدوى يكره بطبيعته جميع ضروب الترف والحضارة ، وهو نفسه يعيش فى صحراء لا يحتاج معها الى فنون الحضارة من عمارة وتصوير ونقش . ولذلك حرم التصوير كما حرم صناعة التماثيل ، وصار الغناء والموسيقى يتلهى بهما السكارى ، وأن من الرسم تستفيد الأمة رأيها وذوقها فى الجمال ، ومن الدرامة تكتسب سليقة النقد الاجتماعى . فتبقى جذوة الإصلاح حية متقدّة ، وتنزع الأمة نزعة رقى وتقدّم ، وأن تعصبنا للشرق تعصب للقديم أكثر مما هو للشرق ، نستمسك بالشرق لكى نتعلل به فى كراهة الغرب ، ونستمسك بالقديم كبرياء وأنفة من أن يقال إن حضارتنا قد أفلست أمام حضارة أوربا .

قال وليس علينا للعرب أى ولاء وإدمان الدرس لثقافتهم مضعف للشباب ومبعثر لقواهم ، فيجب أن نعوّدهم الكتابة بالأسلوب المصرى الحديث ، لا بالأسلوب العربى القديم . ويجب أن يعرفوا أننا أرقى من العرب ، وأن ندرس العربية الفصحى كما ندرس الأشورية والبابلية ، وأن ننظر الى لغة النابغة والمتنبي كما ننظر الى اللغة الروسية أو الايطالية ، وأن العربية ليست لغتنا ولا نستفيد منها ، وأن لنا من العرب ألفاظهم فقط لا لغتهم بل بعض ألفاظهم . قال وكل من اختبر هذه اللغة يعرف أن قاسم أمين ولطفى السيد كانا على حق عند ما نصحا باستعمال العامية المصرية بدلا منها . وقال إن الرابطة الشرقية سخافة والرابطة الدينية وقاحة ، وأن الرابطة الحقيقية أن نفنى فى مدنية أوربا ، ونتطوّر بأطوارها ، ونتزوّج من بناتها ،

ونزوجهم بناتنا ، ونأخذ عنهم كل شيء . وأن الأصلح لمصر إذا أرادت التخلص من آسيا والشرق والتاريخ العربى ، أن تعود الى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخ مصر . ودرس مدنية الفراعنة أفيد من درس العرب ، وأن تدرس آثار العرب والفراعنة كما تدرس الفينيقية . وقال إن من تأمل أحوال الأمم الناهضة يعرف أنه ليست أمة تنهض فى العالم الآن إلا وتنسلخ من قديمها سواء أكان هذا القديم آسيويا أم غير آسيوى . هذه خلاصة آراء المتفلسف الشعوبى ولو أردناه وصاحبه معا أن ينزل عن مشخصاته ومقدساته التى يتظاهر بالبعد عنها وهى أعلق بقلبه من شعرات قصه (١) لاستكبر وأبى .

يتقدم الشعوبى المصرى الى السواد الأعظم باسم الناصح ، أن ينزل عن دينه ، لأنه دين لا يقبل الرفاهية ، ويتجاهل ما تم للعرب من هذا القبيل ، مما ملئت به بطون الأسفار ، وينكر عناية العرب بالفنون الجميلة لأن العرب فى صحرائهم لا يحتاجون اليها . وفاته أن العرب ليسوا كلهم سكان بادية ، والفرق ظاهر بين العرب والأعراب ، وأن العرب فى أقصى جاهليتهم كانوا قسمين بادية وحضرا ، وأن البوادى لم تعمل الحضارة العربية فى دمشق وبغداد والفسطاط وقرطبة وغرناطة والقيروان ، بل عملها أهل الحضر من العرب ، وما قصروا فى كل فنونها بحسب ما ساعدهم عصرهم ومعتقدهم ، وإذا خلت مدنية العرب من " الدرامة " لبث روح النقد فى اجتماعها ، فما خلت كل عصر من كتاب مجودين نقدوا كل شيء فيها بدون عصبية ولا عنجهية .

أما قوله أن يرجع العرب عن تاريخهم ، ويتركوا آسيا ويلتحقوا بأهل أوربا فى كل مظاهرهم فهو السخف بعينه ، وما عهدت أمة تسير على هذا الطريق حتى ولا اليابان التى استشهد بتلقفها الحضارة الأوربية . فإنها بقيت على وثنيتها ، محتفظة بتقاليدها ، وأخذت عن أوربا أصولها فى مادياتها فقط ، وكذلك يقال فى دعوة العرب

(١) يقال هو ألزم لك من شعرات قصك . والقص والقصص : الصدر .

الى ترك لغتهم والإعتماد على اللغة العامية ، كأن ما حفظه هو لم يحفظه العرب : هو يريد أن يمزق شمل العرب ، ويأتى على رابطتهم اللسانية فيحلها جملة واحدة كما انحلت رابطتهم السياسية، ولغة القرآن هى التى حتتهم كل هذه المدّة على كثرة ما لاقوا من عنت الدول الشرقية الإسلامية، ومن عنت الدول الغربية النصرانية، هو يستشهد برجلين يقولان بزعمه هذا القول فى إحلال العامية بدل الفصحى ، وهما قد كتبا تآليفهما بالعربية الفصحى، ولو كتباها بلغة العوام لكان مصيرها الدفن ساعة تولد . وهذا مثل ما ادعاه أحد فضلائنا(١) من أن جمال الدين الأفغانى قال له إن العرب لو وفقوا إلى نقل الإلياذة لهوميروس الى لغتهم لكانوا أحسنوا أكثر من كل ما نقلوه من كتب العلم والفلسفة والصنائع ، وما نخال ذلك القول إلا مدسوسا عليه .

يقول المازنى(٢) إن العامية ينقصها الضبط والإحكام وهى ليست لغة واحدة حتى فى مصر، بل لهجات شتى تختلف وتتقارب وتتباعد ، تبعا للاقليم وسكانه وأحوالهم حاضرها وباديها، وليس لها ثبات واستقرار على حال، وأراها مع انتشار التعليم واتساع العلم بالفصحى ترتفع اليها وتدنو منها، وقد صار المتعلمون يتكلمون عامية هى أقرب الى العربية وأشبه بها ولا يكاد ينقصها إلا حركات الإعراب . ومن الحمق ولا شك أن يؤثر أحدنا عامية لا قواعد لها ولا أصول ولا أحكام ولا تاريخ ولا ثبات ،وأحمق الحمق أن تجرى وراء لغة تفرّ منك إلى ما تفر أنت منه . اهـ

وقول ذاك الشعوبى إن الرابطة الحقيقية، بعد أن أرادنا على ترك جميع روابطنا الشرقية والدينية ، هى أن نفنى فى أوربا، ونقول بالمدنية الفرعونية، وندرسها أكثر من المدنية العربية ، ونجعل المدنية العربية واللغة العربية كالمدنية الأشورية واللغة الإيطالية والروسية،قوله هذا أشبه بسرسام لو تطال الى أن يمليه على طفل فى مدرسة

(١) الياذة هوميروس تعريب سليمان البستانى .

(٢) من مقالة له فى البلاغ .

ابتدائية لضحك من قوله أى ضحك ، وعدّه يهــذى و يعبث ، وما نخاله إلا عابثـا يهذى ويخرف هو وأمثـاله من الفرعونيين المصريين الذين سـقطت دعوتهم بعد ظهورها، وقالوا بالتجديد فى كل شىء أو نزع كل مفيد، فدلوا على ضعف فى معرفة طبائع الأمم ، وتاريخ نهضتها فضلوا وأضلوا . وكـذلك حالة المتفلسف اللبنانى فى دعواه المضحكة ، وله أمثال يكتبون ليغربوا لا ليعربوا ، و ينقدون ليقال عنهم إنهم نقاد و يأتون بالجديد ، وهم لو حاسبوا أنفسهم وحكموا العقــل لضحكوا ممـا يختلقون من البهت والمقت ، وكلامهم مهما كان ظاهره معسولا مقبولا فهو هو الصاب والعلقم ولبئس ما يأفكون .

يقول الغمراوى (١) : إن التجديد فى الأدب كالتجديد فى العـلم لا يمكن إلا على أساس تعاون الحاضر والمـاضى ، يبنى العقل فى حاضره على ما أسس العقل فى ماضيه . فإن الحق وحدة قائمـة لا يقوم جزء منها إلا على جزء، فلن يقـوم حق جديد ، إلا على أساس من حق قديم . بل الحضـور والمضىّ والحدوث والقدم إن هى إلا ألوان يبدو بها الحق — أو الباطل — لعين الإنسان، وما هى من لون الحق فى شىء، و إنمـا هى من لون المنظار الذى ينظر منه الانسان، و إلا فالحقائق فى نفسها متكافئة فى الثبوت ، تكافؤ نقط سطح الكرة ، غير أن حياة الفرد أخصر وحقائق الكون أعظم وأكثر من أن يستوعب الفرد منها إلا جزءا متضائلا، كما أن العين لا تحيط من الأرض فى آن إلا بجزء من الأرض صغير . وقد يستطيع الجنس البشرى إذا اتصلت به الحياة الى الابد ، أن يحيط من الحقائق بمقـدار يزداد إلى مالا نهاية، من غير أن يستنفد الحقائق، أو يشرف على أقصاها . ومهما يكن من شروط تحقق هذا التقدّم المطرد فى إستيعاب الحقائق فإن شرطا أساسيا له أن تتجرّد حركة العقل — عقل الفرد وعقـل الجنس — تجرّدا تاما عن التذبذب فان الذى

---

(١) تحليل نقد الأدب الجاهلى لمحمد أحمد الغمراوى .

يحق الأعمار ، أعمار الأفراد والشعوب ، هو التذبذب بين غايتين ، قرب المدى بينهما أم بعد . فلو ظل "البندول"[(١)] يضرب الى سرمد الدهر ما قطع أكثر من تلك القوس المحدودة . ولو ظل الإنسان تتعارض جهوده وتتلاغى أعماله ، ينقض اليوم من غير دليل ما أبرم بالأمس ، ويبرم غدا من غير دليل ما نقض اليوم ، لظل "البندول" يتحرك ولا يتقدم . وليس أعدى للفرد ولا للجموع من قوم يزينون له هذا التذبذب باسم التقدم ، وهذا التعطيل باسم التجديد . اهـ .

(١) الرقاص أو النواس La pendule وسماها مترجما كتاب الموجز فى الاقتصاد «المعلقة» .

متعصبة الشعوبية وأرباب الانصاف

نقض كلام المخالفين وكلام على العناصر :

من خلق بعض الناس إذا حنقوا على إنسان أن يسلبوه كل صفاته، وقد يكون فيها الظاهر الباهر، ومن طبيعة بعضهم إذا غضبوا على فرد أو أفراد عم غضبهم كل من كان من قوم المغضوب عليه ، ومنهم من يغتاظ من رجل فيطعن فى جميع أهل المصر بل القطر . ومن عادة بعضهم أن يصغروا من شأن ما لا يدخل فى منهاج عملهم، أو ما لا تدرك سره قرائحهم، ولا توفق الى حله معارفهم، ويعدّون ما هم بسبيله شيئا ، وما تعمل فيه عقول أخرى ليس بشيء ، وقديما قالوا من جهل شيئا عاداه، وحبك الشيء يعمى ويصم . وفى الواقع ان الناس يتشابهون فى الطباع ، مهما اختلفت الأصقاع والبقاع ، ولعلهم فى مستقبل الأيام أيضا لا يوفقون إلى التجرّد من الأهواء ، اللهم إلا إذا خلقوا خلقا آخر، وتغيرت تراكيب أجسامهم لتتغير أرواحهم ومنافذ إراداتهم كما يقول أناتول فرانس .

كتب أحدهم فى العهد الأخير كتابا فى المفكرين فى الاسلام[(١)]، عرض فيه لرجاله وعلومهم بحسب المادة القليلة التى وصلته ، أو بقدر ما أراد استثماره من المواد وإغفال مالا يروقه منها ، وجعل معظم الفضل فى مدنية المسلمين لغيرهم من الشعوب، أو لمن تظاهروا بالدخول فى دينهم ، أو كانوا من غير ملتهم، أو عرفوا بالإلحاد والخروج على الجماعة ، وختم كتابه بعبارة أثبت فيها أن للعرب خصائص ولكنها انبعثت من أرضهم، والإسلام لا حظ له من التأثير فيها فقال : وعلى هذا يظهر أن بعض الخصائص منبعثة من البلاد نفسها لا من الدين كمسألة القضاء

(١) المفكرون فى الاسلام لكارا دى فو Carra de Vaux : Les penseurs de L'Islam

والقدر، والميل الى التبصر وتذوق الشعر والفلسفة، ورقة الاحساس الفنى، وبعض الرغبة فى الراحة والسكون، والاستعداد لدراسة الفقه، والذكاء فى فصل الأحكام، كل هذا ليس فيه ما هو خاص بالإسلام، بل هو أثر استعدادات عامة فى كثير من الشرقيين، ولعلها نشأت من الإقليم. قال: ومعظم هـذه الاستعدادات تصادف اليوم قبولا فى الغرب، فان الآلة وما يتبعها من الدوى والحركة وما ينشأ عنهما من مزعجات الحياة ليست مما يرغب فيه كل الناس وهكذا الحال فى المذهب المادى، وفى الجشع المتناهى فى كسب المال فى شعوب بلادنا، فإن كثيرين منا قد سئموا ذلك، وقد ترغب الروح فى صور من الحياة تكون إلى السذاجة، ليتيسر للمرء الاستمتاع بالطمأنينة والأمل والسلام، فليس الاضطراب والجلاد الدائم من موجبات السعادة. وإذا كان لنا من مضائنا وعلمنا العالى ما جعل لنا بعض الحق على الشرق، فعلينا أن لا نتعدّى الحدود فى المطالبة بما يخوّلنا هذا الحق، وعلينا أن لا نقضى على خصائص هذه الشعوب ومثلها الأعلى، ولندع لبلادهم جمالها وسكونها وقليلا من بهائها الممزوج بالسويداء، وإذا عرفنا أن نتغلب على الشرق بالقوة المادية وسلطان العلوم والفنون فما ضرنا لو زدنا على ذلك الحكمة وجمال العهد. اهـ.

هذا كلام جميل، فيه ولا سيما فى نهايته شيء من الإنصاف، ولكن المؤلف أخطأ فى نسبة الخصائص التى امتاز بها العرب للاقليم وحده، وشق عليه أن ينسبها للاسلام، وأخطأ أيضا فى قوله إن معظم مدنية المسلمين قامت بعناصر غير عربية(١)، وفاته أن من دخلوا فى الإسلام من الفرس والقبط والسريان والروم وغيرهم درسوا

(١) وقول ابن خلدون إن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من الأعاجم منقوض بالاحصاء وبتتبع كتب تراجم أئمة المذاهب الإسلامية والعلوم اللسانية. نعم إنه كان يكثر فى صدر الاسلام من بنى أمية وأوائل الدولة العباسية المتشرفون بالعلم من الأعاجم، لاشتغال أشراف العرب بأعمال السلطان من الولاية والجباية وقيادة الجند وإدارة الملك؛ فلما ضعفت شوكة العناصر العربية فى تولى أعمال الدولة اشتغل معظمهم بالعلم وبذوا الأعاجم فيه على أن كثرة العلماء من الأعاجم لم تكن غالبة فى أى عصر من عصور دول العرب وخاصة دولتهم فى الأندلس — مبحث فى ابن خلدون لأحمد الاسكندرى (مجلة المجمع العلمى العربى المجلد التاسع).

فى مدرسة العرب وأخذوا لغتهم وثقافتهم ودينهم وعاداتهم ، وإذا كان ابن سينا والغزالى والبيرونى والرازى مثلا أعاجم بأصولهم فهم عرب بتربيتهم وثقافتهم ، وإذا كان الجاحظ وابن رشد وابن زهر وابن خلدون ، عربا بأصولهم وثقافتهم ، فهم لا يزيدون شيئا عمن تقدم ذكرهم فى الغناء والمنزلة ولا ينقصون ، وما كان لجزيرة العرب وهى القليلة بسكانها الذين قام منهم أعظم الفاتحين وحملة الشريعة ، أن يخرج منها كل هؤلاء الرجال الذين فتحوا فتوحا تحتاج إدارتها فقط إلى عشرات الألوف من الناس ، فما بالك بالعلوم اللازمة لها . ولذلك انصرف العرب وهم أهل الدولة الى سياسة الملك ، وعاونهم الأعاجم فى نشر علمهم وثقافتهم .

وليس فى أهل الغرب اليوم أمة خالصة بعنصرها ، فعند الفرنسيس من هم من أصل بولونى وإيطالى وانجليزى وألمانى خلا ما هناك من عناصر أصلية والعكس بالعكس عند كل أمة ، والإنسان ابن تربيته ومحيطه على الدوام . قال أحد المفكرين من الفرنسيس : نحن مدينون بجزء عظيم من تاريخنا وآدابنا وفنوننا لمن كانوا غرباء عنا ، وليسوا فى الأصل من عنصرنا . ألا تعرفون أن شينه الشاعر هو رومى الأصل ، وأن رونسار الشاعر مجرى ، وأن بول فاليرى الشاعر إيطالى مثل ميرابو وغاليني ، وكذلك سائر رجال قرسقة من نابليون فنازلا . وكذلك الإسرائيليون أمثال برجسون الفيلسوف وتريستان برنار ليسوا فى الأصل من الفرنسيس . وهنرى هين الشاعر هو ألمانى يهودى ، وإذا توسعنا قليلا طالبنا بملك إيطاليا لأنه من أسرة سافوا الفرنسية . اهـ .

ويحمد صاحب كتاب المفكرين فى الإسلام لتصوره ، وإن بعد قليلا عن الجادة ، لا كالذى عمم ولم يخصص ، وتجرد عن كل منطق يوم قال[1] : "إن الإسلام لم يكن شعلة بل كان مطفأة نشأ من قلب بربرى لشعب بربرى ، فكان ولا يزال عاجزا عن احتذاء التمدن ، وأنه حال فى كل مكان ارتفع فيه سلطانه دون السير نحو

(١) الاسلام ونفسية المسلم لأندره سرفيه

André Servier: L'Islam et la psychologie du Musulman

الارتقاء، وخنق نشوء المجتمع الإنسانى " . وأى غباء ممزوج بسماجة ، وأية رقاعة معمولة بقحة، أعظم من هذا الكلام . وما أدرى كيف يستطيع هذا المتمدن أن ينكر أن عقل ذاك البربرى قلب كيان العالم، فعدّ بعمله العظيم أعظم رجل عرفه التاريخ ، وأن شعبه البربرى قام بحضارة وفتوح حسدته عليها أمم كثيرة ، وغبطه على ما صار اليه أوسع الباحثين عقلا وعلما .

كلام لعلماء إفرنسيين وإيطاليين وبريطانيين وروسيين :

يقول لبون : " قد يكون من الأوربيين مستعمرون ماهرون[(١)]، ولكن منذ عهد رومية كان المسلمون من الشعوب الوحيدة التى كانت حاملة علم التمدن حقيقة ، وهم الذين فازوا وحدهم بنشر المواد الجوهرية من المدنية ،وأعنى بها الدين والمصانع والصنائع بين ظهرى عناصر جديدة من غير عنصرهم " وتساءل لبون أيضا قائلا : " هل من الواجب أن نذكر أن العرب، والعرب وحدهم، هم الذين هدونا إلى العالم اليونانى واللاتينى، وأن الجامعات الأوربية، ومنها جامعة باريز، عاشت مدة ستمائة سنة من مترجمات كتبهم ، وجرت على أساليبهم فى البحث ، وكانت المدنية العربية من أدهش ما عرف التاريخ " وقال لبون أيضا : " كلما تعمق المرء فى دراسة المدنية العربية، تجلت له أمور جديدة، واتسعت الآفاق أمامه،وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب ، وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة ، وأن العرب هم الذين مدّنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق ، ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه فى العلم يثبت له أنه مامن أمة أنتجت مثل ما أنتجوا ، فى هذه المدة القصيرة التى كتب لملكهم قضاؤها . وإذا نظر المرء فى صنائعهم وفنونهم لا يسعه إلا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة . ولئن كان تأثير العرب فى الغرب عظيما فان تأثيرهم فى الشرق أعظم، وما من عنصر أثر مثل تأثيره قط، فإن الشعوب التى دانت

(١) النفسية السياسية لجوستاف لبون Gustave Le Bon : La psychologie politique

الأرض لسلطانهم كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت القرون آثارهم، ولم يخلفوا سوى آثار ضئيلة ، بحيث لم يبق سوى ذكريات أديانهم وألسنتهم وفنونهم ، وقد اضمحل أمر العرب أيضا ، ولكن أهم عناصر مدنيتهم وهى الدين واللسان والصنائع لا تزال حية" . وقال أيضا : "إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين" . وقال كارلايل فى العرب : "قوم يضربون فى الصحراء كانوا نكرة عدة قرون ، فلما جاء النبى العربى أصبحوا قبلة الأنظار فى العلوم والمعارف ، وكثروا به وعزوا ، ولم يأت عليهم قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم" .

هذا هو الإسلام الذى خنق المجتمع البشرى ، وفلج المدنية فى كل مكان ، وخلقه قلب متوحش لشعب متوحش وهذا ما عمله . وقد نصح بوترولون[1] لفرنسا أن تصبغ التونسيين لتعيدهم سيرتهم الأولى قبل حكم العرب ، لأن هؤلاء أتوهم بقانون سنه رعاة لرعيان ، فصعب تطبيق هذه الشريعة على مجتمعات ممدنة كالمجتمع القرطاجنى . قال : وإن بقايا التنظيم الذى بقيت آثاره الى اليوم فى تونس من مثل البلديات والصناعات والبناء والهندسة ليست من اختراع العرب كما يقال ، بل هى بقايا من المدنية القديمة السابقة للاسلام فسدت على عهد الفاتحين وأعمالهم العقيمة . اهـ . ومثل هذه السخافات من السخفاء كثيرة لا نطيل بها ولا نتكلف الرد على قائليها .

وقد قال كلود فارير[2] من مؤرخى فرنسا وأدبائها : "إن هزيمة العرب فى پواتيه قد أخرت المدنية الغربية ثمانية قرون الى الوراء ، فلو ظفرت العرب يوم پواتيه لحملوا مدنيتهم الى الغرب ، ولما طالت أيامه فى الجهل المطبق" وقال سمنوف[3] : "كان من الميسور تجنب الحروب الصليبية ولكن الجهل والأوهام الدينية والسياسية ومصلحة البابوية قد ساعدت على ظهورها" . وإذا قال "لافيس" ليس من المحقق

(١) مجلة المقتبس ج ٦ (٢) مقدمة رواية العباسة لجرجى زيدان بقلم فارير .

(٣) تاريخ روسيا لمارك سمنوف Marc Semenoff : Histoire de Russie .

أن سعادتنا كانت فى تغلب قيصر على "فرسنجتوريس" القائد الغالى . ألا نقدر أن نقول كم من الأحزان والآلام والجنايات الجديدة كان يمكن إنقاذ الانسانية منها، لو لم يوقف "شارل مارتل" العرب عن السير فى فتوحهم سنة ١١٠ هـ . فان الثقافة العالية التى امتاز بها من كان يدعوهم الصليبيون فى حالة الغضب بالحشاشين والكفار والوثنيين احتقارا لهم ، كانت أثرت قبل الوقت فى أوربا الغربية ، وفى المدنية الفرنجية والرومانية . اهـ .

وقال لو يجى رينالدى من علماء إيطاليا[(١)]، بعد أن أفاض فى عمل المسلمين فى إيطاليا وإسبانيا : فأمة هذه مدنيتها، وتلك آثارها ومفاخرها، جدير بنا بل واجب علينا أن نحفظ لها تلك اليد التى قدّمتها الينا وأسلفتها لنا، ولست أدرى لماذا لا نسمع كلمة إعجاب بالشعب العربى العظيم الذى ترك فى طريق المدنية آثارا عديدة، والذى حمل معه أعظم المعاونات وأجل الخدم للنوع الانسانى ولا يخل على العرب باعطائهم المقام اللائق بهم، وبانزالهم المنزلة التى استحقوها بجدارة إلا كل جاهل التاريخ، وقد خطت أيديهم صحائف بيضاء فاخرة يجب على كل انسان أن يعجب بهم من أجلها . ويحزننى لعمر الحق كما يحزن غيرى ممن ينصفون، أن يكون بيننا نحن الأوربيين نفر يقودهم سوء الظن والجهل الى احتقار العرب ، وحسبانهم من أمة أدنى من أمتهم، وأن نرى كلمة عربى عندنا تدل على معنى غير معنى المتمدن، وهذا بلا شك افتراء ونكران للجميل، فان هذا الشعب وإن سقط من شاهق مجده، ونزل عن المنزلة العظيمة التى كان فيها ، لا يزال يحفظ صفاته العجيبة وذكاءه النادر، مما يتحلى به كل متعلم راق . وإنا لا نزال نذكر للعرب حسن فراستهم ، وقوة ملاحظتهم للطبيعة، وسرعة خاطرهم، وها نحن أولاء لم نصل الى ما وصلنا اليه من المعرفة إلا بفضلهم، فلذلك نشعر بعطف عظيم على أبناء الصحراء، ولا نزال نذكر لهم بالشكر والامتنان أياديهم البيضاء علينا فى الماضى ، ولا يسعنا فى الحاضر إلا أن

(١) مجلة المقتطف م ٥٩

نمدّ اليهم أيدينا كى ينهضوا و يتبوءوا المكان اللائق بهم تحت الشمس، حتى يشتركوا معنا فى استثمار تلك المدنية التى كانوا لها يوما موجدين، وعلى إعلاء شأنها عاملين".
ثم نقل عن بريس دافن فى كتابه الفن العربى قوله : "إنه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربى ، وذلك أوّلا لكثرة فحول الرجال الذين أخرجهم هذا الشعب العظيم ، وثانيا لما أحدثته فنونه وعلومه من التقدّم العجيب فى العالم مدّة قرون عديدة" . اهـ .

كلام فى المدنيات العربية :

وكثيرا ما يكتب الكاتبون فى الإسلام والعرب عبارات قد لا يفهم منها فى الظاهر ما يمس الكرامة و يعبث بالحقيقة، مثل قول من قال من أدعياء التاريخ من الأميركان : "إن المتطرفين فى الديار الاسلامية يميلون الى حسبان كل ما سبق بعثة محمد كأنه مختص بعالم آخر غير عالمنا الحاضر لا يستحق أن يؤبه له كثيرا" . وهذا فى الحقيقة رأى أناس تشبعوا بتاريخ العرب لثبوت قضاياه من طرق مختلفة لا نزاع فيها ، وهم ممن أيقنوا أن الآثار لم تكشف تاريخ الأمم القديمة كلها على ما يجب حتى الآن، ولا يزال البحث اليوم يوصل الى أشياء لم تعرف بالأمس ، و إذا أولع العرب بتاريخهم فليس معنى ذلك أنهم يدعون أنهم كانوا أول من ورّخ لهم من الأمم، أو أنهم كانوا البادئين بأسس المدنية، وما ادعى المسلمون قط أنهم نزلوا بحضارتهم من السماء ، بل ادعوا وأثبتوا دعواهم أنهم أخذوا حضارات الأمم القديمة وزادوا عليها ما وسعتهم الزيادة، فأوصلوها بأمانة الى أهل المدنيات الحديثة.

ومثل هذه النعومة، وهى الخشونة بعينها، بدرت من غودفروا دومبين (١) نخالف بها التاريخ الصحيح فى قوله : "إن الغارة الاسلامية الكبرى التى بلغت الى حدّ كان أقصى مما قدّر لها، قد أسكرت العرب بما أحرزوا من المغانم، فاضطربوا فى فتوحهم

(١) غودفروا دومبين فى كتاب التاريخ والمؤرخين منذ خمسين سنة .
Histoire et historiens depuis cinquante ans .

بعض الشيء ، وأدرك الأمويون وهم تجار مكة ، بما فطروا عليه من لطف المأتى في الأعمال المالية ، أن الواجب عليهم أن يتركوا الشعوب تحكم نفسها بنفسها على أصول الاحكام البيزنطية والفارسية ، وأن لا يشغلوا أنفسهم بغير المغانم والجباية" .

يريد أن يقول إن الأمويين تجار فتحوا البلاد لترويج تجارتهم ، وقصارى التاجر جمع المال ، فهو بطبيعته بعيد عن إدارة الممالك ، ولذلك كان غرام الفاتحين من الأمويين بتجارتهم ، فأطلقوا لأهل البلاد حريتهم في الحكم الذي يختارونه . وفات الكاتب أن هؤلاء التجار كانوا أمراء في الجاهلية ، تسلسل فيهم المجد والحكم كابرا عن كابر ، وأنهم في الاسلام رفعوا راية الدين في الصين شرقا ، وفي الأندلس غربا ، ونشروا مدنيتهم ولغتهم على صورة مهما قال القائلون فيها فهي أدهش حدث حدث في العالم . وفي الحديث : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » وفي معلمة الاسلام(1) إن القيادة في قريش كانت لأمية بن عبد شمس في الجاهلية وما خلا أخلاف الأمويين في كل زمن من المعرفة الواسعة بالتنظيم العسكري والتنظيم السياسي . اهـ .

ولا يلام العرب لجعلهم البلاد التي نزلوها بادئ بدء أشبه با لماية ليتعرّفوا أخلاق أهلها وما يصلحهم ثم يحيلونها ملكا صرفا ، فهذا مما يسجل في باب اقتدارهم السياسي . وقد قال لبون : " إن العرب كانوا أكثر حكمة من كثير من رجال السياسة الحديثة ، عرفوا حق المعرفة أن أوضاع شعب لا تتناسب مع أوضاع شعب آخر . فكان من قواعدهم أن يطلقوا للأمم المغلوبة حريتها ، ويتركوا لها الاحتفاظ بقوانينها وعاداتها ومعتقداتها" . اهـ .

قال لوثرب ستودارد(2) العالم الأميركي : " ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة جليل الأخلاق والسجايا ، تواقة الى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبار نعم التهذيب ،

(1) معلمة الاسلام مادة أمية . (2) حاضر العالم الاسلامي للوثرب ستودارد .

تلك النعم التي قد انتهت اليها من الحضارات السالفة، وإذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعا، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة — الحضارة العربية — وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي . وذلك المجموع هو الذى نفخ فيه العرب روحا جديدا فنضر وأزهر، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربيـة والروح الاسلامى، فاتحـد وتماسك بعضـه ببعض ؛ فأشرق وعلا علوا كبيرا ، وقد سارت الممالك الاسلاميـة فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيا وتقدما وعمرانا، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة، والحواضر العامرة، والمساجد الفخمة، والجامعات العلميـة المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم يشعان إشـعاعا باهرا . وما انفك الشرق الإسلامي خلال هذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصرانى نورا، ثم غابت كواكبه وأفلت أنجمه، حتى أدركته لياليه السود وأجياله المظلمة" . اهـ .

الاسلام فى الأقطار والنظر بين الاسلام والنصرانية :

هذه آراء بعض كبار العلماء من الغربيين فى الحضارة العربية ، وتلك سخافات متعصبي الشعوبية، ونحن أميل الى حسن الظن ببعض المؤلفين من الافرنج، وقد نلتمس لهم أعذارا فى بعض أحكامهم على حضارتنا وحكمهم الظالم عليها ، بمظاهر قليلة رأوها فى بعض الشعوب الاسلامية ، رأوهم متدنين فى المدنيـة عن مستوى أرباب المدنيات الكبرى لعهدنا، فحكموا على الاسلام فى أوله ، والاسلام فى آخره ، والاسلام فى الشرق، والاسـلام فى الغرب ، حكما واحدا . ومعـلوم أن الاسلام فى أواسط إفريقيـة غيره فى شمالها ، وفى أكثر أصقاع أوربا وآسيا . والاسـلام فى قرونه الأولى غيره فى القرون الوسطى والقرون الحديثة، والإسلام فى الحكومات العربية غيره فى الحكومات الأعجميـة . وأن الاسـلام تختلف مظاهره من عنصر الى عنصر ومن قطر الى قطر، فان بدا اليوم ضعف قد لا يحتمل فى بعض منتحليه

فليس السبب فيه أنهم انتحلوا الاسلام، بل الذنب ذنب العنصر والبيئة ، وقانون الرجعة والعوامل الاجتماعية العظيمة الطارئة على من دانوا به ، وعلى هذا يكون المشاهد من النصرانية، فانها فى عهد البابوات غيرها فى عهد الإصلاح الدينى ، ورأيناها فى أولها على غير ما ظهرت به فى العصور الأخيرة ، ورأيناها فى شرق أوربا غيرها فى غربها ، وفى شمالها غيرها فى جنوبها ، وفى أميركا الشمالية غيرها فى أميركا الجنوبية ، ذلك لأن كل ما فى العالم عرضة للنشوء والارتقاء تفعل فيه الأرجاء والأجواء .

وبعد فاذا كان ما صارت اليه بعض الشعوب الاسلامية من الانحطاط فى القرون الأخيرة مما دعا بعض علماءِ الاجتماع من الغربيين الى أن يسيئوا ظنهم بدين القوم ومدنيتهم وتاريخهم ، فان للانحطاط أسبابا وعوامل معروفة سنعرض لها فى الفصول المقبلة ، ومسائل الدين والمدنية محرّرة مدوّنة يمكن الناظر المنصف أن يضعها كل ساعة تحت منظار النقد وفى بوتقة الحلّ ، وانما الذى يؤلم أن بعض أولئك الباحثين قد يحترمون مدنية وثنية ويبالغون فى عظمتها ، لأنها قامت بأرضهم وعلى أيدى بعض أجدادهم بزعمهم ، ثم بارت واضمحلت بعوامل كثيرة ، وظل المتشبعون بحب الأجداد يتناغون بها ، كأن الوثنية أنفع من التوحيد ، وكأن عبادة الأصنام تبعث على الارتقاءِ أكثر من عبادة إله واحد ، وكأن من أهانوا الانسان أحسن ممن كرموه ، وكأن من حسنوا الأخلاق أوقع أثرا ممن عبثوا بها بما لا يقبل به عقل سليم .

شق على بعض الشعوبية أن تنسب مزية للعرب فسلبوهم كل فضائلهم المحسوسة الثابتة فى الاسلام والجاهلية ، وشق على آخرين وهم معترفون ضمنا بفضل العرب أن يقوم العرب بقسطهم من خدمة الحضارة ، ومنهم شارل ريشه وهو من العلماء لكنه لم يتمحض لدراسة تاريخ العرب[1] فقال : " ثم ما لبثت ليالى القرون

(١) أخلاق هذا العصر (آب العالم) لشارل ريشه
Charles Richet: Les Caractères de ce temps (Le savant)

الوسطى الداجية أن غطت كل شيء بظلامها المشؤم ، فاضطر العلم المسكين أن يلجأ الى العرب " . واضطرار العلم الى الالتجاء الى العرب الذى قد يفهم منه الاستخفاف بهم ، لا يفيد فى معرض تقرير الحقائق ، ما دام ما عمله العرب لم يبرح الدهر ماثلا للعيان كالشمس فى رائعة النهار ، وبعد أن درست مؤلفات ابن سينا والرازى فى مدارس أوربا قرونا ، ولم يبطل تدريس قانون ابن سينا من جامعات الغرب إلا فى القرن الثامن عشر ، أى غضاضة على العلم إذا لجأ الى حمى العرب ، فآووه وأكرموا وفادته ، وانتفعوا بفوائده ونفعوا به غيرهم .

ثم كيف يلام العربى فى نقل هذه الحضارة وأوربا قد قضت قرونا كما قال توفنر حتى بلغت الغاية التى وصل اليها مسلمو إسبانيا فى قرن واحد . وإن[(1)] إسبانيا نفسها مالبثت أن أدركت أن هؤلاء البرابرة كانوا أرقى فى العلم من كثير من شعوب أوربا النصرانية وقد تمتعت اسبانيا على عهد المسلمين بنجاح لم تصل اليه بعد ذلك واقتضى طوعا أوكرها أن يعترف الغربيون أن العرب يعرفون صناعات السلم كما يعرفون صناعة الحرب .

هذا وان دعوى من يدعى من الشعوبيين الغربيين أن الاسلام مانع من الترقى ما دانت به أمة إلا انحطت مردود بشواهد التاريخ الصادق ، وها هى أوربا بقيت[(2)] « ملفوفة فى حنادس الهمجية من بعد ما تنصرت بألف سنة ، وبلغ من جهلها وانحطاطها أن مائة عربى افتتحوا قسما من إيطاليا وقسما من سويسرا فى أوائل القرن العاشر[(3)] واستولوا على أكثر الجبال والمضايق وبنوا القلاع والأبراج وجاذبوا

(١) معلمة الاسلام Encyclopédie de L'Islam.

(٢) حاضر العالم الاسلامى بتعليق شكيب أرسلان .

(٣) يقول أحد الباحثين من الفرنسيس إن الدم العربى لا يزال متجليا فى جنوبى فرنسا ولا سيما فى سيرست وغيرها من جبال الآلب وفى إقليم السافوا وفى سويسرا وعلى بحيرة كنستنزا الى اليوم أناس سحناتهم شرقية عربية صرفة ، ولهم لغة خاصة بهم ويسميهم أهل تلك الأرجاء بالشرقيين أو أبناء الوثنيين . =

الجبـل بجميع ملوك تلك الأطراف ، وابثوا ماالكين هاتيك الحصون والقلاع ، ضار بين على أهالى تلك البـلاد الذلة والمسكنة نحو قرن تام ، ولم يكن عددهم أنمى ما نموا ، وأكثر ما كثروا ليزيد على ألف رجل ... فكما أن همجيـة أوربا لذلك العهد لم يكن السبب فيها الدين المسيحى ، فانحطاط الاسلام اليوم ليس السبب فيه الشرع المحمدى » .

المسلمون والمدنية ورأى علماء الغرب فيهم :

وليت شعرى ألا تشفع تلك الحسنات التى تمت بأيدى العرب فى العالم بما بدا فى المسلمين والعرب اليوم من هنات وضعف ، خصوصا إذا أنصف متعصبة الشعوبية وقابلوا بين حال المسلمين اليوم وحالهم منذ مائة سـنة مثلا . فالشرق الاسلامى أخذ فى عهده الأخير ينهض من سباته الذى دام قرونا : "وهو الآن فى طريقه[1] الى المسامحة والفهم والنور والارتقاء والإخاء يأخذ أيضا بأساليب الانسانية العظمى" وأمة هذه حالتها الحاضرة ومكانتها الغابرة ، تستحق أن تنتصف ويعرف لهـا حقها فى الحياة . نعم أصبح كثير من أهل الاسلام يتمثلون مدنيـة الغرب الحديثة من غير حرج ولا نكير ، ويأخذون من حضارته ما طاب لهم وقضت به بيئتهم . وهل هم إلا بقايا أمة أتت بمدنيـة باهرة ، مهما قال خصومها فيهـا ، لا يسعهم أن ينكروا أنها كانت الصلة بين مدنية الرومان القديمة وأهل المدنية الحديثة .

وفى الشرق اليوم حركة علمية طيبة وهبـة نحو العلى ، ولا ينقصـه إلا التنظيم والوحدة ، وهـذا ما ذهب اليـه موريس برنو[2] قال وقد طاف معظم أقطار الشرق

= ولم يبرح أهل مدينة كوزيليه على مقربة من كنترا كسفيل فى بلاد الفوج فى عزلة عن الفرنسيين لا يتزوجون من غير جماعتهم ، ولهم لغة خاصة . ومن عاداتهم أن لا يقيموا المراقص فى حفلاتهم ويحتجب معظم نسائهم وما فتئ فى كثير من أسمـائهم اسم «الله» ظاهرا كعبد الله وفتح الله وهم يحفظون أنسابهم ويفتخرون بأنهم من سلالة الفاتحين .

(١) أين يذهب الاسلام لروبر شوفولو Robert Chauvelot : Où va l'Islam

(٢) فى آسيا الاسلامية لموريس برنو Maurice Pernot : En Asie musulmane.

الاسلامى : " ظهر لى أن معظم الضعف فى الشرق منبعث عن تخلفه فى مضمار تنظيم نفسه وتوحيد كلمته ، فقد لقيت فى كل صقع زلته إلا قليلا الى جانب صفات طيبة من الذكاء وحسن الخلق ، نقصا فى الأساليب وضعفا فى التوازن يقرب من الفوضى ". وهو كلام سديد ووصف مجيد . فقد رأينا العبر أهابت بأبناء هذه المدنية المجددة فأدركوا نقصهم وحاولوا اللحاق بمن تقدموهم . لا جرم أن العهد لا يطول حتى يكون المسلمون كالأوربيين ، فان خمسين سنة تكفى لأمة منحطة حتى تأخذ ما عند أمة راقية . وما تعبت به أمم كثيرة قرونا طويلة يمكن استصفاء زبدته فى سنين قليلة ، ونهضة اليابان شاهدة على ذلك . أما المظاهر الأخرى فتحتاج الى زمن طويل . فقد حدث مرات أن بعض أبناء الهنود أخذوا العلم عن الغرب فثبت أن بين أفكارهم وأفكار الغربيين ومنطقهم ومنطقهم وعواطفهم وعواطفهم فروقا بعيدة المدى ، وليس معنى ذلك أنه يستحيل على الشرق أن يصبح كالأوربى حذو القذة بالقذة . كلا بل يكون الشرقى كالغربى بعد تعاقب الدهور والعصور ، كما وقع لأجداد الغربيين أن ظلوا نحو ألف سنة يتخبطون فى حالة تذبذب وتوحش حتى تأصل فيهم حب المدنية القديمة والأخذ منها .

هذا رأى لبون فى المسلمين ، وقد وقف حياته الطويلة على درس تاريخهم ومجتمعهم ، وقال فى كتابه نشوء العالم الحديث (١) : " إن المسلمين عامة وأهل تركيا خاصة هم أسرع الى الترقى من الروس ومن معظم الشعوب البلقانية . وما برح بعض المؤلفين يرونهم على جانب من الجهل فى السياسة والتاريخ ، شأن الشعوب نصف المتوحشة التى عريت نفوسها من الثقافة . وهذا الرأى فى المسلمين قد أوجزه القائلون به ببيان لهم أصدروه باسم بحث إفرنسى يونانى جاء فيه : "مهما قال القائلون فإن الإسلام كان ولا يزال أبدا مخربا عظيما ، وذلك لأنه لا يقبل علما غير الذى

---

(١) اسم هذا الكتاب بالفرنسية

Gustave Le Bon : L'évolution actuelle du monde - illusions et réalités.

تضمنه القرآن، فالإسلام وحشى متعصب وهو من أعظم البلايا التى ابتلى بها العالم ". قال لبون : " لا جرم أن كاتب مثل هذه المطاعن لم يرقط المصانع الإسلامية البديعة فى إسبانيا ومصر والهند ، وهو يجهل العمل العظيم الذى تم على أيدى الجامعات الإسلامية فى بعث المدنية الأوربية . ومع هذا نرى الكتب التى هى أدلة رجال السياسة المحدثين تكتب بمثل هذه الجهالات . وربما لم يكن رئيس الحكومة البريطانية يحسن غيرها يوم تخيل طرد المسلمين من أوربا " .

وقال أوجين يونغ (١) : العرب على ما يظهر جد محقوقين أن كانوا كلهم مسلمين فاضطهدوا بهذا السبب ظاهرا وباطنا، على حين كان لهم ماض يحق لهم أن يعجبوا به : ماض حربى ثم ماض فى العلم العالى والصنائع والرفاهية ، مما اتخذته أوربا فى القرون الوسطى أيام كانت نصف متوحشة دعامة لقيام النهضة الحديثة . ولعله يقال إن الأوربيين لا يقدرون أن يغفروا لأساتذتنا ما لقنوهم من المعارف. وقال : ليت شعرى هل القوة الاجتماعية فى الاسلام هى التى تقلق أوربا أو دولها العظمى؟ ربما كان ذلك لأن تعاليم الإسلام حرة فهو لا يقول بالطبقات ولا بالامتيازات ولا يدعو الى التسلط على نحو ما تدعو الكنائس النصرانية، وليس فى مطاويه شيء من الرياء السياسى الذى تنقاد اليه بعض الحكومات. إن شعار المسلمين الجميل هو تقريب القلوب والأرواح وهذه خطوة انتقال الى السلام العام ، وهذا ما يراد ولا شك القضاء عليه وما مصير من يعمل ذلك إلا الخيبة .

(١) يقظة الاسلام والعرب لأوجين جونغ
Eugène Yung : Le réveil de l'Islam et des Arabes

أمهات المسائل التي يرددها الشعوبيون

صدق الرسول فى دعوته :

ترد المسائل التى ضرب فيها متعصبة الشعوبية الإسلام الى بضع مسائل أمهات : صدق الرسول فى دعوته، صحة الكتاب الذى حمله لأمته، الاعتقاد بالقضاء والقدر، تعدّد الزوجات، الطلاق، الحجاب، الاسترقاق، المسكرات، الربا، التصوير. ونبدأ الآن بالكلام على رسالة صاحب الدعوة ثم نفيض فى المسائل المتنازع فيها فى فصول تلى فنقول :

تعسف المتعسفون فى العبث بسيرة الرسول فقال قائلهم إنه كان به صرع من إفراطه فى الأكل، وقال آخر إنه كان مصابا بالحمى الشديدة لطول صيامه، وزعم زاعم أنه كان مصابا بداء عصبي، وتابع كل من هؤلاء المشتطين هواه، وركب مركبا خشنا فى حكمه على الرسول بما ارتآه، حتى جاء ماسينيون من علماء المشرقيات فى فرنسا فأثبت أن محمدا كان مالكا لعقله ممتعا بصحته (١). ومن قبل أفحم كارلايل (٢) من أرادوا الحط من قدر الرسول قائلا لهم : " لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد ممدّن فى هذا العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب، وأن محمدا خدّاع مزوّر، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدّة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذى خلقنا، أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر

---

(١) حياة محمد لدرمنغم Emile Dermenghem : La vie de Mohamed

(٢) الأبطال وعبادة الأبطال لكارلايل تعريب محمد السباعى .

والإحصاء أكذوبة وخدعة . أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة، كان الأولى بها أن لا تخلق" . وما نظن أكبر محب للرسول يقول فيه وفى دعوته عن طريق المنطق أحسن من هذا .

وقال تولستوى الحكيم الروسى : " ومما لا ريب فيه أن النبى محمدا كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنسانى خدمة جليلة، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقى والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والاكرام " .

وقال وليم مويرفى كتابه « سيرة محمد » : امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة، فى زمن قصير كما فعل محمد" . ويؤخذ مما قاله لين بول : "أن محمدا كان يتصف بكثير من الصفات الحميدة كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق، حتى إن الانسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات فى نفسه من أثر، ودون أن يكون هذا الحكم صادرا عن غير ميل أو هوى، كيف لا وقد احتمل محمد عداء أهله وعشيرته أعواما، فلم يهن له عزم، ولا ضعفت له قوة، وبلغ من نبله أنه لم يكن فى حياته البادئ بسحب يده من يد مصافحه، حتى ولو كان المصافح طفلا، وأنه لم يمر بجماعة يوما، رجالا كانوا أو أطفالا، دون أن يقرئهم السلام، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة، وفى فيه نغمة جميلة كانت تكفى وحدها لتسحر سامعها، وتجذب القلوب الى صاحبها جذبا" . ومما قاله أيضا : " إن كثيرا من كتاب التراجم والسير من الأوربيين الذين تناولوا الكلام

على سيرة محمد لم يتعففوا عن أن يشوّهوا هذه السيرة بما أدخلوه عليها من افتراءات وادعاءات، كاتهامهم إياه بالقسوة وارتكاب الموبقات والانهماك فى الشهوات، وأنه كان دجالا دعيا وطاغية متعطشا لسفك الدماء " .

وعلل مونتيه (١) طعن بعض الغربيين على الرسول بقوله : "كثيرا ما حكمت عليه الأحكام القاسية، وما ذلك إلا لأنه ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثله، و إن ما قام به من إصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع، يمكن أن يعدّ به من أعظم المحسنين للانسانية" . وقال : "ولا مجال للشك فى إخلاص الرسول وحماسته الدينية التى تشبعت بها نفسه وفكره، فدعا إلى إصلاحه بعواطفه" . وقالت كاتبة إيطالية (٢) : "لقد عمد علماء المشرقيات مثل موير وسبرنجير قديما، وجولد صهير ونولدكه وكايتانى وغيرهم حديثا، الى استعمال أساليب فى النقد خالفوا فيها علماء المسلمين كل المخالفة، فتوصلوا الى الاعتراف بأمانة محمد، وأثبتوا بصراحة تختلف درجاتها أنه كان ولا مراء يصدر عن وحى، اختلفوا فى تأويله لما حاولوا بيانه على صور شتى لا يتأتى قبولها حتى فى رأى ناقد غير مسلم " .

وما أبدع ما قاله صديقنا خليل مطران فى الرسول :

بدا وللشرك أشياع توطده ... فى كل مسرح باد كلّ توطيد
والجاهليون لا يرضون خالقهم ... إلا كعبد لهم فى شكل معبود
مؤلهون عليهم من نحائتهم ... بعض المعادن أو بعض الجلاميد
مستكبرون أباة الضيم غرّ نُهى ... ثقال بطش لدان كالأماليد
لا ينزل الرأى منهم فى تفرقهم ... إلا منازل تشتيت وتبديد
ولا يضم دعاء من أوابدهم ... إلا كما صيح فى عفر عباييد

(١) حاضر الاسلام ومستقبله لمونتيه .
Montet : De l'état présent et de l'avenir de l'Islam.

(٢) مدح الاسلام للورا فشيا فاليرى .
.Laura Veccia Vaglieri : Apologie de l'Islam

ولا يطيقون حكما غير ما عقدوا لذى لواءٍ على الأهواءِ معقـــود
بأى حلم مبيد الجهــل عن كثب وأى عزم مــذل القادة الصيـد
أعاد ذاك الفــتى الأمى أمتـــه شملا جميعـا من الغــرّ الأماجيد
لتلك تاليـــة الفرقان فى عجب بل آية الحق إذ يُبْغَى بتأكيد
صعبان راضهما توحيـد معشرهم وأخذهم بعـد إشراك بتوحيـد
وزاد فى الأرض تمهيـدا لدعوته بعهـــده للسيحيين والهــود
وبدئه الحكم بالشـــورى يتم بها ما شاءه الله عن عدل وعن جود
هـذا هو الحـق والإجماع أيدهُ فمن يُفَنـدُه أولى بتفنيـدِ

يقول ابن حزم[1] إن العـرب كانت قوما لقاحا لا يملكهم أحد كمضر وربيعة وإياد وقضاعة أو ملوكا فى بلادهم يتوارثون الملك كابرا عن كابر فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله، وهم آلاف آلاف وصاروا أخوة كبنى أب وأم، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم الى رسله طوعا بلا خلاف غزو ولا إعطاءِ مال ولا مطمع فى عز بل كلهم أقوى جيشا من جيشه وأكثر مالا وسلاحا منه وأوسع بلدا من بلده . وهكذا كان إسلام جميع العرب أولهم كالأوس والخزرج ثم سائرهم قبيلة قبيلة ، لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم به من معجزاته ، وما اتبعه الأوس والخزرج إلا وهو فريد طريد ، قد نابذه قومه حسدا له إذ كان فقيرا لا مال له ، يتيما لا أب له ولا أخ ولا ابن أخ ولا ولد . أميا لا يقـرأ ولا يكتب نشأ فى بلاد الجهـل يرعى غنم قومه بأجرة يتقوّت بها فعلمه الله الحكمة دون معـلم وعصمه من كل من أراد قتله .

ويقول ماكس[2] مولر المستشرق الألمـانى: "سوف يعلم النصارى والدهشة آخذة منهم، أن محمدا من أنصار المسيح، وأن الديانة المحمدية هى من فروع النصرانيـة ، وإذ ذاك يدهش المسلمون والنصارى على السواء بما جاء فى تاريخهما من الخصام

(١) الملل والنحل لابن حزم . (٢) حقوق المرأة فى الاسلام لأحمد آجايف تعريب سليم قبعين .

والشقاق والعداء بسبب الدين". وقد وافق كثير من علماء المشرقيات في أوربا على رأي هذا العالم وعضدهم في ذلك كثير من الروس العقلاء أرباب الأفكار السامية أمثال فلاديمير سولوفيف وبيتروف وغيرهما . ويقول برنارد شو من كبار كتّاب الانجليز المعاصرين "لا يمضي مائة عام حتى تكون أوربا ولا سيما انجلترا قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة".

هذا والأديان في جوهرها واحدة تأمر بالخير، وتدعو الى مكارم الأخلاق، وتدفع الناس بعضهم عن بعض في هذه الحياة ليقوم نظام اجتماعهم على ما ينزع من صدورهم الأحقاد والتعادي، وحب القتل وسلب المال وهتك العرض، وتشعر قلوبهم الرحمة والعطف على الأسير العاني والشيخ الفاني واليتيم والبائس، والابتعاد عن كل ظلم واعتداء، وتذكرهم بأن لهم معادا ثانيا يثاب فيه المؤمن المحسن ويعاقب فيه من يجترح شيئا من السيئات يكون فيها تقويض أركان المجتمعات .

القرآن والإسلام :

اشتد متعصبة الشعوبية في الحط من القرآن الكريم، وقالوا وهم الأعاجم الذين يصعب على أكثرهم أن يتفهموه ويتدبروه، إنه غير منظم ولا مبوّب وإنه محتذى ومنقول، وإنه زيف مدخول، وإنه غير بليغ ولا فصيح، وبلغت القحة ببعضهم أن قالوا إن فيه أغلاطا نحوية، وركاكات بيانية . هذا والقرآن أبلغ كتاب للعرب، ولولاه لما كان لهم أدب ولا شريعة : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا ﴾ عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله مع أنهم خصوا بالتحدّي[1]، وكان للفصاحة عندهم المقام الأرفع، فاعترفوا بعد جدال طويل : "[2]أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه على أساليب الكلام المعتاد"

(١) تحدّى أقرانه اذا باراهم ونازعهم الغلبة وتحدّى صاحبه القراءة والصراع لينظر أيهما أقرأ وأصرع .
(٢) إعجاز القرآن للباقلاني .

جعله الله كما[1] قال على بن أبى طالب ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاج لطرق الصلحاء، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلجا لمن حاج به، وعلما لمن وعى، وحديثا لمن روى، وحكما لمن قضى .

القرآن أكبر معجزة للرسول هو المرجع[2] حين يجدّ الخلاف، وهو أيضا المعجزة الصريحة التى يعترّ بها العقل، ويصح للسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين، يحمل عدوه على الإيمان به والخشوع لديه، ولو صحت — لا صحت أراجيف الملحدين — من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود : ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ . ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرّفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا[3] أو تأتى بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتابا نقرؤه، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ . ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ .

فالقرآن باعجازه يضرب الأمثال للحاضرين بالغابرين، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويشتمل على أنواع من الأعمال كلف بها العباد[4]، ومشروعات لتأمين

(١) نهج البلاغة المنسوب لعلى بن أبى طالب . (٢) الموازنة بين الشعراء لزكى مبارك .

(٣) الظهير : المعين . وصرفنا : بينا . وكسفا : قطعا، والزخرف : الذهب .

(٤) تاريخ التشريع الإسلامى لمحمد الخضرى .

الدعوة وهي الجهاد، ومشروعات لتكوين البيوت والأسرة، وهي ما يتعلق بالزواج والطلاق والأنساب والمواريث ، ومشروعات لطريق المعاملة بين الناس ، ومشروعات لبيان العقوبات على الجرائم وهي القصاص والحدود . هذا هو الكتاب الذي أخرج للناس فيه هدى لهم وتطهير لنفوسهم ، وقواعد لقيام مجتمعهم ، وتذكير لهم أبدا بالمعاد ، وليس القرآن كتابا علميا يبحث في الكيمياء والفلك والطبيعيات وتقويم البلدان وتاريخ الإنسان، وإذا جاء فيه عرضا بعض إلماع الى ذلك فلا يصح دليلا على أنه حوى كل علم على ما زعم بعضهم ، وما القرآن إلا القانون الذي يحضّر الناس للحضارة، ويذكرهم بحياة ثانية إذا حسن التصرف في الأولى، تم ما وعد به المسلمون من الخير في الآخرة .

قال جان جاك روسو في القرن الثامن عشر : "من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ، ولو أنه سمع محمدا يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة، وذاك الصوت المقنع المطرب المؤثر في شغاف القلوب، ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان، لخر ساجدا على الأرض وناداه أيها النبي رسول الله خذ بأيدينا الى مواقف الشرف والفخار ، أو مواقع التهلكة والأخطار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار" .

وقال كارلايل في القرن التاسع عشر : " إن فرط إعجاب المسلمين بالقرآن وقولهم بإعجازه أكبر دليل على تباين الأذواق في الأمم المختلفة . والترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة " . وجاهر كلود فارير في القرن العشرين بأن " آيات القرآن جميلة وتحسن تلاوتها، فيها نفحة طاهرة عجيبة، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة، وتدعو الى حماية الضعيف وإلى عبادة إله واحد" .

نقتصر على رأي هؤلاء الثلاثة الحكماء في القرآن، وهناك كثيرون ذهبوا مذهبهم وقالوا بقولهم، وجاهروا غير مدلسين ولا موالسين . ويكفينا في بيان فضل الإسلام أن نعمد أيضا الى نقل كلام بعض علماء الافرنج فيه . فقد قال ولز المؤرخ الانكليزي :

”كان الإسلام فى أول أمره خاليا من التعقيدات اللاهوتية التى طالما ارتبكت بها النصرانية، وأحدثت شقاقا قضى على الروح النصرانى ، وليس للاسلام كهنة بل له علماء ومعلمون ووعاظ، وهو حافل بروح الرأفة والسخاء والإخاء، كما أنه ينطوى على عاطفة النجدة التى تنبت فى الصحراء، ولهذا جاز الى قلوب عامة الناس دون أن يجد ما يصدّه فى غرائزهم“ . وقال مونتيه[(١)] السويسرى : ”لما كان الإسلام دينا من الأديان أصبح قوّة أدبية عظيمة جدا جديرة بالاحترام من وراء الغاية، ولذا تقضى الحال بأن تقوم الصلات مع أهله على أساس الإخاء والحب، وأهم الشروط فى هذه الروابط الحسنة احترام الإسلام احتراما مطلقا . وإن هذا الدين بفضل ما نشره بعض الباحثين من العلماء المجرّدين عن الأغراض، وما وقف عليه بعض أرباب الرحلات قد أصبح معروفا فى أوربا معرفة تامة ، وغدا يقدر قدره أكثر من قبل“ . اه .

ورأينا عظماء من الغربيين لا يذكرون الإسلام إلا بالتعظيم، وعهدنا ببعض كبار رجال العقول من مؤلفيهم الذين اشتهروا بين العامة والخاصة كأناتول فرانس ، أنهم لم يذكروا الإسلام بأقل تعريض فى كتبهم الكثيرة، واستعملوا حريتهم فى الكلام على دينهم الخاص . وهذا لأن العقل لا يجوّز أن يخوض المرء عباب مسألة عظيمة، إن لم يكن استعد الاستعداد الكافى للنظر فيها بالدرس والتمحيص ، ومن أعظم ما يعاب به العالم أن يقول جزافا ، ويتكلم بلا وزن وروية ، والعاقل من يحرص على أن لا تبدو مقاتله ، ولا يستحى إن لم يكن عارفا من قول ”لا أدرى“ وقد قالوا إن لا أدرى نصف العلم .

وقال آرثر جلين ليونارد[(٢)] ”يجب أن تكون حالة أوربا مع الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة، وأن تكون حالة شكر أبدى بدلا من نكران الجميل

(١) الاسلام لمونتيه .

(٢) ايقاظ الغرب للاسلام لهيدلى تعريب اسماعيل حلمى البارودى .

المقـوت والازدراءِ المهين . فإن أوربا لم تعترف الى يومنا هـذا بإخلاص طوية وقلب سليم بالدِّين العظيم ، المدينـة به للتربية الإسلامية والمدنيـة العربية . فقـد اعترفت به بفتور وعدم اكتراث عنـد ما كان أهلها غارقين فى بحار الهمجية والجهل فى العصور المظلمة فقط . ولقد وصلت المدنية الإسلامية عنـد العرب إلى أعلى مستوى من عظمة العمران والعلم، فأحيت جذوة المجتمع الأوربى وحفظته من الانحطاط . ولم نعترف، ونحن نرى أنفسنا فى أعلى قمـة من التهذيب والمدنية، بأنه لولا التهذيب الإسلامى، ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم فى مسائل العمران، وحسن نظام مدارسهم، لكانت أوربا الى اليوم غارقة فى ظلمات الجهل.

قال هل نسينا أن التسامح الإسلامى كان يختلف اختلافا شديدا عن الحالة التى كانت عليها أوربا إذ ذاك ، هل نسـينا أن الخلافة نشـطت فى أعظم أيام الانحطاط الرومانى والفارسى ، وأن السـواد الأعظم من أوربا كان فى غشاوات الوحشية السوداء القاتمة . أتهمل أوربا، حقدا منها وإنكارا للجميل، تلك الأعمال التى قام بها العرب وتركوها وراءهم فى كتبهم . ألم نك ممن فقد نشاط العالم الإسلامى فى عصره الذهبى العجيب وذلك فى عصوره الأولى ولاسيما فى زمن العباسيين. وكيف ننسى الخسارة الفادحة التى جنيناها على آداب الغرب، بل الجناية التى جنيناها على العالم أجمع ، بتدميرنا عن جهل وغرور ألوفا من كتبهم ساقنا الى إبادتها التعصب النصرانى . ألا يقال إن أوربا النصرانية بذلت كل ما فى وسعها منذ قرون لتخفى يد العرب فيها ، وسوف لا يطول الأمر حتى يعترف بهـذه الصنيعة . دع أوربا بل القارة النصرانيـة تعترف بخطئها ، دعها تعلن للعالم أجمع غباوتها الغزيرة، لقلة إسداءِ الشكر الواجب عليها . إنها ستضطر بعد الى الاعتراف بالدين الأبدى المدينة به للاسلام " . وقال إدموند يورك : " القانون المحمدى قانون ضابط للجميع، من الملك الى أقل رعاياه ، وهو قانون نسج بأحكم نظام حقوقى ، وأعظم قضاء علمى، وأعظم تشريع منوّر، لم يسبق قط للعالم إيجاد مثله " .

وقال جان مليا (١) : "من الواجب أن يطرح بعد الآن ما ادعاه فى القرآن بعض المتفلسفين من الفرنسيس، فالقرآن تجب تلاوته بتؤدة وليس فيه مايتهمه به الأعداء من أنه ملقن التعصب . والإسلام دين سماوى ، وهو دين حب وعاطفة وشرف وأكثر الأديان تساهلا " .

يقول لبون (٢) خلال كلامه على أن وحدة الإسلام الخلقية واحدة من أساسها لأن الإسلام قام على كتاب واحد وهو القرآن : "إن هذا الكتاب قانون دينى وسياسى واجتماعى وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون" . قال : "ولقد انحلت بالتدريج السلطات السياسية الإسلامية من عهد المملكة العربية الى دولة الأتراك الحديثة ، وبقدر ما كان يتراجع سلطانها على البلاد كانت تفتح أرواحا ونفوسا ... إن سذاجة الدين الإسلامى وإيمان المؤمنين به، قد أورثاه قوة، فهو يكتفى بقول لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، قام بالدعوة الى هذه الحقيقة ، والمسلمون إخوة لأنهم يعبدون إلها واحدا وشريعتهم واحدة، يبغضون ما يبغضون، ويحبون ما يحبون، ويجمع الحج كل سنة فى مكة جماعات المؤمنين من كل صقع ولغة ، وعلى ما عرف به الشرع الإسلامى من الصلابة، قد أخذ يسير على قاعدة النشوء والارتقاء، وبعبارة أخرى على الأسلوب الأوربى ، وإذا كره العلماء فتح باب الاجتهاد ، فانهم يعدلون الأحكام القرآنية فى المسائل المهمة، وقد تم الإصلاح بمصر فى هذا المعنى " . اهـ .

وقال أيضا : "إنه بفضل تجار من المسلمين يدخل فى إفريقية ألوف من الوثنيين فى الإسلام حتى ليكاد هذا الدين يمدنهم وإن المسلم حيث يمر يترك أثرا من دينه، وإن من الممالك مالم يطأه المسلمون فاتحين فوطئها أناس منهم متجرين، مثل بعض أنحاء الصين وإفريقية الوسطى وروسيا . والمسلمون فى هذه الأقطار التى نزلها

(١) قرآن فرنسا لجان مليا Jean Mélia : Le Coran pour la France .

(٢) التائج الأولى للحرب لجوستاف لبون

Gustave Le Bon : Premières conséquences de la guerre.

تجارهم أصبحوا يعدّون بالملايين " . وقال نقلا عن دوفال : " إن الفتيشية[1] وعبادة الأصنام تزول من الأرض بفضل الإسلام ، وكذلك الضحايا البشرية وأكل لحوم البشر ، وبالإسلام تقدّست حقوق النساء ، وإن كان ذلك الى حدّ أدنى بكثير من الحق المطلق ، وزواج ثنتين قد هذب من حواشيه ، وخفف من انتشاره ، وتوطدت روابط الأسرة وأصبح العبد عضوا فيها ، وأخذت الزكاة تطهر الأخلاق العامة وترقيها ، والشعور بالعدل والإحسان يتخلل القلوب ، وأنشأ سادة الشعوب يعرفون أن عليهم واجبات مثل ما على رعاياهم ، واستقام المجتمع على أسس ثابتة ، فاذا كان هناك كثير من سوء الاستعمال كما هو الحال عند غيرهم ، فان على العدل الإلهى عقابهم ، والرجاء فى حياة مستقبلة سعيدة هنيئة يرى منه تعزية كل من خانهم الدهر وظلمتهم الأيام . هذه بعض الحسنات التى تنتشر فى كل مكان ينتشر فيه الإسلام فى وسط المجتمعات المتمدنة .

وقال إن قليلا من الامم فاقوا العرب فى المدنية ، وما عهد شعب نجح مثله هذا النجاح الباهر ، فى مثل هذه الحقبة الصغيرة من الدهر ، وقد أنشأوا فى باب الأديان دينا من أعظم الأديان التى حكمت العالم ، وكان تأثيره ولا يزال شديدا ، وأقاموا فى باب السياسة مملكة من أعظم الممالك التى عرفها التاريخ ، ومن حيث التأثير العلمى والأخلاقى مدّنت العرب أوربا ، وقد قل فى العناصر من بلغ مبلغهم ، كما قل فى العناصر من نزل الى درجتهم فى السقوط .

وقالت فاليرى : " فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها ، لبعدها عن مدى الأفهام ، على حين كان الإسلام عجيبا فى سهولته ، صريحا فى فروضه . وهذا كان سببا آخر فى سرعة انتشاره بين الشعوب التى اضطربت أخلاقها كل الاضطراب ، بما أصابها من الشك المضنى بعقائدها الدينية . وهذا

(١) الفتشية أو الفتيش هى عبادة الأوثان أو الحيوان ويعتقد منتحلوها بالسحر والتعاويذ ويذبحون البشر ويسترق بعضهم بعضا وقيل إن أصل هذه اللفظة برتغالى .

أيضا كان[1] ولا يزال السبب فى انتشاره المتواصل بين الأمم المتوحشة فى آسيا وإفريقية لنفوذه الى أرواحهم ، دون الحاجة الى التطويل فى شرحه والتلطف فى الدعاية له". اهـ.

وقال جيبون : "جاءت الشريعة المحمدية عامة فى أحكامها يخضع لها أعظم ملك وأقل صعلوك ، فهى شريعة حيكت بأحكم منوال شرعى وليس لها مثيل فى العالمين". وقال ليودوروش : "إن الإسلام دين إنسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعا فيه ، بل إننى عدت الى الشريعة التى يسميها جول سيمون "الشريعة الطبيعية" فوجدتها كلها أخذت عن الإسلام . ثم بحثت عن تأثير هذا الدين فى نفوس المسلمين ، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف ، فى عالم لا يعرف الشر واللهو والكذب ، فالمسلم ساذج لا يظن بأحد سوءا ، ولا يستحل محرما فى طلب الرزق ، ولذلك كان أقل مالا من اليهود ومن بعض النصارى". قال : "ولقد وجدت فيه حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا : الأولى فى قول القرآن : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية . والثانية فرض الزكاة على كل ذى مال ، وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا ، إن امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا ، وهذا دواء الفوضوية".

وقال ماسينيون[1] : "يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر فى موارد الجماعة ، والإسلام ينبذ التبادل غير المقيد ، كما يناوئ بالعداء الأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة ، فى حين أنه شديد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورءوس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفا وسطا بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية . وللاسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع

(١) من مقالة لمحمد حسين هيكل فى السياسة.

آخره مثل ما للاسلام ماض كله النجاح فى جمع كلمة مثل هـذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات، ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى فى إفريقية والهند والهند الشرقية، والجماعات الصغيرة منهم فى الصين واليابان على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى لا سبيل الى التوفيق بينها". وقال أحدهم(١) فى الزكاة: "وكانت هذه الضريبة فرضا دينيا يتحتم على الجميع أداؤه، وفضلا عن هذه الصفة الدينية، فالزكاة نظام اجتماعى عام، ومصدر تدخر به الدولة المحمدية ما تمد به الفقراء وتعينهم، وذلك على طريقة نظامية قويمة، لا استبدادية تحكمية ولا عرضية طارئة، وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه فى تاريخ البشرية عامة". "فضريبة الزكاة التى كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والأغنياء على دفعها لتصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من أفرادها، هدمت السياج الذى كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة، ووحدت الأمة فى دائرة اجتماعية عادلة، وبذلك برهن هذا النظام الإسلامى على أنه لا يقوم على أسس الأثرة البغيضة".

هذا وقد رأينا بعض السفسطائيين ممن لا شأن لهم إلا المغالطة يدعون أن الإسلام لم يأت بجديد فى الأديان وأنه اقتبس من النصرانية واليهودية. وكيف يأتى دين الفطرة بجديد وهو يبتعد عن التعقيد فيما يصلح الناس فى معاشهم ومعادهم. فاذا أمر بالعدل والإحسان وأمرت بذلك الأديان الأخرى كيف يتأتى أن يقال إنه اقتبس ذلك من غيره، وهل من سبيل الى أن يحدث الدين الجديد شيئا يقال له عدل أو إحسان، ويكون عدلا جديدا أو إحسانا لا عهد به للناس، وهل يؤول العدل على معنيين: فيكون فيه العدل القديم والعدل الجديد. بل إن بعض الشعوبيين من الغربيين يدعون أن الإسلام أخذ حتى فقهه عن قانون يوستنيانوس الرومانى. ومعلوم أن الفقه الإسلامى مأخوذ من الكتاب والسنة والإجماع والقياس بما لا يقبل

(١) من مقالة لماركس فى المجلة الاسلامية الانكليزية عربتها جريدة الجامعة الاسلامية.

الرد. وممن قال بهذا الرأى جولد صهير المجرى[١] قال إن العرب أخذوا من الفقه الرومانى، وبنى قوله على الحدس والتخمين، ذلك لأن العرب كانوا فى الفتح كما زعم على حالة ابتدائية وكلهم أميون فوجدوا فى العراق والشام فقها وفى إدارتها الخاصة فقها فأخذوه وتمثلوه. هذا رأى جولدصهير ولم يأت عليه بدليل بل دليله الاستنتاج العقلى الخاص. وقد قابل سعيد الخورى[٢] الشرتونى الفقيه اللغوى اللبنانى بين القانون الرومانى والفقه الإسلامى، وبين الأصول التى استند اليها المسلمون فى فقههم، فأسقط دعوى المدعين على الشرع المحمدى فى مقالات له جوّدها، وردّ بها كيد من كادوا للاسلام منذ أول ظهوره، وما زالوا على كيدهم الى هذا القرن. وبعد أن وضح الحق فى هذه المسألة لا ندرى إن كان المتفيهقون يعودون بعد الى إثارة هذه الدعوى الباطلة، شأنهم فى كثير مثلها، يقولون ما يعتقدون وما لا يعتقدون بالرأى المجرّد عن البرهان، ويثيرونها فتنة شعواء مجازاة لحظوظ النفس.

عقيدة القضاء والقدر :

تعدّ عقيدة القضاء والقدر من أصول العقائد فى الإسلام، وكان منها قوة المسلمين لأول أمرهم، علمتهم الجرأة والاقدام، وبعثتهم[٣] على اقتحام الممالك ففتحوها : "هذا الإعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلى الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة" و"الذى يعتقد بان الأجل محدود، والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد" : "هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام الأعداد القليلة

(١) معلمة الإسلام مادة فقه.

(٢) مجلة المقتطف : م ٢٩ ص ١٢٧، ٣٩٣، ٤٨٦، ٥٦٩، ٦٦٥، ٧٩٤، ٨٦٩، ٩٨١، ١٠٢٥

(٣) من مقالات محمد عبده فى مجلة العروة الوثقى.

منهم (أي العـرب) أمام جيوش يغص بهـا الفضاء، ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقفهم، وردوهم على أعقابهم. بهذا الإعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات[1] الحروب من أهل المغرب" : " وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم لايخشون فقرا ولا يخافون فاقة. هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم الى ساحات القتال في أقصى العالم. يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج اليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح" "وليس في الطوائف المسلمة من يعتقد مذهب الجبر المحض القائل بأن الإنسان مجبور محض في جميع أفعاله، مسـلوب الاختيار عن نفسـه بالمرة، وكلهم يعتقدون بأن لهـم جزءا اختياريا في أعمـالهم ويسمى بالكسب، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بمـا وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية. وطائفة الجبرية التي انقرضت أواخر القرن الرابع من الهجرة كانت تذهب الى أن الانسـان مضطر في جميع أفعاله اضطرارا لا يشـوبه اختيار، ولا يقول به أحد من أهل الاسلام اليوم، ويزعم الافرنج أن هذه العقيدة ماتمكنت من نفوس قوم إلا سلبتهم الهمة والقوة، وحكمت فيهم الضعف والضعة، وأن المسلمين بسبب هذه العقيدة التي كان بها تجلدهم وإقدامهم لن يبرحوا عرضة للفاقة والفقر، والتأخر في القوى الحربية والسياسية، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون، ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة".

هذا غاية ما يقال في حقيقة هذا الاعتقاد، ولطالمـا حمل شعوبية الغرب على الاسلام بسببه، وهو اعتقاد كان من دواعي فلاح أهله في القرون الأولى وما فسدوا

(١) يقال سطعت الهبوة والهبوات وصار هباء وهو دقاق التراب الساطع في الجو كالدخان ومايثبت في ضوء الشمس.

إلا يوم : " ابتلوا بمن فسد[1] من المتصوفة من عدة قرون، فبثوا فيهم أوهاما لا اسبة بينها وبين أصول دينهم، فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ولكنها وساوس، قد تملك الجاهل وتربك العاقل، فنشأ الكسل بين المسلمين، وعاونهم على الاسترسال فيه ملوكهم، وهذا الضرب من المتصوفة جاءهم من الآريين أى من الفرس والهنود" .

وإنا لنرى الاعتقاد بالقضاء والقدر فى مذاهب الغربيين أشد ظهورا فى كتابهم منه فى الإسلام، وآيات القدر فى الكتاب المقدس تربو على ما ورد فى القرآن الكريم من نوعها. وما نجح أهل النصرانية والإسلام فى الحقيقة إلا يوم اعتدلوا فى اعتقاد ما اعتقدوه، وأخذوا مختارين بالأسباب والمسببات . ومن الإنصاف أن لا نحكم على الغربيين بما نشاهد من سخافات عامتهم، وما انغمسوا فيه من اعتقاد الخرافات، ومقاومة البديهة فى كل مايرده العقل السليم، ومن حسن الذوق أن لا يحمل الغربيون علينا بعمل العوام منا ، وما كان العامة يوما المعيار الذى يحكم به على أمة، ذلك أن الخاصة كانوا فى كل عصر لا إلى إفراط ولا تفريط فى هذه المسائل لأنهم حكموا العقل وأولوا النصوص ، وساروا فى مسائل الدين والدنيا بروح عصورهم ، ولم يخرجوا عن حدود المعقول فى المنقول . وأنت ترى أن هذه العقيدة التى كانت من محسنات الإسلام، أصبحت للجهل الطارئ من مضعفاته، ذلك لأن أهل المجتمع الإسلامى لم يعملوا بهذه العقيدة قلبا وقالبا كما كان أجدادهم فى الدهر الخالى ولا نبذوها من أصلها فاتكلوا على عملهم فقط . والضعف يعرض لأرقى المجتمعات فيفسد الصالح ، والعوارض تهجم على الأمم، ولا تزال تتوالى عليهم ما توالى الليل والنهار .

هذا ومن تدبر الآيات الكثيرة الواردة فى الكتاب العزيز فى الحث على العمل، ومن ألم إلمامة خفيفة بسيرة الرسول والصحابة، يعرف أن عقيدة القضاء والقدر ما منعت المسلم يوما من تعاطى الأسباب . فقد قال تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى

(١) الاسلام والنصرانية وكتاب الرد على هانوتو وكلاهما لمحمد عبده .

الله عملكم ورسوله ﴾ . ﴿ وإن جادلوك فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾ . ﴿ وسيرى الله عملكم ﴾ . ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ . ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ . ﴿ والله معكم ولن يتركم(١) أعمالكم ﴾ . ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم(٢) من أعمالكم شيئا ﴾ . ﴿ نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ . ﴿ وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ . ﴿ وليوفينهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ . ﴿ إنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ . ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ . ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ . ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ . ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت ﴾ . ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾ . ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ . ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ . ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ﴾ . ﴿ لنذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ . ﴿ إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ . ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ . ﴿ من يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرا يره ﴾ . ﴿ سيجزون بما كانوا يعملون ﴾ . ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ . ﴿ ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ . ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ . ﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ .

تعدّد الزوجات والطلاق :

أصبحت بعض المشكلات التي نال بها شعوبية الغرب من الإسلام قرونا طويلة ، مما لا يستنكر أمره عند الغربيين اليوم ، ومن ذلك ما كان بعض مؤلفى الغرب يعدّونه من جملة العوامل فى انحطاط المسلمين ، كالطلاق وتعدّد الزوجات .

(١) يتركم : ينقصكم . (٢) لا يلتكم : أى ينقصكم من لاته يليته ، أو ولته يلته .

أخذ أهل المدنيات الحديثة بالطلاق فى مجتمعاتهم على العهد الأخير، ولا يبعد أن يدخل عليهم بعد قليل بمقياس أوسع مما كان عند المسلمين . فإنه يتم فى الولايات المتحدة الأميركية كل سنة أكثر من مائتى ألف طلاق، وفى أوربا يبت فى عشرات الألوف من هذه القضايا ولا سيما فى فرنسا . وقد كان الطلاق مألوفا معروفا عند الأمم القديمة كالعبرانيين واليونان والرومان ، وكان للرومانى الحق أن يقتل زوجته ، وكثر الطلاق فى عهد الجمهورية الرومانية، ولو لم تعدل النصرانية من شرة الطلاق عند الأمم التى دانت بها، لظل الطلاق يقضى على المرأة الى القرون الأخيرة .

ومن الغريب أن يصبح الطلاق اليوم عند المسلمين الى جانب القلة ، ويكثر عند من كانوا الى أمس ينكرونه أشدّ الإنكار ، وما فتئ يزيد مع الأيام انتشارا . أبيح الطلاق للضرورة وهو محظور فى نفسه وفى الحديث : « لا تطلقوا النساء إلا من ريبة إن الله لا يحب الذوّاقين ولا الذوّاقات » . وفيه أيضا : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » . وورد فى آيات الطلاق ضروب من الرفق بالمرأة وأساليب فى إقصاء الرجل عن الإقدام على الطلاق ما أمكن . قال تعالى : ﴿ فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ . ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ . ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا[1] أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا والصلح خير ﴾ . ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ . ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدّتهن وأحصوا العدّة واتقوا الله ربكم، لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ . ﴿ وبعولتهن أحق بردّهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا ﴾ .

(١) النشوز : ترك المضاجعة والتقصير فى النفقة .

أما تعـدّد الزوجات للضرورة التى أباحها الشرع بقيود، كما هو منطوق الذكر الحكيم فهو أيضا ممـا أخذ يخف بين المسلمين، ولا يلجأ اليه إلا للضرورة الحافزة فى البوادى والقرى على الأكثر . أبيح تعدّد الزوجات بشرط العدل بين الزوجات وإلا منع . قال تعالى : ﴿ فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة ﴾ . والمراد بالعدل هنا العدل فى القسم أى المبيت والنفقة لا العدل فى ميل القلب وهو المنتفى فى قوله : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساءِ ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل﴾ . قال سريو وهو من المشهود لهم بحل الأحكام الإسلامية : " أجيز الطلاق[1] ولكن وضعت له قواعد تفضل إلغاء طلاق مستعجل لم يتروّ فيه ، ولكى يكون الطلاق ممـا لا يقبل الرجعة تلزم ثلاث طلقات يفصل بين كل منهـا قروء[2] معينة " . وقد رد لبون على الإقتصادى " لوروا[3] بوليو " يوم زعم هذا أن نظام تعدّد الزوجات عند المسـلمين كان من موجبات جمودهم فقال : " إن تعدّد الزوجات المشروع عنـد الشرقيين أحسن من تعدّد الزوجات الريائى عند الأوربيين ، وما يتبعه من مواكب أولاد غير شرعيين " . وقال : " إن النساء المسلمات قد أخرجن فى الدهر الغـابر من المشهورات العالمـات بقدر ما تخرج مدارس الإناث فى الغرب اليوم " .

وما كان تعدّد الزوجات فى الإسلام من موجبات انحطاط أهله على ما صوّره الشعوبيون، بل دعا لأوّل أمره الى تكثير سواد المسلمين يوم كانوا فى حاجة اليه، وكان الرجال أقل من النساءِ بتواتر الحروب والفتوح وبه حفظ كيان المسلمين ولولاه لدثرت عدّة بيوت لقلة النسل فيها، فلما رقى الزمن وكثرت مطالبه خف تعدّد الزوجات بطبيعة الحال ، وما كان الإسلام مبتدعا فى هـذا التعدّد، فان ذلك كان من المألوف عنـد الأمم حتى إن موسى وداود أكثرا من الأزواج . قال لبـون :

(١) المرأة فى الاسلام ، عربها عبد الرحمن شهبندر عن كتاب روح الاسلام للقاضى أمير على الهندى . مجلة المقتبس م ٢ ص ٢٦١ و ٢٦٩

(٢) القرء ويضم الحيض والطهر وهو ضدّ ج أقراء وقروء وأقرؤ .

(٣) روح السياسة لجوستاف لبون Gustave Le Bon : Psychologie politique .

إن شيعة المورمون الأميركية القائلة بتعدّد الزوجات لم يمنعها اعتقادها هذا من الارتقاء، ومن متحليها من يتزوج عشر نساء، وقد كان البرتستانت هناك حاربوها إبان ظهورها حرب إبادة وتدمير، فهرب من دانوا بالمورمونية الى ولايات أخرى، ونشأت لهم في خمسين سنة مدنية زاهرة، وأسسوا بكدهم في أرض كانت قفراء ممحلة ما يغبطون عليه من الصناعات الراقية، والزراعات المتقنة، والمعامل والمصانع، والمدن الزاهرة ". ولقد سئلت إحدى نساء المورمون عن رأيها في تعدّد الزوجات فقالت: " أفضل أن أكون المرأة العاشرة لرجل سام بمداركه على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل متوسط ".

وقال لبون[1] أيضا: ما جاءت العرب في تعدّد الزوجات بأمر بدع، فقد كان هذا الزواج شائعا قبل الإسلام عند العرب واليهود وغيرهم من أمم الشرق، دعت اليه ضرورة الحياة عندهم، وضرورة الهواء والعنصر، وأمور أخرى في حياة الشرقيين. فان تركيب جسم المرأة، وضرورة الولادة والأمراض وغيرها تضطرها أحيانا أن تبتعد عن زوجها، وأصبح من المتعذر تحت سماء الشرق وفي هواء مثل هوائه، ولمزاج المشارقة الخاص، الصبر على هذا البعاد، فغدا زواج اثنتين ضربة لازب[2]. وفي الغرب يتطلب المناخ من أهله أقل من ذلك. والزواج من واحدة مذكور في قوانين الغرب فقط. وقل أن كان محتفظا به في الأخلاق. ولماذا كان الضرّ الشرعي عند الشرقيين دون الزواج بواحدة عند الأوربيين، على ما فيه عند هؤلاء من النفاق والرياء، ونحن نعرف مكانة الزوجين وأهواءهما، ثم إن الشرقيين يرون الاستكثار من النسل ويحبون عيش الأسرة والبيوت، وما عرف عنهم من الشعور بالعدل لا يسمح لهم أن يتخلوا عن المرأة الشرعية التي لم ترقهم، كما هو الشأن في الغرب، ولذلك وافقت الشريعة على ما كان راسخا من هذا القبيل في الاخلاق. ولا يبعد

(١) حضارة العرب لجوستاف لبون. Gustave Le Bon : La civilisation des Arabes,

(٢) اللازب: الثابت، وصار الأمر ضربة لازب أي شديدا ثابتا.

أن تقرّ قوانين أوربا الضرّ ذات يوم كما هو فى الشرق لسرايته الى الأخلاق . ثم إن من البيوت القائمة على الزرع والضرع فى الشرق ما يضطر صاحبها الى التزوج من ثنتين ، وقد يكون ذلك بإلحاح من الزوجة الأولى لضعفها وحدها عن تعهد شؤون البيت والزراعة، يضاف الى هذا غرام الشرقيين بالإكثار من النسل، وعدّهم من الشقاء ان لا يولد لهم أولاد، ومنهم من يتزوّج لهذا الغرض .

الى أن قال : إن المنافسة والحسد لا شأن لها فى هذا الزواج من ثنتين، فأكثر أوهامنا الأوربية تقنعنا ولا شك بأنه من المتعذر أن تكون الحال كذلك، ولا نستحسن هذا لأننا نراه من المستحيل . وما ذلك إلا لأننا نعقل أبدا بعواطفنا، ولا نحاول أن نتمثل عواطف غيرنا . وفى بضعة أجيال تزول أو تقوم بعض الأوهام . فعلينا أن ندرك كم تغير رأينا فى هذا الموضوع، عند ما رجعنا الى العصور الابتدائية للجتمعات، وقد كانت فيها النساء مشتركات بين أفراد القبيلة الواحدة، أو إلى العصور الأقرب منها والى أيامنا حيث نجد هذه الأخلاق محفوظة فى بعض أنحاء الهند ، يكون للمرأة الواحدة عدة أزواج من أسرة واحدة . قال ولم يقتصر الإسلام على الاحتفاظ بالضرّ الذى كان شائعا عند العرب بل أثر تأثيرا حسنا فى حالة المرأة ورفع من شأنها، وحسن من حالتها الاجتماعية ، فقد رأينا القرآن رفع مقام المرأة أكثر من كثير من قوانيننا الأوربية ، وخير طريقة لنقدر قدر التأثير الذى أحدثه الإسلام فى تحسين حالة المرأة فى الشرق، أن نبحث عما كانت عليه حالها قبل القرآن .

ثم أورد من الكتاب العزيز الآيات الآمرة بالتوصية بالمرأة وتوسع فى بحث أخلاق المسلمين، وفى أن تعدّد الزوجات والاعتقاد بالقضاء والقدر لم يكونا السبب فى تأخرهم ، فقال : إذا أريد البحث فى أخلاق أمة لا يكتفى بالبحث فى دينها فقط ، لأن تعاليم الأديان كلها طيبة من حيث الأخلاق ، ولو طبقت بحذافيرها لا نبسط على الأرض ظل العصر الذهبى . والطريقة المتبعة فى مبادئ الأديان تختلف بحسب المحيط والعصر والعنصر و بأسباب أخرى كثيرة ، ولذلك كانت الشعوب

المختلفة وهى تدين بدين واحد، ذات أخلاق متغايرة على الغالب، وهـذا ما ينطبق على جميع الأديان المعروفة ، ومنها دين المسـلمين . فإن قواعد القرآن فى الأخلاق تامة ، ولكن تأثيرها مختلف بحسب العناصر والبيئات والأجيال . ولقـد كانت أخلاق العـرب فى أوائل الإسلام أرقى من جميع الشعوب التى كانت تعيش لذلك العهد ولا سيما النصارى ، وما ذلك إلا لأن عدلهم واعتدالهم ورفقهم وسماحتهم مع الأمم المغلوبة، وحرصهم على مراعاة عهودهم، وما امتازوا به من الأخلاق العالية، كل ذلك كان ممـا يتجلى فى صورة مدهشـة تناقض سيرة الأمم الأخرى ، ولا سيما الأوربيون على عهد الحروب الصليبية .

قال وإذا أردنا أن ننسب الى الدين التأثير الذى ينسبونه اليه فى العادة،وجبْ علينا ان نقول إن أدب القرآن كان أرقى من أدب الإنجيل،لأن من دانوا بالإسلام من الشعوب كانوا أعلى أدبا من النصارى . وأدب المسلمين مختلف اختلاف أدب النصارى بحسب العوامل الكثيرة التى عددناها : كان عاليا كثيرا فى بعض العصور، ومنحطا للغاية فى الأخرى . إن طول عهد الأتراك وما حملوه الى الناس من أحكامهم السياسية قد حط من أخلاق الشرقيين الذين خضـعوا لهم ، وكانت أهواء الرؤساء والمرءوسين القانون الوحيد فى كل بلد حلوه . والمرء عرضة لجور صـغار الظالمين ممن لا يطمعون إلا بان يغتنوا باسـتلاب الناس ، لا عدل يرجى ، ولا شيء ينال بغير الرشوة والمـال . فالأخلاق الحاضرة فى الشرقيين، ممن قـدّر لهم أن يخضعوا لحكم تركيا هى بالضرورة منحطة، والقرآن بعيد عن هذا الانحطاط، كما أن الانجيل غير مسئول عن الانحطاط المماثل له الذى صارت اليه الشعوب النصرانية العائشة فى ظل ذاك الحكم أيضا . ومما تقدّم يتجلى فساد الرأى الشائع فى أوربا من أن دين محمد أدى ببعض الشعوب الشرقية الى هذه الدرجة من الانحطاط فى الأخلاق التى تحلوا بها . ومثل هذا الرأى هو نتيجة تلك السلسلة من الأوهام ، ومنها أن القرآن قال بتعدّد الزوجات ، وان الاعتقاد بالقضاء والقـدر الذى هو من أحكامه يؤدّى

بالناس الى الخمول، وأن محمدا لم يطلب ممن يدينون بدينه إلا القيام بفروض سهلة على الاستعمال . وهذا من الأغلاط التى تسقط بالبداهة . فقد رأينا تعدّد الزوجات شائعا فى جميع الشرق قبل بعثة محمد بقرون ، وأن القرآن لا يدعو الى الاعتقاد بالقضاء والقدر أكثر من الكتب الدينية الأخرى ، واعتقاد العرب بهذا لم ينزع من نفوسهم حب العمل ، فقد رأيناهم أنشأوا مملكة عظمى ، وأحكام القرآن فى الأخلاق هى فى الذروة العليا كسائر الكتب الدينية .

قال وإذا ثبت أن القرآن هوالذى أخر المسلمين فى الشرق، فعلينا أن نثبت أنه كان على الشرقيين الذين لايقولون بتعدّد الزوجات، ولا بالقضاء والقدر كالنصارى فى سورية مثلا أن ينجوا من هذا الانحطاط . على أننى لاأعرف مؤلفا درس الشرق قليلا، إلا وهو مضطر إلى الاعتراف بأن النصارى فى الشام هم أحط أخلاقا من المسلمين . وبعد فقد آن لنا أن نقول إن أدب القرآن، هو مثل أدب غيره من الأديان ، وأن الشعوب الخاضعة لسلطانه قد اختلفت أخلاقهم كل الاختلاف، مثل الشعوب الخاضعة لشريعة المسيح، بحسب العصور والعناصر، وكانوا عرضة لعوامل ما كانت فيها قواعد الدين هى العامل الأكبر . وأهم ما يستنتج مما تقدّم أن التأثير العظيم الذى أثره القرآن فى الشعوب الخاضعة لأوامره، قلما أثره دين فى نفوس منتحليه، وربما لم يكن لدين من تأثير دائم كما كان للقرآن، وما القرآن إلا القطب الحقيق الذى تدور عليه الحياة فى الشرق ونرى تأثيره فى عامة أعمال الحياة . اه .

الحجاب :

ربما كانت أهم مسألة يحمل بها اليوم على الإسلام شيوع الحجاب فى المسلمات عند سكان بعض المدن الإسلامية . ويدعى الشعوبيون المحدثون أن الضعف المستولى على بعض الممالك أتى من تحجب المسلمات ، لصدّه لهن عن مشاركة الرجال فى مضمار الحياة العقلية والمادّية ، وأن الحجاب أهاب بهن الى حياة الكسل ، وحبب اليهن البهيمية، فانحطت البيوت، وفقدت العناية بتربية البنين

والبنات، وهكذا تسلسل الانحطاط فى أهل الاسلام بهذا السبب الذى جعل المرأة أداة عبث ولهو للرجل، على حين خولتها الطبيعة حقوقا حال الحجاب دون التمتع بها، وضيقت الشريعة خناقها فتعطل نصف الأمة عن الجهاد فى المجتمع .

هذه خلاصة دعواهم وقد وضع القرآن قانونا للنساء فى الآداب والحشمة والابتعاد عن التبذل والتبرج الى غير ذلك مما فيه سعادة البيوت وهناؤها، والبعد بالمؤمنين والمؤمنات عن عادات الجاهلية الأولى، وسنّ لنساء الرسول خاصة سنة التستر حتى لايؤذين، ولا يدخل عليهنّ وعلى الرسول بدون استئذان، على ما كانت عادة العرب بل الأعراب يأتون ذلك بخشونة يأباها العقل السليم، وتقضى بخلافها قواعد حسن العشرة فى المجتمع الجديد : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحدا فلاتدخلوها حتى يؤذن لكم، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وماتكتمون ﴾. ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلاأن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه(١)، ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق، واذا سألتموهنّ متاعا(٢) فاسألوهنّ من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾. والآية الأولى ظاهرة المعنى، ومعنى الثانية الحظر على المؤمنين أن يدخلوا بيوت النبي وعلى أزواجه للطعام والتحدّث أو غير ذلك إلا اذا أذن لهم ودعاهم الى طعام حاضر ناضج لئلا يطول مقامهم بحضرته، وأمروا اذا طعموا أن يخرجوا واذا سألوا شيئا أن يسألوه من وراء الستر لأن الرسول كان يتأذى بمن كان

(١) إدراكه وانتهاء حرّه.

(٢) متاعا : شيئا .

يطعم ولا يستأذن فى الخروج، وأنه لايجوز نكاح نساء الرسول من بعده لأنهن أمهات المؤمنين .

كان نساء النبي يخرجن بالليل لحاجتهن[١]، وكان أناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين فشكون أمرهن فقيل ذلك للمنافقين ، فقالوا إنما نفعله بالإماء فنزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساءِ المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ﴾ . فأمرن أن يخالفن زى الإماءِ ويدنين عليهن من جلابيبهن، تخمر المرأة وجهها إلا إحدى عينيها . وجاء فِى آية أخرى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهنّ ولايبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آباءِ بعولتهن أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإرْبَةِ[٢] من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ . وفى هذه الآية إشارة الى التستر والى من يسوغ له أن يرى المرأة بزينتها من أهلها . وفسر المفسرون وليضربن بخمرهن على جيوبهن أى يسترن الرؤوس والأعناق والصدور بالمقانع[٣] . وقالوا : إن الشريعة أباحت للمرأة أن تظهر وجهها وكفها بل وذراعيها وقدميها . وبكشف الوجه لا يجوز أن نقول إن هناك حجابا بالمعنى الذى فهمه المتأخرون . ومعنى ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن أى لايظهرن حركات من شأنها أن تشعر الرجل بأن هذه المرأة متحلية بحلى وخلاخيل وغيرها .

ومن آيات الحجاب : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساءِ إن اتقيتن فلا تخضعن

(١) طبقات ابن سعد . (٢) أصحاب الحاجة الى النساء .

(٣) جمع مقنعة ما تقنع به المرأة رأسها أى تغطى .

بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن[1] فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ . ﴿ والقواعد[2] من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴾ .

هذا هو الحجاب فى الإسلام، أما فى الأمم القديمة السالفة فقد كان شائعا منذ أقدم العصور فى بابل وأشور وفى فارس والروم والهند ، وعند بعض أهل الجاهلية من العرب، فاحتفظ الاسلام بالقسم المفيد منه . وقد شعر المسلمون بالحاجة الى حجب النساء بعد أن استحكمت عوائد الحضارة والترف ، وذلك خوف الفتنة وصيانة للمرأة ممن يؤذيها فيؤدى ذلك الى خلل فى نظام البيوت، فاشتدت مع الزمن وطأة الحجاب فى الشام والعراق وفارس لتأصله فيها منذ القديم، ثم سرى الى معظم الأقطار الاسلامية، وهذا فى المدن خاصة . واختلف الحجاب باختلاف البلاد فمنها ما كان فيه متأصلا قبل الاسلام، ومنها ما لا عهد لها به فكان خفيفا كما هو الحال فى بلاد القوقاز، والبنت فيها لا تحتجب الى اليوم مادامت عانسا غير متزوجة . وقد وصف ابن بطوطة فى رحلته زيارته للسلطان محمد أوزبيك فى مدينة استرخان ، وذكر كيف كان النساء سافرات فى قصره[3]، مما دل على أن التتر أقل من العرب أو الذين دخلوا فى العرب المستعربة فى الأخذ بمذاهب الحجاب، والسبب فيه أن التتر أو جنس الترك أقرب الى البداوة منهم الى عيش الحضارة وتحجب التتر الى اليوم لا يعد شيئا ، ولذلك كان نساء الأتراك العثمانيين أقل نساء السلطنة تحجبا ، لأن التركيات منذ الدهر الغابر لا يعرفن الحجاب، فكان استعدادهن ظاهرا منذ القديم لقبول الأتراك مبادئ الكاليين اليوم، القائلة برفع الحجاب بالمرة على صورة أشد مما هو عند الفرنج .

---

(١) من القرار وأصله أقررن بكسر الراء وفتحها من قررت بفتح الراء وكسرها .

(٢) القواعد من النساء هن اللائى قعدن عن الحيض والولد لكبرهن و يضعن ثيابهن من الجلباب والرداء والقناع فوق الخمار . (٣) رحلة ابن بطوطة .

" والواقع أن الحجاب هو وليد العادات أكثر مما هو محصول الدين، والحجاب[١] حادث في بدء تأخر الأمم الاسلامية ثم تأكد وثبت منذ أصدر المتوكل والقادر بالله العباسي أوامرهما بمنع النساء من الصلاة في المسجد ومخالطة الرجال في الحفلات والاجتماعات " .

ولو كان الحجاب معروفا أوائل الإسلام على نحو ما صار اليه في العصر الأخير والذي قبله ، لما تيسر للصحابيات والتابعيات وغيرهن من نساء العرب أن يصحبن أزواجهن في الحروب ، وكان من نساء المسلمات المترضات يسلمون اليهن الرثيث أو المرتث ، ولطالما غزا الرسول بالنساء يداوين الجرحى ويُحذَين[٢] من الغنيمة . ومنهن الداعيات المحمسات والمعاونات للحاربين على تخفيف شظف العيش ، ومنهن من كن يبرزن سافرات كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما على ما اشتهر من جمالهن ، يجتمعن الى الرجال من غير نكير[٣] ، وعائشة زوج الرسول هل كان يتأتى الأخذ عنها وعن غيرها من نساء الرسول وغيرهن لو كان النساء محجبات بغير الحجاب الشرعي أي ظاهرات الوجه والكف وربما الذراعين والقدمين .

وفي تاريخ الاسلام عشرات من الأمثال والحجج يمت بها السفوريون المتعدلون وهم لم ينسوا أن من النساء من كن يحاربن بالفعل أو يجلسن وراء الجيش يحمسن الرجال ، فاذا ولى أحدهم من الزحف ينهلن عليه بالضرب والتقريع . وما فات القائلين بالحجاب أن تستر المرأة في القديم كان على حالة يرضاها الشرع ولا يأباها المجتمع ، فما منع نساء المسلمات من أخذ العلم والسعي للرزق والرحلة والتنقل والعمل على مافيه السعادة الزوجية والبيتية بما لم يخرج المرأة عن طبيعتها الى طبيعة أخرى لم تخلق لها وليس لها الاستعداد الكافي للقيام بها .

(١) من مقالة في الحجب والحجاب بقلم الشرقاوي (البلاغ ٢٧ ربيع الثاني سنة ١٣٥٢) .

(٢) الرثيث : الجريح . ويحذين : يعطين .

(٣) طبقات ابن سعد و بلاغات النساء لأحمد بن أبي طاهر والمرأة في جاهليتها وإسلامها لعبد الله عفيفي .

وبهذا عرفنا أنه كان للحجاب صورة أخرى مثل التى نراها اليوم فى القرى والبوادى . وفى الحقيقة ان الشريعة حظرت الخلوة بالأجنبي والتبرج أمام غير المحارم، وأى عقل سليم لا يستحسن هذا منها . وهل أعظم فى باب المغريات من تبذل المرأة فى خلوتها بالغريب وظهورها بمظهر من الزينة نابٍ عن المعقول وقانون الحياء . ولو كان الحجاب غليظا كما يصوّره بعضهم بحيث كان مانعا للمرأة عن العمل، هل كنا نرى هذا العدد الدثر فى التاريخ من النساء المتعلمات والمحدّثات والواعظات والأديبات وغيرهن منذ عهد الصحابيات الى اليوم ؟ وهل كنا نرى نساء كثيرات ساهمن الرجال فى إدارة الممالك؟ أو ساعدن أزواجهن على أعمالهم العظيمة فكان شطر من توفيق الرجال يحسب لأزواجهن المتعلمات .

روى الجاحظ قال : لم يزل الرجال يتحدّثون مع النساء[1] فى الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبي خاصة، وأن النساء الى عهده من بنات الخلفاء وأمهاتهم فمن دونهم يطفن بالبيت مكشفات الوجوه، ونحو ذلك لا يكمل حج إلا به . قال ولا يكون محادثة إلا ومعها ما لا يحصى عدده من النظر، إلا أن يكون عنى بالنظرة المحرّمة النظر الى الشعر والمجاسد[2] وما تخفيه الجلابيب بما يحل للزوج والولى ويحرم على غيرهما، ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين ونساء يجلسن للناس . وذكر أسماء كثيرات منهن وقال : كن يبرزن للناس أحسن ما كن وأشبه ما يتزين به، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب .

لا جرم أن عادة الحجاب قد نفعت وأضرت فى بعض الأقطار فى العهد الأخير لخروج الحجاب عن حقيقته، فارتكبت باسمه موبقات مؤلمة وأخر سير المرأة فى مضمار الترقى فضاعت الحكمة منه أو كادت . وقد عالج هذه المسألة الاجتماعية الخطيرة بعض علماء الأمة فى أوائل هذا القرن وفى مقدمتهم قاسم أمين فأخذته الألسن، ولغطت بما كتب وتعاورت الأقلام ما كتبه بالجرح والتعديل، ونجح الفريق

(١) رسالة القيان للجاحظ . (٢) المجاسد جمع مجسدة : القميص الذى يلى البدن .

الذى قال بقوله الى حدّ لم يكن يتصوّره، وذلك لإثبات قضيته بالحجج المستعارة من الشرع وتاريخ الملة . على أن تيار القائلين بكشف الحجاب قد فاض بفعل المدنية الحديثة، بل بفعل الطبيعة التى لا تبقى إلا على الأنسب . وقد أزال الأتراك حجاب نسائهم بقانون سنوه وعملوا به، وكاد الحجاب عن المصريات يزول ، بدون أن تعمد مصر الى تشريع جديد، أو تلجأ الى الشدّة والضغط، ونشأ ذلك من اختلاط الشرق بالغرب، وأهل مصر من أكثر الأقطار الاسلامية اختلاطا بأهل الغرب . وقد رأى المستنيرون منهم بقبس الحضارة الحديثة ، أن مضار السفور أقل من مضار الحجاب ، فاختاروا طوعا أو كرها أخف الشرين، وهكذا تعمل بلاد إيران اليوم فيغضى القائمون بالأمر فيها عن السافرات فى المدن ولا يمضى زمن طويل حتى يزول الحجاب أو يدخله تعديل كثير فى معظم البلاد الاسلامية، فيصبح النساء فى تحجبهن الى حالة وسط لا إفراط فيها ولا تفريط .

وقد رأى قاسم أمين نفسه ، وحقا ما رأى، أن الغربيين[1] قد غلوا فى إباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصوّن المرأة من التعرّض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء . وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرّج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات وحرمناها كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدّت لها بمقتضى الفطرة الانسانية، و بين هذين الطرفين حجاب وسط وهو الحجاب الشرعى . اه .

قال هملتن من علماء الانجليز: "إن أحكام الاسلام فى شأن المرأة صريحة فى وفرة العناية بوقايتها من كل ما يؤذيها و يشين سمعتها، ولم يضيق الاسلام فى الحجاب كما يزعم بعض الكتاب، بل إنه تمشى مع مقتضيات الغيرة والمروءة" .

و بعد فليس من المعقول ما وصلت اليه أكثر نساء الغرب من التبذل فى السفور، وحالتهن فى المجتمعات والسمر والشوارع مما لا ينطبق كثيرا على المعقول ويخشى

(١) تحرير المرأة والمرأة الجديدة لقاسم أمين .

منه الفتنة، والرجل رجل مهما تهذب، والمرأة امرأة مهما ارتقت، بيد أن عادة ألفها الغرب قرونا وأدخلها فى مجتمعه مختارا ، ليس للشرق الاسلامى ما يوجب عليه السير فيها على أثره. فما يلائم الغرب قد لا يلائم الشرق، وما كان لأمة أن تتحدى أمة أخرى لها مميزاتها وعاداتها، لتحملها على قبول ما اصطلحت هى عليه . والحجاب نفسه قد كان مألوفا فى الغرب الى القرن الثالث عشر ، ثم أخذ يرق حتى وصل الى ما وصل اليه .

وما نخال عقلاء الغرب وعلماء الأخلاق فى أوربا وأميركا إلا مقبحين عادة التبذل التى صار اليها بعض النساء عندهم ، لما ينبعث عنها من المفاسد الاجتماعية التى لا يسع مكابرا إنكارها . وأى عقل سليم تجرّد من المؤثرات يقول مثلا بالرقص الغربى ، وما يتبعه من مخاصرة وضم وشم . واذا كان الرقص فنا من الفنون كما يقولون ، ليس فيه ما يدعو الى مواقف التهم ، فلم لا يرقص الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة . على حين جعلوا من أمهات قواعده أن يرقص الرجل مع المرأة إلا ما ندر . ولولا ابتذال الحجاب والتفلت من التصوّن المحمود ، هل كانت تبلغ الفتنة الى هذا الحدّ . ومن أجل هذا رأينا بعض المدن الأوربية ثابت الى رشدها فكبحت بعض الشىء من جماح الجامحات فى هوى السفور . ومن الأمم من كثر فيها مذهب العرى ، وتناغى فى فائدته الجنسان على صورة لا يجوّزها عقل إنسان ، لأنها تقرّب الآدميين من جنس الأعجم من الحيوان .

وفى الغرب اليوم كثير من العلماء ينادون بالويل والثبور لترك النساء البيوت واختلاطهن بالرجال فى المعامل والمصانع ، ولا سيما بعد الحرب العامة . فقد قال برتراند رسل[1] إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة فى الأعمال العامة ، وقد أخذ النساء فى الحرب يكتسبن رزقهن فاستقللن استقلالا اقتصاديا ، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرّد على تقاليد الأخلاق المألوفة ، وتأبى أن تظل أمينة لرجل واحد إذا تحررت

(١) مجلة الشبان المسلمين .

اقتصاديا . وقال صموئيل سميلز[١] : إن البنات العاملات فى المعامل حرمن التبصر وسلامة الرأى ، فهن سريعات الشعور بالاستقلال ، ينبذن ما لآبائهن من النفوذ عليهن ، ثم يغادرن بيوتهن وينهمكن فيما ينهمك فيه إخوانهن من الرذائل ، وتساعد البيئة التى يعشن فيها على تحريك شهواتهن البهيمية فيكنّ سببا فى نشر الفساد والشر. وقال أحد علماء البلجيك[٢] : ولقد شوهد فى كل زمن أن النساء عندما تتهيأ لهن الأسباب للانتفاع بمواهبهن ولاحراز الشهرة ، لا يلبثن أن يصبحن مستخفات — كالرجل نفسه — بمزية الطهارة والشرف القائلة بالعفة التى اختص بها النساء قديما وحديثا ، وإن من الملكات والممثلات والمؤلفات وذوات الأعمال فى القديم من عبثن بالعفاف .

الاســـترقاق :

لشدّ ما أنحى أرباب الأهواء على الاسلام لتجويزه الاسترقاق ، مع أنه كان شائعا كل الشيوع عند الأمم الغربية[٣] وعند جميع الأمم القديمة ، بل إن الرق نشأ مع حياة الانسان[٤] وكان معروفا فى كل العصور وعند كل الأمم الى يومنا هذا . قالت فاليرى : وحاول أعداء الاسلام أن يحطوا من قدره لإقراره الرق ، ولكن حالة الرقيق عند المسلمين باديهم وحاضرهم هى أكثر سماحة مما يظن فى أوربا ، على ما أجمعت عليه كلمة السياح الغربيين . وليس من العدل أن يقابل بين الرق فى الشرق وما هو عليه فى أميركا . قالت : واذا نظرنا الى هذا الأمر نظرا تاريخيا نرى رسول

(١) كتاب الأخلاق لصموئيل سميلز تعريب محمد الصادق حسين .

(٢) هل هناك خلق جديد — بحث فى مجلة الآداب وعلوم الأخلاق والسياسة فى بلجيكا .

Bulletin de la classe des Lettres et des Sciences morales et politiques de Belgique (1930) : Y a-t-il une nouvelle morale ?

(٣) أصل الأفكار الأدبية وانتشارها لوستر مارك :

Edward Westermarck : L'origine et le développement des idées morales.

(٤) كتاب الرق فى الاسلام لأحمد شفيق ومحمد المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى .

الله قد تفوّق أيضا فى هـذا الباب بصورة عجيبة واستشهدت بحديث : « لا يقل أحدكم عبـدى أَمَتى وليقـل فتاى فتاتى وغلامى » . قالت : وأى إنسانية أحسن من هذه .

كان الرق معروفا فى شريعة موسى ، وكان يسترق العبد سبع سنين ، ثم يعتق ويعامل بالحسنى ، وأعطى الرومان للسترق حرية مطلقة على عبده ، يميته ويحييه إن أحب ، وربمـا بلغ عدد الرقيـق فى بعض أدوار الرومان ثلاثة أرباع الأحرار . ولا يسترق العربى وما المسترق إلا من كان غير عربى ، أو أخذ بالشراء أو فى الحرب . وقد حبب الاسلام العتق للـالك أى فك رقبته ، ووعده العفو إذا هو أطلق سراح عبده وأمته . وفى الكتاب والسنة آيات وأحاديث كثيرة فى الاسترقاق والعطف على الرقيق وحسن معاملته ، حتى كاد الرقيق يعدّ نفسه من الأحرار ، وأهم جزء فى البيت الذى اسـترقه . والمسلمون يعاملون الرقيق كما يعاملون أنفسهم ، يوسعون عليـه ، ويعلمونه ويثقفونه ، ويرفعون منزلته ، ويزوّجون الرجل ، ويتزوّجون الأمة ، تعجيلا لانقاذهما من الرق . وعدّ الكتاب العزيز من القربات العظمى تحرير رقبة ، وما ملكت الأيمان ، ذلك لأن البلية كانت قد عمت وطمت العالم بالرقيق ، ففتح الاسلام مخرجا لمن قضى عليه سـوء طالعه أن يقع فى يد من يبيعه . وكان للنخاسـة فى الشرق والغرب ولا سيما فى بلاد اليونان والرومان سوق وأى سوق . وكان النخاسون فى رومية يصاحبون الجيش الرومانى يسترقون أولاد المغلوبين لاستعبادهم ، وتعريض نسائهم للجند يقضون أوطارهم منهن .

يقول وسـترمارك إن المؤرخين فى الغرب بالغوا كثيرا فى زعمهم أن الكنيسة عاملت الرقيق برفق ، فقد جاء القرن الثالث عشر وللسيد على عبـده الحق المطلق فى إحيائه وإهـلاكه ، وكان يباع فى جميع بلاد النصارى ، كما تباع السلع . قال : وكانوا يمنعونه من تعلم القراءة والكتابة ويعاقب من يخالف ذلك عقابا شديدا لأن الناس يستفيدون من جهله لأنه لا يعمل ما يراد به اذا تعلم .

كثر الرقيق أوائل الاسلام بكثرة الفتوح، ومن الإماء من استولدهن كبار العرب فجاء منهن أولاد نجباء خدموا الاسلام وأدخلوا فى العرب دما جديدا بتمازج عنصرين مختلفين (١)، وبعد فاذا أعتق المالك عبده يبقى له الولاء عليه أو عليها، وهذا ما نفع المعتِق والمعتَق، حتى قال الرسول إن الولاء لحمة كلحمة النسب. ويكون الرقيق غالبا من الروم والفرس والحبشة والسودان وغيرهم من الأمم المجاورة لجزيرة العرب والتى حاربت العرب. ومن هؤلاء الموالِى من دان بالاسلام، أو من ضرب عليه الرق، ثم أصبح مولى. وكثير من أبناء الأسرى الذين رباهم المسلمون وعلموهم القرآن والسنة شاركوا الصحابة وكبار التابعين من العرب فى العلم والتعليم ولم يوجد مصر إلا وفيه من الموالِى المتعلمين عدد وافر، ومن الأمصار ما كانت الغلبة فيه للموالى أكثر من فقهاء العرب.

كان المولى عند العرب فى المنزلة دون الحر الصريح، وفوق العبد الرقيق، والمولى مولى عتاقة ومولى تباعة. فمولى العتاقة هو الذى يكون عبدا أو أسيرا فيعتقه صاحبه، فيصبح المعتَق للمعتِق مولى، ومولى التباعة هو من يصطنع ويحالف أى يستتبع. وفى كتب الفقه فصول ضافية قلما تقرأ اليوم إلا للاطلاع على أحكام الرقيق قبل أن تقوم انجلترا فى القرن الماضى فتنفق عشرين مليونا من الجنيهات لتعتق فى مدة قصيرة سبعمائة وخمسين ألفا من هذا الصنف المظلوم من البشر. هذا

(١) قال الجاحظ كان الناس لا يرغبون فى السرارى فلما رأوا القاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبد الله ابن عمر وعلى بن الحسين بن على وليس فى المدينة ولا فى الحجاز ولا بالعراق ولا فى الأرض مثلهم وهم من أولاد السرارى رغبوا فى السرارى، وكان معاوية يقول لولا بيعة ليزيد فى أعناق المسلمين لجعلتها شورى بين القاسم ومحمد. ولم يكن فى شبان بنى مروان مثل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز فى الزهد والبيان والسداد وهو ابن أمة، ولم يكن فى بنى مروان أشجع ولا آدب ولا أحلم ولا أجمع ولا أكثر فتوحا ولا أيمن نقيبة من مسلمة بن عبد الملك وهو ابن أمة، وكفاك باسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام وهو ابن هاجر وهى أمة. قال: وأربعة من أئمة الحسينية أولاد الاماء: وهم على بن الحسين وموسى بن جعفر وعلى بن موسى ومحمد بن على بن موسى، فهؤلاء خلفاء الشيعة وبنو العباس الذين هم خلفاء أهل السنة والجماعة أكثرهم أبناء الاماء. وقال الثعالبي ليس فى خلفاء بنى العباس من أبناء الحرائر إلا السفاح؛

غاية ما يقال فى الرقيق فى الاسلام ، وهى مسألة كان لها شأن عظيم فى كل مجتمع وحشى ومتمدين. وفى بعض البلاد فى إفريقية وآسيا التى قضى عليها أن ينزلها الغرباء مستعمرين اليوم شيء يشبه هذا الرقيق ولكن بأسلوب آخر ، كأن يمتلك الأبيض الأسود أو الأحمر امتلاك السيد عبده ، ليشغله فى أرضه ومعمله ، ويصرفه على هواه ، ولكنهم يسمون هذا استعمارا لا استرقاقا .

ولا يسعنا ونحن فى موقف المؤرخ إلا أن نشير الى ما ينزله الجنس الأبيض من الانجليز والألمان والفرنسيس والايطاليين والبرتقاليين من أنواع العذاب فى الجنس الأسود فى إفريقية ، فقد جرّد الانجليز جنسا من الرعاة اسمهم الماتبليون من قواهم المادية بما أرادوهم عليه من التوقيع على معاهدات راغ فيها الذين أملوها كما تروغ الثعالب ، أملوها على شعب فطر على السذاجة وسلامة القلوب ، ومن هؤلاء البيض من يغالون فى تدخلهم ببلاد شعوب لاتستطيع الدفاع عن نفسها ، وذلك للرغبة فى تملك الثروات الطبيعية والأخذ بكل حيلة للتسلط والتوسع ، وتاريخ الكونغو البلجيكية والكونغو الفرنسية يذكر بأبشع ضروب الاستثمار وأفجع أساليب الاستعباد . فقد اعتاد الأوربيون بعد أن يصادروا الوطنيين فى أملاكهم أن يطالبوهم على صورة ضرائب بتسليم عصارة المطاط (الكاوتشوك) ، وكان الوطنيون يقايضون عليه من قبل بالسلع الأوربية ، فعمد الغربيون لأجل استخراج كمية أوفر من هذا العصير الثمين الى أساليب من إرهاق الزنوج البائسين هى العذاب بعينه . يستحلون ضربهم وتعذيبهم وحجر أموالهم واستباحة نسائهم وإجاعتهم فنتج من ذلك أن ركن السكان الى الهجرة فخلت البلاد من أهلها — قاله أدمون دى موريل الانجليزى فى كتابه ألم الجنس الأسود (The black man's burden) .

ولقد قال أحد المبشرين الانجيليين[1] ان الأوربيين قد جنوا على السلالة السوداء جنايات كثيرة لا مندوحة لهم عن التكفير عنها ، فانقرضت أكثر أمم المونغوى

(١) حاضر العالم الاسلامى للوثروب استودارد .

والفالوة والنكومى وغيرها بما أتاه من الحيف فيهم النخاسون البيض، وكانوا يصطادون أبناءهم ويستعبدونهم ويبيعونهم وكان أكثر أرباح التجار البيض من تجارة السلاح والبارود والمسكرات فانقرض سكان البلاد بذلك بما فشا فيهم بواسطة الأوربيين من الفجور. اهـ.

وما أرحم الرقيق القديم بالقياس الى هذا الرق الفظيع فى القرن العشرين.

المسكرات :

تدرّج الشارع فى النهى عن الخمر، وقد سئل عن الخمر والميسر، فأجاب بلسان القرآن : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾. ثم نهى المؤمنين عن الصلاة وهم سكارى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾. ثم جاءت آية النهى المؤكد : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾. وعن أنس لقد أنزل الله تحريم الخمر وما بالمدينة شراب يشرب إلا من تمر.

وكان تعاطى الخمر من عادات الجاهلية التى لم يقرّها الاسلام، وهناك عادات كانت مألوفة أبقاها بحالها، وحرّم أشياء من المأكولات لثبوت ضررها فقال تعالى : ﴿ حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما زكيتم وما ذبح على النصب[1] ﴾. وفى الحق

(١) الميسر : كمجلس اللعب بالقداح أو هو الجزور التى كانوا يتقامرون عليها، اذا أرادوا أن يسيروا اشتروا جزورا نسيئة أى بالدين ونحروه وقسموه ثمانية وعشرين قسما، أو عشرة أقسام فاذا خرج واحد واحد باسم رجل رجل ظهر فوز من خرج لهم ذوات الأنصباء وغرم من خرج له الغفل. والأنصاب والنصب جمع نصاب وهى الأصنام. والأزلام : جمع زلم (بفتح الزاى وضمها مع فتح اللام) قدح صغير لا ريش له ولا نصل وكانت سبعة عند سادن الكعبة عليها أعلام وكانوا يحكمونها فان أمرتهم ائتمروا وإن نهتهم انتهوا. ومعنى ما أهل لغير الله به أى ما ذبح على اسم غيره. والموقوذة : المقتولة ضربا. والمتردية : الساقطة من علو الى سفل فماتت. والنطيحة : المقتولة بنطح أخرى لها. وما أكل السبع إلا ما زكيتم : أى أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه.

إن القول بصلاح المسكرات وعدمه لا يحتاج الى مناقشة بعد أن ثبت لأمم الغرب أنها ضارّة، وأخذت تقاومها بكل حيلة لما عرف من إضرارها بالعقول والأجسام والمجتمعات حتى قال كليمانسو من كبار ساسة فرنسا : إن الغَوْل (الألكحول) بالكمية التي يتناولها كثير من معاصرينا هو سم زعاف يخرب النشاط البشرى بل يقضى على كل مجتمع . وقال هريو[1] : إن معظم من فى ملاجئ المجانين — بسبب الغول — يكلفون الحكومة نفقات باهظة كان الأولى بها أن تنفقها على المعوزين البائسين ، والأمة التى تبقى على هذه السخافات تحكم على نفسها بالفناء .

ومن غريب الآراء التى قال بها أحد علماءِ الأميركان قوله إن المسلمين[2] كانوا أيام تعاطيهم الخمور تزهر مدنيتهم ، وتأتى بأعمال جليلة فى الفتوح والأفكار ، والمسلمون أبناء شعوب تشرب الخمور، وقد اشتهرت بالفاتحين منهم فى إسبانيا خمور ملقة وشريش ، ولما استبدل المسلمون القهوة بالخمور فى القرن الخامس عشر، سقطت الحضارة الإسلامية من شاهق مجدها ، بعد ثلاثة قرون مضت على إبدالهم الغول بالقهوة .

ولا شك أن هذا الرأى صادر عن رجل أولع بحبا الخمرة، وشق عليه أن يرى أمته تحظر فى بلادها تعاطيها لما ثبت لها من إضرارها بالناس . وأى إيغال فى الخيال، وتضليل للعقول، و إفساد للتاريخ، أعظم من أن يدّعى هذا المؤلف أن كل حضارة قامت فى الأرض تمت على أيدى شعوب تشرب الخمور ومنهم المسلمون، وأن يزعم أن هؤلاء كانوا أرقى كعبا فى الحضارة لما كانوا يعاقرون الخمرة، مع أن الثابت فى القرون الأولى للإسلام أن أهله كانوا أقل شربا للسكرات، بل إن من أهل الجاهلية من صانوا أنفسهم عن تعاطيها حفظا لمروءتهم . ولذلك اشتدّ العرب يوم قيام دولتهم بالإسلام فى إقامة الحدود على الشاربين . وما نتلوه من أخبار مجالس الشراب

(١) الايجاد لهريو . Herriot: Créer.

(٢) فلسفة الحضارة لتونر . R. H. Towner: La philosophie de la civilisation.

فى قصور بعض الأمراء والخلفاء والعظماء مبالغ فيه، بل منه الموضوع بلا جدال، وقد لا يقصد منه إلا النادرة ، أو الحط من قدر ملك أو خليفة أو أمير أو كبير، لأنه كان من أهم المطاعن فى إنسان كونه يتعاطى شيئا من مذهبات العقول .

والظاهر من مضامين التاريخ الإسلامى أن من ابتلوا من الأمراء والسلاطين بشرب الخمور، واسترسلوا فى بلائهم، كان منها زوال دولتهم، وانقضاء أيام سلطانهم. بما نال أعداؤهم منهم لكونهم ماقدروا وهم شريبون خميرون أن يجعلوا لأعمالهم وأقوالهم وزنا، وشغلوا بأنفسهم أى بسكرهم، وألقوا الأعمال على عاتق من ائتمنوهم فخانوهم .

وإذا كان تعاطى أقداح الراح يؤدّى كما قال المؤرّخ الأميركى الى تأصل الحضارة فى الأمة، وقيام أمرها على أمتن الدعائم ، فما بالنا لاندعو الى الخمور نشربها حتى نستعيد حضارتنا السالفة، ولا نأتى ما أتته أميركا اليوم من هذا الترتيب الجاف كما يدعونه أى الذى يدعو الى الامتناع عن الغول مهما كان نوعه . وننجو بذلك من العار فى احتساء القهوة السوداء، مستعيضين عنها بالقهوة الحمراء والبيضاء والدكناء والصفراء !

هذا الأميركى يشتط هذا الشطط فى التغنى بتأثير الخمور فى إنهاض الأمم من كبوتها، وهو من جلالة القدر على ما ظهر لنا من كتابه بحيث يستغرب بروز مثل هذه الآراء من مثله، وبنتام الإنجليزى[1] يقول فى القرن الماضى: "النبيذ فى الأقاليم الشمالية يجعل الرجل كالأبله ؛ وفى الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون، ففى الأولى يكتفى بالمعاقبة على السكر على أنه عمل سيئ، وفى الثانية يجب منعه بطرق أشدّ، لأنه شبيه بالتشرد ، ولقد حرّمت ديانة محمد جميع المشروبات المسكرة وهذا من محاسنها" .

وقال القس إسحق طيلر الإنجليزى خلال كلامه على انتشار الإسلام فى إفريقية: "إن الإسلام حيث سار تسير معه الفضائل ،-فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره،

(١) روح الشرائع لبنتام ، تعريب أحمد فتحى زغلول .

والشجاعة والإقدام من جنوده وأنصاره". وقال: إنه يأسف لانتشار السكر والفحش والقمار بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم. ثم صرح بأنه يختار إسلاما لا سكر فيه على نصرانية فيها سكر. وقال مونتيه: "الواجب على المسلمين أن يحتفظوا بما حظرته الشريعة عليهم من تناول المسكرات، فإن في هذا المنع قوتهم وتماسكهم".

الـــربا:

بقيت مسألة الربا الذى ادّعى بعض الغيورين على مصلحة المسلمين أن امتناع المسلمين من تعاطيه كان فيه ضعفهم وفقرهم. والحقيقة أن المسلمين لما غالطوا أنفسهم فى مسائل الربا، وتحيلوا لأخذه، ونسوا الآيات الصريحة الواردة فى كتابهم بتحريمه، أصيبت ثرواتهم بالنقص، بل حالفتهم الفاقة والمذلة. والثروة بالعمل لا بالنقد وحده، وما النقد إلا أداة من أدوات التعامل وتنقل النقد فى الأيدى، لا بجمود النقدين الذهب والفضة.

وأشدّ ما حارب به الإسلام ربا الأضعاف المضاعفة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس[1]، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. ﴿يمحق الله الربا ويربى الصدقات[2] والله لا يحب كل كفار أثيم﴾. ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة[3]﴾.

(١) المس: الجنون.

(٢) يربى الصدقات: يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه.

(٣) النظرة: الانظار والانتظار. والعسرة: قلة ذات اليد. والميسرة: اليسار، أى وقت اليسر.

وهذه الآيات في التحريم صريحة لاتحتاج الى شرح. وفسر المفسرون آية: ﴿الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس﴾ بأن الآخذين للربا لايقومون إذا بعثوا من قبورهم إلا قياما كقيام المصروع فلايقومون من المس، أى الجنون الذى بهم بسبب أكل الربا ويكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لاختلال عقولهم لأن الله أربى فى بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم[1]. أما نحن الدنياويين فقد رأينا فى الربا بلاء عظيما غير ما عرفه منه الأخرويون، رأينا كثيرين من أكلة الربا يصابون وأولادهم بالجنون أو بشيء يقرب من الجنون، والأمثلة كثيرة فى أيامنا. ونعلل هذا السر فى جنون آكل الربا أنه يكون غير مطرد فى توازنه لا يملك اعتداله أبدا فهو يفرح كثيرا ويكتئب كثيرا، ويحصر وكده ويكد ذهنه فى دائرة معينة أقلُّ ما يقال فيها إنها حساب الأرقام على الدوام، والتخوف مما تخبؤه الأيام. ومن ضيق المجال على عقله ضعف تفكيره، ومن قل تفكيره كثرت هواجسه وكانت البلاهة فما بعدها أقرب إليه من فكه، ومن كان هذا حاله جاء منه الأبناء المغفلون يحاولون أن يعيشوا من بقايا ما ورثوه من ثراء، وقد يكون تبعثر فى حياة جامعه، وهناك ضيعة الأمل، وخيبة العمل، الى انقضاء الأجل.

ولقد عدّ الشارع الربا من السبع الموبقات أى المهلكات وهى الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. وقال: "لعن الله آكل الربا ومؤكله". وأثبتت الأيام أن التوغل فى الربا فى الغرب أدى ولا يزال يؤدّى الى محو الثروات. وذلك لأن الربا الفاحش، وأكثره فاحش، يربح أكثر من ربح الصناعة والزراعة والتجارة، فاعتياد الناس عليه وحده غبن عظيم على المجتمع، وتعطيل للأعمال المثمرة، لأنه قد يزهد الناس فى التجارة وعمران الأرض واستثمار موادها، فيعمدون الى الانتفاع بأموالهم بطريقة الربا لما فيه من ربح لا تعب فيه، وريع مضمون مؤمن،

(١) تفسير البيضاوى.

قد تكون الخسارة فيه أقل من الخسائر فى سائر ضروب المعاش، على أن الربا ينافى سنة الكون لأن من يأتيه ربحه بدون عناء، يبسط يده فى إنفاقه كثيرا، كالمقامر لا يرى إلا سمحا على الأغلب، لأن ماله أتاه هينا لينا و إذا خسر تكون خسارته من أصل رأس ماله. ولقد رأينا بيوتا عظيمة فى مصر والشام كانت فى هناء وسعادة، فلما تطوحت فى الربا دائنة ومدينة، انقرضت على بكرة أبيها، سواء فى ذلك أهل الأديان السماوية الثلاثة. وكان لهذه المصافق المالية (البورصات) وهى أشبه بالميسر دخل كبير فى محق الثروات.

على أن الإسلام رخص فى استثمار الأموال إذا لم يشترط فى الأول ربح معين كأموال المقتصدين فى صناديق التوفير، وحظر الاسترسال فى الربا الفاحش، فالمحرم هو ربا النسيئة أى إنساء[1] أجل الدين المستحق وهو أخذ الزيادة فى المال لأجل تأخير ما فى الذمة منه، ويكون من شأنه أن يتضاعف، ويخرب البيوت ويفسد العمران، ويبطل فضائل التراحم والتعاون بين الناس[2]. أما ربا الفضل فلا ضرر فيه، ولذلك اضطر الفقهاء الى القول بأن تحريمه تعبدى لا يعقل معناه. وقال الزجاج فى تفسير قوله تعالى: ﴿وما أتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله﴾ يعنى به دفع الإنسان النسيء ليعوض أكثر منه فذلك فى أكثر التفسير ليس بحرام، ولكن لا ثواب لمن زاد على ما أخذه، والربا ربوان فالحرام كل قرض يؤخذ به أكثر منه أو تجر به منفعة، وما ليس بحرام أن يهب ما يستدعى به أكثر منه أو يهدى ليهدى له أكثر منها. والربا محرم فى الشرائع الثلاث، حرم فى التوراة والإنجيل والقرآن. واليهود تحرمه تحريما قطعيا شبيها بتحريم الإسلام، إلا أن التحريم مقصور على معاملات اليهود بعضهم مع بعض، والإسلام جامع شامل عام، وحكم النصرانية قابل للتأويل[3]، وأجازت القوانين العقلية القرض بدون ربح ولا فائدة،

---

(١) تأخيره . (٢) مجلة المنار م ٣١

(٣) المقارنات والمقابلات لمحمد حافظ صبرى .

وأجازت التعاقد على الربح والفائدة الى حدّ معين، منعا للربا الفاحش وحرمت ربا الربا إلا فى معاملات تجارية مخصوصة ضيقت فيها بقدر الإمكان، وأجازت للدائن المطالبة بربح المال الذى يتأخر المدين فى أدائه، ولو لم يتفق معه على ربح .

"كان[(١)] القرض من جملة التبرعات التى تعدّ من أعمال البر والإحسان، كما كان حسن القضاءِ وإيفاء الدين من جملة المعاملات الحسنة ، فكان المدين يمشى الى صاحب الحق لأداءِ الدين بلا تقاض ولا مطالبة ويسلمه أجود مما عليه، ويزيد عليه زيادة فضل ، لكنه غير مشروط ولا ملاحظ ، فحث عليه الشارع وحبذه، وجعل ثوابه أعظم من ثواب الصدقة ، فقال عليه الصلاة والسلام : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر". لأن الصدقة تقع بيد المحتاج وغير المحتاج، والقرض لا يقع إلا بيد المحتاج، كما حبذ حسن القضاءِ وحث عليه فقال : "خيركم أحسنكم قضاء" فكان الأقدمون يتسابقون لذلك قرضا واستقراضا كما يتسابقون لأعمال البر والمعروف، فما لبث زمنا حتى انقلب هذا الإحسان وعمل المعروف الى متجر لتنمية المال بأسوإ الطرق ، وأقبح السبل المؤدّية الى الإضرار بالناس وإتلاف مالهم وإخراجه من أيديهم مجانا بلا رعاية جانبه أصلا، وهو الربا الذى عرفه الشرع الأقدس أنه فضل مال خال عن عوض بالكيل والوزن مشروط لأحد المتعاقدين، فكان الدائن إذا بلغ الدين محله زاد فى الأجل فيستغرق بالشيء الطفيف مال المدين بلا مسامحة ولا حط، وهو الأضعاف المضاعفة التى حرمت بالنص . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ فلم يدرك الغرب مضرته بل رآه سهل المأخذ، كثير المغنم ، ينمو بسرعة فاتخذه وسيلة للثروة، وسببا للعمران، وندد على الإسلام بتحريمه، وجعل تركه سببا للانحطاط، ولم يدرك أن هذه الثروة التى بنيت على أساس الجور والعسف تضمحل بسرعة

(١) هذا كلام كتب لى به صديق عبد المحسن الأسطوانى من كبار فقهاء الحنفية بدمشق .

كما تحصلت بسرعة، وهذا النمو السريع يعقبه اضمحلال سريع ويدهمه المحق المشاهد: ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ . ولما ظهرت الإفلاسات بكثرة وتتابعت ممن يتخذونه متجرا، وبحث الباحثون فى الأسباب تبين لهم أن أغلبها من الربا، وبتجارب الأيام وتوالى الحوادث ، ظهر سر الشرائع التى حرمت الربا ، وحسبك حجة عليهم أنه جلب منفعة بخراب بيت أو بيوت فهو شبيه بالاحتيال والاغراء ، ليتوصل به آخذه الى اقتناص مال غيره بلا عوض كالميسر، وقد شاهدنا منه خراب بعض القرى واستملاكها ونزعها من أهلها ، بسبب الربا لما وقعت فى مخالبه . ولا يسعنا هذا المقام لنطيل بالأدلة العقلية والبراهين النظرية، على أنه لا يعدّ من أسباب العمران ولا من وسائط الثروة . إذ ليس من حسن النظر إغناء رجل بخراب آخر، ولا إثراء جماعة بسلب مال الآخرين، بل هو المعول فى تخريب الثروة والفتك بالتاجر والزارع الذى ندر أن يفلس بسبب آخر غير الربا فلذا حرمه الله تعالى، وشدّد على متعاطيه، وأعلن بالحرب عليه فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله و إن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ اه .

وبعد فهل مضرة محسوسة أكثر ظهورا فى هذا العصر من تأثير الربا فى مجموع الهيئة البشرية . وقد رأينا من أهم العلل فى تقلقل الحالة الاقتصادية فى العالم التطوح فى الاستدانة والإدانة على طريقة توسعت حتى ظن بعض قصار النظر أن هذه الثروات هى حقيقة ملموسة . مع أن الأيام أثبتت أنها كانت ثروات موهومة أو سرابا بقيعة[1] حسبها الظمآن ماء . وما وقع بعد الحرب العالمية من ضروب الإفلاس فى المصارف عند كبار الأمم المتمدنة يقوم أقوى دليل على تخريب العمران بهذه الذريعة الكاذبة .

---

(١) القاع : الأرض السهلة المطمئنة ج قيع وقيعة وقيعان بكسر أوّلهن .

التصوير والنقش :

يقولون إن حظر الشريعة الإسلامية استعمال الصور المجسمة كان من دواعى تقهقر المسلمين أيضا . ويعاب ذلك على الإسلام لأن التصوير من أهم أدوات الثقافة . وهذه من المسائل الدقيقة فى المدنية الاسلامية تحتاج الى بسط طويل لا تتسع لها هذه الصفحات القليلة . ولعل نكتة النكات فى هذه المغالطة كون بعضهم يكتفون من الأمور بظواهرها ، دون التعمق فى أسرارها وأصولها ، فيرسلون أحكامهم عفو الساعة ، ويستنتجون استنتاجات ضعيفة ، ناسين أن الإسلام الداعى الى التوحيد ، والعمل على إقصاء العرب عن عبادة الأوثان قد منع التماثيل ، وقضى على الأوثان لأول عهده ، مخافة أن يساق المسلمون بالتقليد الى عبادتها ، على ما كان العرب فى الجاهلية ، فالسبب كان دينيا محضا لأول الأمر ، وبولغ فى الحظر سدا للذريعة ، والدين غض ، وعهد العرب بالأصنام قريب .

لم تهتم الشعوب السامية كثيرا بالتصوير والنقش ، لبعد ذلك عن طبيعتها وطبيعة أديانها . وهذا دين موسى قد حرم التصوير ونحت التماثيل فى التوراة ، وفن التصوير والنحت عند اليهود[1] عبارة عن نحت الحجر وتطريق المعادن والنقش على الخشب . وقد جاء فى سفر الخروج « الإصحاح العشرون » (لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض) ما يقضى بالحيلولة دون كل ارتقاءٍ فى هذا الباب . ولذلك كان التصوير عند أبناء إسرائيل فى حالة ابتدائية ساذجة .

وليس التصوير والنقش مما أولع به العرب كثيرا لبعدهما عن طبيعة عنصرهم ، اللهم إلا إذا صح ما نقل عن عرب اليمن على عهد ملوك حمير والتبابعة ، وما كان من التماثيل فى الكعبة ، وما روى من أنه كانت لهم فى الحجاز أصنام جميلة كأجمل

(١) تاريخ مدنية إسرائيل لبرتوله .
Bertholet : Histoire de la civilisation d'Israël.

التماثيل[١] . وأفادنا التاريخ مع هذا أن التصوير ونحت التماثيل والنقش كانت معروفة في كل دور من أدوار الدول الإسلامية السالفة[٢]، ولكن بقيود قليلة غير ثقيلة . وقد عهد التصوير والنقش عند الأمويين في الشرق ، والأمويين في الغرب، وعند العباسيين في العراق وفارس، والفاطميين في مصر، وفي كثير من الدول الخالفة من غير حرج ولا نكير . وكلما كانوا يأمنون غائلة السجود للأصنام ، ويبتعدون عن عادات الجاهلية الأولى ، كانوا يتسامحون بوضع الصور والتماثيل في القصور والدور والحدائق . بيد أن التصوير والنحت لم يكونا على حصة موفورة عندهم ، كما هو الحال في الدول الغربية الحديثة .

وإن ما ظهر في العهد الأخير في الجدار الداخلي الغربي من الجامع الأموي بدمشق من الفسيفساء العربية التي صوّرت فيها الأشجار والأمصار مثالا من ولوع القوم منذ القرن الأوّل بهذه التزاويق . وعثروا في سر من رأى وهي من بناء المعتصم العباسي على غرف وأبهاء زينت جدرانها بتصاوير شرقية بين بارزة وغائرة في الجص، وصور ملونة للآدميين وغيرهم[٣] . وصور المتوكل في قصره في سامرة بيعة فيها رهبان وأحسنها صورة شهار البيعة[٤] . أما القصور المصوّرة في الأندلس فيطول ذكرها ، ومنها الزهراء أو مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر على اسم جاريته ، ونقش صورتها على بابها . وكان في كل دور من المألوف تصوير جدران الحمامات في بغداد ودمشق . وعمل خمارويه في القرن الثالث مجلسا في القاهرة[٥] برواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجال باللازورد المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمولة على صورته وصورة حظاياه ، والمغنيات اللاتي يغنينه ، بأحسن

(١) الأصنام لابن الكلبي والاكليل للهمداني . (٢) خطط الشام للمؤلف .
(٣) مجلة الهندسة م ٨ ص ٣ — ٩ و ٥٠ — ٥٥ بحث لأحمد تيمور . (٤) الشهار الرجل الذي يسهر في الكنيسة ليحافظ على القنديل لكي لا ينطفئ (انستاس الكرملي) . (٥) خطط المقريزي .

تصو يروأبهج تزويق ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الزين، والكوادن[1] المرصعة بأصناف الجواهر، وفى آذانها الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة وهى مسمرة فى الحيطان ولوّنت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة .

ثم إننا لو رجعنا الى تاريخ التصوير والنقش عند الغربيين أنفسهم لما رأيناهما بلغا فى عصر من عصور الغرب الدرجة التى وصلا اليها الآن بعد أن ارتقى كل فرع من فروع الحضارة ، و يعذر العقل الغربى اليوم إذا تعذر عليه أن يقبل كيف تقوم مدنية بغير تماثيل وتصاوير وتهاويل . وقد قبلت النصرانية بعض ما كان فى الوثنية من العادات والأوضاع على نحو ما فعل الإسلام ، فأقرّ أمورا بل أحكاما كانت من مألوف الجاهلية ، لم يرفيها كبير ضرر فسكت عنها[2] . ولكن شدّد الإسلام فى القضاء على الأصنام لأن التوحيد أوّل شرط فى الهداية الإسلامية ، ولا توحيد مع أصنام وأوثان، خصوصا فى الصدر الأوّل .

ومن الإنصاف أن يعتبر القائلون بقصور العرب فى هذا الشأن بارتقاء أصناف العلوم والفنون مع الزمن، وأن العقل البشرى يرقى الجيل بعد الجيل، ويكتب له فى آخر الأمر الابداع . وهل من العدل أن نتطلب من مدنية قامت قبل ثلاثة عشر قرنا ما نتطلبه من حضارة قامت منذ أربعة قرون ، تحمل معها مدنيات الأمم الغابرة بأسرها . ولعمرى هل يضر المدنية العربية أن لا يعهد فيها الكهرباء والبخار، ولا التمثيل والسينما ، وهل يسقط قدرها قصورها بعض الشيء فى إقامة التماثيل واصطناع التصاوير والتزاويق . وهذه أمم الغرب على كثرتها نجد بينها لعهدنا تفاوتا فى الغرام بالنحت والنقش والتصوير، مع أن كل واحدة منها تسير على ما سارت

(١) ثياب الخدر .

(٢) منها دية النفس مائة من الإبل ، ومنها إتباع حكم المبال فى الخنثى . ومنها البينونة بطلاق الثلاثة .

عليه جارتها ، ولا تفتأ تقتبس مما عندها كل جديد ، لا تحادهما كثيرا فى الدين والبيئة .

إن العلم كما يقول ريشه[1] يسير الى الأمام بسرعة تحير العقول ، ومع هذا لم يبرح فتيا غض الإهاب . وعلى ما كتب لطاليس وأرخميدس من النبوغ لم يعرفا شيئا مما يعلم اليوم فى المدرسة الإبتدائية . وأجهل شاب حاز الشهادة الثانوية يحسن أمورا كثيرة كان جاليله يجهلها بالمرة . ولم يمض من عهد فرنكلين الى إنشتين مائة وخمسون سنة كاملة ، ولكم تقدم العلم فى هذه الحقبة ، ولكم تبدلت التصورات والأفكار ، ولم يكن يعرف علم مطمورات الأرض من النبات وغيره (باليونتولوجيا) ولا علم الجراثيم ولا الحاكى ولا الطيران ولا السكك الحديدية ولا الحل الطيفى . فعمر الإنسانية العلمى لا يقدر له أكثر من مائة وخمسين سنة ، وهى أربعة أجيال ، نرى وأنت ترى ، أن هذا العمر غير طويل . اهـ .

وقال سنيوبوس[2] : لم يأت زمن فى تاريخ البشر تبدلت فيه الأسباب المادية فى الحياة بسرعة تبدلها فى القرن التاسع عشر فى أوربا . وهذا الانقلاب هو نتيجة الاختراعات التى قامت بالتجربة فقط ، أو بتطبيق أساليب العلوم العملية ، وكثير منها ينتهى الى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، بيد أن نتائجها العملية لم يشعر بها فى جمهور الشعوب فى أوربا قبل أواخر حرب الإمبراطورية الفرنسية ، فتغير الحياة المادية لم يبدأ إلا بعد سنة ١٨١٤ فهو أعظم حادث عصرى بل هو حادث دولى ، لأن تلك الاختراعات أوجدتها عقول العلماء والمخترعين من جميع الأمم ، فهى مشتركة بينهم بحيث يتعذر كل حين تمييز من له الحظ الأوفر من الأمم من هذه الخدمة ، لانتقالها من أمة الى أخرى مفيدة لها كلها على السواء . اهـ .

(١) كتاب العالم لشارل ريشه فى مجموعة أخلاق هذا الزمان .
Charles Richet : Le savant (Dans les caractères de ce temps.)

(٢) تاريخ السياسة الأوربية الحاضرة لشارل سنيوبوس .
Charles Seignobos : Histoire politique de l'Europe contemporaine.

وعلى هـذا فليعذرنا الذين طالما أوجعوا رؤوسنا، وحاولوا إذلال نفوسنا، لقصور أجدادنا فى التصوير، وما القصور فى الحقيقة إلا قصور الزمن، وربما كنا فقنا فيه، لو ظللنا على تعهد مدنيتنا المسكينة. ولقد ذكر سيديليو أن فنى النقش والحفر كانا راقيين عند عرب الجاهلية، وقد صنعوا تصاوير البشر وتماثيل الأرباب، حتى جاء القرآن بمنعهما فوقفا عن التقدم، وجاء العباسيون فاشتغلوا بهما وتقدموا فيهما اشتغالهم بفني الموسيقى والبناء. وقال جوتيه: إن محصول المدنية العربية فى العلم على اختلاف أنواعه يفوق محصول المدنية اليونانية كثيرا. ذلك لأن العلم العربى كانت له أصول قديمة، أما فيما يتعلق بالفنون والآداب فإن دائرة اليونان أوسع من دائرة العرب بكثير، فقد كان قدماء المصريين نقاشين مبدعين، وترك سكان بين النهرين صورا نصفية جميلة، أما خلفاؤهم فليس لهم تصاوير ولا تماثيل، ما خلا تزييناتهم الهندسية وهذا نقص غريب. فقد رأوا أمام أعينهم نحو ألف سنة النحت اليونانى والنقش والتصوير البيزنطى فتخلوا عن كل ذلك دفعة واحدة.

قال وينبغي أن نقدر فى التصوير والنحت اليونانى والبيزنطى أن تمثيل الصورة البشرية كانت تمثيل الصورة الإلهية، سواء كانت صورة المسيح أو أبولون أو غيرها من تماثيل الوثنيين. ولا يفوتنا ذكر من قاموا بإنكار تكريم الصور البيزنطية، وأن فكرة المولى لم تنشأ فى مصر ولا فى كلدة بل نشأت فى اليهودية، ثم غرست فى الإسلام أى غرس. وما فكر اليهود قط أن يصوروا يهوه، ولم يجوز المسلمون أيضا تصوير الله، وصور النصارى المولى فقط، ومثلوه فى لحية بيضاء وأجلسوه فى السحاب. والمظنون أن الهندسة العربية البديعة كانت غريبة عن الماضى لاصلة بينها وبين القبور والمعابد المصرية ولا بين قصور الأخمانيين ولا مع الهندسة البيزنطية التى نشأت منها بل هى إبداع جديد. اهـ.

هذا وقد ثبت أن الرسول[(١)] أقر نقود العرب فى الجاهلية، وكانت ترد من الممالك الأخرى وهى مصورة، وضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها وبأعيانها وضرب معاوية دنانير عليها تمثال متقلد سيفا، واستعمل زيد بن خالد الصحابى الستر الذى فيه صور ولم ينكر الناس عمله وكانت تأتيهم من اليمن ثياب وستور وحجال فيها تصاوير، واستعمل يسار بن نمير مولى عمر بن الخطاب وخازنه الصور فى داره، وصنعت الصور فى دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهما من التابعين. فلم يحرّم الإسلام إذًا صناعة نافعة فى كثير من العلوم والأعمال، ويحتاج اليها فى حفظ الأمن وفنون القتال. وكان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر والحيوان فى المصنوعات. وقد أبقت الأيام فى دور الكتب والآثار كتبا كثيرة مصوّرة من عهد العباسيين وبعدهم. ويقول محمد عبده: "ويغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرّم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لاخطر فيها على الدين، لامن جهة العقيدة ولا من جهة العمل". وفى التاريخ العام أن الاسلام حظر تمثيل الصور الآدمية. ولكن هذا الحظر لم يمنع الخلفاء من أن يكون فى قصورهم صور وتماثيل، ومع هذا لم يخلف العرب فى النقش ولا فى التصوير آثارا خارقة للعادة. اهـ.

(١) خطط الشام للمؤلف مجلد ٤ ص ١١٢

العرب قبل الإسلام

طبيعة بلاد العرب :

لا نحسن تصوّر حالة العرب فى الإسلام إبان عهد حضارتهم إلا إذا ألقينا نظرة عجلى على الثابت من تاريخهم فى الجاهليــة ، وعلى آثارهم وعلمهم وثروتهم ، ولذلك يتقاضانا الوصول إلى هذه النتيجة أن ندرس حالتهم فى معظم مظاهرها ، لنتدرج بهم من جزيرتهم إلى حيث درجوا من البلاد التى حلوا فيها ، وتمثلوا حضارة القدماء ، وانقلب فى الجزيرة بالإسلام طورهم الدينى والأخلاقى ، كما انقلب فى البلاد المفتتحة طورهم المدنى والاجتماعى .

من الثابت أن طبيعة بلاد العرب تختلف باختلاف بعــدها وقربها من البحر وانخفاضها وارتفاعها عنه ، فجبالها ليست كسهولها ، وأواسطها تختلف عن أطرافها ، فليست الجزيرة إذا نسقا واحدا بخصبها واعتدالها . وفى الجزيرة واحات فيها نخيل وأعناب وبقول وحبوب ، وفى جنوبها وهى اليمن بلاد عالية ومنخفضة فيها الحرارة والبرودة ، وفيهـا المياه وإن قل الجارى منها ، وتكثر أمطارها وإمراعها ، ويقل الخصب فى الحجاز اللهم إلا فى بعض أنحائه كالطائف . واليمن أعمر الأقاليم العربية ولذلك دعيت بالعربية السعيدة ، وعهدت لها مدنية قديمة ، وقامت فيها دول لأن سهولها وجبالها ممرعة ، وفيها من الحاصلات ما لا يوجد فى غيرها كالطيب والورس والكُندر والعصب والشب واللُّبان والعقيق وخشب البُنك والمعرق من الجزع . قال ابن الفقيه[١] : وباليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر وظرائف الشجر ، ما يستصغر معــه ما ينبت فى بلاد الأكاسرة والقياصرة ، وقــد تفاخرت الروم وفارس بالبنيان

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى .

وتنافست فيـه ، فعجزوا عن مثل غُمدان ومأرب وحضرموت وقصر مسعود وسدّ لقمان وسلمين وصرواح ومرواح و بينون وهندة وهنيدة وفلثوم بريدة . اهـ .

وفى جبال بلاد العـرب التى لاتكاد تنقطع سلسلتها من شمالها فى أرض الشام حتى الطائف وصنعاء وما وراءها من الاعتدال ، ولطف الهواء وطيب المـاء ، وتمر الشجر ، ما يستغرب وجوده لأن الطائف يعلو ١٦٠٠ متر عن سطح البحر ، وأبها فى اليمن ٢٢٧٥ ، وصنعاء ٢٣٤٢ ، وكوكبان ٢٠٠١ ؛ وفى اليمن والحجاز معادن كثيرة كالحديد والفضـة والذهب وهكذا يقال فى عمان وحضرموت وهجر "البحرين" واليمامة "نجد" والشحر والأحساء .

دول العرب القديمة :

قامت فى الأعصار القديمة عدّة دول فى هذه الجزيرة أو شبه الجزيرة ضاعت معظم أخبارها ، فمنها دولة العماليق نسبة لعمليق بن لاوذ بن سام ، وكانت على حالة بداوة فى الصحراء ممتدة من العراق إلى العقبة ، ثم لمـا قويت عصبيتهم ، تغلبوا على بابل وأنشأوا دولة قبل المسيح بخمسة وعشرين قرنا دعيت دولة الساموآبيين ، ومنهم ظهر الملك حمورابى[(١)] ، ويرى بعض الباحثين أنه عربى ، فتغلب على مملكة أشور ، وكانت دولته دولة راقية بآدابها وماديانها . ويدل ما اكتشف من شريعته على أن هناك أمة راقية ومدنيـة لابأس بها . ولمـا تغلب الأشوريون على تلك المملكة اضطهدوا العرب فهاجر قسم منهم إلى غرب الجزيرة وجنوبها .

ومن دولتهم دولة الرعاة أو عرب الشرق أى الهيكسوس دخلوا مصر من أرجاء البحر الأحمر قبل المسيح بثلاثة وعشرين قرنا ، واستولوا على الوجه البحرى من بلاد مصر ، وجعلوا عاصمتهم "صان" حتى أجلاهم عنهـا تحوتمس ملك ثيبة

(١) هو سادس ملوك هذه الأسرة قال وافنسون لا يعلم بالتحقيق كم من القرون ظل حكم هذه الأسرة لأن تعيين التاريخ فى حوادث الأقدمين عسير جدا .

فى الوجه القبلى من صعيد مصر حوالى سنة ١٧٠٠ ق ٠ م ٠ وأسس العرب النازحون من أشور دولة عاد الأولى فى جنوب الجزيرة قبل الميلاد بعشرين قرنا وكانت منازلهم فى الأحقاف بين اليمن وعمان . وكانت للعرب دولة فى شرق بلاد اليمن فوق حضرموت يقال لها دولة المعنيين . قال الباحثون فيهم إنهم كانوا يقومون على زراعة الأرض فى سهول حضرموت وسفوح جبال اليمن، وقد أقاموا السدود وفتحوا الخلجان . وهناك دولتان أو مجموعتان من القبائل يرد ذكرهما فى التواريخ العربية وهما طسم وجديس ، كانتا تنزلان اليمامة شرقى بلاد العرب التى يطلق اليوم على أكثرها اسم نجد،وكانت الحجر أوالقرية عاصمة طسم،ونجد اليمن غير نجد الحجاز، غير أن جنوبى نجد الحجاز يتصل بشمالى نجد اليمن . وبين النجدين وعمان برية ممتنعة كما يسميها ابن حوقل . وهى الربع الخالى الذى اجتازه فى العهد الأخير أحد أرباب الرحلات ووصفه أحسن وصف .

ومن دول العرب دولة ثمود،وأصلها من اليمن ونزلت مدائن صالح،وما تركته من العاديات والنواويس شاهد بمدنيتها . ومنها دولة لحطان كانت شمال جزيرة العرب وأهلها من جملة من نزح إلى اليمن بعد اضطهادهم فى بابل . وأنشأوا دولة فى اليمن سميت دولة سبأ الأولى ، ودولة سبأ الثانية هى مملكة حمير ، وهذه قامت على أنقاضها وكانت مقطعة الأوصال لم تجمع شمل اليمانيين كالدولة الأولى . وللعرب من الدول دولة كندة، وكندة بطن من كهلان، كانت نزحت من اليمامة وسكنت شمالى حضرموت؛ فجعل ملك حمير سيدهم حجر بن عمرو ملكا على العرب فاتخذ عاصمته بطن عاقل[(١)]، وأنشأت العرب دولة تنوخ فى العراق وخلفهم اللخميون . ولما تغلب الرومان على الشام وما إليها اعتمدوا على بنى غسان ، وأصلهم يمانيون نزحوا بعد سيل العرم . فجعلوهم أقيالا يرابطون فى سيف البادية[(٢)] ليمنعوا عن المعمور اعتداء

(١) بطن عاقل : موضع على طريق حاج البصرة بين رامتين وأمرة (ياقوت) .

(٢) القيل : ج أقيال الملك الصغير . والسيف بكسر السين : الطرف .

البوادى من الجنوب ويأمنوا غائلة ملوك الفرس من الشرق . وكان هؤلاء يستخدمون ملوك الحيرة للغرض نفسه، أى لاتقاء عادية الأعراب وعادية الرومان من غرب بلادهم .

هذا ما عرف من نشأة الدول العربية، وربما تداخل بعضها فى بعض، وقد قسم علماء التاريخ سكان بلاد العرب الى قحطانية وعدنانية، والقحطانية سكان بلاد اليمن، والعدنانية سكان الحجاز . وقسموا العرب الى ثلاثة أقسام بائدة كعاد وثمود وجُرهُم الأولى . وعاربة وهم عرب اليمن من ولد قحطان، ومستعربة وهم أولاد إسماعيل سكان الحجاز . وقد سبق القحطانيون العدنانيين فى الحضارة لقرب بلادهم من بحرين بحر القلزم والبحر الهندى، ولأن بلادهم خصبة، وهم نقطة اتصال التجارة بين الشرق والغرب . وكان القحطانيون والعدنانيون يتكلمون قبيل الاسلام لغة واحدة ذات فروق طفيفة .

ويقول بعض المؤرخين إن تلك الدول التى أنشأتها العرب خارج أرضها، كدولة الرعاة فى مصر، ودولتهم فى أشور، ودولة الأنباط فى سلع هى دول عربية، ودولة اكسيوم "اليكسوم" التى أنشاها ايمانيون فى الشط المقابل لبلادهم هى عربية، ودولة تدمر وأصل القائمين بها عرب، ودولة الإيتوريين التى استولت على اللبنانين الشرقى والغربى، وامتدت الى فينيقية وجعلت عين جر (عنجر) فى البقاع عاصمتها الأولى، ثم طرابلس عاصمتها الثانية، كان أصل القائمين بها عربا من الجيدور وحوران — ان تلك الدول التى أنشأتها العرب كانت بفضل تفاهمهم[1] بالعربية مع اليهود والحبش والكلدان والأشوريين والفينيقيين . إذ كان عهد هذه اللغات قريبا بالتشعب فلم يكونوا يحتاجون الى لغة أخرى للتفاهم مع تلك الأمم، بل كانت العربية تكفيهم فى التخاطب، وليس بينها وبين اللغات الأخرى كبير فرق، وإن كان فكالفرق بين اللغتين النروجية

(١) تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان .

والسويدية ، أو بين الصربية والبلغارية ، أو بين البرتقالية والإسبانية ، أو بين العربية الفصحى وإحدى اللهجات المتعارفة اليوم .

وأهم ما حفظ بلاد العرب من اكتساح غيرها لها من الأمم فى غابر الدهر ، كون العرب أهل شدّة وبأس ، وأباة ضيم لا ينامون على الثأر ، ويصبرون على شظف العيش ويتبلغون بميسوره ، وليست الرفاهية من شان أكثر المعمور من ارضهم . ولذلك خاب الفرس والرومان والفراعنة والحبشة يوم حاولوا ان يستولوا على اليمن والحجاز وما إليهما ، مقدّرين أن جزيرة العرب لا تساوى اكتساحها ، وأن من الصعب إجراء الأحكام على أهلها ، لبعد المسافات فى فلوات لا أول لها ولا آخر . قال جويدى[1] : إن الرومان فتحوا جميع العالم المعروف ، وحاولوا على عهد الإمبراطور أغسطس أن يستولوا على بلاد العرب ، ففتحوا مأرب عاصمة سبأ ، ثم ردّوا عنها خائبين . وقال إن أدينة الذى كان معروفا عند الرومان باسم أداناتوس (Adenatus) ويعدّ من أمبراطرتهم هو عربى الأصل وكذلك وهبة اللات . وقد نشأ من بلاد أخرجت أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص من قوّاد الإسلام العظام الذين قضوا على مملكة الساسانيين ، وعلى جزء من مملكة بيزنطية .

العرب والتجارة :

وأهم عوامل المدنية فى جزيرة العرب كون أهلها عرفوا فى كل العصور معاناة التجارة ، ينقلون حاصلات الشرق الى الغرب ، وحاصلات الغرب الى الشرق ، وحاصلات بلادهم من مكان الى آخر واشتهروا بذلك حتى قال الجغرافى استرابون وكان بعد المسيح بقليل : كل عربى سمسار أو تاجر . ومن أجل هذا كانت معرفة العرب بالأقطار المجاورة لا غبار عليها . وكثيرا ما كانوا يقتنون الأملاك والضياع وينزلون البلاد المجاورة ، يساكنون أهلها كأن تلك البلاد أجزاء متممة لبلادهم ، على

(١) جزيرة العرب قبل الاسلام لجويدى Guidi : L'Arabie Antéislamique .

اختلاف بينهم وبين ساكنيها فى الطبائع والألسن . وكانت[1] للعرب عشرة أسواق يجتمعون بها فى تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ، ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم ، فمنها دومة الجندل والمشقر وهجر وصحار وريا والشحر وعدن وصنعاء والرابية بحضرموت وعكاظ بأعلى نجد ، ينزلها قريش وسائر العرب وأكثر أهلها مضر ، وبها كانت مفاخرة العرب وحمالاتهم[2] ومهاداناتهم ثم سوق ذى المجاز . وكان فى العرب قوم يستحلون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق فسموا المحلين ، وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر ، فيسمون الذادة المحرمين .

واستولت قريش على التجارة فى الجاهلية ترحل فيها رحلتين : رحلة الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو اليكسوم من أرض الحبشة ، وأخرى نحو الشام وبلاد الروم فى الصيف ، وإلى ذلك الإشارة فى القرآن : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ . والإيلاف شىء كان يحمله هاشم لرؤساء القبائل من الربح ، ويجعل لهم متاعا مع متاعه ، ويسوق إليهم إبلا مع إبله ، ليكفيهم مؤنة الأسفار ، ويكفى قريشا مؤنة الأعداء ، فكان المقيم رابحا ، والمسافر محفوظا . وهاشم هو الذى تنسب إليه غزة هاشم فى الشام لاتجاره فيها فى الجاهلية وفيها مات ، ثم جاء أبناؤه بعده ينسجون على منواله . فكان هاشم يؤلف الى الشام ، وعبد شمس الى الحبشة ، والمطلب الى اليمن ، ونوفل الى فارس ، يؤلفون الجوار بعضهم بعضا ، ويجيرون قريشا بميرهم وكانوا يسمون المجيرين . وكانت تجارة قريش قبل هؤلاء العظماء لا تعدو مكة[3] ، إنما يقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترون منهم ويتبايعون فيما بينهم ويبيعون ممن حولهم من العرب فخبر قريش بهؤلاء النفر الأربعة من بنى عبد مناف فنمت أموالهم واتسعت تجارتهم ، فكان بنو عبد مناف يسمون لأجل ذلك المجيرين والعرب تسميهم أقداح النضار لطيب أحسابهم وكرم فعالهم .

(١) تاريخ اليعقوبى . (٢) الحمالة كسحابة : الدية أو الغرامة التى يحملها قوم عن قوم .
(٣) الاكتفاء فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفاء للكلاعى .

وبفضلهم أخذت قريش تضرب فى البلاد الى قيصر بالروم[1] والنجاشي بالحبشة والمقوقس بمصر وكسرى بالعراق تجعل من أرضهم متجرا لها ، ذلك لأن قريشا زهدت منذ زمن بعيد فى الغصوب فلم يبق لهم مكسبة سوى التجارة ، و بالتجارة عرفوا ما جاورهم من البلاد والشعوب وصاروا بأجمعهم تجارا خلطاء .

أديان العرب :

وكانت أديانهم متشعبة ، بحسب البلاد التى يجاورونها والأرض التى ينتجعونها ، وهم فى أديانهم[2] على صنفين : الحمس[3] والحلة ، فأما الحمس فقريش كلها ، وأما الحلة فخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشا ، وكانوا يشددون على أنفسهم فى دينهم ، فاذا نسكوا لم يسلئوا سمنا ، ولا يجزّون شعرا ولا ظفرا ، ولا يمسون النساء ولا الطيب ، ولا يأكلون لحما . أما الحلة فكانوا على العكس من ذلك ، ينعمون بالطيبات كلها لا يبالون ما صنعوا . ثم دخل قوم فى دين اليهود وفارقوا هذا الدين ، ودخل آخرون فى النصرانية ، وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية . وزعم اليعقوبى أن اليمن تهوّدت بأسرها ، وتهوّد قوم من الأوس والخزرج ، بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم خيبر وقريظة والنضير . وتهوّد قوم من بنى الحارث بن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام ، "وكان بنجران بقايا من أهل دين عيسى على الإنجيل أهل فضل واستقامة" وكان من العرب من يميل الى الصابئة و يعتقد فى أنواء المنازل اعتقاد المنجمين فى السيارات ، حتى لا يتحرك إلا بنوء من الأنواء ، ويقول مطرنا بنوء كذا ؛ ومنهم من أنكر الخالق والبعث وقالوا وما يهلكنا إلا الدهر وهم الدهريون . وقال بعضهم : كانت المجوسية فى تميم ، والزندقة فى قريش ، أخذوها من الحيرة . ويقول ابن الأثير[4] إن ديار تميم كانت تجاور بلاد الفرس وهم تحت أيديهم ، والمجوسية

---

(١) المضاف والمنسوب : للثعالبى . (٢) تاريخ اليعقوبى . (٣) المتحمسون لدينهم .
(٤) أسد الغابة لابن الأثير .

فى الفرس، على أن العرب قبل الإسلام كان كثير منهم قد تنصر، كتغلب وبعض شيبان وغسان، وكان منهم من صار مجوسيا وهم قليل . وأما اليهودية فكانت باليمن، وكان من العرب صنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث، وصنف عبدوا الأصنام، وأصنامهم مختصة بالقبائل، ومنهم من يعبد الجن، ومنهم من يعبد الملائكة وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون[1] ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمارة . وللعرب أصنام[2] فكان سواع لهذيل، وود لكلب، ويغوث لمذحج وقبائل من اليمن، وكان بدُومة الجندل، والنَّسر لذى كَلَاع بأرض حمير، ويعوق لهمدان، واللات لثقيف بالطائف، والعُزَّى لقريش وجميع بنى كنانة، ومناة للأوس والخزرج وغسان . وهُبَل كان فى الكعبة وكان أعظم أصنامهم، وإساف ونائلة كانا على الصفا والمروة، وسعد لبنى ملكان بن كنانة، وكان عدد الأصنام فى الحرم لما فتح الرسول مكة بضع مئات كسرها وأصحابه . قال أبو عثمان[3] النهدى : كنا فى الجاهلية نعبد صنما يقال له يغوث، وكان صنما من رصاص لقضاعة تمثال امرأة، وعبدت ذا الخَلَصَة، وكنا نعبد حجرا ونحمله معنا فإذا رأينا أحسن منه ألقيناه وعبدنا الثانى، وإذا سقط الحجر عن البعير قلنا سقط إلهكم فالتمسوا حجرا .

ويؤخذ من هذا أنه كان للعرب فى الجاهلية المصوِّر والمثال، فصوّروا جدران الكعبة وملأوها بتماثيل أربابهم، ومن جملة ما كان فيها صورة عيسى وأمه عليهما السلام بقيتا حتى رآهما من أسلم من نصارى غسان، وكان على أحد عمد الكعبة تمثال مريم وفى حجرها ابنها مزوقا[4]، وقال ابن الكلبى : إنه كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم فى مشارف الشام يقال له الأقيصر . كانوا يحجونه ويحلقون

(١) العمرة : الزيارة، ومعنى العمرة فى العمل الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة وأحرم الحاج أو المعتمر إذا دخل فى عمل وحرم عليه به ما كان حلالا كالرفث والتطيب ولبس المخيط وصيد الصيد فهو محرم .

(٢) مفاتيح العلوم للخوارزمى . (٣) أسد الغابة لابن الأثير .

(٤) رسالة التصوير عند العرب لأحمد تيمور .

رؤوسهم عنده، فكان كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعرة قرّة[(١)]. وكان ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين ماتوا فى شهر فجزع عليهم ذوو قرابتهم، فعملوا لهم خمسة أصنام على صورهم، فمضت قرون ثلاثة وهم يعظمون، وفى القرن الثالث أخذوا يعبدونهم، وكان ودّ تمثال رجل كأعظم مايكون من الرجال، قد زبر عليه حلتان متزرا بحلة مرتديا بأخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكب قوسا، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة[(٢)].

المدنية اليهودية والنصرانية فى جزيرة العرب :

أثرت المدنية النصرانية فى الجاهلية بعض أثر — والجاهلية اسم حدث فى الإسلام للزمن الذى كان قبل البعثة النبوية — وكانت مملكة الحيرة[(٣)] ومملكة غسان نصرانيتين، والنصرانية شائعة فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة. واليهودية[(٤)] فى حمير وبنى كنانة وبنى الحرث بن كعب بن كندة، ولم يكن لليهود الخارجين إلى خيبر ووادى القرى ويثرب من الحجاز مدنية مهمة، بل كانوا زراعا حملوا معهم — على الأرجح من فلسطين بعد قتل دولة الرومان لهم — أصول زراعتهم وأنواعا جديدة من الأشجار وأقاموا حصونا وآطاما لاتقاء غارات البادية من الأعراب. وقالوا إن اليهود أدخلوا إلى جزيرة العرب هذه الآطام وكان عددها نحو سبعين جاء النهى عن هدمها. ومن الحصون التى أقاموها حصن الأبلق للسموءل وحصن القموص لبنى أبى الحُقَيق وحصون السلالم والوطيح وناعم وسعد بن المعاذ.

وتعرب اليهود فى الجزيرة وأخذوا يتكلمون العربية، وامتزجت عاداتهم بعادات العرب، وتخلقوا بأخلاقهم، ونزلوا عن كثير من مصطلحاتهم ومواضعاتهم، وأصبحوا يفاخرون كالعرب بالشجاعة وعلو الهمة وإكرام الضيف، يوقدون النار فى الليل

(١) القرّة : قبضة من الدقيق.
(٢) الوفضة : الجعبة.
(٣) تاريخ اليهود فى بلاد العرب لولفنسون.
(٤) تاريخ اليعقوبى.

ليرشدوا السائرين، ويدعوهم الى الضيافة على عادة العرب ، وينظمون الشعر فى هذه الأغراض الكثيرة ومن شعرائهم السموءل بن عادياء وكعب بن الأشرف والربيع بن أبى الحُقَيق وشريح بن عمران وشعبة بن غريض كما كان من شعراء النصارى أمية بن أبى الصلت وقُس بن ساعدة وعدى بن زيد. عن مروان[١] بن الحكم عن معاوية بن أبى سفيان عن أبيه قال : خرجت أنا وأمية بن أبى الصلت الثقفى تجارا الى الشام فكلما نزلنا منزلا أخذ أمية سفرا له يقرؤه علينا . فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى .

وراجت اليهودية فى حمير فى اليمن على أثر جلاء اليهود من فلسطين الى الحجاز ، وكان اليهود فى جزيرة العرب تجارا ، ويعانون صنع الأمتعة والصياغة والسيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية . ويقول ولفنسون : إن اليهود كانوا أساتذة العرب فى تعلم الكتابة العربية والفلاحة بالآلات . وقد بلغت عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء الغاية من الحضارة، ورسخت فيهم الصنائع أيما رسوخ . ويقول بعض علماء الآثار إن اليمن سبقت بتمدنها بابل ومصر، ومنها هاجر أجداد الفراعنة، ومنها كان أجداد البابليين والأشوريين . والى مصر وبابل وأشور حمل اليمانيون الصناعات والعلوم والتجارة . وقال آخر إن اليمانيين أو الحميريين هم الذين مدّنوا شواطئ آسيا وإفريقية وأوربا ، وكانوا فى القديم أميل فى مدنيتهم الى التجارة، لا الى الغزو والغارة . ولذلك كان معظم الأذواء يتجرون، فاذا كانت لرجل منهم مطامع فى السيادة تغلب على البلاد .

ولقد كانت الأمية غالبة على العرب ماخلا حمير فى اليمن وسكان الحيرة فى العراق ، وقد تعلموا الخط من إياد، وأصل إياد من تهامة، ونزلوا العراق فكانوا يشتون فيها ويصيفون فى الجزيرة، وكان منهم لقيط بن معبد الإيادى كاتب كسرى بالعربية وترجمانه[٢] ، وهو صاحب القصيدة المشهورة التى حذر فيها قومه من غزوة كسرى

(١) البداية والنهاية لابن كثير . (٢) معجم ما استعجم للبكرى .

لهم ، يوم عرض رجلان من إياد لعروس اسمها شيرين من أشراف العجم ومعها جواريها فعبثا بهن . وكان عدى بن زيد من أهل الحيرة من تراجمة أبرويز ملك الفرس وكان أوّل من كتب بالعربية فى ديوان كسرى وكان أبوه شاعرا خطيبا وقارئا كتّاب العرب والفرس[١] ، وابنه زيد بن عدى كان يلى الكتابة عند كسرى الى ملوك العرب فى خاص أمور الملك[٢] . ومن إياد نقل أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة وقيل حرب بن أمية الكتابة الى قريش بمكة[٣] ، وتعلم بشر بن عبد الملك الكندى الخط العربى وهو الجزم فى الأنبار من مرامر وأسلم الطائيين ، وخرج الى مكة فعلم الخط سفيان بن حرب وتعلمه معاوية من عمه سفيان ، وكثر من يكتب بمكة من قريش . وقيل إن أوّل من كتب فى جزيرة العرب بالعربية مرارة بن مرة من أهل الأنبار . وقالوا إن ورقة بن نوفل كان يكتب وأجاد العربية وكتب بحروفها[٤] وكان سعد بن الربيع يكتب فى الجاهلية[٥] . قال الأصمعى : زعموا أن قريشا سئلوا من أين لكم الكتابة فقالوا من الحيرة ، وقيل لأهل الحيرة من أين لكم الكتابة فقالوا من الأنبار .

ويستدل من ذلك أن إيادا كانت على جانب من الحضارة ، وأن العرب استفادت منهم وهم استفادوا من اختلاطهم بالفرس والروم ، ودام ذلك لإياد حتى كانت وقعة سابور ، وقد أوقع بإياد وعمهم القتل ، وما أفلت منهم إلا نفر لحقوا بأرض الروم وتنصروا ودانوا لغسان . ولما فتح المسلمون الأنبار رأوا أهلها يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فسئلوا من هم فقالوا : قوم من العرب نزلنا الى قوم من العرب قبلنا[٢] ، وقيل إن نفرا من أهل العرب من إياد القديمة هم وضعوا حروف ألف ب ت ث وعنه أخذت العرب . وذكروا أن أهل[٦] القرى ألطف نظرا من أهل البدو ، وكانوا يكتبون لجوارهم أهل الكتاب .

(١) تاريخ ابن خلدون . (٢) تاريخ الطبرى . (٣) خزانة الأدب للبغدادى .
(٤) الأغانى للأصفهانى . (٥) طبقات ابن سعد . (٦) الموشح للمرزبانى .

ويرى صاحب فجر الإسلام[1] أن عرب الحيرة تسرب اليهم شيء من علوم اليونان وآدابهم . ذلك أن الحكومة الفارسية فى عهد هرمز الأول أنشأت مستعمرات كوّنتها من أسرى الحرب الرومانيين، وكان من بين هولاء الأسرى من ثقف بالثقافة اليونانية، ومنهم من كان يفوق الفرس فى الفن والهندسة والطب فاستخدموه فى مهام شؤونهم . ومن هؤلاء الأسرى من نزلوا الحيرة، ويظن بعضهم أنهم هم منبع النصرانية فيها . وعلى كل حال فقد كان فى الحيرة مبشرون بالنصرانية داعون اليها ، ولي الدعوة منهم هند زوج النعمان الخامس وقد أنشأت ديرا سمى بدير هند كان الى عهد الطبرى . وهند هذه هى التى خطبها فى الاسلام المغيرة بن شعبة وهى مترهبة فى ديرها فأبت وسألها عن حال دولة أهلها فقالت : " أمسينا مساء وليس فى الأرض عربى الا وهو يرغب إلينا ويرهبنا ، ثم أصبحنا وليس فى الأرض عربى إلا ونحن نرغب اليه ونرهبه[2]" . قال : وقد كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم أثر كبير فى الأدب العربى والحياة العقلية للعرب عامة، فأحاديث جذيمة الأبرش وأساطير الزباء (وهى من الحيرة قبل إنشاء الإمارة) والخورنق والسدير والغنى بهما وبعظمهما، والأقاصيص حول سنمار بانى الخورنق، والأمثال التى ضربت فيه، ويوما النعمان يوم نعيمه ويوم بؤسه، كل هذه وأمثالها شغلت جزءا كبيرا من الأدب العربى، وكلها تتعلق بعرب الحيرة وحياتهم . أضف الى ذلك ما ذكره ابن رسته فى الأعلاق النفيسة من أن أهل الحيرة علموا قريشا الزندقة فى الجاهلية والكتابة فى صدر الاسلام . وكان أمراء الحيرة مقصدا لشعراء عرب الجزيرة ينفحونهم بالمال الكثير، ليبشروا بهم بين البدو فى أنحاء الجزيرة، وديوان النابغة الذبيانى مملوء بالقصائد التى قيلت فى مدح النعمان والاعتذار اليه ونحو ذلك . ا هـ .

(١) فجر الاسلام لأحمد أمين .

(٢) فى المحاسن والأضداد للجاحظ : قالت حرقة — كهمزة — بنت النعمان بن المنذر لزياد بن أبيه وقد سألها عن حال بيتها : كنا أهل بيت طلعت الشمس علينا وما على الأرض أحد أعز منا ، وما غابت تلك الشمس حتى رحمنا عدوّنا .

ويقول جويدى[١] : إن شمالى بلاد العرب تأثر بمدنية البلاد المجاورة أى بالمدنية الفارسية والبيزنطية بمعنى أنهم أخذوا من الساسانيين فى الشرق والبيزنطيين فى الغرب، ثم تأثرت بعد ذلك اليمن، فاستفادت العرب إذًا من المدنيات اليونانية والرومانيــة والفارسية، وكانوا مدينين لهؤلاء بكثير من ترقيهم الذى تقـدم حوادث الاسلام العظيمة، وكانوا قبــل الاسلام بقرنين أو ثلاثة أنشأوا ممــالك وتمــرنوا على فنون الحرب، وارتقوا فى حياتهم المدنية، ونشأ شعرهم وأدبهم، وقد وردت فى أشعار العرب العرباء ألفاظ آرامية مثل "دمية" ولمــا كان العرب يحتقرون العمل فى الزراعة اعتمدوا على الآراميين فدخلت لغتهم ألفاظ آرامية كثيرة منها الأكار والحرث والنير والناطور والفدان وكثير من أسماء النبات والرياحين جاءتهم قبــل الاسلام من لغات غير عربية، ومنها "الزيتون" وأسماء المصابيح من مثل "قنديل" "سراج" "نبراس" ومثل "أتون" "تنور" "فرن" وكذلك "القميص" "السربال" "البرنس" "المرجان" "الجمــان" "الزبرجد" "الدرة" انتهى قوله. وكما دخلت اللغــة ألفاظ آرامية دخلت ألفاظ رومية وحبشية[٢] فاستعاروا من اليونانية ألفاظ "أسطول" و"أنجر" و"نوتى" ومن السريانية أو الآرامية "سفينة" "قارب" "قرقور" "دقل" "ربان" "ملاح" "سكان" "قلع" "مجذاف" "صارى" ومن الحبشية "بحر" "شراع" "مرسى".

ونحن إذا نظرنا مليا فى لغة العــرب نفسها قبل الاسلام نجدها تحوى كثيرا من الألفاظ التى تدل على أن هنالك أسماء لم توضع لو لم يكن لهــا مسميات عندهم معروفة، مثل قولهم برد "مرجل" فيه صور الرجال، و"مطير" اذا كانت فيه صور الطير و"مخيل" اذا كانت فيه صور الخيل و"مهلل" اذا كانت فيه نقوش وصور كالأهلة و"المُعَيَّن" اذا كانت ترى فى وشيه ترابيع صغار تشــبه عيون الوحش.

(١) جزيرة العرب قبل الاسلام لجويدى. Guidi : L'Arabie Antéislamique.

(٢) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو.

وهل للغة أن يكون فيها اسم بلا مسمى، وما كثرت الأسماء إلا بكثرة القبائل وهى تختلف بحضارتها ورفاهيتها . والحضارة كانت فى معظم العصور، ولا سيما فى جزيرة العرب أشبه بواحات وسط البوادى، ليس لها هذا التسلسل الذى عرفت به فى الأمم المتحضرة فى الغرب، لاختلاف الأهوية وطبائع تلك الأصقاع .

ومع غلبة الأمية على العرب فان علومهم كانت ابتدائية وأكثرها تجارب وأشعار تحمل فى الصدور . فمن علومهم علم النجوم وكان لهم يد فيه، وعلم الأنواء والرياح والكهانة والعرافة أو معرفة المستقبل والغيب، والأساطير والطب والنسب والتاريخ . ومن هذه العلوم ما كانوا يتوارثونه آخر عن أول على قول ابن قتيبة[1] كالنجوم ومناظرها وأنوائها والاهتداء بها والبروق والسحاب والرياح والعلم بالخيل والإبل والنبات، هذا الى ما خصوا به من القيافة والطرق والزجر، وإنما يكون ذلك فى الواحد منهم والاثنين فى القبيلة وسائر من فيها لا يعرف من ذلك إلا النبذ اليسيرة، ودخل الإسلام وليس فى قريش سوى سبعة عشر رجلا يكتبون، وكان منهم جلة الصحابة، وبضع نساء، وليس فى جميع اليمن من يقرأ ويكتب . وأهم علومهم الشعر كانوا يقيمونه مقام الحكمة وكثير العلم[2]، فاذا كان فى القبيلة الشاعر الماهر، المصيب المعانى، المخير الكلام، أحضروه فى أسواقهم التى كانت تقوم لهم فى السنة، ومواسمهم عند حج البيت، حتى تقف وتجتمع القبائل والعشائر فتسمع شعره، ويجعلون ذلك فخرا من فخرهم، وشرفا من شرفهم، ولم يكن لهم شيء يرجعون اليه من أحكامهم وأفعالهم إلا الشعر، فبه كانوا يختصمون، وبه يتمثلون، وبه يتفاضلون، وبه يتقاسمون، وبه يتناضلون، وبه يمدحون ويعابون . قال ابن سلام : ان أشعر شعراء القرى العربية — وهى خمس المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين — شعراء قرية المدينة . وعرفت للعرب ذاكرة قوية فى حفظ الشعر بحيث يروى العربى عشرات القصائد ومئات الأبيات على أيسر وجه، وذلك

(١) المسائل والأجوبة لابن قتيبة . (٢) تاريخ اليعقوبى .

لاعتمادهم أبدا على حافظتهم، وقلما حفظوا شيئا من خطبهم، ولذلك كان المنقول عن الجاهلية من الشعر العربى أوفر كثيرا من المنقول من خطبهم .

قال الجاحظ : لم يكن العرب تجارا ولا صناعا ولا أطباء ولا حسابا ، ولا أصحاب فلاحة فيكونوا مهنة ، ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ، ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب، ولا أصحاب احتكار لما فى أيديهم وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورؤوس المكاييل ، ولا عرفوا الدوانيق والقراريط، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغل عن المعرفة، ولم يستغنوا الغناء الذى يورث البلادة ، والثروة التى تحدث الغرّة، ولم يحتملوا ذلا قط فيميت قلوبهم ، أو تصغر عنده نفوسهم، وكانوا سكان فياف وتربية عراء لا يعرفون الغمق ولا اللثق[1]، ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم : أذهان حداد ، ونفوس مفكرة، فحين جلوا حدّهم، ووجهوا قواهم الى قول الشعر وبلاغة المنطق، وتثقيف اللغة وتصاريف الكلام، وقيافة البشر بعد قيافة الأثر، وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شان المناقب والمثالب بلغوا فى ذلك الغاية وحازوا كل أمنية، وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهممهم أرفع، وهم من جميع الأمم أفخر، ولأيامهم أذكر . اه .

الزواج عند العرب وبعض عاداتهم :

جاء الاسلام وبعض العرب يئدون بناتهم أى يقبرونها ويهيلون عليها التراب مخافة العار والحاجة . وفى التنزيل: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾. ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم . إن قتلهم كان خطأ[2] كبيرا﴾.

(١) بلد غمق كمكتنف كثير المياه رطب الهواء . واللثق : محركة الندى . والعراء : كساء الفضاء لا يستر فيه شيء ج أعراء . والفيف : المكان المستوى أو المفازة لا ماء فيها ج أفياف وفيوف وفياف .

(٢) الخطأ : الاثم . والاملاق : الفقر .

وكانوا يجمعون بين الأختين ويخلف الرجل على امرأة أبيه اذا مات، ويطلقون النساء حتى اذا قرب انقضاء عدّتهن راجعوهن لا عن حاجة ولا لمحبة، ولكن تطويلا للعدّة ولتوسيع مدّة الانتظار ضرارا . وكان الرجل يطلق امرأته أو يتزوّج أو يعتق ويقول كنت لاعبا . ويمنعون النساء أن يتزوّجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدّتهن حمية جاهلية . واذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء أن يتزوّجها بعضهم، وإن شاء زوّجوها أو عضلوها فهم أحق بها من أهلها. واذا مات الرجل قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فان لم يكن له فيها حاجة تزوجها بعض إخوته بمهر جديد . وهذا نكاح المقت . فأنزل تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهنّ[(١)]﴾ . وكان الرجل يقول لزوجته اذا طهرت من طمثها[(٢)]، أرسلي الى فلان فاستبضعي منه لتحمل ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها، يفعل ذلك رغبة فى نجابة الأولاد. وهذا نكاح الاستبضاع . وكان يجتمع الرهط مادون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبونها عن رضا منها ، فاذا حملت ووضعت أرسلت اليهم وخاطبتهم فيما كان من أمرهم معها، وألحقت الولد بمن أحبت لا يمتنع من قبوله . وينصب البغايا على أبوابهنّ رايات ليعرف محلهنّ . ومنه نكاح الخدن وهو المشار اليه بقوله تعالى : ﴿محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾ . وكانوا يقولون ما استتر فلا بأس به وماظهر فهو لوم . ومنه نكاح المتعة وهو التزوّج الى أجل . ومنه نكاح البدل وهو أن يقول الرجل للرجل انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى . ومنه نكاح الشغار وهو أن يزوّج الرجل ابنته أو أخته أو ابنة أخيه من رجل آخر على أن يزوّجه هذا الرجل ابنته أو أخته ليس بينهما صداق .

ومنهم من كانوا يقولون الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به سبحانه، والى هؤلاء القوم يشير تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، واذا بشر

(١) تمنعوهن عن نكاح غيركم حابسا لهن . (٢) الطمث : الحيض .

أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم[1]، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون[2] أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ . وقد كانت للعرب أوابد أى دواه تجافى الاسلام عنها وأبطلها، حرصا على حقوق المرأة وسلامة البيوت من العهر، على أن قريشا كانت أنكحتها قبل الاسلام مستقيمة إلا ما ندر . وقريش أصح العرب أخلاقا وأنسابا وعفة وأنفة تجردت نفوس أكثرهم عن لوثات القبائل المجاورة، وكانوا لا يحجبون نساءهم لما يعرفون من أنفسهم من العفة والحشمة ، وكان شعراؤهم يعشقون و يعفون ، و ربما هلكوا بعشقهم وما باحوا به ، حتى لا يفتضحوا ويفضحوا غيرهم، وأكثر حبهم عذرى لا ريبة فيه .

وكانوا يؤخرون شهر المحرم الى صفر لحاجتهم الى شن الغارات وطلب الثارات، و يؤخرون الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية وهو ما يسمونه بالنسىء . وفى التنزيل : ﴿ إنما النسىء[3] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما و يحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين﴾. وقد كانت قريش وأكثر العرب يطوفون بالبيت عراة و يحرمون على أنفسهم اللحم والودك[4]، فنزل قوله تعالى : ﴿يابنى آدم خذوا زينتكم[5] عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ . ونهت السنة عن أربعة وهى : لا عدوى ، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر . والعدوى معروفة، والطيرة التطير أو التشاؤم ، والهامة ما كانت العرب تعتقده من أن القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثأره صاحت هامته بالقبر اسقونى . وأما الصفر فهو كالحبة يكون فى الجوف يصيب الماشية والناس، وهو أعدى عندهم من الجرب، وقيل : شهر صفر وكان العرب يعدونه شؤما .

(١) ممتلئ غما . (٢) هوان وذل . (٣) النسىء : التأخير لحرمة شهر الى آخر .
(٤) الودك : محركة الدسم كالدهن ونحوه .
(٥) زينتكم : أى ما يستر عورتكم . وعند كل مسجد أى عند الصلاة والطواف .

«كان العرب يأكلون(١) الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، ويلبسون ماغزلوا من أوبار الإبل وأشعار الغنم» «وكان الناس طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة(٢) من الشام من الدرمك ابتاع منها فخص بها نفسه، فأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير» بل كانوا قبل الاسلام يأكلون ما دب ودرج(٣) إلا أم حُبيْن وهى أشبه بالحرباء، ولم يكن إلا لبعض قبائلهم القريبة من الحيرة والشام « شيء طريف، ولقمة كريمة، ومضغة شهية » . وقلما يعرفون «رفاغة العيش والناعم من الطعام» والإبل عندهم أفضل الذبائح، ولأهل البدو اللباء والسلاء والجراد والكمأة والخبزة فى الرائب والتمر بالزُّبد والخلاصة والحيس والوطيئة(٤).

والفالوزق أو الفالوذج أشرف ماعرفوه من طعام، ولم يطعم الناس أحد منهم ذلك الطعام إلا عبد الله بن جُدعان من أجواد قريش . ذهب مرة إلى كسرى فأطعمه إياه فاستطابه، وسأل كيف يصنع فقيل له إنه لبـاب البر يلبك بالعسل، فابتاع غلاما يصنعه له، ورجع إلى مكة وصنع الفالوذج، ودعا اليها أصحابه، وكان له مناد ينادى « هلم إلى الفالوذ » وكانت له جفنة يطعم فيها فى الجاهلية، ويأكل منها القائم والراكب لعظمها، وربما حضر النبي طعامه قبل النبوة، وكان يسمى بحاسى الذهب لأنه كان يشرب فى إناء من ذهب وقالوا فى المثل " أقرى من حاسى الذهب " . وزعموا أن ابن جدعان هـذا كان فى بدء أمره فقيرا مملقا وكان شريرا يكثر من الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلتـه، فخرج ذات يوم فى شعاب مكة حائرا بائرا فرأى فى غار قبور الرجال من ملوك جرهم، ووجد عند رؤوسهم لوحا من ذهب فيه تاريخ وفاتهم وعدد ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلئ والذهب

(١) تاريخ الطبرى .
(٢) الضافطة : هم الأنباط كانوا يحملون الدقيق والزيت وغيرها . والدرمك : دقيق الحوارى .
(٣) مآكل العرب للمؤلف (مجلة المقتبس م ٣ ص ٥٦٩) .
(٤) السلاء : ماطبخ وعولج من السمن . واللبأ : أول اللبن فى النتاج . والوطيئة : ضرب من العصيدة . وقيل طعام يعمل بالتمر واللبن . والحيس : تمر يخلط بسمن واقط . والأقط : الجبن المتخذ من اللبن الحامض .

إنه كان لعثمان بن عفان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم وخمسون ومائة ألف دينار، وترك ألف بعير بالرَّبذة، وترك صدقات كان تصدّق بها قيمة مائتى ألف دينار .

هذه صورة من ثروة العرب قبيل الاسلام وبعيده، الى العهد الذى أخذوا فيه يتذوقون مباهج الحياة، وكان من معاوية رأس الأمويين منذ فتحت له خزائن الأرض أن انفق كثيرا فى مصالح المسلمين، ووصل الناشزين على الملك وغيرهم، وأدرّ كثيرا على أعمال العمران، وجرى اخلافه على طريقته، ومن أهمهم الوليد ابن عبد الملك، فقد توسع فى إقامة المصانع والجوامع فزين مسجد الرسول، وكاتب ملك القسطنطينية، فبعث اليه أربعين رجلا من الروم وأربعين من القبط، ووجه اليه أربعين ألف مثقال ذهبا، وأحمالا من الفسيفساء، وحلى المسجد بالفضة والذهب وفرشه بالمرمر وفرغ منه لانسلاخ سنة تسع وثمانين[1] . وكذلك فعل الوليد

(١) عن الصفدى : تقول للعشرة وما دونها خلون لأن المميز جمع والجمع مؤنث . وقالوا لما فوق العشرة خلت ومضت لأنهم يريدون أن مميزه واحد وتقول بعد العشرين لتسع إن بقين وثمان إن بقين، تأتى بلفظ الشك لاحتمال أن يكون الشهر ناقصا أو كاملا . ومنع أبو على الفارسى أن يكتب لليلة خلت كما منع من صبيحتها أن يقال لمستهل لأن الاستهلال قد مضى ونص على أن يؤرخ بأول الشهر فى اليوم أو بليلة خلت منه . وقال الحريرى : والعرب تختار أن تجعل النون للقليل والتاء للكثير، فيقولون لأربع خلون ولأربع عشرة ليلة خلت قال : ولهم اختيار آخر وهو أن يجعل ضمير الجمع الكثير الهاء والألف، وضمير الجمع القليل الهاء والنون المشدّدة، كما نطق به القرآن (إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) بجعل ضمير الأشهر الحرم بالهاء والنون لقلتهن وضمير شهور السنة الهاء والألف لكثرتها . وكذلك اختاروا أيضا أن ألحقوا بصفة الجمع القليل الألف والتاء فقالوا أقمت أياما معدودات، وكسوته أثوابا رفيعات، وعلى هذا جاء فى سورة البقرة (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وفى سورة آل عمران (إلا أياما معدودات) كأنهم قالوا أوّلا بطول المدة ثم إنهم رجعوا عنه فقصروا المدة انتهى . والواجب أن تقول فى أول الشهر لليلة خلت منه أو لغرّته أو لمستهله فاذا تحققت آخره قلت لإنسلاخه أو سلخه أو آخره . قال ابن عصفور : والأحسن أن تؤرّخ بالأقل فيما مضى وما بقى فاذا استويا أرخت بأيهما شئت . قلت بل إن كان فى خامس عشر قلت منتصف أو خامس عشر وهو أكثر تحقيقا لاحتمال أن يكون الشهر ناقصا وإن كان فى الرابع عشر ذكرته أو السادس عشر ذكرته . وجرت العادة بأن يقولوا فى الشهر المحرم شهر الله وفى شهر رجب، شهر رجب الفرد أو الأصم أو الأصب =

فى الحرم المكى والجامع الأموى . فقدأنفق على جامع دمشق خمسة ملايين وستمائة ألف دينار، وجلب له مائتى عامل من الروم، ولما قيل له إنه محق بيوت الأموال فى نقش الخشب وتزويق الحيطان خطب فقال : قد بلغتنى مقالتكم وليس الأمر على ماظننتم، ألا وإنى أمرت باحصاء مافى بيوت أموالكم فأصبت فيه عطاءكم ست عشرة سنة . وكان سبق الوليد أبوه عبد الملك بن مروان فأنشأ المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ورصد لذلك خراج مصر سبع سنين، وفرغ منه سنة ثنتين وسبعين . هكذا توسع الأمويون فى البناء بعد أن كثرت أسباب الثروة، وكان من خلفائهم فى الأندلس فى باب العمران ماهو عجيبة الأيام والدهور . أما الثروة فى عهد العباسيين فما كان الانسان يعتقد صحة ماروى عنها لولا أنه ورد على لسان ثقات المدونين لها، ولولا أنها أتت أخبارها من عدة طرق جلها موثقة .

خروج العرب من الأمية وعناية بنى أمية بالعلم :

بعث الرسول "وليس أحد من العرب يقرأ كتابا" ولم يجد الرسول لافشاء العلم فى الناس إلا أن يكثر فيهم سواد من يقرأ ويكتب، وأن يحملهم على تعلم الكتابة، فكان اذا أسر جماعة من العرب وصادف فيهم أناسا يقرأون ويكتبون، ولم يكن لأحدهم مال يفتدى به نفسه يأمره أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة . وبهذه الطريقة فشت الكتابة فى قريش وغيرها . وكان يقول : قيدوا العلم بالكتابة وفى رواية بالكتاب . هذا وهو النبى الأمى . والأمية فيه فضيلة "لأنها أدل على صدق ما جاء به أنه من عند الله لا من عنده، وكيف يكون من عنده وهو لا يكتب ولا يقرأ ولا يقول الشعر ولا ينشده[(١)]" .

= وفى شعبان شعبان المكرم وفى رمضان رمضان المعظم وفى شوال شوال المبارك ويؤرخون أول شوال بعيد الفطر وثامن ذى الحجة بيوم التروية وتاسعه بيوم عرفة وعاشره بعيد النحر وتاسع المحرم بيوم تاسوعاء وعاشره بيوم عاشوراء فلا يحتاجون أن يذكروا الشهر ولكن لابد من ذكر السنة .

(١) فى مجموعة الحفيد للهروى بحث فى أمية الرسول .

وأمر الرسول زيد بن ثابت أن يتعلم لسان اليهود وتعلم[١] زيد هذا بالفارسية من رسول كسرى ، وبالرومية من حاجب النبي ، وبالحبشية من خادم النبي ، وبالقبطية من خادمه ، وهذا كان مبدأ تعلم العرب لغات غير لغتهم ، ويروى وهى رواية غريبة أنه كان لعبد الله بن الزبير[٢] مائة غلام يتكلم كل واحد منهم بلغة غير لغة الآخر فكان يكلم كل واحد منهم بلغته . وكانوا يسمون القرّاء[٣] من يقرأون الكتاب وليسوا أميين ، لأن الأمية صفة عامة فى الصحابة ، فقيل لحملة القرآن يومئذ قرّاء إشارة الى هذا . فهم قرّاء لكتاب الله والسنة المأثورة عن رسوله . وهؤلاء بدأوا عقبى الفتوح ينتشرون فى الأمصار .

كانت أوّل بعثة علمية أرسلت من الحجاز الى الشام فى إمارة يزيد بن أبى سفيان ، كتب هذا الى عمر بن الخطاب أن أهل الشام قد كثروا وربلوا[٤] وملؤا المدائن واحتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأعنّى يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم ، فأرسل اليه معاذاً[٥] وعبادة وأبا الدرداء ، فصار الأول والثانى الى فلسطين ، وصار الثالث الى دمشق . وكان الفضل الأوّل فى اقتراح إنفاذ هذا المشروع العظيم لأحد أبناء

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه . (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر .

(٣) مقدّمة ابن خلدون . (٤) ربلوا : كثروا ونموا .

(٥) قال ابن حزم إن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين دون محاشاة أحد ، بل تيقنا إجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التى استقر بها ، ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى أن مات ، فان ذكروا الكوفيين من الصحابة صدروا بعلى وابن مسعود وحذيفة ، وإنما سكن على الكوفة أربعة أعوام وأشهرا أو نحوها ، وقد بقى ٥٨ عاما وأشهرا بمكة والمدينة . وإن ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن الحصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبى بكرة ، وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة أعمارهم خلت هنالك . وإن ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة ابن الصامت وأبى الدرداء وأبى عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية ، والأمر فى هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم . وكذلك فى المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوى . وفى المكيين عبد الله بن عباس وعبد الله ابن الزبير ، والحكم فى هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فيمن هاجر الينا من سائر البلاد ، فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الأمر منا الذين إجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرّم اقترافه ، ومن هاجر منا الى غيرنا فلا حظ لنا فيه ، والمكان الذى اختاره أسعد به .

أبي سفيان النجباء، كما كان الفضل الأعظم لعثمان بنسخ صحف القرآن فى المصاحف، فأرسلت المصاحف التى كتبت منه الى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة، وضعت فى جوامع الأمصار يقرأ فيها القراء ويرجع إليها الحفاظ، وأبقى عثمان لنفسه مصحفا عرف بالمصحف الإمام، وغبر النـاس يقرأون فى مصحف عثمان نيفا وأربعين سنة الى أيام عبدالملك بن مروان، ثم كثر التصحيف فى العراق ففزع الحجاج ابن يوسف الى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات فوضعوا النقط أفرادا وأزواجا، وخالفوا بين أماكنها فأصبح الناس لايكتبون إلامنقوطا ثم أحدثوا الإعجام؛ وكان عثمان كسائر بنى أميـة وبنى عبد شمس فى الغاية من الغيرة على بث الفضائل فى الناس، يكرم صاحبها أيا كان، وذكروا وهو من البراهين على حبه للعلم، أن حرملة بن المنذر[1] الطائى كان شاعرا نصرانيا أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من وزراء الملوك وللملوك العجم خاصة، وكان عالمـا بسيرهم، فكان عثمان يقربه على ذلك ويدنى مجلسه .

وتوسع معاوية فى طلب العلم فقال يوما: وددت أن عندنا من يحدّثنا عما مضى من الزمن، هل يشبه مانحن فيه اليوم . فقيل له إن بحضرموت رجلا معمرا اسمه أمد بن أبد الحضرمى فأتى به . وورد عليه من اليمن عبيد بن شرية من المعمرين، وكان آية باهرة فى معرفة تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم، يرويها مشفوعة بالقصائد الرنانة، فأمر معاويه كتابه[2] أن يدوّنوا ما يتحدّث به عبيد بن شرية فى كل مجلس سمر فيه معاوية، وكان يعجب بما يلقيه عليه عبيد، ويستزيده من إيراد الشعر، لأن الشعر كما قال معاوية ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها والحاكم بينهم فى الجاهلية، فكان بدء تدوين التاريخ على يد معاوية. واستصفى معاوية أيضا كعب الأحبار وهو من حمير من آل ذى رعين، أسلم وجاء الشام مع عمر بن الخطاب فى فتح القدس، فجعله معاوية من مستشاريه لكثرة علمه. وكان يروى أشياء عن الجاهلية

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر . (٢) أخبار عبيد بن شرية الجرهمى والفهرست لابن النديم .

والاسلام، وبعض مانسب اليه معدود فى الإسرائيليات . وكان سعيد بن عريض ابن عادياء ابن أخى السموءل[1] بن عادياء من يهود الحجاز شاعرا يفد على معاوية فيدخل عليه وهو على طنفسة ونعلاه فى رجله ، وهو متوشح بملحفة[2] ، فيكثر معاوية الترحيب به ويدنى مجلسه ويأخذ بيده ، وإذا كان هذا النبوغ يظهر من معاوية ويزيد من أبناء أبى سفيان ، فإن أباهما أبا سفيان وجدهما حربا نقلا الخط العربى الى الحجاز ، وهذا من أعظم مآثر بنى أمية على العرب . بل إن السنة أى أحاديث الرسول لم تدون آخر المئة الأولى إلا بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الأموى . فقد كتب إلى عامله على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبه، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء .

دخول العلوم المادية :

وعمر بن عبد العزيز هو الذى أمر بنقل كتاب أهرن بن أعين فى الطب الى اللغة العربية ، وهو الذى أمر عاصم[3] بن عمر الأنصارى وكان ثقة كثير الحديث عالما ، أن يجلس فى مسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازى ومناقب الصحابة، وقال إن بنى مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه، فاجلس فحدث الناس بذلك . وسبق حكيم آل مروان وعالم قريش، خالد[4] بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، المتوفى سنة ٨٥ الى ترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحروب والآلات والصناعات من اللسان اليونانى والقبطى والسريانى "وكانت الترجمة - أحيانا - من لغة يونان الى العبرانية، ومن العبرانية الى السريانية، ومن السريانية الى العربية"، وخالد بن يزيد هذا أول من جمعت له الكتب وجعلها فى خزانة فى الإسلام ، والأرجح أنها كانت فى دمشق .

(١) نص ابن قتيبة على أن عادياء بالهمز .

(٢) الملحفة اللباس فوق سائر اللباس من دثار البرد ونحوه كالملحفة والملحف بكسرهما .

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر .

(٤) خطط الشام للمؤلف ج ٤ ص ٢٠

وبعد فالشام بل بلاد الإسلام مدينة لأمية بأمور كثيرة لإخراجها من غضاضة البداوة الى غضارة الحضارة. والعلوم تسربت الى العرب من بقايا علوم القبط واليونان والسريان، بعد أن توطد أمر الخلافة، وأخذت الجيوش تتقدم فى إفريقية الى الأندلس وفى الشرق الى ما وراء السند وسمرقند. وكانت فى أنطاكية والرُّها ونصيبين وحران أوّل الفتح مدارس(١) عامرة تشبع أساتذتها بالثقافة اليونانية وفلسفة أرسطو والعلوم والطب المعروفة عند القدماء. قال دييل: وراجع خلفاء الأمويين هؤلاء الأساتيذ لينقلوا الى السريانية والى العربية أهم كتب العلم والأدب عند اليونان وبيزنطية، وجاء العباسيون بعد الأمويين فكان همهم أن يجمعوا المخطوطات اليونانية وأن ينقلوا الى العربية أشهر كتب العلم والطب والفلسفة اليونانية. ومضى القرن التاسع برمته وبغداد تترجم أُقليدس وأرخميدس وبطلميوس وديسقوريدس وأبقراط وجالينوس وأرسطو وتاوفرسطس. قال وبحق ما قيل إن العرب لولا بيزنطية والتقاليد البيزنطية التى نقلتها اليها مدارس الشام لظلوا على الرغم من استعدادهم الباهر، على ما كانوا عليه فى عهد محمد، شعبا نصف متوحش. فبواسطة تراجمة شاميين عرف العرب العلم والفلسفة اليونانية، وبفضلهم نشأت فى الإسلام من إسبانيا الى الهند حركة عقلية عظيمة أتت بأينع الثمرات. وبفضل المدارس العربية فى قرطبة عرف الغرب النصرانى نفسه فلسفة أرسطو. اهـ.

وقال لبون: إن حماسة المسلمين فى دراسة المدنية اليونانية واللاتينية مدهشة حقيقة، وقد ضاهت العرب شعوب كثيرة، وربما لم يقم من الشعوب من تقدّمهم فى هذه السبيل. وقال لكرك: كان كل ما فى أيدى العرب من العلوم فى آخر القرن الثامن للميلاد ترجمة مؤلف فى الطب وبضعة كتب فى علم الكيمياء. وما كاد القرن التاسع يوشك أن ينصرم حتى كان العرب قد امتلكوا ناصية جميع علوم اليونان وثقافة الأقدمين، ونبغ فيهم عدد عظيم من المؤلفين. وقال نوبرجر:

(١) كتاب بيزنطية لدييل Diehl : Byzance

فاقت المدنية العربية فى أوج إمبراطورية الإسلام مدنية رومية القديمة فى حيويتها وتنوعها، على حين كان لحضارة الاسلام فى الأندلس مركز يشابه من عدة وجوه حضارة اليونان القديمة . وقال دوسن : إن المدنية الأوربية ، بل المدنية الغربية كلها، مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين، و إن فتوحات العرب فى امبراطورية الإسلام من القرن السابع الى الخامس عشر، لتعدّ إحدى عجائب التاريخ . ومن المدهش أن يصبح العرب — وكانوا أوّل أمرهم على الفطرة — عنصرا فاتحا، و يغدوا سادة نصف العالم فى مئة عام . ومن أشدّ العجب حماستهم العظيمة، وسرعتهم البالغة فى تحصيل العلوم، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم، حتى وصلوا الى مستوى عال فى مئة سنة . بينا نرى الجرمانيين لما فتحوا الإمبراطورية الرومانية قضوا ألف عام، قبل أن يقضوا على التوحش و ينهضوا لاحياء العلوم . اهـ .

وفى الواقع أن العرب فى صدر الإسلام لم تعن كما قال صاعد[1] بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند أفراد منهم ، غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرا اليها . وتولى النقل الى العربية اليعاقبة والسريان والفرس وغيرهم، وكان المسلمون يصلحون المترجمات على الاكثر و يضعون المسميات للمصطلحات العلمية كالطب ونحوه، فينحتون ويشتقون و يضعون[2] ، حتى صار منهم التراجمة الحاذقون الذين ينقلون مباشرة إلى العربية، وساعدهم دخول كثير من الفرس والروم فى الإسلام ، والمسلمون يعنون بعلوم الدين واللغة، وما يخدم الدين من علوم اللسان . وأى فضل أعظم من فضل العرب على العلوم التى لم يعرفوها أن يقدم مثل خالد بن يزيد الأموى و ينفق النفقات العظيمة على ترجمة كتب العلم، ثم يجيء بعده عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، و يأتى بعدهم عدّة خلفاء من العباسيين ينفقون عن سعة على ترجمة الكتب،

---

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى . (٢) النقل والنقلة للؤلف مجلة المقتبس م ١ ص ٦١٦

ولا سيما المنصور والرشيد والمأمون . بل إن أفرادا منهم مثل أولاد موسى بن شاكر[1] كانوا ينفقون من مالهم الخاص على ترجمة الكتب مالا تكاد دولة من دول الغرب اليوم تنفقه على جميع فروع معارفها .

عناية العرب بالشعر والنثر :

هذا ما كان من أمر النقل فى العلوم، أما الآداب فكان العرب فيها سادة البلاغة فى الجاهلية والإسلام، وشعرهم الجاهلى والإسلامى سواء فى بلاغته وفصاحته، لا ينظم إلا بالمناسبات ويكفى فى بيان تأثير الشعر فى العقول أن الرسول كان "ينصب لحسان بن ثابت منبرا فى المسجد يقوم عليه ينافح عن الرسول" ومئات من الصحابة كانوا شعراء مجيدين، وكان لهم فى الجاهلية من الدقة فى الموضوعات التى خاضوا عبابها ما كان، وزاد شعرهم فى الإسلام رقة خصوصا بعد تمام الفتوح، وغشيان شعراء العرب الأمراء والخلفاء فى مصر والشام والعراق وغيرها . وكان الأمويون يفضلون كثيرا على الشعراء، ومنهم النصارى أمثال الأخطل ونابغة بنى شيبان . قال عمر بن الخطاب[2] : "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد، وغزوا فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا[3] الى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك، وذهب عنهم منه أكثره، وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول، وما مدح به هو وأهل بيته، فصار ذلك الى بنى مروان أو ما صار منه . اهـ .

هـذا ما كان من الشعر، أما النثر فأخذ يرتقى فى الإسلام، ونبغ فى العرب خطباء عظماء أمثال زياد والحجاج وعتبة بن أبى سفيان وتلك الطبقة العالية من

(١) تاريخ الحكماء للقفطى . (٢) طبقات الشعراء لابن سلام .

(٣) وأل اليه يئل وألا وؤلا ووئيلا وواءل موائلة ووئالا لجأ وخاص ووأل الى المكان بادر اليه .

خطباء الخوارج[1]، والمظنون أنه لم يأت بعد على بن أبى طالب أفصح ولا أخطب من زياد والحجاج . وعدّ الجاحظ[2] من الخطباء فى خلفاء بنى أمية معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية بن يزيد ومروان وسليمان ويزيد بن الوليد والوليد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز .

وكثر التدوين منذ أوائل عهد الصحابة ، وقوى فى أيام التابعين ، وألف زيد ابن ثابت كتابا فى علم الفرائض، وعبد الله بن عمر كتب الحديث ، وألف كتاب فى قضاء علىّ على عهد ابن عباس . وعن هشام بن عروة قال : حرق أبى يوم الحرة كتب فقه كانت له ، قال فكان يقول بعد ذلك لأن تكون عندى أحب إلىّ من أن يكون لى مثل أهلى ومالى . ووقعة الحرة كانت سنة ثلاث وستين فأكد ذلك أن التدوين وقع من قبل حتى كانت لعروة هذه الكتب فى الفقه . وتقدّم معنا أن عبد الحكم الجمحى فتح ناديا فى مكة جعل فيه دفاتر من كل علم فى النصف الأوّل من القرن الأوّل وهذا من البراهين الساطعة أيضا على أن التدوين وكتابة الصحف والكتب بدأت فى الاسلام على عهد الراشدين على الأكثر، فلم يكن الاعتماد من ثم على الحفظ فقط كما كانت الحال فى الجاهلية، بل كان يعمد الى الصحف، وبقدر ما كان يسهل تناول القراطيس أى الطوامير المعمولة بمصر من لب البردى، كانت كتب العلم تزيد انتشارا وكانوا أوائل الاسلام يكتبون على الأدم كعهد الحيبريين[3] وككتاب النبى الى كسرى، وكتبت المصاحف فى جلود الظباء الى أن استعمل الورق ، وكلما زادت أدوات التدوين كثر عدد القرّاء والحفاظ والأدباء والرواة واللغويين وهكذا تنافست المدن فى سبيل العلم وتلقف الثقافة العربية .

(١) الكامل للمبرد . (٢) البيان والتبيين للجاحظ .

(٣) فى تحقيق ماللهند من مقالة مقبولة للبيرونى .

مواطن العربية
وأثرها فى اللغات الشرقية والغربية

انتشار اللغة العربية وأسبابه :

كثر المسلمون بمواليهم و بمن دان بالإسلام فى كل بلد نزلوه وحكموه، وهاجرت من بلاد العرب قبائل كثيرة نزلت الشام[1] والعراق ومصر وشمالى إفريقية والأندلس والجزيرة، فكانوا الدمنة[2] التى قام عليها أساس تعريب هذه الأقطار العظيمة . وأنشأ أهل الذمة يتعلمون اللغة العربية بحكم الطبيعة، وربما كان من أجمل السياسة فى تعريب العناصر فتح العرب للمجوس واليهود والصابئة والنصارى وغيرهم باب الخدمة فى الدولة، فلم يكن العرب يأبون استعمال القبطى والفارسى والرومى والاسبانى والكاتالانى والبروفنسالى والبرتقالى والإيطالى ، فاتحدت مصلحة الموافق والمخالف تحت علم الحرية العربية، وأخلص أهل الذمة القصد للمسلمين فعاشوا فى ظل دولتهم الجديدة مغتبطين، وتعاون الكافة فكانت هذه المدنية الباهرة .

بذت العربيــة فى الاسلام[3] اللغة الفارسـية والسريانية فى العراق وفارس ، والروميـة والسريانية فى الشام ، والقبطية والرومية فى مصر ، واللاتينيـة فى شمالى

(١) يؤخذ مما قاله البكرى فى معجم ما استعجم أن الغالب على أسماء البلاد التأنيث ، والمؤنث منها على أحد أمرين : إما أن تكون فيه علامة فاصلة بينه وبين المذكر كقولك مكة والجزيرة ، وإما أن يكون اسم المدينة مستغنيا بقيام معنى التأنيث فيه عن العلامة كقولك حمص وفيد وحلب ودمشق ، وكل اسم فيه ألف ونون زائدان فهو مذكر بمنزلة الشام والعراق نحو جرجان وحلوان وحوران وأصفهان وهمذان ، فان رأيت شيئا من ذلك مؤنثا فانما يذهب فيه الى معنى المدينة ، والأغلب على فيد التأنيث وكذلك بعلبك . وقال الفراء : الغالب على منى التذكير والاجراء ، والغالب على فارس التأنيث وترك الاجراء ، وهجر الغالب عليه التذكير وربما أنثوها ، وحجر اليمامة مذكر ويؤنث ، وعمان الغالب عليها التأنيث ، وقباء وأضاخ يذكران ويؤنثان ، وبدر وحنين مذكران والحجاز واليمن والشام والعراق ذكران ومصر مؤنثة ، ودابق يذكر ويؤنث ، ومن ذكر قال هو اسم للنهر ومن أنث قال هو اسم للمدينة وبغداد تذكر وتؤنث .

(٢) الدمنة آثار الدار والناس ج دمن بالكسر .   (٣) خطط الشام للمؤلف ج ١

إفريقية، ولم يمض سبعون سنة حتى أصبحت العربية اللغة العامة فى هذه الأقطار، وكان العرب من الغسانيين والتنوخيين والنبطيين والسبأيين واللخميين والتغلبيين مثل الضجاعمة وعاملة وقضاعة ينزلون البلاد المجاورة لجزيرة العربية ويتمازجون بأهلها، حتى إن من قرى الشام ما كان اسمه عربيا صرفا قبل الاسلام. وقد علل ابن خلدون(١) انتشار اللغة العربية بقوله "لما هجر الدين اللغات الأعجمية، وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا، هجرت كلها فى جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الاسلام وطاعة العرب، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم فى جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم، وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة".

القبائل العربية فى بلاد الأعاجم وتعريبهم :

لايعرف على التحقيق عدد القبائل النازحة من جزيرة العرب إلى البلاد المفتتحة فى آسيا وإفريقية وأوربا، وكان عدد المسلمين فى غزوة تبوك، آخر غزوات صاحب الرسالة، مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان مابين فارس وراجل، إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة، ثم كثر المسلمون وتفرقوا فى الأقطار، وليست كثرتهم مما يقضى أن يكونوا السواد الأعظم فى البلاد التى نزلوها، بل كانوا فى كل صقع حفنة صغيرة أشبه بفصوص الفسيفساء فى الرقعة العظيمة. ذلك لأن القبائل العربية التى هاجرت إلى البلاد المغلوبة لايزيد عددها عن نصف مليون نسمة فى الخمسين السنة الأولى، فقد قدّر بعضهم من نزلوا الشام بمائتين وخمسين ألفا، والشام أقرب الأقطار إلى الاختلاط بجزيرة العرب، ومع هذا كان عدد المسلمين فى الشام إلى قلة حتى أواخر القرن الأوّل من الهجرة.

(١) مقدمة ابن خلدون.

ومما ساعد على انتشار العربية كون الصلاة بها فرضا على كل أعجمى انتحل الإسلام، فالأعجمى يسلم ويتعرب، وإذا لم يسلم تضطره الحال إلى تعلم لغة الدولة القائمة، فيقرب من العواطف العربية . ثم إن هذا اللسان على سعته وسلاسته لم يقف ولم يجمد، فنقل ألفاظا من الفارسية والرومية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبطية والهندية، وترك ألفاظا عربية كانت مألوفة له فى عصر الجاهلية، واصطلح على كلمات عربية كانت تؤدّى معانى أخرى قبل الإسلام . وسعى العرب منذ كانت البلاد فى طاعتهم، أن يجعلوا العربية لغة علم كما هى لغة دين وأدب وسياسة . ولم يحارب العرب لغات البلاد الأصلية على رسوخها فيها، بل ساروا فى نشر لغتهم بتعقل ، وراعى دعاتهم سنن الطبيعة والنشوء ، وعملت قاعدة الانتخاب الطبيعى عملها فى اللغة كما عملت فى العناصر ، فبقى ماهو مفيد للناس فى مصالحهم على اختلاف نحلهم ومللهم .

كمال العربية وطرق بثها :

وقد عجب رنان(١) من كمال اللغة العربية وسعة انتشارها فقال : من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره ، انتشار اللغة العربية . فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء ، فبدت بجأة على غاية الكمال ، سلسة أية سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد الى يومنا هذا أدنى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأوّل أمرها تامة مستحكمة ، ولا أدرى هل وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض ، قبل أن تدخل فى أطوار أو أدوار مختلفة . قال : ما عهدت قط فتوح أعظم من الفتوح العربية ، ولا أشد سرعة منها ، فان العربية ولا جدال، قد عمت أجزاء كبرى من العالم ، ولم ينازعها الشرف فى كونها لغة عامة ، أو لسان فكر دينى أو سياسى ، أسمى من اختلاف

(١) تاريخ اللغات السامية لرنان .

العناصر إلا لغتان : اللاتينية واليونانيــة ، وأين مجال هاتين اللغتين فى السعة ، من الأقطار التى عم انتشار اللغة العربية فيهــا . ا هـ .

ظهرت العربية كاملة بالقرآن ، وكانت سرعة انتشارها على نسبة سرعة فتوح أهلها ، وهل أشدّ شكيمة من أمة اجتمع لها الغرام بالدين والغرام بالدنيــا ، يخافها ويحترمها عدوّها وصديقها فى القاصية والدانية ، وما عهد فى أدوار اللغة العربية ، أيام قوة الدولة العربية وضعفها ، بل أيام الأعاجم الذين استولوا على البلاد العربية ، ما خلا دولة الترك العثمانيين ، أن صدرت عنهــم عهود وعقود بغير العربية ، تترا كانوا أو فرسا أو شركسا أو كردا أو بربرا ، والغالب أنهــم كانوا يضطرون الدول المجاورة لهم الى أن يتخذوا لهم منشئين حاذقين بالعربية ، ليجيبوا الدولة الإسلامية على المكاتبات الرسمية بلغــة العرب ، هكذا يســتدل من تواريخ الأندلس وتواريخ القرون الوسطى وتواريخ الشام ومصر وبغداد والجزيرة وفارس والسند وسائر بلاد المشرق . ولم تشبه العربية فى هذا الشأن إلا اللغة اللاتينية فى الغرب قديما ، واللغة الفرنســية الى عهد قريب ، ثم اللغة الانكليزية فى الأيام الأخيرة ، فقــد أصبحت هــذه الألسن الثلاث كالعربية لغات الســياسة والتجارة ، بل لغات دوليــة عامة فى المعاملات ، وكتب الشرف للعربية ان كانت لغة الدول ذوات العــلاقة بالشرق الإسلامى قرابة ألف سنة .

" وأصبحت[1] العربية فى النصف الثانى من القرن الثامن للميلاد لغة العــلم عند الخواص فى العــالم المتمدن ، وصارت حاملة علم التقدّم الصحيح ، وحافظت على تفوّقها وتصــدّرها فى المرتبة الأولى بين جميع الألســن الأخرى الى آخر القرن الحادى عشر على أقل تعديل . وبعد ذلك أخذ التمدن الإســلامى واللغة العربية يفقدان منزلتهما تدريجا ، وقد نقلت فى القرن الثانى عشر والقرن الذى بعده أكثر

(١) العلوم والعمران فى الأعصر الوسطى لجورج مرطون (المجلد ١٨ من مجلة الكلية) .

التآليف الى اللغة اللاتينية واللغة العبرانيـة، وكان كل من يريد أن يطلع فى القرن الحادى عشر على آراء عصره مضطرا أن يتعلم أوّلا اللغة العربية، وزال هذا الاضطرار قبل آخر القرن الثالث عشر، فأصبحت اللغة اللاتينية لازمة فى الغرب أكثر من اللغة العربية". ولذلك اتهم المجدّدون فى النهضة الأوربية أمثال روجر باكون بالإسلام لأنهم كانوا يعرفون العربية. وكيف لاتكون الأفضلية للعرب فى تلك العصور، وإرادة دولتهم هى التى تملى على الأمم، ولا تملى عليهـم دولة. وما اتجهت قط هممهم الى قطر إلا فتحوه وأخضعوه ومدّنوه. يقول ابن حزم فى كتاب الإحكام إن اللغة يسقط أكثرها وتبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم فى أماكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فانما يفيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوّة دولتها ونشاط أهلها، وأما من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوّهم، واستقلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخاطر، وربما كان ذلك لشتات لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم، وبيور علومهم، هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة. اه.

ثم ان المغلوب قد يعتقد فى غالبـه الكمال فيقلده فى شعاره وزيه ولغته وسائر مناحيه، فيرتضخ[1] لسان غالبـه بالعادة والالف والمصلحة. هكذا كان الناس منذ عرف تاريخهم، وما خرجوا عن كونهم أبدا بين غالب ومغلوب. يلذهم أن يزينوا أنفسهم بالتخاطب مع من نزل عليهم أو نزلوا عليه، وهذا هو المشاهد اليوم فى لغات الأمم الكبرى، فانها تنتشر فى البـلاد التى اتصلت باحدى الصلات مع أمة غالبة أو دخيلة، رأينا ذلك فى شمالى إفريقية مع اللغة الفرنسـية والإيطالية والاسبانية، وفى الهند ومصر مع اللغة الانكليزية، وفى جزائر جاوه وما اليها مع اللغة الهولاندية. فاذا لم تكن لأمة حاجة تجارية أو سياسـية تدعوها الى تعلم لسان من نزلوا عليها، فانها تحاول تعلمه كأنه أداة من أدوات الظرف والزينة.

(١) ارتضخ لكنة أعجمية نزع فى لفظه الى الأعاجم وما استمر لسانه على العربية استمرارا.

انتشار العربية فى أقطار وتراجعها فى أخرى :

كانت العربية تتأصل على أيسر سبيل فى البلاد، بحسب قربها وبعدها من جزيرة العرب، وكان من أول الأقطار التى دخلت فيها الشام فالعراق ثم فارس ومصر، انتشرت فيها بعد تصرم جيلين من الناس ، إلا فارس فانها على ما يظهر قد أظهرت الخضوع وأضمرت غيره، فمنهم من دخلوا فى الاسلام رغبة وطوعا كأهل خراسان، ولكن المجوسية بقيت غالبة عليهم الى القرن الرابع، فلم تكن ناحية ولا مدينة تخلو من بيوت النيران . وظل المجوس أكثر الأمم بها[1] ، وان غدت عواصم فارس كأصفهان ومرو ونيسابور والرى وطبرستان وهمذان من المغرمات بالعربية . ونشأت فيها طبقات مهمة من الأدباء والعلماء من القرن الثالث الى السابع . ولكن فارس وان لم تعص العرب والعربية ظاهرا فقد عصتها باطنا ، وكأن عمر بن الخطاب شعر بهذا فى أيامه فقال : "اللهم لا تدركنى أبناء الهمذانيات والاصطخريات ، وعدد قرى من قرى فارس، الذين معهم قلوب العجم وألسنة العرب" . وفى الحق ان أهل فارس لما أتى الاسلام كانوا كما قيل كنار أخمدت ، وكرماد اشتدت به الريح فمزقوا كل ممزق .

وعلى كثرة ما كان فى بلاد الفرس أيام الدولة العباسية من مراكز العلم ، كانت اللغة العربية لا تعرف إلا فى أندية الخاصة ، وهى اللغة الرسمية واللغة العلمية ، أما البادية فكانت بمعزل عنها على ما يظهر، ولذلك حفظت فيها الفارسية كما حفظت الكردية . وكانت أحياء الأكراد[2] فى القرن الرابع فى فارس تزيد على خمسمائة ألف بيت شعر، ولسان أهل أذربيجان وإرمينية الفارسية والعربية وقل من يتكلم بهما ، فمن يتكلم بالفارسية لا يفهم العربية ويفصح بها من التجار وأرباب الضياع ، وهناك لغات لا تزال الى اليوم كما كانت منذ تسعمائة سنة ونيف .

---

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه . (٢) المسالك والممالك لابن حوقل .

وأصبحت دولة العرب مدّة ثلثمائة سنة الدولة الحية الوحيدة دون سائر الدول المعاصرة لها فى العالم ، وكادت لغتها القومية تكون لغة دولية أيضا ، وانتشرت العربية فى جنوبى أوربا وجزرها المشهورة ، إنبعثت جذوتها فى تلك الأرجاء بعد استيلاء العرب على الأندلس ، فانتشرت فى شبه جزيرة إسبانيا ، وفى جزر ميورقة ومنورقة ويابسة المعروفة اليوم بجزائر الباليار ، ولم يكتب ان كانت للعربية سوق فى جزيرة سردانية ، وان استولى عليها العرب سنة ٩٢ على نحو ما كان فى جارتها صقلية ، لأنه لم ينزلها العرب للاستيطان ، ولا قامت بها دولة لهم كصقلية ، وقد دامت العربية معروفة بل رسمية فيها الى ما بعد خروج العرب منها ، ولم يبق للعربية فى الأندلس من أثر بعد جلاء العرب الأخير فى سنة ١٠١٦ هـ . وفى خلال ذلك منع العرب من تكلم العربية ، وأصبح من آثروا التنصر على الخروج من أرضهم يكتبون الاسبانية بحروف عربية سموها الخميادو أى الأعجمى .

ولم تتأصل العربية على الأغلب فى جزائر البحر المتوسط ، لأن قبائل العرب لم ترحل اليها كما رحلت الى مصر وشمالى إفريقية والأندلس ، فمنها مافتحه المسلمون ليجعلوه مركزا حربيا ، ومنها مارسخت أقدامهم فيه مدّة معلومة ، ولم تتأصل العربية إلا فى جزيرة أرواد على خطوات من أنطرطوس ، على حين كانت قبرص بعيدة عنها . أما بقية جزائر البحر المتوسط كاقريطش فكان منزل العربية فيها منزل قُلعة ، وكذلك الحال فى جزيرة مالطة ، اختلطت العربية فيها بالايطالية وبغيرها من الألسن ، وجاء منها هذا اللسان الغريب الى اليوم ، وأصل أهل هذه الجزيرة أو بعضهم[1] من بلاد ساحل القدس ، ولما جلا الفرنج من الساحل مع طوائف النصارى الى بلاد الفرنج عين لهم ملك النصارى جزيرة مالطة فقطنوا فيها ، ولذلك كان لسانهم[2] قريبا من اللهجة الشامية ، وفى لغتهم ألوف من[3] الألفاظ العربية وأصلها

(١) تراجم الأعيان للبوريني (مخطوط) .
(٢) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى .
(٣) الواسطة فى أحوال مالطة لأحمد فارس .

عربية، سطت عليها اللغات المجاورة فأفسدتها . يقول مليه[1] : " إن اللغة العربية لم تتراجع من أرض دخلتها ، لتأثيرها الناشئ من كونها لغة دين ولغة مدنية ، وعلى الرغم من الجهود التى بذلها المبشرون ، ولمكانة الحضارة التى جاءت بها الشعوب النصرانية، لم يخرج أحد من الاسلام الى النصرانية " وقوله هذا لا يصدق إلا على آسيا وإفريقية . فقد عرفت العربية فى جنوبى فرنسا مدّة مائتى سنة ، وفى جزائر صقلية وقرسقة وإقريطش وأصبح القسم المناوح لشمالى إفريقية عربيا أو يكاد ، وصح أن يقال فى الجملة إن حوض البحر المتوسط غدا بحرا للعرب كما كان البحر الأحمر وبحر فارس وقسم من المحيط الهندى وبحر الظلمات من البحور العربية . ولو وفق معاوية بن أبى سفيان الى فتح القسطنطينية لكانت العربية تناولت أوربا من جنوبها الشرقى ، كما تناولتها من جنوبها الغربى ، وربما كانت مملكة القسطنطينية وما وراءها أقرب الى أن يحتفظ بها العرب من شبه جزيرة أيبريا ، إذ لافاصل من البر يفصل بين بلاد المسلمين وبلاد الروم .

لم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطرّ رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم[2] بالعربية ليفهمها النصارى، لأن هؤلاء زهدوا فى اللغة اللاتينية ونشأ لهم غرام بالعربية، فأخذوا يتقنون آدابها، ويتغنون بأشعارها، ويكتبون بها كأبنائها، ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها . وأصبح أهل البلاد يتكلمون بالاسبانية والبرتغالية والعربية على السواء ، ثم أخذوا لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية . وقد وجد من عقودهم نحو ألفى صك كتبها المستعربة من الوطنيين الأصليين باللغة العربية . وكان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين، دع من كانوا فى البلاد من النصارى، يتكلمون العربية ويقصدون الخليفة الأندلسى أو أحد رجاله يستخدمون فى أرضه . وفى مكتبة الاسكوريال

(١) اللغات فى أوربا الحديثة لمليه .

(٢) غرائب الغرب للمؤلف ج ٢ ص ١٣٤

فى إسبانيا لعهدنا معاجم يونانية عربيــة ، ولاتينية عربية ، وعربية إسبانيـة ، لمؤلفين من المسلمين .

سراية العربية الى اللغات اللاتينية :

وبعد هذا الاختلاط لا نستغرب أن نرى اليوم فى الإسبانية كثيرا من الألفاظ العربيــة كأسماء البلاد والأنهار والنواحى وبعض المرافق والمصطلحات . وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هى عربية لا محالة . ومن الأسماء مايبدأ ببنى ومنها مايبدأ بوادى ، فدخلت مئات من الألفاظ فى اللغة الاسبانية وتأصلت فيها ، كما دخلت العربية فى البرتقالية والإيطالية والفرنسية لغات الأمم اللاتينية . والعربية ظاهرة كل الظهور فى اللغتين الإسبانية[(١)] والبرتقالية . بل ليس[(٢)] فى الأرض لغة تقرب بتعابيرها ومترادفاتها وجمالها وأمثالها من اللغة العربية كاللسان الذى يتحدثون به اليوم فى البرازيل والبرتقال ، والبرتقاليون أجداد البرازيليين ، ودخلت اللغة البرتقالية ثلاثة آلاف كلمة عربية ومعظمها يبتدئ بأل التعريف ، ولا يزال على حاله باللفظ الافرنجى ، وقالوا ان ربع الاسبانية مأخوذ من العربية .

وسراية العربيــة لم تقف عند حد اللغات اللاتينية ، بل تعدتها الى اللغـات الجرمانية والسكسونية ، فتجد ألفاظا عربية فى الانجليزية[(٣)] والغالية القديمة والألمانية ، واللغات الجرمانية الأصل كالهولاندية والاسكندنافية فى شمالى أوربا ، وفى الروسية والبولندية واللغات الصقلبية الأخرى .

ومعلوم أن العرب استولوا على إقليم سبتمانيا فى الجنوب الغربى من فرنسا على ساحل البحر المتوسـط ، وعلى مدينة ناربون وجعلوها قاعدة أعمـالهم البحرية ،

(١) معجم المفردات الاسبانيـة والبرتقالية المشتقة من العربية لأنجلمان .
Engelmann: Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'Arabe.

(٢) البرازيل والشرق لموسى كريم . (٣) مقالة لعلى مظهر فى السنة الثالثة من مجلة المعرفة .

واستولوا أيضا على مدينة قرقشونة ونيم وأتون وبون وسانس وأفينيون وبوردو، ثم استولوا على مرسيليا وأرل وعلى إقليم بروفنسيا ووصلوا الى بواتيه على ٣٣٢ كيلومترا من جنوبى غربى باريز، ووقف العرب فى إقليم سبتمانيا حيث أقاموا مراكز دائمة، وعقدوا عهودا مع أهل البلاد، وأدخلوا كثيرا من ألفاظهم فى الاصطلاحات اليومية .

قالوا بينا كان التوحش ضاربا أطنابه(١) على غاليا أى فرنسا وعلى جرمانيا، كان العرب قابضين على زمام الأحكام فى جنوبى فرنسا من جبال البرينات الى جبال الألب، يحملون من مستعمراتهم الى برغونيا وسويسرا فى الشمال، والى التيرول ولمبارديا فى الجنوب، ما تعلموه من العلوم فى مدارسهم . وفى ذاك العهد انتقلت الى الغرب عادة استعمال الأرقام العربية والكسور العشرية، وبقيت أسماؤها مع ما لحقها من التعديل عربية صرفة، وجاءت التعابير النادرة الى اللغة الفرنسية من اللغة العربية أكثر من اللاتينية . وإن كان فى الفرنسية على عهد أول نهضتها لفظة واحدة يونانية مقابل خمسمائة لفظة لاتينية، فمن العدل أن يقال إنه كان مثل ذلك من اللغة العربية، فأخذ الفرنسيس(٢) نحو تسعمائة كلمة من العربية وأدخلوها فى معاجمهم واستعمالهم، ومنها ما دخل لغتهم فى الحروب الصليبية .

وقد حدث للغة الفرنسية وآدابها(٣) فى عهد الصليبيين ما يحدث فى مثل هذه الأحوال على قاعدة مطردة، وهو أن لغة الأمة التى استفاضت مدنيتها يؤثر أهلها فى غيرهم . وكان الشرقيون ولا سيما العرب واليونان أكثر الأمم تمدنا بلا مراء على ذاك العهد . وقد تعلم قليل من العرب والترك والكرد لغة الفرنج، وهذا عدا بعض

(١) تاريخ العرب لسيديليو .

(٢) ملاحظات على الألفاظ الفرنسية المشتقة من العربية للامنس .
Lammens: Remarques sur les mots français dérivés de l'Arabe.

(٣) تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها لبتى دى جولفيل .
Petit de Julleville: Histoire de la langue et de la littérature française.

التراجمة الرسميين ، وتعلم على العكس كثير من الصليبيين لغة الوطنيين عقبي وصولهم الى فلسطين . ولا ريب أن مجاورة المدنية الإسلامية قد ساعدت على زيادة النفوذ الذى كانت العلوم العربيـة والفنون العربيـة تؤثرها فى الافرنج منذ زمن طويل . وجاء فى تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها بعد إيراد ما تقدّم : ومعلوم ما تدين به لهـذا التأثير علوم الفلسفة والرياضيات والفلك والملاحة وتركيب النيران الصناعية والطب والكيمياء حتى فن الطبخ . فقد أخذنا عن العرب أشـياء كثيرة من مثل طريقة الأرقام وشروح أرسـطو حتى حمـام الزاجل والرنوك وأدوات الموسـيق والأزياء والألبسة والأزهار والبقول . واذا حدث أن ما نقل لم يسم باسم المدينـة الشرقية المأخوذ عنها ، مثل ثوم عسقلان وكساء دمشق ، فان غيرها قد احتفظت بأسمائها العربيـة مع بعض التحريف ، وهى كثيرة ويتألف منها فى الفرنسـية مجموع كبير فى الجملة . اهـ .

وقال يهودا من جامعة مجريط (١) : أخذ الناس يدركون الآن أن أوربا فى القرون الوسطى مدينة للحضارة العربية التى اغترف من مناهلها المسلمون واليهود والنصارى على السواء . أخذ الناس الآن يفهمون أن العلوم الطبيعية والقوانين الأساسية فى الفلسفة والرياضيات وعلوم العمران كانت تستمدّ روحها فى زمن النهضة والاصلاح من ذلك المنهل العذب ألا وهو الحضارة العربية ، وصار علماء العصر كلما تعمقوا فى دراسة هذه الحضارة أدركوا أثرها البليغ فى حضارة اليوم ، وكشفوا مئات الكلمات الداخلة فى اللغات الأوربية من أيام تلك الحضارة الخ .

تأثر اللغات الشرقية بالعربية :

هذا ما تأثرت به اللغات الأوربية المجاورة للعربيـة أيام بهائها ، وذلك بقوى دولها والروح السارى من حضارتها ، بقى الكلام على تأثر اللغات الشرقية بها ، فمن أهم

(١) من خطاب له فى الجامعة الأميركية فى القاهرة مارس سنة ١٩٢٨

اللغات التى تأثرت بها اللغة الفارسية[١]، مع أنها كانت لغة حضارة راقية، وربما كان نحو نصف ألفاظها اليوم عربيا، ومثل ذلك يقال فى اللغة العثمانية أوالتركية على اختلاف لهجاتها كالقرقز وايغر وقفجاق وبشغرت وجغطاى . وتأثرت بالعربية اللغة الأوردية ولغة الملايو أى الجاوية واللهجة الأفغانية ولغات السودان المصرى واللغات البربرية فى إفريقية .

واللغة العربية اليوم فى السنيغال هى لغة المسلمين، وتعتمد بقية اللغات الوطنية على الحروف العربية فى كتابة لغتها[٢]، وهى شائعة فى السودان الفرنسى وفى شاطئ العاج، ويعتمدون فى النيجر على الحروف العربية، وذلك فى التجارة وكتابة اللغات المحلية، ويعتمد غير المسلمين فى ليبريا على الحروف العربية فى تدوين لغاتهم . وهكذا فى نيجريا الشمالية تدرس العربية فى المدارس الابتدائية، واللغات الوطنية تكتب بحروف عربية، والعربية منتشرة فى أقاليم الشاد وجيبوتى والحبشة، وأهل هذه الديار من المسلمين يتكلمون فى العادة لغتين، ويعتمد معلمو يوجوسلافيا على الحروف العربية فى كتابة اللغة الصربية والتركية، وجميع علماء قازان والقريم يتكلمون العربية،وكذلك علماء كرجستان وطاغستان وشركسستان،واللهجات المحلية فى أفغانستان تكتب بحروف عربية، وتستعمل العربية فى سيام قليلا، ويستخدم

(١) ليست الفارسية من اللغات السامية، وإنما هى من اللغات الآرية — والآرية نسبة الى آريا وهو كما قال بعض علماء الجغرافيا لفظ يراد به جميع مملكة الفرس مثل لفظ إيران — وكأن نسبته اليها لكون مبدإ ظهورها كان منها، ويقال لها أيضا اللغات الهندية الأوربية، ويدخل فيها الهندية واليونانية واللاتينية . وهى لغة بلاد ايطاليا القديمة التى تفرع منها فى القرون الوسطى معظم لغات أوربا . والفارسية من أكمل اللغات وأجملها، وهى أنواع بينها من الاختلاف مثل ما بين لغة أهل الحجاز وأهل نجد من ذلك، وأفصحها الفارسية الدرية وهى من أسهل اللغات وأقربها مأخذا . وقد عنى بعض علماء الفرس بضبطها وتدوينها إلا أن ذلك لم يقع من المشهورين منهم لانصرافهم عنها الى العربية التى شغفوا بها . وقد ألف بها فى كل شىء وأدخل فيها من الكلمات العربية ما لا يحصى تقريبا للعربية على الفرس، وفضل الفرس ظاهر للعيان وهو مما لا يحتاج الى بيان (عن التقريب لأصول التعريب لطاهر الجزائرى).

(٢) تقويم العالم الاسلامى لماسينيون Massignon: Annuaire du monde Musulman.

مسلمو الفيليبين العربية لتدوين لغتهم، والعربية تدرس في جميع مدارس المسلمين في الهند، ولها سوق رائجة في جامعة عليكرة في شمالي الهند، وفي مملكة حيدر آباد الدكن، وكذلك الحال في بلاد إيران .

وفي كتاب لغات العالم أن العربية كانت لغة الكتابة عند الشعوب القليلة التمدن كما كانت لغة شعوب إسلامية كتبوا بها لغتهم ، وقد حملت العربية من الألفاظ الدينية والعلمية ما لا يحصى عدده، دخلت في التركية والفارسية وغيرهما ، وإذا أراد الزنوج المسلمون في إفريقية ممن خرجوا عن الأمية أن يدوّنوا شيئا فيكتبونه بالعربية، وهم لا يتكلمونها في كل مكان، ولكنهم اتخذوا من العربية المكتوبة لغة علمية ولغة تراسل . يقول داربرمن الخطأ والخطل أن ينسب تقدّم الإسلام الى السيف وحده، وقد يستطيع السيف أن يغير عقيدة قوم، ولكنه لا يملك التأثير في ضمائر الأفراد وأفئدتهم، وإن عاملا أقوى من السيف، وسببا أشد تأثيرا من الخوف ، صحبا الإسلام فأخذ يتغلب على الحياة الخاصة والعامة في آسيا وإفريقية ، وساعد ذلك على انتشار اللغة العربية في أمم شتى تكاد لا تحصى . اهـ .

الشعوب التي تتكلم العربية :

ويتكلم اليوم باللغة العربية(١)، أوبها وبلغة أخرى، في جزيرة العرب والعراق والشام الى تخوم آسيا الصغرى وفي إفريقية الشمالية "طرابلس وبرقة وتونس والجزائر والغرب الأقصى" الى حدود الصحراء ومالطة ومصر الى أقصى الجنوب، حيث الأنهار التي تتألف منها منابع النيل الغربية وانتشرت في كردوفان ودارفور وواداى وبورنو وفي النيجر والسنيغال والصحراء الغربية الواقعة بين السنيغال والغرب الأقصى. ولم يستعمر سكان بلاد العرب الجنوبية جزيرة زنجبار فقط، بل استعمروا

(١) معلمة الاسلام . مادة عرب. Encyclopédie de l'Islam.

الأرض الإفريقية المناوحة لهـا ، وبعثوا المستعمرين الى أرخبيل ماليزيا . وقديما كانوا يتكلمون بالعربية ، وتكلموا العربية حتى القرن الثامن عشرة فى جزيرة قوصرة "بنتيلاريا" بين تونس وصقلية .

وفى كلام أهل هـذه الجزيرة وأهل جزائر الباليار كثير من المفردات العربيـة ويتكلم العربية بعض أهل «مدغسكر» ، ولا يعرف بالتحقيق إذا كانت العربية لسان شعب المو بال فى الجنوب الغربى من الهند . وقد نشر الحضارمة من سكان اليمن اللغة العربية حيث حلوا من بلاد الهند الانجليزية والمستعمرات الهولاندية ، وصدروا بها جرائد وأنشأوا لتعليمها مدارس ابتدائية . ولا يقل عدد من يتكلمون العربيـة اليوم فى البلاد العربيـة عن ستين مليونا على أقل تعديل ، هـذا عدا من يتكلمها ويكتبها من المسلمين فى الصين والهند وجاوة وتركستان وإيران وأفغانستان والسودان . ولئن أصاب هذه اللغة فى القرون الأخيرة بعض وهن لانقطاعها عن أن تكون لغة علم ، وبقى حكمها باقيا فى الدين والخطب والشعر ، وضعفت آدابها ، والآداب تبع لتقدم الأمة فى سلم الحضارة ، وهى صورتها الناطقة وأثر قوتها وانبعاثها ، لئن أصاب اللغة ذلك فليس معناه أنها بليت ولم تعد تصلح لشىء كما يدعى بعض شعوبية الغرب ، ويتابعهم بعض البلهاء أو المتفاصحين فى الشرق .

العربية فى عهدها الأخير واللهجات العامية :

كانت اللغة الفصحى هى واسطة التفاهم بين عامة الشعوب الإسلامية فى القارات الثلاث ، منذ قيام دولة الراشدين الى اليوم . وهيهات أن يكون حظها حظ اللغة اللاتينية من أكثر الأمم الغربية ، فإن العربية رسخت قواعدها لمكان الدين منهـا ، ثم بجعلها لغة مدنيـة راقية . ومن قارن بين حالتها اليوم وحالتها منذ مئة سنة ، وما أصابته من الترقى بإدخال المدنية الجديدة على أهلها ، لا يلبث أن يعرف بالبداهة أن العربية وسع صدرها لقبول جميع الأفكار الجديدة قديما وحديثا ، وما عاق هذه اللغة كون لغة التخاطب فى أكثر الأقطار العربية غير لغة التكاتب ، لأن شروط البقاء

فيها متوفرة بوفرة مادتها الأصلية ، ولأن نفس كل مسلم تهوى الى الاحتفاظ بها . وما أضر باللغة إلا انتشار الأمية زمنا طويلا بين أهلها . ولما أخذ أهل كل قطر بأساليب التعليم الجديدة فى العهد الأخير ، قربت لغة العوام بالضرورة من لغة الخواص ،وكان ذلك بفضل المدارس والصحف والكتب والخطب والمحاضرات ، وكم من لفظ فصيح شاع بالإستعمال اليوم بين الجمهور ، بواسطة هذه العوامل فى بث الفصيح . وكلما خفت الأمية بين الشعوب العربية ، وربى الأولاد على الفصيح ،يسمعونه فى الجامع والمعبد والبيت والمدرسة والسوق ،يتقارب عامى اللغة من فصيحها ، وتمشى لغة الكتابة مع الطبع ، مثل الكلام الدارج على الاستعمال .

وبأدنى نظرة فى اللغة العامية اليوم ، واللغة العامية فى مصر والشام مثلا ، قبل ثمانين سنة ، يتجلى لنا ما كان يبدر على لسان المدرّسين والخطباء والمعلمين والتلاميذ من اللفظ المبتذل ، وما سرى الى أقلامهم وكلامهم اليوم بل الى العامة والأميين من الفصيح الجميل . وهناك ندرك الدرجات التى صعدتها اللغة فى هذه الحقبة من الزمن ، وسيكون الترقى بهذا النظر على مقياس أوسع فى مستقبل الأيام . ومبادئ الترقى تبطئ سيرها لأول انبعاثها ، ثم تتسع خطاها بعد حين فتعدو عدوا ، ودور التأسيس أصعب من دور الاستثمار ، وليس من السهل إعادة الحياة الى لغة كادت تفقد نضرة ملكتها ، بفعل قرون الجهالة وطول أيام الأعاجم الذين دانت لهم بلاد العرب قرونا ، فقد رأينا من هذه الدول من كانوا ولا يزالون يسرون اذا رأوا العربية تهوى الى الحضيض ، مع أنها لسان دينهم ، وهم جماعات أخذوا بحب قوميتهم الى الغاية ، فظنوا تلقف ما عداها مما يقدح فى وطنيتهم ، وحاولوا بزعمهم "تطهير" لغتهم من العربية ، وما ندرى اذا تم تطهيرهم المزعوم ، ماذا يبقى لهم من لغتهم الضئيلة بمفرداتها .

يريد بعض الغربيين الذين يخوضون فى شؤون المسلمين ، أن يقلب العرب أوضاعهم ومشخصاتهم ، كان الأمم ترتجل ارتجالا . ومنهم من يزعم أن اللغة العربية

لم تعد تصلح لغة علم ومدنية ، وأن العرب يجب أن يغيروا كل شيء فى أساليبهم ، وأن يكتفى أهـل كل قطر باللغة العامية التى اصطلحوا على التخاطب بها . يقولون هذا وهم يعرفون أن لكل أمة مصطلحا ، وأن الأمة تعيش بماضيها ، وما هى إلا تتمة ، وقولهم ان لغة العرب لا تتسع للمصطلحات الفنية هو من الدعاوى الساقطة بالبداهة ، يكذبه ما يصدر اليوم من التآليف العلمية بالعربية فى مصر والشام والعراق وتونس وغيرها ، وفى كتاب لغـات العالم أن اللغـة العربية الفصحى أى العربية القـديمة والأدبية والعلمية لغة القرآن هى من أهم اللغات التى عرفها التاريخ ، وكان مؤلفوها لا يحصون كثيرة ، قالوا الشعر قبل الإسلام و بعده ، وخلفوا من تفاسير القرآن وكتب الحـديث والعبادات ، وألفوا فى كل موضوع من التاريخ والمعاجم والكتب العلمية الصرفة والقصص والرحلات وكتب المغامرات ، وفى كل جنس من أجناس التآليف مالا يقع عليه الإحصاء . اه .

وقد نشأ تكاثر اللهجات العربية من تنائى أقطارها ، وانفصام عرى وحدتها "وأهل الأمصار[1] إنمـا يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب". ولذلك كان هذا الاختلاف فى ألفاظ أهل الأمصار ، وليست كثرة اللهجات بضارة كثيرا مادام المعوّل على الفصحى ، والعامية تقرب كل يوم خطوة منها . والضار شيوع الأمية فى الأمة العربية . واللغــة كما قال ابن حزم تتبدل بتبدل مساكن أهلها ، فانه بمجاورة أهــل البلدة الأخرى تتبدّل لغتها تبدّلا لا يخفى على من تأمله ، فتتبدل ألفاظ الناس على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وإن كانوا يتكلمون فى الأصــل لغة واحدة . ومثل هذا رأى الثعالبى[2] فى أن شعراء عرب الشام وما يقاربها أشــعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها فى الجاهلية والإسلام . والسبب فى تبريز الشاميين قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر ، قربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، و بعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق

(١) البيان والتبيين للجاحظ . (٢) يتيمة الدهر للثعالبى .

بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم . قال إن شعراء الشام جمعوا بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة .

ونحن اليوم لانعلم الزمن الذى اضمحلت فيه اللغة الفصحى من الأفواه . ولكننا على يقين من أن هذا اللسان بقى محروساً[1] لم يتداخله الخلل الى أن فتحت الأمصار وخالط العرب غير جنسهم والفرس والحبش والنبط وغيرهم من الامم، فاختلطت الفرق وامتزجت الألسن وتداخلت اللغات وما انقضى عصر التابعين إلا واللسان العربى قد استحال أعجميا أو كاد . وقد قال عمارة[2] اليمنى من أهل المئة السادسة إن الزراب وهى الناحية الشرقية من المخلاف السليمانى فى اليمن، مازال أهلها الى عصره باقين على اللغة العربية من الجاهلية لم تتغير لغتهم، وذلك لأنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة فى مناكحة ولا مساكنة، وهم أهل قرار لا يظعنون منه . وقال ياقوت ان جبلى عكاد فوق مدينة الزرائب باليمن كان سكانه الى القرن السابع باقين على اللغة العربية من الجاهلية لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة . ويقول الرحالة بروكهارت إن فى اللغة العربية المحكية عدة لهجات مختلفة كل الاختلاف، وربما كان هذا الاختلاف مما يوجد من نوعه فى لغات أخرى، وعلى الرغم من سعة البلاد التى يتخاطبون بها أى من موغادور الى مسقط، فان كل من حذق لهجة واحدة يتيسر له أن يفهم جميع اللهجات . وقد يمكن أن يكون عرا التلفظ شىء من التأثير نشأ من طبيعة البلاد المختلفة، واحتفظت العربية بعذوبتها فى أودية مصر والعراق . وغدت قاسية فى البلاد الباردة من أرض البربر والشام . قال وبقدر مايصل اليه علمى، فان الاختلاف شديد بين اللهجة المغربية فى مراكش والبدوية فى الحجاز على مقربة من مكة ولكن لهجاتهم الخاصة لا تخالف بينها، إلا كما تتخالف الألمانية التى يتكلمها فلاح من بلاد سواب وآخر من سكسونيا .

(١) النهاية لأبن الأثير . (٢) النكت العصرية فى أخبار الدولة المصرية لعمارة اليمنى .

حال الغرب فى شباب الاسلام

همجية البلاد الانجليزية والفرنسية :

فى القرون التى كانت فيها العرب تنعم بلذائذ العقل والعمل، وتأخذ من مسرات الحياة الفاضلة بأوفر نصيب ، ويهاب سطوتها البادى والحاضر فى كل قطر استصفته أو لم تستصفه ، وتؤلف أمة منطوية على علم كثير ، وأدب غزير ، وتعرف لها وثبات ظاهرة ، وحكومات ناهضة — فى هذه القرون كان الغربيون متوحشين جاهلين ، لا يعرفون طعم الراحة ، ولا يتذوقون عيش الرفاهية ، لا أمن ولا إدارة ، ولا ملوك يعرفون واجبهم فى إقامة العدل وتوطيد الأمن ، وهم فى كل أحوالهم الى حالة البوادى أقرب منهم الى حياة المدن والحضارة .

كانت انجلترا[1] الانجلو سكسونية فى القرن السابع الميلادى الى ما بعد العاشر فقيرة فى أرضها ، منقطعة الصلات بغير بلادها ، سمجة وحشية ، تبنى البيوت بحجر غير نحيت ، وتشيدها من تراب مدقوق ، وتجعلها فى وطإ من الأرض : مساكن ضيقة المنافذ ، غير محكمة الإغلاق ، واصطبلات وحظائر لا نوافذ لها ، تقرض الأمراض والأوبئة المتكررة المواشى والسائمة ، وهى المورد الوحيد فى البلاد . ولم يكن الناس أحسن مسكنا وأمنا من الحيوانات . يعيش رئيس القبيل فى كوخه مع أسرته وخدمه ومن اتصل به ، يجتمعون فى قاعة كبرى فى وسطها كانون ينبعث دخانه من ثقب فى السقف فتحا غليظا ، ويأكلون كلهم على خوان واحد ، يجلس السيد وقرينته فى أحد أطراف المائدة ، ولم تكن الشوكات معروفة ، وللاقداح حروف من أسفلها ، فكان على كل مدعو أن يمسك بيده قدحه ، أو يفرغه فى فيه دفعة واحدة ، وينتقل السيد الى غرفته فى المساء ، بعد أن يتناولوا الطعام

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو .

ويعربدوا على الشراب، ثم ترفع المنضدة والصقالات، وينام جميع المجتمعين فى تلك القاعة على الأرض أو على دكات، واضعا كل فرد سلاحه فوق رأسه، لأن اللصوص كانوا من الجرأة بحيث يقتضى على الناس أن يقفوا لهم بالمرصاد كل حين، لئلا يؤخذوا على غرة .

وكانت أوربا فى ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة، متأخرة فى زراعتها، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة فى أرباض المدن روائح قتالة، تجتاح الناس وتحصدهم، وكانت البيوت فى باريز ولندرا تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مدفئة . وكانت البسط مجهولة عندهم، لابساط لهم غير القش، ينشرونه على الأرض، ولم يكونوا يعرفون النظافة، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم، فتتصاعد منها روائح مزعجة. وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال، وكثيرا ما كانوا يؤون معهم الحيونات الداجنة، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش، فوقه كيس من الصوف، يجعل مخدة أو وسادة، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح . قال درابر : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة أوربا، وساورتها الأوهام، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة، ومات الطب وحييت أحابيل الدجالين، وكلما دهم البلاد وباء فزع رجال الدين الى الصلاة، وأغفلوا أمر النظافة، فكانت الأوبئة تفتك بهم فتكا ذريعا، وقد زارت أوربا مرارا فاجتاحت الملايين من أهلها فى أيام قليلة .

كان العالم القديم يقتسمه فى القرن الحادى عشر[1] مدنيتان : فى الغرب مدن حقيرة صغيرة، وأكواخ فلاحين، وقلاع لا هندسة لها، وبلاد مضطربة على الدوام بالحرب، لا يتأتى أن يسير فيها السائر عشرة فراسخ دون أن يسلب وينهب .

(١) التاريخ العام لمكسيم بتى .

وفى الشرق مدن القسطنطينية والقاهرة ودمشق وبغداد وجميع مدن ألف ليلة وليلة، بما فيها من قصور المرمر والمعامل والمدارس والأسواق والحدائق الممتدة على بضعة فراسخ، وبرية تروى أحسن إرواء غاصة بالقرى والضياع، وحركة التجار لا تنقطع، يذهبون بسلام من إسبانيا الى فارس . قال سنيوبوس: ولا شك أن العالم الاسلامى والعالم البيزنطى كانا أغنى وأحسن نظاما ونورا من العالم الغربى، فكان النصارى يشعرون بنقصهم فى التهذيب، ويعجبون باهتين بما يبدو لهم من غرائب الشرق، ومن يحب أن يتعلم يقصد الى مدارس العرب . وبدأ العالمان الشرقى والغربى فى القرن الحادى عشر يتعارفان، ودخل النصارى المتوحشون الى حمى المسلمين المتمدنين من طريقين الحرب والتجارة . اهـ . ولقد دهش[1] الصليبيون فى القرن الخامس من الهجرة لما بلغوا الشرق ووقعت أعينهم على مدن حافلة منظمة فى بيزنطية والشام وغيرها من بلاد الاسلام إذ ما كان لهم عهد بغير قرى حقيرة ودساكر لا شأن لها فى بلادهم .

الأمية فى الغرب والتوحش فى عامة أقطاره :

وبينا كان شارلمان أعظم ملوك أوربا، وهو معاصر للرشيد العباسى، وصاحب فرنسا وجرمانيا وشمالى إيطاليا، أقرب الى الأمية منه الى النور، كانت كتب الفلسفة والعلوم المادية والأدبية يتنافس فيها علماء العرب فى بغداد وقرطبة، وتترجم للمنصور العباسى الكتب من اللغة العجمية[2] الى العربية، منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند، وتترجم له كتب أرسطاطاليس من منطقيات وغيرها، وكتاب أقليدس وكتاب الأرتماطيقى، وسائر الكتب القديمة من اليونانية والفهلوية والفارسية والسريانية، وتخرج الى الناس فينظرون فيها ويتعلقون الى علمها . ومعظم الخلفاء الأول من بنى العباس يشرفون على علوم الناس وآرائهم من تقدّم وتأخر من الفلاسفة

---

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو . (٢) مروج الذهب للمسعودى .

وغيرهم من الشريعيين، وتجرى فى مجالسهم مباحث فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع والأصول .

وبينا يقوم فى العرب أعلم خلفائهم المأمون العباسى الذى قلما جاء حتى فى ملوك الغرب من يدانيه بعلمه وعقله ، يطلب الى ملك الروم لما غلبه كتب العلم التى عنده ، وهو عمل مدهش لم يعهد لملك ولا لحكومة أن طلبت مثله من عدوّها فى قديم الدهر وحديثه ، وبه يعرف قدر المأمون وتفانيه فى خدمة الانسانية كما قال فرّان[1] ويستمتع الناس فى أيامه بنعمة الحرية العلمية والوجدانية ، حتى عدّ عصره عند العرب كعصر بركليس فى آثينة وعصر أغسطس فى رومية — بينا كانت الحال عند العرب على ما ذكر كان شارلمان يحاول أن يتعلم ويتحبب الى الآداب[2] تحببا ساذجا ، كما يحب غير المتعلمين أن يروا أحيانا السطور المكتوبة . وتشبه آداب عصره أدب صبيان المدارس وتمارينهم اليوم . ولم يكن فى غاليا شيء يشبه الأدب ، وما دوّن أهلها قط كتابا ولا أخبارا . وكانت الكتابات الرسمية التى لا يستغنى عنها كالمواثيق والهبات والوصايا تكتب باللغة اللاتينية البربرية ، وهى من سقم الخط بحيث يصعب حلها ، ولا يمتاز شرفاء القرون الوسطى بتعلمهم وتهذيبهم عن الفلاحين ، وكان معظم الزعماء يجهلون القراءة ، ولا همّ لهم غير الشراب والطعام والصيد والحرب ، وهم فى العادة جفاة غلاظ شداد . فقد قتل ريشاردس قلب الأسد مثل الفروسية ٢٥٠٠ أسير من العرب ، وفقأ عيون خمسة عشر فارسا كان لهم يد فى حرب أثارها على فيليب أغسطس ، وكثيرا ما كانوا يفقأون عيون النساء ويجدعون أنوفهن ، ولم يزل هذا الاغراق فى الشدّة والقسوة البربرية مألوفا الى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ، وقست بحياة التشرد على هذا النحو قلوب الفرسان ، وغلظت طباعهم ، وغدوا يتقاتلون لأقل سبب ، ولا قصد لهم من تقاتلهم غير السلب والنهب ،

(١) غرائب الغرب للمؤلف .

(٢) تاريخ الحضارة لسنيوبوس .

ومن الفرسان من كان يقف على قارعة الطريق، يستوقف التجار ويسلبهم ويسجنهم ويعذبهم، ليكرههم على أن يفتدوا بالمال أنفسهم، وليس عندهم أمن ولا أمان .

بلى فقد من ثاليا على عهد شرلمان، وبعده بزمن طويل كل اهتمام بشيء يقال له الثقافة العامة (١)، وأصبحت اللغة اللاتينية، وهى اللغة المكتوبة الوحيدة على غاية من الفساد، وأصبح الكتاب أندر من الكبريت الأحمر، ولا يطمع الأفراد الذين كانوا يرغبون فى التعلم إلا أن يقرأوا التوراة، ويكتبوا صكا رسميا بالرجوع الى دساتيرهم . أما صنائعهم السائرة فهى من العبث والفساد بالمحل العالى . وذكر روبرتسون (٢) أنهم عثروا على عدّة قوانين ووثائق صادرة عن أهل الطبقة الأولى من الأعيان، يستدل منها أنهم كانوا أميين . ولذلك كانوا يعمدون الى وضع صورة الصليب على الوثائق الصادرة عنهم، بل كان هريون أعظم قضاة الدولة أميا، وكان دجسلين رئيس الجيوش الفرنسية فى القرن الرابع عشر وأعظم رجال عصره أميا، وكان كل من يتطلب منصبا يسأل إن كان يقرأ الانجيل ورسائل الرسل، ويفسر معناها ولو كلمة كلمة، من غير نظر الى تفسير الجملة، ذلك لأنه كانت الكتب نادرة الوجود لا تتعدّى أسوار البيع . وما خرج الغربيون من الجهل إلا باختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر . وذكر القزوينى (٣) أن تجارا من العرب ذهبوا الى شلشويق — من بلاد الدانيمرك اليوم — لاستحضار العنبر فوصفوا أهلها بأنهم وحوش عراة يسترون عوراتهم بقطع من الجلود .

هكذا كانت أوربا الغربية وما اليها، أما حال أوربا الشرقية فكانت الى الهمجية المطلقة، بل إن تاريخ روسيا لم يكن بدأ فى القرن التاسع للمسيح . وكانت تلك البلاد الواسعة مسرحا لبعض قبائل الصقالبة، يتسلط التتر عليها ويسومونها سوء العذاب . بل دامت أيام الجهالة فى روسيا الى ما بعد ذاك العهد بقرون . ولقد

---

(١) البرابرة للويز هالبن Louis Halpen: Les Barbares .

(٢) تاريخ شارلكان لروبرتسون . (٣) آثار العباد وأخبار البلاد للقزوينى .

شبت فيها نار حرب[1] أهليـة لخلاف وقع فى معرفة عدد الأصابع التى يجب استعمالها فى عمل إشارة الصليب . ولم تخلص روسيا فى الحقيقة من كابوس الجهل المطبق إلا فى القرن الثامن عشر على عهد مصلحها بطرس الأكبر . ومثـل ذلك يقـال فى سائر بلاد الغرب حاشا إيطاليا ، فان برابرة الشمال قضوا على مدنية الرومان فيها ، وسلمت لهم بعض عادياتها ومصانعها ، فكانت للأخلاف بمثابة حافز لهم على الترقى ، فانبعثت النهضة بعد قرون من بين أظهر القوم ، وسرى قبس نورها فى القرن الرابع عشر الى معظم الأصقاع الأوربية .

المقابلة بين بلاد العرب وبلاد الافرنج :

كانت أوربا تحت سلطة الباباوات ، يتصرفون فيهـا على هواهم ، ويتحكمون فى الأرواح والأشباح ، والناس تائهون كما قال «دوزى»[2] فى ظلام الجهالة ، لا يرون النور إلا من سم الخياط ، والنور لا يسطع إلا من جانب الأمة الاسلامية ، من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك . وبغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبـة هى المراكز العظيمة للعـلم . وعواصم أوربا التى ندهش بها اليوم أشبه بقرى ، لا علم فيها ولا عمران ، وهى متأخرة فى كل شؤونها المـادية والأدبية . وما كانت فى بلاد الإسـلام مدرسة ولا جامع ولا بلد ولا دار كبرى تخلو من خزائن كتب مسبلة على المطالعين . هذا مع عزة المخطوطات فى ذاك العهد ، يجتمع فى تلك الدور العالمون ، يقرأون ويتباحثون ويتدارسون ، تساوى فى ذلك الرجال والنساء . وكانت المدارس فى المدن والقرى وفى الأندلس خاصـة مبذولة لكل طالب ، حتى قال أحد مؤرخى الافرنج إن معظم سكان إسبانيا الاسلامية كانوا يقرأون ويكتبون ، فى زمن كان أهل الطبقة العليا فى أوربا النصرانية أميين لا يقرأون عدا أفرادا قلائل من الشمامسة ، جعلوا الكتابة صناعة

(١) أصول الشرائع لبنتام . (٢) تاريخ المسلمين فى اسبانيا لدوزى .

لهم . وقال روبرتسون كان فى اسبانيا فى ابتداء القرن الخامس عشر مدن كثيرة أعمر من باقى مدن أوربا حاشا مملكتى ايطاليا وبلاد القاع ، وكان العرب أنشأوا فى مدنهم معامل ومصانع أيام كانوا حاكمين فيها .

وغصت بلاد المسلمين بالمجامع العلمية مؤلفة من علماء لا ينظر فى اختيارهم الى الدين الذى يدينون به ، بل يراعى فيه علمهم واختصاصهم ، وكان الخلفاء والملوك والعظماء يجمعون المشتغلين فى قصورهم ، يتذاكرون أصناف العلوم ، وما كان مجلس لهم يخلو من عالم أو علماء ، ينصت الحضور له ويأخذون عنه ، ومنهم من كان يستصحب العلماء فى غزواته ، أو يصحب أحمالا من الكتب فى رحلاته ، لأن نفسه تفطم عن كل شيء إلا عن الابحاث العلمية وغيرها ، وكان المنصور بن أبى عامر الأندلسى ، وأمير المؤمنين المأمون فى بغداد ، فى جملة عشرات من رجال الإسلام كان هذا شأنهم .

وذكر جبون خلال كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق والغرب ، أن ولاة الأقاليم والوزراء ، كانوا ينافسون الخلفاء فى إعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد فى الإنفاق على بيوت العلم ، ومساعدة الفقراء على طلبه ، فانتشر من ذلك ذوق العلم ، ووجدت اللذة فى تحصيله بين الناس ، من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . قال وقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين "نظام الملك" مائتى ألف دينار على بناء مدرسة بغداد "النظامية" وجعل لها من الريع خمسة عشر ألف دينار فى السنة تصرف عليها ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ ، فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة وابن أفقر الصناع فيها ، غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة ، وابن الغنى يكتفى بمال أبيه ، والمعلمون ينقدون رواتب وافرة .

بينا كان فى الأندلس عبد الرحمن الثالث الأموى[1] (٣٠٠ — ٣٥٠) عالم الملوك وحامى الآداب والعلوم والصنائع والتجارة ورب السيف والقلم الذى أصبحت

(١) معلمة الاسلام .

إسبانيا بأعماله وأعمال أخلافه أحسن الممالك حضارة وحسن إدارة فى القرون الوسطى ، كنت ترى فى رعيته بل فى عماله من يقرّعه ، لأنه بنى قصر الزهراء، واستفرغ جهده فى تجيدها، وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها (١) . وانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع، يقوم قاضى الجماعة بقرطبة منذر بن سعيد البلوطى، ويعظه على المنبر مبتدئا خطبته بقوله تعالى: ﴿أتبنون بكل ريع (٢) آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعملون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ . ثم يفضى الى ذم المشيد والاستغراق فى زخرفته والسرف فى الإنفاق عليه، ويتلو فيه قوله تعالى : ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا (٣) جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم (٤) والله عليم حكيم﴾ . ويأتى بما شاكل ذلك من التخويف والوعظ، فيبكى الناس والخليفة، ويشكو هذا الى ولده الحكم تقريع منذر بن سعيد له مقسما أن لا يصلى خلفه الجمعة أبدا، ويقول له الحكم : "وما الذى يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به" فيزجره وينتهره ويقول أمثل منذر بن سعيد فى فضله وورعه وعلمه وحلمه ، لا أم لك، يعزل إرضاء لنفس ناكبة عن الرشد هذا ما لا يكون، وإنى لأستحى من الله تعالى ألا أجعل بينى وبينه شفيعا فى صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد، ولكنه قد وقذ (٥) نفسى وكاد يذهبها، والله لوددت أن أجد سبيلا الى كفارة يمينى بملكى . بل يصلى بالناس حياته وحياتنا، فما أظننا نعتاض منه أبدا .

---

(١) مطمح الأنفس للفتح بن خاقان . (٢) الريع : المكان المرتفع . وآية بناء علما للمارة. وتعبثون : تسخرون . (٣) شفا طرف، والجرف الجانب، وهار مشرف على السقوط، وانهار به سقط به . (٤) ريبة شك وتقطع قلوبهم تنفصل بأن يموتوا .

(٥) الوقذ : شدة الضرب وقذه يقذه وقذا ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت .

و بينا أهل أور با كلهم عبيد ملوكهم و باباواتهم و زعمائهم، لا يجسر إنسان أن ينقد عملا أو يعترض على سياسة، كان رجال الإسلام يقدمون على وعظ الخلفاء، ولا يهابون سطوتهم ولا بطشهم، كمقام رجل من العباد عند المنصور العباسى يوم قال له : "وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك، إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك و بينهم حجابا من الجص والآجر، وأبوابا من الحديد، وحراسا مع السلاح، ثم سجنت نفسك عنهم فيها، و بعثت عمالك فى جبايات الأموال و جمعها، وأمرت أن لا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان نفرا سميتهم، ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العارى اليك، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرت أن لا يحجبوا دونك، تجبى الأموال وتجمعها، قالوا هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه، فأتمروا أن لا يصل اليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل إلا خونوه عندك ونفوه، حتى تسقط منزلته عندك. فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلما و بغيا وفسادا، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل، فان جاء متظلم حيل بينك و بينه. إلى أن قال : فان قلت إنما تجمع المال لشديد السلطان، فقد أراك الله عبرا فى بنى أمية ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب، وما أعدّوا من الرجال والسلاح والكراع، حين أراد الله بهم ما أراد، و إن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة ما تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه".

هكذا كان المسلمون فى العالم حكاما ومحكومين، السلطان يعمل والواعظ يعظ. والناس آمنون والحرية مشاعة شاملة. وبهذه الحرية التى تمتع بها العرب فى دولهم،

قبل أن تعرف معناها أمة من الأمم قبلهم ، نشأ رجال فى السياسة والحرب والادارة والعلم والفن والصنائع والتجارة كانوا غرة فى جبين الدهر ، ولو جئنا نعدهم ونشير الى مارزقوا من ثقوب أذهان ، ووفرة علم ، وسمو أخلاق ، ولطف حيلة ، لاقتضى الخروج عن حدّ الايجاز ، وبأدنى نظر فى سيرهم ، يثبت لنا أن دينهم لم يحل دون مدنيتهم ، من الظهور بهذا المظهر الخلاب الذى استهوى كل من عرفه ، ولا ريب أن قليلا فى رجال الغرب قبل عصر النهضة من بلغوا فى الفضل والكمال مبلغ رجال الأمويين فى الشرق والأندلس وبعض رجال العباسيين ، بل مبلغ رجال ملوك الطوائف ، وقليل جدا فى الغرب من كانوا متصفين بصفات الخير أمثال الصاحب ابن عباد وابن العميد وركن الدولة ابن بويه ومنصور بن نوح السامانى وأبى الفداء ومحمود بن سبكتكين وصلاح الدين ونور الدين وطغتكين والمنصور بن أبى عامر وعشرات بل مئات بيضوا وجه الانسانية بأعمالهم الصالحة ، وبنبوغهم فى معاناة أحوال الناس وحملهم على الجادة ، لينعموا بالسعادتين الدنيوية والأخروية .

وكان الغربيون خلال القرون الطويلة التى كان فيها العرب أنجب أمة من أمم الخليقة يترامى إليهم من طريق الأندلس وصقلية وإيطاليا أولا ، ثم من طريق الصليبيين ، ماتم فى بلاد العرب والمسلمين من الرقى ، فتصبو نفوسهم الى تحقيق مثله أو بعضه فى ربوعهم ، وأنى لهم ذلك وسلطة رجال الدين عندهم تناولت كل فروع الحياة ، وفرسانهم وملوكهم كانوا أدوات للتدمير لا للتعمير ، تغلب الفظاعة على أعمالهم ، والسماجة تقرأ فى تضاعيف مجتمعهم ، وحضارتهم على حالة ابتدائية ، كلما حفزها حافز عادت أدراجها بعوامل التقهقر المغروسة فيها .

رأى لبون فى تأثير العرب فى الغرب :

ولقد أجمل لبون دور الانتقال فى الغرب وتأثير العرب فيه فى صفحة واحدة فقال : "كان[1] تأثير العرب فى الغرب عظيما ، وإليهم يرجع الفضل فى حضارة أوربا ،

(١) حضارة العرب لجوستاف لبون .

ولم يكن نفوذهم فى الغرب أقل مما كان فى الشرق ، ولكنه كان يختلف عنه . أثروا فى بلاد المشرق بالدين واللغة والصنائع ، أما فى الغرب فلم يؤثروا فى الدين ، وكان تأثيرهم فى الفنون واللغة ضعيفا ، وتأثيرهم بتعاليمهم العلمية والأدبية والأخلاقية عظيما ، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى أثره العرب فى الغرب ، إلا اذا تصوّر حالة أوربا فى الزمن الذى دخلت فيه الحضارة . واذا رجعنا الى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، يوم كانت المدنية الاسلامية فى اسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة فى عامة بلاد الغرب كانت عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون . وكانت الطبقة العالية المستنيرة فى النصرانية عبارة عن رهبان فقراء جهلة ، يقضون الوقت بالتكسب فى ديرهم بنسخ كتب القدماء ، وليبتاعوا ورق البردى اللازم لنسخ كتب العبادة " .

"وطال عهد الجهالة فى أوربا ، وعم تأثيره بحيث لم تعد تشعر بتوحشها ، ولم يبد فيها بعض الميل للعلم إلا فى القرن الحادى عشر ، وبعبارة أصح فى القرن الثانى عشر . ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة الى نفض كفن الجهل الثقيل الذى كان الناس ينوءون تحته ، طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه ، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم فى ذلك العهد . ولم يدخل العلم أوربا فى الحروب الصليبية كما هو الرأى الشائع ، بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية و إيطاليا . وفى سنة ١١٣٠ أنشئت مدرسة للترجمة فى طليطلة بعناية ريموند رئيس الأساقفة ، وأخذت تترجم الى اللاتينية أشهر مؤلفى العرب . وعظم نجاح هذه الترجمات ، وعرف الغرب عالما جديدا ، ولم تفتر الحركة فى هذه السبيل خلال القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم تنقل الى اللاتينية كتب الرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم ، بل نقلت اليها كتب اليونان

أمثال جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس و بطلميوس، وهى الكتب التى كان المسلمون نقلوها الى لسانهم (١) .

وقد عدّ لكلرك فى تاريخ الطب العربى ثلثمائة كتاب نقلها الغرب من العربية إلى اللاتينية ، وما عرفت القرون الوسطى المدنية إلا بعد أن مرت من لسان أشياع محمد . و بعض هذه المترجمات لكتب القدماء التى فقد أصلها ، حفظت هذه الأسفار من الضياع فوصلت إلى الغرب . فالى العرب و إلى العرب وحدهم، لا إلى رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية، يرجع الفضل فى معرفة الأقدمين، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإنقاذهم هذا الكنز

(١) ألف العرب فى معظم مطالب الحياة ولا يكاد يخطر ببالك موضوع إلاوترى أنهم سبقوك الى البحث فيه ، تفننوا فى ذلك وأكثروا من التآليف ، حتى إن كثيرا من العلماء خلفوا مئات من المجلدات والرسائل وجودوا فيها أى تجويد . ولقد تسرع أحد أساتذة مصر المعاصرين فى حكمه على العرب بالقصور فى نقل شىء من العلوم السياسية والادارية ، زاعما أنه لا يعلم لهم مؤلف فى السياسة ولا مترجم ولا شىء من أنظمة الحكم ولا أصول السياسة ، اللهم إلا قليلا لا يقام له وزن ازاء حركتهم العلمية فى غير السياسة من الفنون . ومع أن ماوصلنا من تركة السلف فى التأليف هو بعض ما دوّنوه ونشروه ، نرى أن كثيرا من رسائل الخلفاء فى القرنين الأوّلين عبارة عن أنظمة للسياسة والادارة . فكتب عمر بن الخطاب وعلىّ بن أبى طالب ، ورسالة الصحابة لابن المقفع فى نصح الخليفة ، ورسالة عبد الحميد الكاتب فى نصيحة ولىّ العهد التى كتبها الى عبد الله بن مروان ورسالة طاهر بن الحسين الى ابنه عبد الله بن طاهر حين ولاه المأمون من الرقة الى مصر ورسالة حفيده أبى عبيدالله بن عبدالله بن طاهر بن الحسين فى السياسة الملوكية ، كل أولئك لا يخرج عن هذا ، وللعرب من ذلك شىء كثير ولكنه لم يصل الينا وقد عربوا وصية أرسطو للاسكندر ورسالته اليه فى السياسة . وعربوا عهد أزدشير بن بابك الملك ، هذا الى ما كتبه بعد أمثال الفارابى وابن سينا من هذا القبيل ، ومنه ما يدخل فى سياسة المنزل والنفس والولد ، ومنه ما يتعدّى ذلك الى المصالح العامة . أما كتاب السياسة لأرسطو فقد ندب المأمون ابن البطريق الى الروم ليأتيه به فحمله اليه ونقله الى اللغة العربية ، ولم تصل الينا الترجمة . واذا عرفنا أن العرب كانوا يتوخون الايجاز فى كل ما كتبوا صدر الاسلام ، وعرفنا أن بلاغتهم بايجازها ، نقطع بأن فيما انتهى الينا من رسائلهم الموجزة فى هذا الباب مايكفى لقيام أمرهم ، وكان على الخلف الصالح ، أن يتلق تراث أجداده باليمين ، وينشره على وضع جميل مبوبا مفهرسا مقطعا مجزءا . والواجب أن لا ننسى أن عدم الاطلاع لا ينفى عدم الوجود ، خصوصا وكلنا نعلم أن كثيرا من أخبار أمتنا قد ضاع بما توالى عليها من النكبات والخطوب .

الثمين . يقول ليترى : " لو حذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب عدّة قرون فى الغرب " .

وقال لبون فى مكان آخر : تمتعت إسبانيا بمدنية سامية بفضل العرب، بينا كانت بقية أوربا غارقة فى التوحش العظيم . ولو مشى الغرب تحت راية العرب، لتسامت منزلته، ولو رقت أخلاق أهله ماوقعوا فى الحروب الدينية ومذبحة سان بارتلمى وديوان التحقيق وكل ما شاكل ذلك من المصائب التى أغرقت أوربا بالدماء عدّة قرون، وما عرف المسلمون ما يشبهها فى أرضهم . وقال أيضا : كان تأثير العرب فى عامة الأقطار التى احتلوها عظيما جدا فى الحضارة ، ولعل فرنسا كانت أقل حظا فى ذلك، فقد رأينا البلاد تتبدل صورتها حيثما خفق علم الرسول الذى أظلها بأسرع ما يمكن، وأزهرت فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أى ازهار .

تأثير العرب فى البلاد المغلوبة

سوء حال بلاد الأكاسرة والقياصرة :

أصبحت البلاد الخاضعة لسلطان الفرس وسلطان الروم قبيل الإسلام منهوكة القوى بالحروب والمجاعات والأوبئة . ضرب هرقل صاحب الروم مملكة فارس ضربة شديدة، فكان من ذلك ضعفه وضعف خصمه . وغزا الفرس الشام ومصر وخربوا فى مملكة قيصر، فمقت الناس كسرى فى فارس وهرقل فى الروم . وكلاهما قاست أمته الأمرّين من جائر أحكامه وفاحش مغارمه . حاصر كسرى مدينة القسطنطينية ست سنين ، حتى مات أكثر أهلها جوعا ، وقتل هرقل فى فارس الرجال والنساء والصبيان وسبى سبيا كثيرا ، وكان ذلك فى السنة السابعة من الهجرة .

وكان يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الفرس وهو ابن حفيد كسرى، قد ملكه الفرس عليهم لما كانوا فيه من الانتشار، ملكوه وهو ابن خمس عشرة سنة، كما ملكوا طفلا آخر، وقد ملكت عليهم بوران بنت كسرى؛ و بلغ النبى خبرها فقال : "لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة" وكأن الفرس أدركوا قوة العرب فقالوا فيما بينهم إنما أتينا من تملك النساء علينا، فاجتمعوا على يزدجرد فكان الملك فى فارس قبيل الإسلام ألعوبة بأيدى النساء والأطفال ، والرعية متشعبة إلى أديان وفيهم المجوس ، والمجوسية دين الدولة، وفى البلاد اليهود والنسطوريون وهم ممن لا يستهان بهم .

و بلغ هرقل سن الشيخوخة وأغواه رهبان إيليا ، نقتل اليهود حول بيت المقدس وجبل الخليل قتلا ذريعا بدعوى أن اليهود لما وافى الفرس فلسطين أعانوا

هؤلاء على قتل النصارى ، وأخربوا الكنائس وأحرقوها بالنار ، وقتلوا النصارى في صور وخربوا بيعهم ، فقتل كما قال ابن بطريق من اليهود ما لا يحصى عدده ممن قدر عليه ، وأرضاه الرهبان بأن صاموا له غفرانا لنقضه العهد الذي كان أعطاه لليهود ، ولإخفاشه في قتلهم . وكان الخلاف الديني على أشده بين النصارى في مملكة الروم ، اختلفوا في المسيح وقال قوم إن للمسيح طبيعتين(١) بمشيئة واحدة وفعل واحد وأقنوم واحد ، وقال آخر : إن للمسيح مشيئتين وفعلين كما أن له طبيعتين ، لأنه يستحيل أن تكون مشيئة واحدة لذى طبيعتين ، ولو كان ذا مشيئة واحدة لكان ذا طبيعة واحدة ، فلما كان ذا طبيعتين فهو ذو مشيئتين .

وليتصور المرء بلادا متقسمة على نفسها ، خارجة من حروب أضعفت في أهلها مادة الحياة ، لا مال لديها ينشلها من شقائها ، ولا شيء مما يقال له رخاء وهناء بات يعهد فيها ، الفقر يخرب في كيانها ، والمجاعات والجوائح من الأمور العادية في ربوعها ، وكل واحد من الفرس والروم يتطلب الفرج من أي سبيل جاءه ، لأن النفوس امتلأت غيظا على الأيام وعلى الحكام . وبينا الناس على ذلك جاء الفاتحون من العرب ففرح بمقدمهم أهل البلاد ، ومنهم من عاونوهم بالفعل ، وإن اضطر بعض الفرس والروم أن يحاربوا العرب مع كسرى وقيصر دفاعا عن الحوزة . فالناس كانوا إذًا في بلاد الأكاسرة والقياصرة زاهدين في المظاهر القومية ، ضعفت في نفوسهم معاني الاستقلال . وهم بما صاروا اليه من سوء الحال يحاولون أن يضعوا أيديهم في يد كل من ينتشلهم من سقطتهم وفاقتهم ، ويدفع عنهم عوادي الفوضى ولو الى أجل معلوم .

ولا عجب إذا وجد سكان البلاد في الفاتحين أعظم منقذ لهم مما هم فيه من الشدائد ، وهان عليهم أن ينزلوا عن دينهم ولغتهم ويدينوا بالاسلام ، وكيف لا يتركون

---

(١) تاريخ سعيد بن بطريق .

مشخصاتهم، وقد رأوا فيما عرض عليهم نموذجا يصلح لهم ، وأن الاختلاف يسير بين ماعرفوا من التعاليم وما سيعرفون . هذا الى ما في الجديد من روعة، يزيد تأثيرها اذا كانت الى السذاجة لاتعقيد فيها ولا التباس ،والناس من طبيعتهم أن يصفقوا لمن رفرف طير سعده ،فيدهنون له و يلتفون حوله ،و يعلقون على مماشاته آمالا طويلة .

كانت مصر والشام من جملة الأقطار[١] التي تحاول الانفصال عن المملكة البيزنطية، وكان هرقل وشعبه مشغولين بالمسائل الدينية والخلافات المذهبية ، والناس قد نزعت من نفوسهم الثقة به، فهو إذا شفى أنفس الرهبان بالانتقام من اليهود ، وخان العهد الذى أعطاه لهم ، فشعبه يدرك باطنا أنه أسرع ما يكون الى خيانتهم أيضا ، متى تعارضت مصلحته الخاصة بمصالحهم ، أو توقفوا حينا عن أداء الجبايات مثلا ليصرفها فى حروبه ، وكلهم مستاءون من المظالم والمغارم ، سئموا الغارات والغزوات ، وأصبحوا يتطلعون الى دولة تنقذهم مما هم فيه من البلاء . وكانت هذه الدولة المنقذة دولة العرب الفتية القائمة وراء حدودهم تمدّ يدها القوية إليهم لتنشلهم .

بيد أن كل هذا الضعف المستحوذ على العالمين الفارسي والرومى كان فى الامكان أن يبقى الفرس والروم معه أصحاب الكلمة النافذة فى العالم قرونا ، لأنهم كانوا على فساد حكمهم ، واختلال التوازن بين الوازعين الدينى والمدنى فى ممالكهم ، أصلح للبقاء من غيرهم ، لأن أهل فارس والروم فى معنى الخلل كانوا سواء وغيرهم ممن جاورهم من الحكومات والقبائل ، لولا قيام العرب بذهنية جديدة ، وقوة خارقة وقرت فى نفوس الكبير والصغير منهم .

تساهل ملوك العرب وانتشار الإسلام :

كان النصارى والمجوس فى الفتح وبعده كلما رأوا تساهل العرب ومحاسنتهم زادوا ثقة بهم ، وإقبالا على دعوتهم ، و رجوا لأيامهم طول البقاء . رأوهم بعد استقرار

(١) خطط الشام للمؤلف .

حكومتهم لأيعارضونهم فى إقامة شعائر دينهم[1]، وأن سلطانهم عليهم ناعم الملمس كثير المحاسنة، يوفون بعهودهم فلا يجورون، ولا يخونون ولا يغدرون. رأوا أبا عبيدة بن الجراح وهو أمير على الشام يقول: أيها الناس إنى امرؤ من قريش، وما منكم أحد من أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى إلا وددت أنى فى مسلاخه[2]. رأوهم يحافظون على النصارى واليهود، ويرعون لهم عهدهم، ويحافظون على بيعهم وكنائسهم، فلئن[3] أمر يزيد بن عبد الملك فى سنة ١٠٤ هـ بكسر الأصنام كلها ومحو التماثيل فى مصر، فقد أذن موسى بن عيسى العباسى والى مصر من قبل الرشيد فى بنيان الكنائس التى هدمها على بن سليمان، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة من أحبار الأمة، وقالا هو من عمارة البلاد، واحتجا أن عامة الكنائس التى بمصر لم تبن إلا فى الاسلام، فى زمن الصحابة والتابعين.

وما كان ملوك المسلمين فى القرون التالية يحاذرون إلا أن تنبعث من الديرة والكنائس فى بلادهم أمور تفسد عليهم سياستهم، ولذلك كانوا يراقبونها فى الجملة، ولشدة اعتمادهم على البطاركة كانوا يكلون اليهم أمور طوائفهم، ويسألونهم عن كل ما يأتيه جماعتهم مما يخل بأمن البلاد. وكان لرئيس اليهود التحدث فى كنائس اليهود المستمرة فى أيديهم من حين عقد الذمة، وكان على بطريرك النصارى الملكانية النظر فى الكنائس والبيع، وعليه أن يتفقدها فى كل وقت ويرفع ما فيها من الشبهات، ويحذر رهبان الديارات من جعلها مصيدة للمال. وأن يتجنبوا فيها الخلوة بالنساء، ولا يؤوى اليها أحدًا من الغرباء القادمين عليهم يكون فيه ريبة. ولا يكتم ما اطلع عليه من ذلك عن المسامع السلطانية، ولا يخفى كتابا يرد عليه من أحد الملوك، أو يكتب له جوابا، ويتجنب البحر وما يرد منه من مظان الريب. وكان يشترط على بطريرك

(١) الاسلام خواطر وسوانح لهنرى دى كاسترى تعريب فتحى زغلول.

(٢) المسلاخ: الاهاب أى الجلد.

(٣) تاريخ الولاة والقضاة للكندى.

اليعاقبة أن يتوقى ما يأتيه سرا من تلقاء الحبشة . وأمور الديرة والكنائس مردودة الى البطريرك ينيب عنه فيها من يأتمنه السلطان لا غيره، اذا وقع ما يخالف فيها. ومنح ملوك العرب للكنيسة الرومانية حريتها فى مفاوضة الأساقفة فى البلاد الإسلامية، وهم فى أعظم أيام قدرتهم، مع أن هذه الكنيسة كانت ترعى الدولة المنقطعة أكثر من رعايتها الدولة الخالفة . واستحكم الوئام بين المسلمين والنصارى حتى آثر هؤلاء أن يتحاكموا فى اختلافاتهم الطائفية فى المحاكم الإسلامية . وقد لام البابا غريغوريوس السابع أهل ملته على تقاضيهم مع أسقفهم فى محكمة المسلمين .

وكان العرب لأول أمرهم فى الأندلس اذا شجر خلاف بين مسلم ونصرانى من الجند يعطى الحق غالبا للنصرانى[1] . فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب . وكان عبد الرحمن الثانى عزم أن يجمع مجمعا مقدّسا من النصارى برياسة رئيس أساقفة إشبيلية لقمع عادية التعصب الإسبانى، لأن دعاة الدين من أهل النصرانية أخذوا يتناولون الإسلام بالإهانة علنا حتى يقتلوا فى سبيل دعوتهم ، وتكتب لهم الشهادة بزعمهم .

بهذه المسالمة العظيمة[2] البادية فى أعمال الغالب مع المغلوب دخل المجوس أفواجا فى الاسلام،وضعفت النصرانية جدا ثم زالت من شمالى إفريقية، ولم يكن للاسلام دعاة يدعون اليه وينشرون أحكامه على ما هو الحال فى النصرانية، ولو قام أناس بهذا العمل لانحل الاشكال فى معرفة السبب فى تقدّمه الغريب . فقد رأينا شارلمان يستصحب أبدا معه فى حروبه ركبا من القسيسين والرهبان يباشرون فتح القلوب، بعد أن يكون هو بدأ بفتح المدائن والأقاليم ، بجيوش يصلى بها الأمم حربا عوانا ، وتجعل الولدان شيبا . بيد أننا لا نعلم للاسلام مجمعا دينيا ولا رسلا ولا أحبارا يسيرون وراء الجيوش ، ولا رهبنة بعد الفتح، فلم يكره أحدا عليه بالسيف ولا باللسان ،

(١) غرائب الغرب للمؤلف . (٢) الاسلام خواطر وسوانح لهنرى دى كاسترى .

بل دخل القلوب عن رضا واختيار ، وهـذه نتيجة لازمة لتأثيرات القرآن وأخذه بالألباب ، واذا حدث أن دان دين الاسلام قوم مشوا وراء منافعهم ، فهم قلائل الى جانب من أسلموا عن عقيدة صادقة وميل صحيح، قاله دى كاسترى .

نعم "كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش[1] من الدعاة الى دينها، يلجون على الناس بيوتهم ، ويغشون مجالسهم، ليحملوهم على دين الظافر، وبرهانهـم الغلبة وحجتهم القوة، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة، يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم، ومحاسنتهم فى المعاملة، وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعدّ مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا ، عند ما كان يعدّها الأوربيون ضعة وضعفا" .

" رفع الاسـلام ما ثقل من الاتاوات ، ورد الأموال المسلوبة الى أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسـلام من داخل فيه إلا بين يدى قاض شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة فى دنيا ... عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال ، فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب، حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى إسـبانيا . اشتهرت حرية الأديان حتى هجر اليهود أوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الأندلس وغيرها" .

" هـذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم ، لم يفعلوا شيئا سـوى أنهم حملوا الى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعتـه ، وألقوا ذلك بين

(١) رسالة التوحيد لمحمد عبده .

أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة [(١)] ، ولم يستعملوا لا كراههم عليه شيئا من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم ، حتى دخلوا فيه أفواجا ، وبذلوا فى خدمته مالم يبذل له العرب أنفسهم " . اه .

معاملة اليهود والنصارى والعناية بالنصارى خاصة :

مثال آخر من هذه المسامحة . كان بين المغانم التى غنمها المسلمون فى وقعة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي بتسليمها لهم فأخذ اليهود [(٢)] يشيرون الى الرسول بالبنان ويحفظون له هذه اليد " لأنه لم يتعرض لصحفهم المقدسة ، ويذكرون بإزاء ذلك مافعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب م . إذ حرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم ، وما فعله المتعصبون من النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس ، وقد أحرقوا أيضا صحف التوراة . هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام " .

ولو لم يشتط اليهود فى الحجاز بالنيل من المسلمين ، لما طالت اليهم يد مسلم بأذى ، ولكان حظهم من ذمة العرب حظ سكان نجران من نصارى اليمن ، فقد

---

(١) أجمع الباحثون على أن الاسلام دخل ولا يزال يدخل الى أصقاع من إفريقية وآسيا بواسطة التجار كأن هواء هاتين القارتين مستعد لقبول هذا الدين أكثر من كل دين سواه تقوم بالدعوة اليه جمعيات تبشير منظمة غنية تحميها دول كبرى فقد ذكروا أن دعاة الكثلكة فى إفريقية فقط بلغوا مئات ينقسمون الى خمسين جنسية بحسب عناصرهم وفيهم ١٣٣ ألمانيا و ١٠ أمريكان و ٩٩ انجليزيا و ١٢ نمساويا و ٣٨٥ بلجيكيا و ٥٠ كناديا و ٨٣ اسبانيا و ٩٤٠ إفرنسيا و ٢٠٩ هولانديين و ٢١٥ إيطاليا و ٤٣٧ برتقاليا هذا عدا دعاة التبشير بالبرتستانتية من المرسلين . (مجلة لاروس الشهرية سنة ١٩٣٣ Larousse mensuel illustré 1933) .

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب لاسرائيل ولفنسون .

صالحهم الرسول سنة عشر صلحا على الفيء وعلى أن يتقاسموا العشر ونصف العشر . وجاء فى كتاب الصلح " ولا يفتن أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته " واشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا فعاشوا بسلام ماحافظوا على العهد، فلما استخلف عمر بن الخطاب أصابوا الربا فأجلاهم، واشترى منهم أرضهم ووصى بهم أهل الشام والعراق ، ليوسعوهم من حرث الأرض ، وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن . ويقول المؤرخون إن أهل نجران كانوا قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم ، فأتوا عمر بن الخطاب فقالوا أجلنا فاغتنمها فأجلاهم فندموا بعد ذلك . نعم إن عمر لم يُرهب فارس والروم بفرش الديباج ، وبسط الحرير، وكؤوس الجواهر، والخيول المسوّمة، والبيوت الشاهقة، والأقواس المذهبة، إنما أرهبهم بالعدل المحض ، وأخم شوس رجالهم بالحكمة البالغة ، ألا وهى شريعة سيد الحكماء . ويقول أبو عبيد فى كتاب الأموال إن الرسول قال لأخرجن اليهود والنصارى عن جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلما ، بيد أن نصارى نجران رأوا كل رعاية لأنهم راعوا العهد فى الجملة ولم يعبثوا بأمر الأمة القائمة، وكانوا أوّل من أعطى الجزية من أهل الكتاب . وفى التنزيل ﴿لتجدن أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون﴾ .[1]

جزاء ثقة ثقة مثلها، وهل جزاء الاحسان إلا الاحسان، وأعظم بثقة صاحب الشريعة بأناس كانوا بالأمس يقاتلونه كأبى سفيان وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد حتى اذا أسلموا جبَّ الاسلام ما قبله، ونسيت الأحقاد والطوائل، ولم يلبثوا أن غدوا أصحاب الشأن فى السلطان، يرجع الى آرائهم فى المهمات، وتوسد اليهم الأعمال العظام، وكيف لا يجيء من مثل هؤلاء الرجال خيرة الخلفاء والقوّاد والأمراء ، وقد أولى الخلفاء ثقتهم لمن دخلوا من غير العرب فى طاعة خليفة العرب،

(١) عصر المأمون لأحمد فريد الرفاعى .

وان ظلوا على تمسكهم بدينهم القديم . وبدأ معاوية بن أبى سفيان فعهد الى بعض نصارى الشام بادارة أمواله وديوانه، وكان لعمر بن الخطاب عبد نصرانى اسمه آسك فاقترح عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين قائلا إنه لا ينبغى أن نستعين على أمورهم من ليس منهم ، فلما أبى أعتقه وقال له اذهب حيث شئت .

ولطالما اعتمد الخلفاء والأمراء منذ القرن الثانى على عمال لهم من الصابئة والنصارى واليهود ، وتولى كثير من النصارى قيادة جيوش المسلمين فى بغداد والأندلس . قال على بن عيسى (١) من وزراء العباسيين لأبى الحسن بن الفرات الوزير : ما اتقيت الله فى تقليدك جيوش المسلمين رجلا نصرانيا، وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره فقال له : ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته، وقد كان الناصر لدين الله (٢) قلد الجيش إسرائيل النصرانى كاتبه، وقلد المعتضد بالله مالك ابن الوليد النصرانى كاتب بدر ذلك . فقال على بن عيسى : ما فعلا صوابا فقال : حسبي الأسوة بهما وإن أخطآء على زعمك . هذا وقد رسم ابن الفرات فى وزارته الثانية أن يدعى كل يوم جماعة من فضلاء القوم الى طعامه، ويقعدوا جانبه وبين يديه، بينهم أبو بشر عبد الله بن القرخان النصرانى ، وأبو منصور عبد الله بن جبير النصرانى، وأبو عمرو سعيد بن الفرخان النصرانى . قال ويات (٣) من علماء المشرقيات ولقد أصدر الخليفة أمره عام ٩٧٥م (٣٦٥هـ) بوجوب المساواة بين النصارى والمسلمين وهى ظاهرة من ظواهر التسامح لم تستطع أوربا أن تعمل بها إلا بعد عدة قرون .

و "السيد" المشهور فى تاريخ اسبانيا كان نصرانيا خدم الخوالف فى الأندلس، وكان هذا شأن مئات مثله فى حكومات الأندلسيين والعباسيين يستخدمون

---

(١) تاريخ الوزراء لهلال الصابى . (٢) الغالب أنه المستنصر بالله أما الناصر فكان بعد ذلك بزمن طويل . (٣) من مقالة لغاستون ويات نشرت فى جريدة البلاغ بمصر فى العدد ٣٠٧٨ الصادر يوم ٢١ ذى الحجة ١٣٥١

فيخلصون، ولا من ينكر عليهم، ولا على من يقربهم. ومثل هذه الثقة يدرك العاقلون مقدارها فيبادلونها بثقة مثلها .

أليس هذا غريبا فى دولة كان للدين فيها المحل الأول ، أليس من الغريب أن يجعل العرب من أبناء ذمتهم أصحاب الأديان السماوية موضع ثقتهم ، ثم إنهم ما ارتكبوا مع الهندوس وغيرهم من وثنيي الهند وعبدة النيران فيها عسفا ولا خسفا، ولما فتحوا بنارس مدينة الهنود المقدسة، وكان سواد أهلها من البراهمة، أحسنوا معاملتهم وراعوا شعائرهم . ولا بدع أن يمتد سلطان المسلمين بسياستهم الرشيدة من نهر التاج فى إسبانيا والبرتقال الى نهر الكنج نهر الهند الأعظم ، ولا عجب أن رأينا الوفاق على أتم حالاته بين الحاكم والمحكوم ، وبين الأديان المختلفة ، وبين الأقلية والأكثرية . وعجيب أن هذه الأقلية ما احتاجت الى من يحميها ويرعى مصالحها ، بل كان راعيها وراعي غيرها سلطان العرب العادل ، وما شوهد من هذا أن غدا وطن الغالب وطنا للمغلوب، لأن النفوس جبلت على حب من أحسن اليها . وما كان للفرس فى الشرق ولا للروم فى الغرب دولة قادرة كالعرب يفزعون اليها لتحميهم، ويكونون فى ظلها أسعد مما هم فى دولة العرب .

أثر علوم العرب فى الغرب

المنصفون والشعوبيون فى تقدير الحضارة العربية :

فى كتاب الغربيين أناس يحاولون الى اليوم أن يقللوا من خدمة العرب للحضارة، فنهم من يزعم أن العرب نقلوا عن القدماء وحرفوا ما نقلوا، ومنهم من يدعى بصورة مجملة أن هذه المدنية التى أبدعها العرب لا تستحق هذه العناية، وأن اليونان و لرومان هم أساتذة الغربيين وحدهم . والعرب لا فضل لهم عليهم فى شىء، ومنهم من يحاول أن يصغر ما وسعته المماحكة من تأثيرات مدنية العرب، فيقول إنهم اتقنوا أصنافا[1] من العلم لا تحتاج الى تفكير كالتاريخ والجغرافيا، وأنهم سقطوا فى الكتب السريانية على مواد وافرة فاقتبسوها ، دون أن يكون لهم فى باب النقد كبير أمر ، مدعين أن العربى عاجز عن استخراج شىء من عنده، وأنه نقل واحتذى وقلد وغير الصور، وأنه لم يعرف الشعر القصصى ولا الشعر التمثيلى، لأنهما يتطلبان اختراعا لا وجود له عند العرب، وأن الإسلام الذى هو عصارة العقل العربى قد فلج الأفكار .

هذه بعض منازع الشعوبيين خصوم العرب من الإفرنج، الجاهلين أقدارهم، العاملين على الحط من مدنيتهم ، فاستمعوا لما يقوله المنصفون، فقد قال درابر[2] : "من موجب الأسف أن الأدب الاوربى حاول أن ينسينا واجباتنا العلمية نحو المسلمين، فقد حان الوقت الذى ينبغى لنا أن نعرفهم ، إن قلة الإنصاف المبنية على الأحقاد الدينية، وعلى العنجهية القومية، لا تدوم أبد الدهر" . وفى التاريخ

---

(١) الاسلام ونفس المسلم لسرفيه .
Servier: L'Islam et la psychologie du Musulman.

(٢) تاريخ الارتقاء العقلى فى أوربا .

العام[١] : "إذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل، لا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب منه كان أعظم من قسط غيرهم، فلم يكونوا واسطة نقلت الى الشعوب الجاهلة فى إفريقية وآسيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وصنائعه واختراعاته، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان ومن مجموع هذه المواد المختلفة التى صبت فتمازجت تمازجا متجانسا، أبدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم، وهى ذات وحدة خاصة وصفات فائقة" .

هذا مثال من أقوال بعض المنصفين فى المدنية العربية، وهناك فئات غير قليلة تتابعهم على آرائهم . أما ذاك الشعوبى فيحاول أن لا يجعل للعرب مزية لاشتغالهم بالتاريخ والجغرافيا، لأنهما علمان لا يحتاجان الى تفكير بزعمه السخيف . وقبله أعجب كثير من علماء المشرقيات الذين تفهموا هذه الحضارة من كتبها ، وأكبروا عمل المقدسى وابن حوقل وياقوت والمسعودى والطبرى وابن الأثير والادريسى وابن خرداذبه والبلاذرى واليعقوبى والخوارزمى وابن الفقيه وابن رسته وابن فضلان وقدامة والبلخى والبيرونى والبكرى وشيخ الربوة وأبى الفداء وابن جبير وابن سعيد وابن سعد وابن فضل الله وابن أبى أصيبعة وابن القفطى وابن خلكان والصفدى وابن الخطيب وابن بسام وابن عساكر وابن طباطبا وابن بشكوال الى عشرات غيرهم كتبوا فى هذين العلمين وكتبهم موجودة مطبوعة لاتحتاج إلا لمن يقرؤها، واستفاد منها الغربيون فوائد جلى ونوهوا بها فى كل فرصة[٢] . وما نظن أمم أوربا كلها أخرجت فى فن التاريخ حتى اليوم كثيرا من عيار ابن خلدون واضع فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع .

يقول جوتيه إن الشريف الإدريسى الجغرافى كان أستاذ الجغرافيا الذى علم أوربا هذا العلم لا بطلميوس ، ودام معلما لها مدة ثلاثة قرون، ولم يكن لأوربا مصور

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو . Lavisse et Rambaud: Histoire générale.

(٢) أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب لجويدى .

للعالم إلا ما رسمه الإدريسى ، وهو خلاصة علوم العرب فى هـذا الفن . ولم يقع الادريسى فى الأغلاط التى وقع فيها بطلميوس فى هذا الباب . قال : من دار حول إفريقية؟ فاسكودى جاما . ومن كشف أميركا ؟ خريستوف كولمبس . ومن السهل أن يدرك أن هذين الكشفين اللذين فاقا جميع ماتقدمهما قد تما على أيدى بحارة من العرب . وكان تحقيقهما متعذرا بدون ارتقاء علم الجغرافيا عند العرب . وتم هذان الكشفان العظيمان بعقول العرب وموادهم وأشخاصهم تحت إمرة النصارى ، الى آخر ما قال .

الفنون التى اهتمت العرب بها :

أما الشعر القصصى والتمثيلى فلم يزاولها العرب لأنهم أصحاب بديهة وارتجال[1] ، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيما عداهم ، وهم أشد الناس اختصارا للقول ، والشعر القصصى يحتاج الى التطويل والتحليل ، وحرمتهم طبيعة أرضهم وبساطة دينهم وضيق خيالهم واعتقادهم بوحدانية إلههم كثرة الأساطير ، وهى من أغزر مواد الشعر القصصى ، فزخرت بحور الشعر العربى بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل والوصف والاعتذار والحكمة ، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم[2] المطولة التى تعلن المفاخر القومية ، وتشيد بذكر الأبطال والفروسية كالإلياذة لليونان ، والانياذ للرومان ، ومهابهاراته للهنود ، والشاهنامه للفرس .

وإذا عير العرب بفقر خيالهم ، فقد اشتغلوا بعلوم أنفع لهم ولمجتمعهم من الشعر القصصى والتمثيلى . اشتغلوا بعلم الفلك حتى قال دلامبر فى تاريخ هذا العلم : إننا إذا أحصينا راصدين أو ثلاثة من الروم رحنا نعد كثيرين من العرب فى هذا الفن ، مما دل على بعد غورهم فى علم الأفلاك . وقال بيكوردين : نشأت مكانة علم الفلك عند

(١) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات . (٢) راجع فى مدخل الشاهنامه للفردوسى مبحثا فى الملاحم لعبد الوهاب عزام مصحح الشاهنامه المعلق عليها والمقدم لها .

العرب من توسع الرياضيين منهم فى الحساب لأنهم اخترعوا أساس حساب المثلثات. وحقق العرب طول محيط الأرض ، بما كان لهم من الأدوات ، وأخذوا ارتفاع القطب ودور كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر ، وحققوا طول البحر المتوسط الذى قدّره بطلميوس بـ ١٢ درجة فأرجعوه إلى ٥٤ أوّلا ثم إلى ٤٢ أى إلى الصحيح من مقداره تقريبا . وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التى نسبت اليه ، ودعيت الصورة المأمونية ، صوّروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك ، وهى أحسن مما تقدّمها من جغرافية بطلميوس وجغرافية مارينوس . وضع له علماء رسم الأرض — وكانوا سبعين رجلا من فلاسفة العراق — كتابا فى الجغرافية أعان عمال الدولة على معرفة البلاد والأمم التى أظلتها الراية العباسية ، هذا إلى عنايته بالفلك ، وفلكيه الفزارى أوّل من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وأقاموا المراصد الفلكية فى بغداد والرقة ودمشق والقاهرة وسمرقند وقرطبة وفاس ، ونظروا فى المجسطى لبطلميوس فى الفلك وعملوا جداول فلكية مدققة .

اكتشف العرب منابع النيل قبل أن يتصدّى الافرنج لها[1] ، وقام فى أذهانهم أن فى الأرض أقطارا لم تعرف ، حتى قال أحد عارفيهم قبل كولمبس بقرن ونصف : "لا أمنع أن يكون ماانكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفا من الجهة الأخرى ، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفا من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى" . وسبقت العرب[2] إلى اختراع طريقة الكتابة بالحروف البارزة الخاصة بالعميان ، اخترعها على بن أحمد بن يوسف بن الخضر المشهور بزين الدين الآمدى ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) وكان فقد بصره فى أوّل عمره ، فكان كلما اشترى كتابا لخزانة كتبه لف ورقة على

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى .

(٢) من مقالتين لأحمد تيمور وأحمد زكى فى مجلة المقتبس م ٦

شكل حرف من الحروف ، ولصقها فى الكتاب ، وكانت هـذه الحروف هى التى يستعين بها على معرفة ثمن الكتاب . وكان العميان يؤلفون، ومنهم ابن سيده المرسى صاحب المخصص والمحكم، ومثله عشرات فى الأمة على ماذكر ذلك الصفدى[١]،ومنهم من كان يطبُّ على القارورة فيصفون له داء المـريض فيصف له الدواء"، مثـل ابن الحناط الكفيف الأندلسى[٢] .

وسبقت العرب الأوربيين إلى الطيران ، وقد حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة ، وأول من فك الموسيقى ووضع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف بها الأوقات على غير مثال، ومثّل فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلا يخيل للناظر أنه حقيقة . وكادوا يعرفون فى الأندلس الجراثيم، وكانت وقايتهم من الأمراض تكاد تشبه وقاية أهل العصور الحديثة ، على ما ذكر ذلك ابن خاتمة فى رسالته فى الوباء[٣]، وسبقوا الى معرفة مرض النوم وسموه النوام وشرحوا أعراضه، وسبق العرب الى معرفة الطباعة فألف أبو بكر القدسى الأندلسى كتابا فى الخواص وصـنعة الأمدة وآلة الطبع غريب فى معناه[٤] ، وكان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر ومن أهل المئة الرابعة "ينفرد بالولايات فتكتب السـجلات فى داره ثم يبعثها للطبـع فتطبع وتخرج اليـه فتبعث فى العمال وينفـذون على يديه" أى أن الأندلسيين عرفوا الطبع لا بالحروف قبـل مخترعه المشهور جوتنبرغ الألمانى بأربعمائة سنة . ولو اطرد سير العرب فى الطباعة لأتقنوها ، ولكان فضل هذه المدنية على العالم أضعافا مضاعفة، ولما فقدت على الأقل معظم الأسفار التى خطتها أيدى العرب فى العلوم المختلفة التى كانت تضمها خزائن الأندلس ودور الحكمة فى بغداد .

---

(١) نكت الهميان فى نكت العميان للصلاح الصفدى . (٢) مجلة المقتبس م ١

(٣) بحث للؤلف فى رأى ابن خاتمة فى الوباء نشر فى المجلد الـ ٢٨ من مجلة المقتطف .

(٤) الاحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب .

قال جوتيه: "وللعرب فى باب الاختراعات شىء لا بأس به بالنسبة لعصورهم، وقد وجد فى كتاب عربى قديم لم ينقل الى اللغات الأوربيـة، أن العرب عرفوا طريقة عمـل الجليد الصناعى ولم تعـرف أوربا سر هـذه الصناعة إلا فى النصف الأول من القـرن السادس عشر. وأدخلوا على أوربا الورق المعمـول من القطن والورق الرخيص الثمن. وكان الناس من قبل يكتبون على البردى وهو غال جدا، وكانت معامل شاطبة فى إسبانيا تصدر بضاعة الورق الى أوربا الغربية، بينا كانت أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة، على ما يشهد لذلك اسم الورق الدمشـقى " شارتا داماسينا ". وصـنع الورق[1] من الحرير فى سنة ٦٥٠ م فى سمرقند وبخارى ثم استبدل يوسف بن عمرو سـنة ٧٠٦ م الحرير بالقطن ومنه الورق الدمشقى الذى ذكره مؤرخو اليونان.

وقال جوتيه أيضا: إن العرب علمونا صنع الكاغد وصنع البارود وعمل إبرة السفينة، فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هـذه المخلفات التى وصلتنا من المدنية العربية. عرفت العرب آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر والمرايا المحرقة بالمقطوع، وقطعوا شوطا كبيرا فى الميكانيكيات. ولمـا بعث الرشيد العباسى الى شارلمان الساعة الدقاقة الكبيرة تعجب منها أهل ديوانه ولم يستطيعوا أن يعرفوا كيفية تركيب آلاتهـا على ما حقق ذلك سـيديليو[1]. ومع ذلك لم يكـن فى عصر العباسيين أهم من مهنة الفلاحة. أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفرس وأزهار إقليم مازندران، وقد أغنوا[2] العلم ولا سيما علم النبات بمسائل جديدة كثيرة، ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة والدهون والمراهم والغول (الألكحول) واللعوق والسنامكى والراوند والخيار شنبر وجوز القىء هم الذين كشفوها، واستلزمت أصول تداويهم أن يعمدوا إلى استعمال الفتائل وإلى الحجامة فى أمراض الصرع،

(١) تاريخ العرب لسيديليو.

(٢) التاريخ العام للافيس ورامبو.

واستعمال المـاء البارد فى الحمى الدائمة . واتخذ جراحوهم تفتيت حصاة المثانة وقدح العين واستخرجوا منها الجريم العدسى الشفاف ويظهر أنهم عرفوا البنج .

وفى التاريخ العام، وكل هذا المجد فى الطب العربى إن لم يبد لنا بأنهم كانوا فيه أرباب نظريات دقيقة ، فهم على الأقل أرباب ملاحظة عاقلة ، وأرباب تجارب حاذقة، وأطباء عمل على غاية من المهـارة . وكان الرازى وابن جابر أول من وضع أساس الكيمياء الحديثة ، وحاولا كشف الإكسير الذى يهب الحياة ويعيد الشباب ، وكانا يذهبان الى معرفة حجر الفلاسفة الذى يحوّل المعادن الى الذهب . ولم تذهب هذه الابحاث الوهمية سدى ، لأنهم عرفوا بها التقطير والتصعيد والتجميد والحل ، وكشفوا الغول من المواد السكرية والنشوية الخاثرة .

ومضى دهر طويل كان فيه شعوب المملكة العربيـة أول العارفين بالزراعة ، وأحسن العمال وأجرأ التجار فى العـالم القديم ، وأصبحت الزراعة التى أخذوها عن أساليب بابل والشام ومصر علمـا حقيقيا للعرب . أخذوا نظرياتها من الكتب ، ثم وسعوها بتدقيقاتهم وتجاربهم ، وكانوا يطبقونها بمهارة ليس بعدها مهارة ، وكان رجال الطبقة الأولى منهم لا يستنكفون عن العمل بأيديهـم فى زراعة الأرض ، بينا كان غيرهم يحتقرها ويعدّها عملا مهينا .

ونهض العـرب فى فارس والأندلس وصقلية وإفريقية لاستثمار المعادن يستخرجونها من مناجمها ، ويحسنون تطريقها والانتفاع بها . واستخرج الأندلسيون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ، وأخرج الصقليون جميع ما حوت جزيرتهم من معادن ومنها الفضة والذهب . واستثمر العرب المناجم التى صارت ملكا لهم فى بلادهم فى الشرق والغرب ، واستخرجوا الحديد فى خراسان والرصاص فى كرمان والقار والنفط وطينـة الأوانى الصينية ورخام طوريس والملح الأندرانى والكبريت .

ماكشفه العرب واخترعوه وأقوال أساطين علماء الغرب :

قال درابر : ومن عادة العرب أن يراقبوا و يمتحنوا ، وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ، ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرّد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان ، بما كان لديهم من الآلات ، وذلك ماهيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء ، وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال ، ودعاهم الى استعمال الربع والاصطرلاب فى علم الهيئة ، واستخدام الموازنة فى الكيمياء ، مما خصوا به دون سواهم ، وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة كالتى اصطنعت فى بغداد والأندلس وسمرقند ، مما فتح لهم باب تحسين عظيم فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام فى الحساب . وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان ، ولم يقرروا فى علم الهيئة لوائح فقط ، بل رسموا خرائط النجوم المنظورة فى فلكهم أيضا ، مطلقين على ذوات القدر الأعظم أسماء عربية لا تزال تتردّد على كراتنا الفلكية . وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ، و وضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقرروا طول السنة . وأدركوا الاعتدالين ، ولاحظوا أمورا بعثت نورا باهرا على نظام العالم ، واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة ، وكانوا السابقين الى استعمال الساعة الرقاصة لذلك . وهم الذين أنشأوا فى العلوم العملية علم الكيمياء ، وكشفوا بعض أجزائها المهمة كالحامض الكبريتيك وحامض الفضة (للنتريك) والغول ، وهم الذين استخدموا ذلك العلم فى المعالجات الطبية ، فكانوا أوّل من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية ، وهم قرروا فى الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام ، وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ، ورأى سديد فى القوات الميكانيكية ، واصطنعوا فى نقل الموائع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية ، وكتبوا مقالات فى عوم الأجسام

وغرقها فى الماء ، وأصلحوا فى علم البصريات خطأ اليونان بكون الشعاع يصدر من العين ويمس المرئى فيظهره ، فقالوا إن الشعاع يمر من المرئى للعين . وفهموا مساس انعكاس النور أو انكساره ، وكشفوا عن طريق الشعاع المنحنى فى الهواء ، وبرهنوا على أنا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب . قال والذى يدهش كثيرا أن نتصور أشياء نفاخر بأنها من مواليد وقتنا ، ثم لا نلبث أن نراهم سبقونا اليها . فتعليمنا الحاضر فى النشوء والارتقاء كان يدرس فى مدارسهم ، وحقا إنهم وصلوا به الى الأشياء الآلية وغير الآلية ، فكان المبدأ الرئيسى فى الكيمياء عندهم ، والمظهر الطبيعى للاجسام المعدنية . اه .

وقال سنيو بوس (١) : جرى أمراء العرب على قاعدة إسقاء الأرضين بفتح الترع ، لحفروا الآبار ، وجازوا بالمال الكثير من عثروا على ينابيع جديدة ، ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران ، ونقلوا الى اسبانيا أسلوب النواعير لتمتح المياه ، والسواقى التى توزعها ، وإن سهل بَلَنسية الذى جاء كأنه حديقة واحدة ، هو من بقايا عمل العرب وعنايتهم بالسقيا . ونظم العرب ديوان المياه الذى كان يرجع اليه فى مسائل الرى اه . وقال ويليام ويلكوكس الذى كان من أعاظم مهندسى الرىّ فى هذا العصر إن عمل الخلفاء فى ريّ العراق فى الأيام الماضية يشبه أعمال الرى فى مصر والولايات المتحدة الأميركية وأوستراليا فى هذا العصر . ووصف المقدسى ميناء عكا التى بناها جدّه أبو بكر البناء المهندس لابن طولون والطرق التى استعملها فى هندستها حتى تدخل اليها المراكب آمنة ، فعدّت هذه الميناء من العجائب . وذكر سنيو بوس أيضا أن العرب استعملوا جميع أنواع الزراعة التى وجدوها فى مملكتهم وحملوا كثيرا من النباتات الى صقلية واسبانيا وربوها فى أوربا فأحسنوا تربيتها ، حتى لتظنها متوطنة متبلدة ، وذلك مثل الأرز والزعفران والقنب والمشمس

(١) تاريخ الحضارة لشارل سنيوبوس .

Charles Seignobos : Histoire de la Civilisation.

والبرتقال والكباد والنخل والهليون والبطيخ الأصفر والعنب والعطر والورد الأزرق والأصفر والياسمين بل والقطن والقصب .

وظفر العرب فى الشام وفارس بصناعات قديمة نقلت الى جميع البلاد الاسلامية فتكملت ، ومنها نشأت صناعة أوربا الحديثة . ذكر سنيو بوس أنواع هذه الصنائع التى نقلوها من الشرق الى الغرب ولا سيما الى الأندلس . قال : عاشت الشعوب فى بلاد العرب الواسعة كما كانت الحال على عهد الرومان من أقصى المملكة الى أقصاها بسلام وراحة ، يتقايضون حاصلات أرضهم ومصنوعات معاملهم ، ويرحلون الى الهند والصين يبتاعون مصنوعات الأمم الصناعية ليحملوها الى الشعوب البربرية فى أوربا ، ينقلونها فى البر والبحر . وذكر ريسون (١) أن العرب أحرزوا فضل السبق دون غيرهم فى مضمار التجارة ، ورقوا الصناعة البحرية ، ووضعوا قوانين حقوق الملاحة ، واقتبسوا استعمال إبرة السفينة من الصينيين ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر أى ضبط ، وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ، ووضعوا السفاتج (الكمبيالات) المألوفة وردود التمسك "البروتستو" وبعثوا الحركة فى مصارف الغرب الحديثة . قال : وكنت تراهم حيث نزلوا يمهدون السبل ، ويعمرون المرافئ والفرض ، ويصلحون الفنادق والرباطات ، ويرتبون سير القوافل . وكانت المدن الاسلامية أوساطا تجارية كبرى . وبعد أن ذكر ارتباط المدن الإسلامية وعدد نفوس العواصم منها وعظم حركتها قال : وإن تعجب فاعجب للعرب كيف نبغ بينهم لأسفارهم المترامية أساتذة جغرافيون هذبوا فى وقت قصير كتاب بطلميوس ، وكشفوا بلادا أخرى بغير أقدامهم لم توطأ ؛ ووسعوا المصوّرات للغربيين ، وحببوا اليهم التنقل والترحال .

وقال سنيو بوس : وكتب علماء العرب أوّل كتاب فى الجبر ، ووصف علماء الجغرافيا منهم البلاد البعيدة التى كانت تختلف إليها القوافل ، واستخرجوا من كتب

(١) العرب والتجارة لريسون تعريب عز الدين التنوخى مجلة المقتبس م ٧

الطب اليونانى الطب التجربى، وهو طب العقاقير والحبوب، وأهم ما غلب على العرب من العلوم علم الكيمياء . وقال ريسون: إن استبحار عمران العرب مع سرعة انتشار سلطتهم فى المعمور هيأ لنا إدراك مكانة المدنيــة العربية ، فكانت هــذه الحضارة الباهرة فى القرون الوسطى مزيجا من المدنية البيزنطية والفارسية، وقد تم هذا المزيج المدنى بأمرين : عشق العرب للتجارة وغرامهم بالاستعمار، وأصبحوا لذكائهم الوقاد، ولما غرس فيهم من حب الاطلاع على كل شيء، يخوضون غمار العلوم الطبيعية والرياضية . فابتدعوا الكيمياء وبرعوا بها ، وطبقوا تلك العلوم على الزراعة والصناعة، ولهم المنة على جميع الأمم بأرقامهم العربية وباستنباطهم فن الجبر والمقابلة، وتهذيبهم الهندســة . وأعمالهم الجميلة الفلكية فى أبحاث سمت الشمس، ومعادلة الليل والنهـار، والبقع الشمسية ، ولقد اصطنعوا الآلات العجيبة الفلكية كالاصطرلاب ونحوه ، وكشف كيماويوهم وأطباؤهم عن خواص الغول والنشادر وحامض الأزوت والكبريت والمياه المعدنية، وأدخلوا فى كثير من أدويتهم مواد من نبـات بلادهم كالكافور والراوند والسنامكى . وهم أسرع النـاس لتدوين أنسابهم وملاحمهم وأبطالهم ورواية أشعارهم ، والكتابة فى فلسفة التاريخ وعلوم الاجتماع . وتوصل العرب الى إثبات تناسب جيوب الأضلاع لجيوب الزوايا المقابلة لها فى أى مثلث كروى . ووضعوا هذه القاعدة أساسا للطريقة التى سموها الشكل المغنى فى حل المثلثات الكروية . وعرفوا حامض الكبريت استخرجوه من الزاج بواسطة التقطير، وعرفوا ماء الفضة والقلى، وطرق إذابة الذهب وملح النشادر وحجر الكى والسليمانى، وكانوا يطبقون ما كشفوه على الطب والصناعة والحرب[(١)]، ويعرفون صنع الصواريخ أخذوا سرها من الروم، وعملوا البارود للمدافع ، وربمـا كان ذلك قبـل الصينيين، ولكن كانــ قبل الأوربيين على التحقيق، فكانت جيوشهم تستعملها منذ القرن الثـالث عشر، وقالوا بكروية الأرض منذ ابتداء نهضتهم . وعنى العرب بصـنع

(١) تاريخ الطب عند العرب لأسعد الحكيم (مجلة المجمع العلمى العربى المجلد السادس) .

القاشانى وغيروا طرق صنعه وأشكاله ، واشتهرت فى القرون الوسطى الأوانى الزجاجية والمصابيح العربية الملونة التى انتقلت من الشام الى معامل البندقية ونسجت هذه على منوالها ، وكذلك تعلم البنادقة صنع المرايا وكانت تصنع فى صور ، ومن البندقية انتقلت الى أوربا ، ونقل من الشام والعراق الى الأندلس صنع السيوف الدمشقية والأقمشة ومنها " الدمقس " نسبة الى دمشق " والموسلين " نسبة الى الموصل وهو الشفوف ، ثم عرفت هذه الأصناف فى بلاد الغرب .

كان الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية تقرأ فى أوربا فى كتب العرب ، ولما كان العرب سادة البحر المتوسط فى القرن السابع وما بعده أعطوا الطليان والفرنسيس الألفاظ البحرية . وكان الطب العربى أساس علم الطب عند الفرنسيس أخذوه مع كثير من الألفاظ العربية ، والعرب هم الذين أدخلوا الى مونبيليه منذ سبعمائة سنة ، والى كثير من مدن فرنسا وإيطاليا ، بضائع العلوم المختلفة ، جاؤا بها من الأندلس ، ودرس بعض الغربيين العلوم المختلفة على علماء العرب . ومن كتب العرب العلمية فى العلم الطبيعى والرياضى والفلك والكيمياء ما فقد أصله العربى وبقيت ترجمته اللاتينية ، وجميع المادة الطبية التى أخذها الغربيون من العرب بقيت الى القرن السابع عشر هى المعوّل عليها وحدها . قال سنيوبوس : ويتعذر الحكم فى تحديد الطرق التى دخل منها الى أوربا اختراع من اختراعات الشرق ، وفيما إذا كان انتهى إلينا من طريق الصليبيين فى فلسطين ، أو من طريق التجار الإيطاليين ، أو جاءنا من عرب صقلية أو من المغاربة فى اسبانيا ، بيد أن الحساب يمكن تقديره بما نحن مدينون به للعرب ، وإن كان هذا الحساب مما يطول شرحه . فقد أتتنا من العرب : (أوّلا) الحنطة والهليون والقنب والكتّان والتوت والزعفران والأرز والنخيل والليمون والبرتقال والبن والقطن وقصب السكر . (ثانيا) معظم صناعاتنا فى التزين كالأقمشة الدمشقية القطنية والسختيان وأقمشة الحرير المزركشة بالفضة والذهب والشاش الموصلى والشفوف والحبر والمخمل والورق

والسكر وعمل الحلويات والمشروبات . (ثالثا) مبادئ كثير من علومنا كالجبر وحساب المثلثات والكيمياء والأرقام العربية التى اقتبسها العرب من الهنود فسهل بها الحساب مهما كان صعبا . ولقد جمعت العرب وقربت جميع الاختراعات والمعارف المأثورة عن العالم القديم فى الشرق (كيونان وفارس والهند والصين) وهم الذين نقلوها الينا ودخل كثير من الألفاظ فى لغاتنا، وهى شاهدة مما نقلناه عنهم، وبواسطة العرب دخل العالم الغربى الذى كان بربريا فى غمار المدنية، فاذا كان لأفكارنا وصناعاتنا ارتباط بالقديم، فان جماع الاختراعات التى تجعل الحياة سهلة لطيفة، قد جاءتنا من العرب، وأخذ الأوربيون من العرب صنع الجوخ فى جملة ما أخذوا من الصنائع .

وكان أهل بيزا الإيطاليون ينزلون مدينة بجاية فى الجزائر، فتعلموا منها صنع الشمع، ومنها نقلوه إلى بلادهم وإلى أوربا . وقال سنيوبوس أيضا : وكان عبد الرحمن الثالث الأموى على اتصال دائم بأمراء اسبانيا وفرنسا وألمانيا وممالك الصقالبة، وكان القصر الملوكى فى تولوزة من بلاد فرنسا صورة من صور قصور الخلافة فى قرطبة، يتبارى فيه الشعراء وتقوم فيه للآداب سوق . ولما انتقل أحد أمرائهم ليتولى عرش فرنسا سنة ٩٩٩ أدخل ما أخذ عن العرب تبدلا حقيقيا فى باريز من حيث الأخلاق واللغة . وكان ملوك فرنسا من أهل السلالة الثالثة يقلدون العرب فى كل شيء . وتعلم الفرنسيس أشياء كثيرة فى حملة سان لوى الصليبية التى بقيت عدة سنين فى الشرق . وفى الحروب الصليبية تعلم الفرنسيس صنع الورق من دمشق بواسطة أسيرين منهم قضيا زمنا فى هذه المدينة فلما عادا الى بلادهما نشرا فيها هذه الصناعة المفيدة . وكان لكثير من ملوك أوربا حرس من العرب الى عهد قريب، ولا سيما إيطاليا وفرنسا . وذكر سيديليو أن بعض الإفرنج زعموا أن العرب لم يعملوا فى تقدم الصنائع شيئا مع أنهم برعوا فى جميع الفنون الصناعية واشتهروا عند سائر الأمم بأنهم دباغون سباكون جلاءون للأسلحة نساجون أصناف الأقمشة، ماهرون فى الأشغال التى تصنع بالمنقاش والمقراض، ويؤيد علو كعبهم فى هذه الفنون سيوفهم الباترة،

ودروعهم الخفيفة الصلبة، وبسطهم ذات الوبر، ومنسوجاتهم من الصوف والحرير والكتّان، وما كشمير هـذه الأيام إلا نموذجات دالة على تلك الصناعة. ويقـول رينـو فى كتابه الغارة على فرنسا إن العـرب لمـا أغاروا من الأندلس على جنوبى فرنسا وافتتحوا بقيادة السمح الخولانى وعنبسة الكلبى والحر الثقفى مدائن أربونة وقرقشونه وأفنيون وليون كانوا مجهزين بأسلحة لم يكن للافرنج مثلها.

وذكر لبون: "أن خزائن الكتب والمخابر والآلات هى مواد للتعليم والبحث اللازم، ولكنها ليست إلا أدوات، وقيمتها مناط الطريقة التى تستعمل لها، وقد يتلقف المرء علم غيره وهو عاجز عن أن يفكر بنفسه ويوجد شيئا، ويكون تلميذا دون أن يوفق الى أن يصبح أستاذا. أما العرب فبعد أن كانوا تلاميذ عاديين، أساتذتهم تآليف اليونان، أدركوا للحال أن التجربة والملاحظة تساويان أكثر من أحسن الكتب. هذه الحقيقة اليوم معروفة لا يعدّ العمل بها بدعا، ولم تكن كذلك فى الدهر السالف. فقد ظل علماء القرون الوسطى يشتغلون ألف سنة قبل أن يدركوها. ينسب الناس إلى باكون قاعدة التجربة والملاحظة، وهما الأصل فى أساس البحث العلمى الحديث، بيد أن الواجب أن يعترف اليوم أن هذه الطريقة كلها هى من مبتدعات العرب". وقال بهذا الرأى جميع العلماء الذين درسوا كتبهم ولا سيما هومبولد. قال إن العرب بلغوا فى العلم العملى درجة لم يكن يعرفها أحد من القدماء. وقال سيديليو: وقد اشتهرت مدرسة بغداد فى أوّل أمرها بفكرتها العلمية حقيقة، وكان لها السلطان الأكبر على أعمال العرب، فساروا من المعلوم إلى المجهول، واستنبطوا أسرار المحسوسات ليرجعوا الأسـباب إلى مسبباتها، ولا يقبـلوا إلا ما أثبتته التجربة. وهذه هى الأصول التى لقنها العلمـاء، ولقد كان العرب فى القرن التاسع متمكنين من هذه الطريقة الخصيبة التى صارت بعـد عند المحدثين أداة استعملوها للوصول إلى أجمـل ما كشفوه. فكانت التجربة والملاحظة من أسلوب العرب، ودرس الكتب والاكتفاء بترديد رأى المعلم كانت طريقة أوربا فى القرون الوسطى،

والفرق ظاهر بين الطريقتين . ولا تقدّر طريقة العرب فى العلم حق قدرها إلا بالبحث فيها .

ولقد اعتمد العرب على التجارب وسبقوا العالم ، وظلوا على سبقهم دهرا طويلا ، وعرفوا مكانة هذه الطريقة ، وليس لليونان فى الكيمياء ولا مجرب واحد ، ويعدّ المجربون بالمئات عند العرب ، وقد أورثت عادة التجربة أعمالهم العلمية هذا الوضوح والإبداع الذى لا ينتظر أبدا أن يسقط عليها عند من لم يدرس الظاهرات إلا فى الكتب ، ولم يفتهم الابداع إلا فى علم استحال عليهم فيه الرجوع إلى التجارب وهو علم الفلسفة ، والأساليب التجريبية التى كتب لهم فضل السبق فيها قادتهم بالضرورة إلى كشف أمور مهمة وفقوا اليها فى ثلاثة أو أربعة قرون ، لم يكتب مثله لليونان فى زمن أطول من زمنهم بكثير . وهذه الذخيرة فى العلم الماضى التى انتقلت إلى اليونان قبلهم ولم يستخرجوا منها كبير أمر منذ دهر طويل نقلها العرب برمتها مبدلة إلى أخلافهم . ولم يقف عمل العرب عند تثمير العلم بما أوجدوه بل نشروه بواسطة جامعاتهم وكتبهم . فالتأثير الذى أثروه من هذا النظر فى أوربا كان عظيما فى الحقيقة ، وكانوا خلال عدّة قرون أساتيذ منفردين ، عرفتهم الأمم النصرانية ، واليهم يرجع الفضل فى معرفتنا المدنيتين اليونانية واللاتينية . وفى العهد الحديث فقط تجرّد تعليم جامعاتنا من الاعتماد على تراجم كتب العرب ، وكف عن الأخذ بواسطتهم " .

تفنن العرب فى الهندسة والتصوير :

وللعرب فى باب الهندسة الإبداع الذى أقرّهم عليه كل عارف ، ولم ينازعهم فيه منازع ، ولم يخترع العرب أبنية خاصة بهم ، بل تجلى فى هندستهم حبهم للزخرف واللطف ، واخترعوا القوس المقنطر ورسم البيكارين وجعل تفننهم فى هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار والأزهار ، لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها ، ودلت كل الدلالة على إيغالهم فى حب النقوش والزينة ،

كأن أبنيتهم ومصانعهم هى قماش من أقمشة الشرق تفنن حائكها فى رقشها ونقشها كما قال أحد العارفين من الإفرنج . وعقد لبون فصلا فى تأثير العرب فى الصنائع ولاسيما فى الهندسة فى الغرب وقال: ربما ادعى بعضهم أن الهندسة الغوتية مأخوذة عن العرب ، وهذا وَهَم فاننا إذا قابلنا بين كاتدرائية غوتية من القرن الثالث عشر والرابع عشر وبين مسجد من ذينك القرنين نجد اختلافا بينا بين الهندستين . ولما كانت الفنون تعبر عن حاجات عصر وعواطف أهله ، اختلفت هندسة الغرب عن الهندسة العربية فى الشرق . وقد أخذت أوربا من العرب تفاصيل فى الزينة ووجدت على بعض البيع فى فرنسا صور حروف عربية منحوتة فى الحجر وأكاليل على بعض الحصون تشبه الطراز العربى ، وكثير من كنائس فرنسا تأثرت بالهندسة العربية ولا سيما فى المدن التى كان لها علائق كثيرة مع الشرق . وقد جلب الصليبيون من الشرق أصول هندسة بيت المؤذن فى المنارات والمشربيات والمعرقات والمراصد فى الأبراج والزغاليل والأبراج الناتئة والأفاريز ذات الدرابزين ، واستخدمت فرنسا كثيرا من مهندسى الأجانب ، وكان فيهم العرب ، حتى إن كنيسة "نوتردام دى بارى" المشهورة فى عاصمة فرنسا عمل فيها مهندسون من العرب . أما تأثير العرب فى هندسة إسبانيا فظاهر ظهور الشمس والقمر . إلى أن قال : قد ينقرض شعب وتحرق كتبه ، وتهدم مصانعه ، ولكن التأثير الذى أثره يقاوم أكثر مما يقاوم القلز ، وليس فى طاقة القوة البشرية أن تأتى عليه ، والقرون قد تفعل فى القضاء عليه أكثر من ذلك .

وقال أيضا : إن من ألقى نظرة على المساجد والقصور وعلى غيرها من الآثار العربية من منقولها وغير منقولها يشهد أنها نسجت على غير مثال ، وأن الإبداع فيها ظاهر محسوس ، وإذا رجعنا إلى أوائل عهد المدنية العربية أيام كانت فى أوجها نجد تقليد الصنائع الفارسية والرومية ظاهرا فيها ، وكل شعب يقتبس عمن سبقه صنائعه ، وهذا يصدق على كل الأمم ، وكان الناس إلى عهد قريب يعتقدون أن

الفنون اليونانية قامت على غير مثال . ثم أدى البحث إلى أن هذه الفنون أخذت عمن سلفها من الأشوريين والمصريين . فالعرب واليونان والرومان والفينيقيون واليهود وغيرهم أو جميع الأمم قد انتفعت من الماضى ، وكل شعب أخذ عن غيره وزاد من عنده ماوسعته الزيادة ؛ ولذا لاينبغى أن يزعم الناس أن العرب لم يكن لهم فن فيه إبداع لأنهم اقتبسوا الأصول الأولى من أعمالهم من الأمم التى تقدمتهم ، ويعرف الإبداع الحقيقى فى أمة من السرعة التى بها تحول المواد التى بين يديها فتجعلها وفق حاجاتها وتنشئ فنا جديدا ، وما من شعب فاق العرب فى هذا الباب فإن فكر الإيجاد عندهم قد تجلى فى مصانعهم الأولى مثل مسجد قرطبة ، ولم يلبثوا أن ألقوا فى روع الفنانين الأجانب أنهم كانوا يعمدون إلى طرق جديدة فيها الحذق والمهارة بأكملهما . فقد كانت سوارى المعابد القديمة التى بين أيدى العرب من القصر بحيث لاتتناسب مع عظمة الأبنية واتساعها ، فقاموا هم ينشئون فى أسفلها قواعد وغطوها بقناطر وضعت على غاية من الحذق ، ولو كان الترك مكان العرب ماخطر لعقولهم الغليظة مثل هذا الفكر . وكان من أمر الشعوب التى خلفت العرب فى البلاد التى خضعت لسلطانهم أن رأوا مصانع قديمة سبقت العرب ، فما استطاعوا أن يدبروها تدبيرا جديدا ، فظل التقليد باديا فى أصولها وفروعها . أما فى المصانع العربية كقصور إسبانيا وجوامع القاهرة ، فان المواد الأصلية قد استحالت إلى ترتيبات بلغ من جدتها أن يتعذر أن يقال من أين جاءت .

قال : ومن ألقى نظرة على الأعمال الأدبية والفنية التى تمت على أيدى العرب ، يتجلى له أنهم حاولوا أبدا أن يزينوا الطبيعة ، وطابعهم الذى يبدو فى الفن العربى هو التخيل والبهاء والضياء والتزيد فى الزينة والدقة ، فالعرب عنصر شعر ، وأى شاعر لاينطوى على فنان ، اغتنوا بحيث تم لهم تحقيق جميع هذه الأحلام فأولدوا هذه القصور البديعة التى تبدو للعيان كأنها تضاريس من الرخام المرصع بالذهب والأحجار الثمينة . وما من شعب حاز مثل هذه العجائب ، وما من شعب سيدانيهم فى حيازتها ،

ومن العبث أن نتطلب مضاهاتها من الدور الذى دخلت فيه الانسانية اليوم ، فأصبحت لا تعرف من الصنائع إلا المبتذلة والمقصود منها النفع فقط وهى شاحبة باردة .

وقال فى مناسبة أخرى[(١)] أن العرب لما أنشأوا فى القرن السابع هذه المملكة الضخمة بفتحهم معظم بلاد العالم القديم اليونانى والرومانى لم يلبث سلطانهم أن امتد من اسبانيا إلى أواسط آسيا مشاطئا أرض شمالى أفريقية بأسرها ، رأوا أنفسهم أمام هندسة مقررة ثابتة وهى الهندسة اليونانية فاقتبسوها لأول أمرهم على علاتها لإقامة جوامعهم فى اسبانيا ومصر والشام . ويدل المسجد الأقصى فى القدس وجامع عمرو ابن العاص فى مصر وغير ذلك من المصانع على هذا الاحتذاء ، ولم يطل هذا العهد كثيرا حتى شوهدت المصانع تختلف باختلاف القطر والعصر . وبلغ من عظم هذه التبدلات أنك لاترى أدنى أثر للتشابه بين بناء قام أوائل الفتح مثل جامع عمرو فى القاهرة (٧٤٢ م) وجامع قايتباى (١٤٦٨ م) من آخر الدور العربى التركى .

وقال ميجون[(٢)] : لاننكر على العرب بأن لهم الحظ الأوفر من هذه المدنية وهم واضعو أسسها ، وقد أفرغوا هذه العناصر المختلفة فى قالب متجانس متناسب فأوجدوا منها مدنية مطبوعة بطابع عظمتهم وسلامة ذوقهم ، ولم يمض قرن على فتوح العرب وبسط سلطانهم على الشرق وافريقية الشمالية وإسبانيا ، حتى تبدل النظام الاجتماعى فى البلاد المغلوبة ، وحل موضعها دين وإدارة وعادات وأخلاق جديدة ، وهكذا يقال فى صناعاتهم وفنونهم وكثير من احتياجاتهم . وإن توحيد تلك البلاد من بحر الظلمات إلى المحيط الهندى ، وإخضاعها لسلطان واحد ، ونظام شامل ، والعناية بالجندية ، وإقبال المسلمين على أداء فريضة الحج ، كل ذلك سهل

(١) القوانين النفسية فى نشوء الشعوب لجستاف لبون
(G. Le Bon : Lois psychologiques de l'évolution des peuples).

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى م ٥

سبل التعارف بين المؤمنين ، وجعل كل واحد منهم يحمل إلى بلاده ما استحسنه في البلدان الأخرى ، ولذلك رأينا التأثيرات الشرقية في أقدم بناء إسلامي في الغرب كالجامع الكبير في قرطبة وجامع سيدي عقبة في القيروان ، مغربية بطرز بنائها ، مشرقية بزخارفها .

وعلى الجملة فإن خاصة الإفرنج استفادوا ، بملابستهم العرب في صقلية والأندلس ، الاطلاع على علوم العرب ومدنيتهم ، واختلاط الافرنج في الحروب الصليبية استفاد منه خاصتهم وعامتهم على السواء ، وكان من جملة فوائد الحروب الصليبية (١) أن اقتبس الافرنج عادات الشرقيين فاستعملوا الحمامات والألبسة المسترسلة الفضفاضة ، ونظموا خيالة مسلحين على الطريقة الإسلامية . قال لبون : إن النضال الذي ناضله الصليبيون في حملاتهم الأولى كان نضال عالم لم يزل على توحشه مع مدنية من أرقى المدنيات التي حفظ التاريخ ذكراها .

قال لركيه في كتابه الفن والتاريخ : ورث العرب فيما ورثوا عن الأمم التي دخلت في حوزتهم الفنون والصنائع ، وأخذوا يحذقونها ويبرعون فيها في مدارس الموزثين ، إذ لم يكن في استطاعتهم أن يرتجلوا فنا كما ارتجلوا لهم ملكا . ومع ذلك لم يمض زمن طويل حتى نبغ فيهم البناؤون والحفارون والمصورون والنقاشون ، دون أن يروا في شيء من ذلك مخالفة لنصوص كتابهم ، أو معارضة لشريعة نبيهم . ولم يقفوا عند حد الحذق والبراعة بل تعدوه إلى التفنن والإبداع فنقحوا وصححوا وحذفوا وأضافوا ، ثم اخترعوا وابتكروا ، حتى طبعوا تلك الفنون بالطابع العربي ، وصبغوها بالصبغة الاسلامية ، حرصا على شخصيتهم أن تفنى ، وعلى نبوغهم وعبقريتهم أن يذهبا ، فأصبح الروح العربي بارزا واضحا يندمج فيه غيره ، ولا يندمج في شيء ، ولهذا خلقت العرب لها فنا يوافق ذوقها ، ويسير مع طبعها ، وسرعان ما انتشر في أرجاء تلك المملكة الواسعة انتشار الكهرباء . اهـ .

(١) التاريخ العام لمكسيم بتي وتاريخ الحضارة لسنيوبوس .

قالوا وقد خضعت الفنون الاسلامية لنواميس الطبيعة الاقليمية فاصطبغت فى كل قطر بصبغته الخاصة، وكانت فى عامة أحوالها من أندلسى ومغربى وصقلى ومصرى وشامى وعراقى وفارسى وهندى ومغولى إسلامية أصلية كريمة نبيلة، تنطق بما للاسلام من إباء ونجدة وشهامة ونخوة الخ .

هذا ماالقفه العرب وثقفوه، بل هذا مجمل مااخترعوه وكشفوه، استفادوا منه وأفادوا أهل المدنية الحديثة . عملوا فيه وحدهم بعقولهم وتجاربهم، وتواضعوا على مالم تشاركهم فيه أمة لا كما كان شأن العلم فى عصره الحديث، كثرت فيه الأيدى العاملة حتى استحال فى بعض ما اخترع وكشف أن يعزى إلى أمة بعينها . أبرزت العرب علمها العملى فى زمن قصير، فظهر وبهر، وعم البدو والحضر، كل ذلك من دون دعوة ولا إعلان ولا تبجح ولا منة . نقلوه إلى الغرب حلالا طيبا، وما منوا على أهله، ولا سألوهم ثمن ما أعطوهم، واليوم طويت صحفهم العلمية، وأصبحت مغانيهم كأن لم تغن بالأمس، وقام الشعوبيون أعداؤهم يصغرون من شأنهم، ويبخسونهم أشياءهم، ويتناولونهم بالنقد والتنقيص، وما حقهم لو أنصفوا إلا الحمد والثناء .

أثر الشعر العربي والفنون الجميلة في الغرب

الموشحات الأندلسية وكلام شاعر الاسبان في أدب الأندلس :

فعلت البيئة فعلها فى عقول العرب لما نزلوا الشام والعراق وفارس ، فلما انتقلوا إلى الأندلس جاء شعرهم خلابا بمعانيه وتصويره وتأثيره ، كأنه نمط آخر من شعر المشارقة . احتفظ بجميع ضوابط الشعر وأصوله ، وجاء شعرا صادرا من أعماق القلوب لامن أطراف الشفاه ، والذى ساعد عرب الأندلس[1] على بلوغ شأو العظمة اتساع نطاق العلوم والفنون والفلاحة والصنائع عندهم ، وقد ذاقوا كلهم لذة المعارف ، وتنافسوا فى ابتكار مايمتازون به ، والشعر يرفع أقدار نفوسهم . وكان على القضاة أن يتقنوا صنوفا من العلم حتى يحلوا من الناس محل التجلة والكرامة ، وقد بلغوا درجة عليا فى فنون البناء والموسيقى والقريض . وارتقى الأدب فى أهل الأندلس حتى فى النساء لشيوع التعليم فى العامة والخاصة ، وغلب الشعر على أصقاع بعينها مثل شلب ووادى آش[2] حتى قل من أهل شاب من لايقول شعرا ولا يعانى أدبا رائعا ، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه ، وأى معنى طلبته منه .

وللأندلسين فضل السبق فى اختراع الموشحات التى تهيج النفوس الخاملة ، وتتشربها القلوب لسلاستها ، كأن سماء الأندلس أوحت إلى قرائحهم ما لم توحه سماء الشرق . وتجارى غواة القريض فى نظم هذه الموشحات وترديدها[3] إلى الغاية ، واستظرفها الناس جملة ، لسهولة تناولها وقرب طريقتها . وقد كثرت اختراعاتهم

(١) تاريخ العرب لسيديلو . (٢) معجم البلدان لياقوت ونفح الطيب للقرى .

(٣) مقدمة ابن خلدون .

فى المعانى، وألبسوا الشعر ديباجة مستملحة كسرت قليلا من قيوده، وألبسته حلة مدنية كالحلل العراقية والشامية أيام رواج الشعر فى بعض أدوارهما الراقية .

من جملة ما حمله العرب إلى الغرب روحهم الشعرى فأولع به من حذقوا اللغة العربية، ولم يكن الشعر قد ارتقى فى بعض أمم الغرب . وكانت بعض الأمم إلى عهد قيام العرب لا تعرف لها شاعرا يرفع رأسها بشعره، اللهم إلا بعض أغان أشبه بشعر العامة منه بشعر الخاصة ، فكان من اختلاط العرب بالافرنج فى الأندلس وصقلية وجزائر الباليار مالقن تلك الأمم ولا سيما الأمم اللاتينية معنى الشعر، فنقلوا عن العرب ما أولعت به نفوسهم ولاءم طباعهم ، وعالج العرب ما خلا الشعر جميع ضروب الأدب[1] كالملاحم والحب والفروسية ، وأحرزت الوقائع العجيبة التى كانت تتخلل قصصهم موقعا عظيما فى النفوس، فكانوا وهم الفنانون المنقطع نظراؤهم يزينون كل ما يمسونه بتصوراتهم الباهرة . واخترعوا فى إسبانيا[2] قصص الفروسية ، ومن عادة العرب أن يجتمعوا كل مساء تحت خيامهم، يستمعون إلى من يدهشهم بقصصه، وكانت هذه القصص فى غرناطة يتبعها رقص وغناء .

كانت القصائد التاريخية والمواليا الاسبانية محتذاة أو مترجمة عن العربية تذكر فيها أعياد الأيام، وألعاب الخاتم، وصراع الثيران، ورقص الفرسان ، ولم يبتكر الاسبانيون شيئا فى هذا المعنى قبل القرن الخامس عشر . وهذا الظرف هو الذى جعل لعرب إسبانيا شهرة فى كل أوربا . وقد قال فرنسيسكو فيلاسباسا شاعر الاسبان لهذا العهد : لم يصب شعب[3] من موهبة الشعر الإلهية بقدر ما أصاب الشعب العربى منها. فكان من ولوعه بالشعر ومن ثقافته التواقة إلى الحرية والبطولة ما وسم شعره بطابع خاص كان شعاره منذ ظهوره . وما انتصار الاسلام الباهر

(١) حضارة العرب لجستاف لبون . (٢) تاريخ العرب لسيديليو .

(٣) على بساط الريح لفوزى المعلوف .

إلا انتصار للشعر العربى أيضا . وسيطر العرب إبان انتصاراتهم على أرقى شعوب الأرض وامتزجوا بهم ، فأخذ عنهم المصريون والبيزنطيون والرومانيون مناحى جديدة ، بدأت منذ ذلك الحين تسود خشونة شعرهم القديم ، ولم يتعدّ هذا التأثير الخلابة فى التركيب والتلاعب بالألفاظ . وظلت القصائد العربية القديمة سليمة لم يطرأ عليها فساد القلوب ، ولا تصرفت بها الألسن على هوى الرواة . فكانت كالإرث الثمين يتناقلها الناس جيلا بعد جيل . وظل بدو الصحراء رعاة النجوم أو فى الشعوب خبرة فى تخير الأخيلة ، وأوفرها غنى بالمادة الشعرية ، ولم تتهيأ للشعرالعربى فى عامة الأقطار التى اكتسحتها العرب تربة أصلح من تربة الأندلس ، ولازها فى بلد من البلدان زهوته فى هذا البلد .

قال وكان قوّاد العرب أوّلا ومن بعدهم الخلفاء والأمراء مثالا للشعب فى بث الفكرة الأدبية فى الأندلس العربية ، تكاد لاتستثنى منهم واحدا لم يخلد اسمه بقصيدة غرام أو حماسة منذ أنشأ عبد الرحمن الأوّل تحيته الوطنية الممتعة التى خاطب بها النخلة الأولى التى غرسها بيده على ضفة النهر الكبير ، إلى أن أنشد أبو عبد الله على ضريح مريم موشحته المشجية راصفا قوافيها بفلذات قلبه المنفطر الدامى . و إن أنس لاأنس المعتمد آخر ملوك إشبيلية ، وفى رأيى أن شعره أجلى مثال للشعر العربى ، إن لم يكن بجماله ، فبالتشاؤم الذى فيه ، و بالشؤم الذى رافق حياة صاحبه ، وكان حلقة من سلسلة الأبطال الذين ناوأهم القدر فى مختلف أدوار التاريخ .

ونسج الأشراف على منوال سلاطينهم ، فنمت رياض الأدب الغنائى ، وأزهرت فى ظلال السيوف فتفشت عدوى الاشتغال بالأدب العربى بين أساقفة النصارى ممن استعربوا فى ذاك العهد ، فراحوا يقرضون الشعر بلغة عربية عالية ، وهو لعمرى حدث وحيد من نوعه فى التاريخ . وفاضت أرض الأندلس المرعة بعلوم الإسلام وآدابه التى عمت العالم ، وقامت النفوس التواقة إلى العرفان فى أقاصى البلدان ، تبرد شفاهها الظمأى بترشف ينابيع الحب والسلام المتفجرة من الشعر

العربي فى قرطبة وطليطلة أوّلا ، وإشبيلية وغرناطة آخرا ، ونظم سلفستر الثانى بابا رومية قصائد عربية لها أوزانها وقوافيها .

وظلت اللغة العربية لغة التقاليد فى الحب والعلم والشعر فى كل من صقلية وبروفنسا وإيطاليا وبيزنطية بل فى قلب بلاد ألمانيا . ورافق الشعر جيوش العرب الفاتحين وسفنهم الظافرة ، وواكبت قوافيه قوّادهم ، فكانوا يولجونها فى الصدور على سنان الحراب ، ناشطين لإذاعتها نشاطهم لإذاعة سور القرآن الكريم . ولم يكن جل أناشيد طبقاته القديمة وكثير من أغانى شعراء الولايات الجوالين غير قصائد عربية لشعراء الأندلس ، أدخل عليها بعض التطور ، وبقيت محتفظة بأثر الروح الشرقى . وبالعربية نظم الإمبراطور فريدريك الثانى ملك صقلية مقاطيع ممتعة ، وجمع فى بلاطه رهطا من علماء الاسلام وشعرائه ليتخذهم ذريعة يبعث بها فى ملكه ما كان للأدب العربي من بهاء فى دمشق وبغداد وقرطبة وإشبيلية . وهى المدائن الأربع التى كانت فى ذلك العهد قبلة أنظار النهضة الأدبية فى العالم أجمع ، وقد اتضح للباحثين من المعاصرين أن فى شعر دانتى الذى هو فخر أمة بأسرها ، مآخذ صريحة مردودة إلى الأدب العربي .

قال وإن روح الفروسية التى سادت القرون الوسطى ، وأحالت همجية الحروب الى مداعبات على ظهور الخيل فى ميادين الألعاب وأنتجت من الحب أدبا عاليا ، ومن المرأة صنما معبودا ، لهى روح خلقها الشعر العربي ، وحملها الى العالم على أجنحة موشحاته فعم العالم «الأدب المنمق» الذى سبق "الرومانطيقية"[1] ببضعة أجيال . ولئن كان للشعر العربي هذا التأثير فى العالم ، فأحر به أن يكون فى إسبانيا أشدّ بلوغا منه فى غيرها . كيف لا وقد عاش العرب سادة فيها مدّة ثمانية قرون ، شادوا فى خلالها أفخم صروحهم الهندسية والعلمية والأدبية . لا جرم أن ملوك

(١) يطلقون اسم الرومانطيق (Romantique) فى الغرب على الكتّاب الذين قاموا أوائل القرن التاسع عشر وتحرروا من قيود التراكيب والانشاء التى عرفها القدماء باسم الكلاسيك (Classique)

الكثلكة الظافرين أجلوا العرب منذ قرون عن شبه الجزيرة الإسبانية ، ولكن اللغة العربيـة ما برحت تمدّ معجمنا بما ينيف عن ربع مفرداته، كما أن أنوار آدابها مافتئت تلهب مخيلاتنا بأشـعتها ، وتسعر دماءنا بحرارتها، دافعـة بنا الى مجازفات تنطوى على جنـة ، تراها ماثلة أى مثول فى حكايات دون كيشوت وأضرابه من الفرسان . وقد تأثر جل أدبنا الروائى وشعرنا بما اندمج فيه من الأسلوب العربى المحض ، حتى ان أوزان التفاعيل الثمان ، هى فى الأصل بحر اتخـذه شعراؤنا ، ونظموا به على قافية واحدة، تتكرر فى جملة الأبيات على نحو ماهو مألوف فى الشعر العـربى .

ثم قال : «ويتعذر علينا نحن الإسبانيين إتمام أبحاث تاريخنا، والنظر فى آداب لغتنا، إن لم يستعن مؤرخونا ونقادنا فى مباحثهم باللغة المعتمد وأبى البقاء، أو يستمدوا من المخطوطات العربيـة المبعثرة فى أنحاء العـالم ، وإنك لتجد فى جميع الآثار التى خلفها كتابنا الأقدمون مسحة انتقادية هى أثر المعارف العربيـة الباسطة نورها على اللغات الحديثة منذ أنشأ « الدون خوان مانويل » كتابه المسمى « كونده لوكانور» الى أن ألف «روخاس» كتابه « كالستنيا » ولا نغفل عن التنويه بمؤلفى « اللح » وسواهم من كبار الكتاب والمنشئين . وليست جميع القصائد المجموعة فى كتب الأغانى الإسبانيـة لمختلف الشعراء سوى انتحال مافى الدواوين الشرقيـة من شعر، فانك ترى ناظميها يرافقون فى أناشيدهم الإيقاع المتكرر فى ألحان الرباب .

ليس فى طاقتنا معاشر الأندلسيين المؤمنين بالنصرانيـة، أن نجحد دين أسلافنا المسلمين، فلئن كان الأول دين سرائرنا، فالثـانى مابرح نتاج خيالنا القومى المزدان ببدائع التصوّر، وإننا على رغم لباسنا الحديث، وإهمالنا لغة أسلافنا العرب، مانزال أحفاد أولئك البدو الذين تعوّدوا فى وحشة الصحراء أن يخاطبوا الله وهم قعود أمام مضاربهم المنسوجة بوبر الإبل . ولو نزعنا بعض الكلس عن جدران جل كنائسنا، لألفينا تحته لمعا مذهبـة لاسم الله الأقدس محفورة بحروف كوفيـة ، ولو خدشنا

بالأظافر بشرتنا الأوربية الصفراء لبرز لنا من تحتها اون بشرة العرب السمراء . إن قوميتنا الغربيـة هى العرض الظاهر، أما القوميـة الشرقية فهى حقيقتنا الخالدة، وما كانت عامة ثوراتنا الأدبيـة القديمة والحديثـة فى الغالب غير أثر الروح العربى الذى يطفـر من سويداء قلوبنا محتجا ناقما، لأن ابن الصحراء المتمرد الحر الذى تعوّد الهواء الطلق تحت نور الشمس لا يقوى على الحياة خلف القضبان المتراصـة فى الأقفاص المظلمة المثقل جوّها بكثافة القواعد المنطقية والمناهج اللغوية .

إن " غونغورا " أصفى شـعرائنا روحا يشبه كبار الشـعراء فى بلاط الأمويين فى قرطبة، أولئك الذين جمع لهم الحكم الثانى فى قصر مروان أغنى مكاتب العـالم، جاعلا لهم من حدائقها ميـدانا لفنهم وخيالهم . وقد عرف " غونغـورا " بالتباس فى تأدية المعنى، وما ذاك إلا لتملك الطريقة العربية من نفسه، إلى حدّ لم يجد معه فى مفردات لغته ما يستطيع أن يعكس بها ألوان معانيه الشرقيـة . لذلك تراه ينقل اليك بدمدمة غامضة، الآيات العظيمة التى رفعت نفسه الى درجة الذهول" .

هذا ما قاله شاعر إسبانيا، ثم عدّد تأثيرات النفوذ العربى فى الشعر الإسبانى والإيطالى والألمـانى . وقال إن الأدب العربى أثر فى أعظم من رفع للرومانطيقية لواءها، وبعد أن أورد أسماء كثير من الشعراء تأثروا بمؤثرات العرب، قال إن التأثر بالأدب العربى البادى فى آداب اللغـة الإسبانية ظاهر فى أناشيدهم الشـعبية التى تمثل نفس أمته الشاعرة تستشف من خلالها إخاء الأمتين وإن النشـيد الغرناطى لشديد الشبه بالنشيد البغدادى .

الموسيقى الأندلسية والرقص الأندلسى :

هذا ما كان من الشعر العربى وتأثيره فى الغـرب، أما الموسـيقى فكان العرب فى عامة أدوارهم مولعين بها منذ ذهبت عنهم وحشة البداوة، ومنهم الخلفاء والأمراء والقضاة والعلماء والفلاسفة[1] والأدباء، أعظموا قدرها فى التهذيب[2] وأعطوها صـدر

(١) شرف الموسيقى للمؤلف فى كتابه القديم والحديث . (٢) جورج سرطون فى مجلة الكلية م ١٨

المقام فيـه، حتى تخوّف بعض علماء الدين منها وبدأوا يفكرون هل الموسيقى جائزة شرعا وما هو القدر الذى يباح منها، وهنالك تآليف كثيرة تعنى بالبحث فى العلاقة بين الموسيقى وحسن الأخلاق وسلامة الدين . وقد خصص الغزالى قسما كبيرا من كتابه إحياء علوم الدين لهذا الموضوع، وألف كبار رجال الإسلام فى فن الموسـيقى فأبدعوا . وبدأت الموسيقى العربية تسرى من الحجاز، نقلها إليه جماعة الموالى عن الفرس والروم، وكانت الجارية التى تحسنها يبالغ فى قيمتها، ويتنافس فيهـا الملوك والعظماء والأغنياء، هكذا كان الحال فى فارس والعـراق والشام ومصر والأندلس، والمنكرون قلائل، والمسمعون والمستمعون كثار .

وكان المسـمعات والموسيقاريات يتعلمن صـنوفا من الأدب فيأخذن بمجامع القلوب، بل كان منهن من يجتمع له من أصناف العلوم ما لا يجتمع مثله إلا للأفراد مثـل جارية ابن عبد الله المتطبب الأندلسى[1] فى النصف الأول من المئـة الخامسة فإنها كما قال ابن حيان لم ير فى زمانها أخف منها روحا، ولا أسرع حركة، ولا ألين أعطافا، ولا أطيب صوتا، ولا أحسن غناء، ولا أجود كتابة، ولا أجود خطا، ولا أبدع أدبا، ولا أحضر شاهدا، مع السلامة من اللحن فى كتبها وغنائها، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض، الى المعرفة بالطب وعلم الطبائع ومعـرفة التشريح، وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان. وكانت محسنة فى صناعة الثقاف والمجاولة بالتراس، واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرهفة، لم يسمع لها فى ذلك بنظـير ولا مثيل ولا عديل . ثم إن الأمير هذيلا اشـترى كثيرا من الجوارى الحسـنات المشهورات بالتجـريد، طلبهن فى كل جهـة فكانت ستارته أحسن سـتائر[2] ملوك الأندلس،

(١) البيان المغرب لابن عذارى .

(٢) أصحاب الستائر هم أرباب مجالس الغناء التى للقينات لأنهـم كانوا يضربون سـتارة تحول بينهن وبين المستمعين ويغنين من ورائها فالمراد من وراء الستائر لا الستائر . وكان الخلفاء اذا أرادوا سماع الغناء سمعوه من وراء ستار يحجبهم عن الندماء والمغنين (تفسير الألفاظ العباسية لأحمد تيمور مجلة المجمع العلمى العربى م ٢) .

واشترى تلك الجارية البديعة بثلاثة آلاف دينار . وروى أن بعض خلفاء العباسيين ابتاعوا بعض الجوارى من هذا الطراز البديع بمئة ألف دينار .

وكان فى مدينة آبدة فى الأندلس من أصناف الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ما تظنهن فيه أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدكر وإخراج القرزى والمرابط والفتوخة . ولأهل الأندلس كما لأهل الشرق آلات من الطرب وألوان من الملاهى كادوا يتفردون بها . فمنها خيال الظل أو الخيال الراقص والكرج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة والقيثار والزلامى والشقرة والنورة والبوق (1) . ودام الغناء واللهو والأوتار والرقص فى الأندلس الى عهد خروج العرب منها، على حصة موفورة ، فكان من الطبيعى أن يأخذ الإفرنج عنهم ولا يزال الى اليوم غناء الإسبانيين يشبه غناء العرب وموسيقاهم كأنها موسيقاهم ، وكذلك رقصهم وكثير من أدوات لهوهم .

هكذا الحال فى إسبانيا والبرتقال اليوم، بل فى جمهوريات أميركا الجنوبية ، ولا سيما أهل الأرجنتين (2) والبرازيل، ومازالت موسيقاهم وأنواع رقصهم عربية الى اليوم أو تشبه العربية كثيراً، ذلك لأنها منذ كان العرب سادة إسبانيا كانت موسيقاهم قائمة على علم مقرر محرر بفضل زرياب الذى رحل من المشرق، فأدخل الموسيقى فى المغرب ، وعنه أخذ الأندلسيون وجيرانهم ، وما فتئت الموسيقى كالرقص الى يومنا هذا فى إسبانيا أو فى البلاد التى تغلبت عليها إسبانيا فى سالف الدهر عربية لم يدخلها غير تعديل طفيف بحكم الزمن وطول العهد .

(١) الدكر نوع من الرقص . والقرزى نوع من اللعب يعمد اللاعب الى كيس أو جراب يريه للحاضرين أنه فارغ وبعد أن يتلو عليه بعض الآيات يخرج منه حبات أو قزى أو حبالا أو خيوطا . والمرابط جمع مربوط وهو ما يربط به الدابة . والفتوخة خاتم كبير يكون فى أصابع اليد أو الرجل أو حلقة من فضة وأخراج المشعوذ الفتوخ من قبيل أخراج القزى والمرابط . والكرج تماثيل خيل مسرجة من خشب معلق باطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكررن ويفردن ويثاقفن . والروطة ضرب من الرباب . والمؤنس قربة يركب فيها مزمار والكثيرة ضرب من السنطور تنقر أوتارها بالاصبع . والزلامى نوع من المزمار وكذلك الشقرة والنورة وهى مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه . والبوق معروف (مجلة المقتبس م ١ ص ٤٣٥) .

(٢) رحلة محمد على الى جنوبى أميركا .

مدنية العرب فى الاندلس

كلام على الأندلس وفتحها :

أطلقت[1] العرب على الأندلس اسم الجزيرة من باب التغليب ، كما أطلقت اسم الجزيرة على شبه جزيرة العرب . وذلك لأن الأندلس متصلة من أقصى الشمال بجبال البرينات أو الثنايا . وحدّها عندهم مسيرة ثلاثين يوما طولا ، وزهاء عشرين يوما عرضا ، يطوقها البحران الظلمات والمتوسط من أطرافها الثلاثة إلا من شمالها الشرقى . ولا تعرف مساحة الأندلس على التحقيق أيام الحكم العربى ، وغاية ما يقال إن بلاد البرتقال داخلة فى الأندلس وكذلك برشلونة فى الشرق . ولم يبق من شبه جزيرة إيبريا أو إسبانيا والبرتقال اليوم أرض لم يصل إليها حكم العرب سوى بلاد ضئيلة وعرة من الشمال ، كانت تطلق عليها العرب اسم بلاد الجلالقة وآشتوريا ، أو جبال قرقشونة وجبال بنبلونة وصخرة جليقية .

فالعرب ملكوا إذاً معظم شبه جزيرة إيبريا سنة ٩٢ هـ على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وتقدّم طارق بن زياد البربرى من بر العدوة[2] فى اثنى عشر ألف فارس من البربر وبعض العرب صيرها عسكرين قاد أحدهما بنفسه ونزل به جبل[3] الفتح فسمى جبل طارق به إلى اليوم ، وقاد الآخر طريف بن مالك النخعى ونزل بمكان مدينة طريف فسمى به الى اليوم . وقيل إن طارقا أحرق السفن التى حملت جيشه فى هذا الزقاق بين العدوتين ، وخطب جيشه لما أطل عليه جيش صاحب طليطلة

---

(١) تاريخ ابن خلدون . (٢) العدوة بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت الأندلس وشمالى افريقية وبعد عن بلادهم الى الغرب الأقصى والأوسط والأدنى .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان .

فلما قال : أيها الناس[1] أين المفر، والبحر من ورائكم والعدو أمامكم، فليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدب اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر[2] لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب برعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية . الى أن قال : واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه أوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، ... وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانا، ورضيكم للملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ...

وافتتحت برشلونة من جهة المشرق وحصون قشتاله وبسائطها من جهة الجوف، وانقرضت أمم القوط وأوى الجلالقة ومن بقى من أمم العجم الى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب فتحصنوا بها، وأجازت عسكر المسلمين ما وراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلوا البسائط وراءها وتوغلوا فى بلاد الفرنجة حتى سكن المسلمون بعد حين أربونة (Nar bonne) وصار رباطهم على نهر ردونة، وانقلب موسى الى الخليفة الأموى بدمشق يحمل خبر الفتح، ومن الغنائم ما تحار له العقول . وعرض عليه الأسرى وكانوا من أبناء ملوك البربر وملوك الروم وملوك الإسبان وملوك إفرنجة[3] . وكان عهد الصلح مع الإسبان أن تحفظ على أهل البلاد دماؤهم، فلا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ونسائهم، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق

---

(١) تاريخ ابن خلدون .

(٢) الوزر : الملجأ والمعتصم .

(٣) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

كنائسهم، وجعلوا على كل رجل حر بالغ دينارا فى السنة، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ومقدارا من الطلا والخل والعسل والزيت، وعلى العبد نصف ذلك .

جيوش العرب وقبائلهم وحكومتهم فى الأندلس :

كانت جمهرة الجيش الذى فتح الأندلس مؤلفة من البربر، وليس فيه من العرب إلا القليل . وأول من دخل الأندلس (١) مع طارق بن زياد نحو ثلاثمائة من العرب وزهاء عشرة آلاف من البربر، فلما تم الفتح أرسل الأمويون قبائل من الشام أنزلوها فى كور مخصوصة من بلاد الأندلس، وجعلوا لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة . فنزل فى البيرة جند دمشق من مضر وجلهم قيس وأفناء (٢) قبائل العرب . ونزل رية جند الأردن وهم يمن كلهم . ونزل شذونة جند حمص وأكثرهم يمن . ونزل مدينة "الجزيرة" البربر وأخلاط من العرب قليل . ونزل فى جيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاط من العرب من معدّ واليمن . ونزل قبائل البربر بلنسية وأكشونبة، وفى باجة وتدمير جند مصر . وتمازج العرب بسكان البلاد، واغتبط هؤلاء بمقدم العرب، مؤملين السعادة فى أيامهم . وكانت البلاد قبل موافاة الفاتحين أصيبت منذ سنة ثمان وثمانين الى سنة تسعين بمجاعة شديدة، ثم وبئت حتى مات نصف أهلها أو أكثر . قال لسان الدين بن الخطيب : فلما استقر الفتح وبلغ حيث بلغ من التخوم، سكنت العرب الأقطار وتبوأت الديار، ثم دخلت بعد ذلك العرب الشاميون مع الأمير بلج بن بشر القشيرى فى عشرة آلاف فارس من أعلام أهل الشام، وتسمى الطالعة البلجية، فالداخلون مع موسى وطارق يسمون بالأندلس فى الرسوم والخطوط والإقطاعات بالبلديين، والداخلون مع بلج بن بشر يسمون بالشاميين .

وما لبث الإسبانيون أن أحسوا بالفرق بين حكم العرب وحكم الغوط "الويزغوت" ورأوا من تسامح الفاتحين وتفانيهم فى نشر العدل بين الناس ما يثلج له الفؤاد .

(١) غابر الأندلس وحاضرها للمؤلف . (٢) يقال أفناء الناس فنون الناس .

وأبقت العرب سكان البلاد على قضائهــم وإدارتهــم، وقلدوهم بعض الوظائف، ثم وسدوا اليهم الجليل منها، فأحب الاسبانيون العرب محبة خالصة . ورأوا البون الشاسع بين المدنية التى يحملها المسلمون، وما كان للغوط من الثقافة المتأخرة، وكانت أقرب إلى الهمجية، ولم يمض قرن حتى أخصبت القرى وكثرت المزارع[1]، واتصل العمران اتصــال الشؤبوب[2]، وتزاحم الناس بالمناكب فى المدن، وأمست قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسيــة كعواصم أوربا اليوم، تنار بالمصابيح ليــلا، ويستضىء المــاشى بسرجها ثلثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء، وأصبحت مبلطة أزقتها، مرفوعة قماماتها، وهى أول مدينة كان لها ذلك فى العالم . وغدت قرطبة عاصمة علم وصناعة وفن وتجارة، ولا تزال هذه المدينة قائمة، وهى اليوم عبارة عن مقبرة كئيبة، وكانت فى الدهر الغابر تضم مليون نسمة، ويتنزه المرء ساعات إذا أحب الوصول اليها . وقد تعــدّ الاستعاضة عن الهلال بالصليب فى مدينة قرطبة انتصارا عظيما للنصارى كما قال لبون، ولكن الهلال كان يحكم أغنى المدن وأجملها وأكثرها سكانا، والصليب اليوم لا يخفق إلا على بقايا كامدة من تلك المدينة الزاهرة .

وناهيك ببلدة بلغ عدد مساجدها ألفا وستمائة مسجد، وحماماتها ستمائة، وفيها مائتا ألف دار، وثمانون ألف قصر، ومنها قصر دمشق شيده بنو أمية بالصفاح والعمــد، حاكوا به قصرهم فى المشرق، وأبدعوا بناءه، ونمقوا ساحتــه وفناءه[3]. ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع، وفى ضاحيتهــا ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقيــه، وكان بالربض الشرقى من قرطبة مائة ومــبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى . هذا فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها . وكان فى مسجدها الذى بنى على طراز مسجد دمشق ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة، ولما زرناه فى سنة ١٩٢١ م كان فيه ٨٦٠ سارية .

(١) تاريخ العرب لسيديليو وحضارة العرب لجستاف لبون وغرائب الغرب للمؤلف .

(٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر وغيره . (٣) قلائد العقيان للفتح بن خاقان .

مدن الأندلس وعمرانها العربي :

ومن أهم مدن الأندلس على عهد العرب الجزيرة الخضراء، المَريّة، بَطليوس، برشلونة، بَسطة، باجة، قادس، شَنترة، شِلب، قلمرية، صَلمنقة، وهاتان المدينتان اليوم من مدن العلم فى اسبانيا والبرتقال . ومن مدنها جيان، غرناطة، وادى آش، وادى الحجارة، شاطبة، شريش، لشبونة، لوشة، لُورَقَة، مجريط، مالقة، ماردة، لاردة، مرسية، رُنْدة، رَية، شنترين، إشبيلية، شَذونة، طُرْطوشة، طركونة، طُليطلة، أُبَدة، ولنسية، بلنسية، أَرجذونة، أرجونة، فحص البلوط، الزهراء، لُبْلة، أُلب، أَخشنبة، قصر أبى دانس، يابرة، جليانة، طلبيرة، قلعة رباح، مدينة سالم، مدينة غالب، دانية، شقورة، قلعة حماد، تدمير، إستجة، قبرة، غافق، المدوّر، بياسة، قسطلة، المُنَكَّب، باغة، أندراس، أودربولة، جزيرة شقر، تُطيلة، قرقشونة، أُكشونبة، قسطيلية .

ومن المتعذر استقصاء أعمال الأندلسيين فى العمران، ووصف أبنيتهم وهندستهم وإبداعهم فى بناء مدينة الزهراء مثلا، وكانت على أربعة أميال وثلثى ميل من قرطبة . والزهراء من بناء الملك الناصر، وكان يقسم جباية البلاد أثلاثا فثلث للجند، وثلث مدخر، وثلث ينفقه على عمارة الزهراء . وكانت جباية الأندلس يومئذ خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن الستوق(١) والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار، وهى من أجمل بناء الأندلس وأجله خطرا وأعظمه شأنا كما قال مؤرخو تلك الديار. وما فتئت إلى اليوم بقايا قصور طليطلة وغرناطة وإشبيلية وغيرها موضع دهشة القادمين لزيارتها من الأمم الراقية . أما صناعاتهم وجميع أدوات ترقيهم فقد أدخلت فى الغرب أمورا لم يكن لأهلها عهد بمثلها، ونشروا العلوم والآداب وطبقوا العلم على الزراعة والصناعة، ولا تزال الى اليوم السدود التى أقاموها فى ولاية بلنسية شاهدة بتفوقهم،

(١) درهم ستوق كتنور وقدوس وتستوق زيف بهرج يلبس بالفضة .

يعيش الإسبانيون بفضل هندسة العرب العجيبة بعد جلائهم عنها منذ أكثر من أربعة قرون. وبفضل هندستهم كانت المياه تجرى الى كل مكان فى بسائط الجزيرة فتحمل الخصب والإمراع . وقد عم الذوق باللذائذ العقلية جميع طبقات المجتمع فى الأندلس، وغدت المنافسة الشريفة على أتمها، فكانوا يكتبون على جميع المصانع اسم من أمر ببنائها واسم بانيها، والأمة تمدح المحسن بها والمحسن لبنائها، ولم يبرح الغرب الى اليوم يدرس أصول بناء العرب، ويعجب بما نقشوه فيها من النقوش، وما عمدوا اليه من الزينة المشفوعة بالمتانة والعظمة . وقصر الحمراء وجنة العريف فى غرناطة، من آخر ما خلفه العرب من ذاك المجد المؤثل . وذكر بعض علماء الفرنجة أنه كان فى الأندلس على عهد الحضارة العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصنائع والعمل (وسكان إسبانيا اليوم نحو اثنين وعشرين مليونا وسكان البرتقال ستة ملايين) .

عمل العرب فى الأندلس :

غير عرب إسبانيا شكل الأندلس(١) فى بضعة قرون من حيث المادة والعلم، وجعلوها فى منزلة دونها جميع الممالك . قال لبون : ولكن هذا التبدل لم يتناول الماديات والعقليات، بل تعداها الى الأخلاقيات، فقد علموا وحاولوا أن يعلموا الشعوب النصرانية أثمن الصفات الإنسانية وأعنى بها "التسامح" ولقد كان من لطفهم مع الشعب الذى افتتحوا بلاده أن يعقد أساقفتهم مجامعهم الدينية فى إشبيلية سنة ٧٨٢ م وفى قرطبة سنة ٨٥٢ م وهذا من الأمثلة على حسن مأتاهم. ومنها تلك الكنائس والبيع الكثيرة التى شادها نصارى الإسبان فى العهد العربى فى إسبانيا،

(١) راجع غابر الأندلس وحاضرها للؤلف والسفر الى المؤتمر لأحمد زكى، وتاريخ العرب فى إسبانيا وتاريخ الأندلس لمحمد عبدالله عنان، ورواية آخر بنى سراج مذيلة بخلاصة من تاريخ الأندلس الى سقوط غرناطة لشكيب أرسلان، وحضارة العرب فى الأندلس لعبد الرحمن البرقوقى، ورحلة الأندلس لمحمد لبيب البتنونى، وبلاغة العرب فى الأندلس لأحمد ضيف وغيرها من أقلام المعاصرين .

وكل ذلك دليل على الحرمة التى كان العرب يعاملون بها المعتقدات التى جعلت تحت حماية قانونهم . وقد انتحل الإسلام كثير من النصارى على حين لم يكن لهم فى ذلك غير مصلحة ضئيلة ، لأن النصارى الذين كانوا فى الحكم العربى ، و يطلق عليهم اسم المستعربين ، كانوا يعاملون كاليهود أيضا على نصاب واحد من المساواة مع المسلمين ، و يمكنهم مثلهم أن يتولوا جميع أعمال المملكة ، وكانت إسبانيا العربية البلد الوحيد فى أوربا الذى كانت فيه حقوق اليهود مصونة حتى كثر فيها سوادهم . وكما كان يطلق اسم المستعربين على أبناء النصرانية الخاضعين لأحكام المسلمين فى الأندلس ، كان يطلق اسم المدجّنين على المسلمين الخاضعين لحكومة إسبانيا . وقال سيديليو ولبون وغيرهما كان العرب فى إسبانيا من حيث الأخلاق والعلم والصناعة أرقى من النصارى ، وكان فى أخلاقهم وصفاتهم شيء من الكرم والإحسان ، مما لم يكن له أثر عند غيرهم ، وفيهم الشمم الذى امتازوا به ، وكان الإفراط فى حبه مولدا لجنون البراز المشؤم .

ونشر العرب فى بلاد إسبانيا بما خصوا به من حسن المعرفة بالفلاحة وطرائقها المبنية على التجربة والمشاهدة ، ما هو العجب العجاب ، فزرعوا فلواتها ، وعمروا مدائنها ، و ربطوا علائق تجارية مع الأمم المجاورة ، فظهرت بها الرفاهية ، وصفا العيش ، وكانت أساطيلهم التجارية تقلع من مالقة و بجاية والمرية ولشبونة و برشلونة ، تحمل الى الشرق والغرب حاصلات الأندلس ، وتأتى من البلاد التى أرست فيها ما يلزمها . وأهم ما كان الأندلسيون يهتمون له ، خصوصا بعد أن قطعوا صلاتهم بالعباسيين ، أن لا تقصر بلادهم عن العراق وفارس والشام ومصر فى سلوك سبيل الإرتقاء . ولذلك كان كثير من خلفائهم يجعلون لهم عمالا فى عواصم الشرق ينسخون لهم الكتب التى تؤلف حديثا ، ليطلعوا على سير العلم فى العهد العباسى الأول والثانى ، و يبتاعوا كل ما تطول اليه أيديهم من الأسفار والطرائف ، لئلا يفوتهم شيء من علم علماء المشرق . على أن الرحلة فى طلب الحديث ما انقطعت

بين الأندلس والمشرق ، وكذلك المشارقة لم يغفلوا عن الرحلة الى تلك الجزيرة والأخذ عن رجالها، ونقل مافاتهم من علوم المغاربة .

ومن أجمل ماوصف به عرب الأندلس قول صاحب فرحة الأنفس: "أهل الأندلس عرب فى الأنساب ، والعزة والأنفة ، وعلو الهمم، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما فى أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية . وهنديون فى إفراط عنايتهم بالعلوم ، وحبهم فيها وضبطهم لها ورواياتهم . بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم، ونباهتهم وذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدّة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم . يونانيون فى استنباطهم للمياه ، ومعاناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه . وهم أصبر الناس على مطاولة التعب فى تجويد الأعمال وتحسين الصنائع، وأحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب".

العلم فى الأندلس :

أنشأ الأندلسيون فى كل ناحية المدارس وخزائن الكتب ، وأقاموا فى العواصم الجامعات التى كانت وحدها مواطن العلم فى أوربا زمنا طويلا ، ومما أعان على الاستكثار من الكتب ما كانت تصدره معامل شاطبة من الورق ، وبهذه الطرق الجديدة فاض النور على الرجال والنساء، وعلى الموافقين والمخالفين، حتى أصبحت قرطبة مدّة ثلاثة قرون أكثر مدن العالم القديم نورا . وكانت حضرة ملوكها وقصور خلفائها ، لكثرة عنايتهم بالعلم ، وحرصهم على استجلاب العلماء اليها من كل فج وصوب، أشبه بمجامع علمية، وقاعات خزائن كتبهم كأنها دور حكمة، فيها معامل كبيرة خصت بالنساخين والمجلدين والمذهبين والنقاشين . ومن خزائنهم ما كانت جرائد أسمائها تستغرق عشرات من المجلدات .

ولقد كان الحكم الثانى من أعظم المفضلين على الآداب، نشر العلم فى أمته حتى قل فيها الأميون وأنشأ فى عاصمته خزانة كتب فيها من عامة العلوم نحو أربعمائة ألف

مجلد، وربما كان أعلم أمير جاء فى الاسلام[١] . وكانت جامعة قرطبة فى أيامه أعظم جامعات الأرض تقرأ فيها العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والكيماوية . وكان عبد الرحمن الثانى عالما أديبا شاعرا يعرف علوم الفلاسفة .

ولما ملك الأندلس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من المرابطين انقطع اليه " من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار " وكان الفيلسوف ابن طفيل من رجاله هو الذى جلب اليه العلماء من جميع الأقطار، ونبهه على فضل ابن رشد الفيلسوف .

وكان لملوك الأندلس غرام باصطفاء كبار العلماء للوزارة، يشتملون على الدولة ويدبرون أمرها ، ومنهم من برزوا فى السياسة والإدارة وقيادة الجيوش تبريزهم فى العلم والأدب ، كابن زيدون وابن عبدون وابن أبى الخصال وابن خلدون وابن الخطيب وابن زهر وابن سعيد وابن عمار وابن الجدّ وابن أيمن وابن هود وابن سوار وأبى عبد الله الطاهر وابن فرج وابن لبون وابن رزين وابن أرقم وابن القلاس وابن غيطون وابن القاسم وابن زمرك وابن حزم وابن جبير وابن عبد البر وابن السيّد والبكرى وعشرات غيرهم، بيضوا وجه الأندلس . وجرى على هذه السنة الأمويون ثم المرابطون والموحدون ثم بنو الأحمر ، ومن تخلل هذه الدول الكبرى من ملوك الطوائف ، ونسجوا على أساليب الدولة العباسية والفاطمية والإخشيدية والطولونية والحمدانية والبويهية والسامانية والغزنوية وغيرها من دول المشرق .

كان عبد الرحمن الداخل بعد أن قطع صلاته بالعباسيين يريد الأندلسيين على أن يعتبروا إسبانيا وطنهم الحقيق ، ينفق دخل مملكته فى الأعمال النافعة ، لعدم احتياجها الى الجيوش الكثيرة والأساطيل البحرية ، وكان خلفاؤه يرون أبدا أن ينسجوا على منواله ، وصح أنه كان لبعض ملوكهم الخالفين جيوش دائمة تحت السلاح

(١) معلمة الاسلام .

مستعدة للوثبة عند أقل بادرة، مما لم يكن يعهد فى الغرب، ولم يعرف إلا فى بعض الأدوار عند ملوك الشرق . و بلغ من عز الاسلام فى عهد هشام الأموى، وكانوا يشبهونه بتقواه بعمر بن عبد العزيز، أن رجلا فى أيامه، كان أوصى أن يفك أسير من المسلمين من تركته، فطلب ذلك فلم يوجد أسير يشترى و يفك، لضعف العدو وقوة المسلمين .

ترجم عرب الأندلس كتب اليونان واللاتين فكان لهم من ذلك حظ لا يقل كثيرا عن حظ خلفاء العباسيين فى الشرق . ونجح العرب هناك من وراء الغاية فى دراسة الرياضيات والفلك والطبيعيات والكيمياء والطب، وكانت لهم المخابر والمصانع، ولم يقل نجاحهم فى الصناعة والتجارة عن دولة راقية من دول اليوم . فكانوا يبعثون بحاصلات المعادن ومعامل السلاح والحرير والجوخ والجلد والسكر والورق الى إفريقية وسائر المشرق، على أيدى تجار من اليهود والبربر. وأهم ما لإسبانيا اليوم من أعمال الرى هو من صنع العرب، فانهم أدخلوا الى سهول الأندلس الخصيبة زراعات منوعة، فأصبحت الأندلس جنة كبرى بفضل ثقافتهم العالية، وتناولت هممهم عامة فروع العلوم والصناعة والفنون، وكانت مشاريعهم العمومية على مثال مشاريع الرومان بعظمتها وفضل غنائها . وقد أنشأوا الطرق والجسور والفنادق للسياح، والمستشفيات والجوامع والرباطات فى كل صقع وناد، وكان الأمويون فى الغرب كالعباسيين فى الشرق يجددون عهد بركليس على ما قال رينالدى، وكان الحكم الثانى أكثر ملوك الأندلس اشتغالا بالعلم ونشره وعناية به، وأجودهم فى سبيله، فقد أسس فى قرطبة وحدها ٢٧ مدرسة كان يتعلم فيها أبناء الفقراء مجانا . و روى دوزى[1] أنه كان كل فرد من الأندلس يعرف القراءة والكتابة، بينا كان فى أوربا جميع النصارى حتى النبلاء والأشراف منهم، لا يفكرون فى التعليم . وأنشأ الوزير رضوان النصرى (٧٦٠ هـ) المدرسة بغرناطة ولم تكن بها . قال ابن

(١) تاريخ المسلمين فى اسبانيا لدوزى .

الخطيب وهو الرجل الذى قل فى الدول أمثاله ذكاء لم يكتسب من غير التجر والفلاحة مالا، وقد أقام من أعمال العمران ما يحسده عليه أعظم طواغيت الزمان.

يقول لو بس من علماء المشرقيات فى البرتقال[1] إن المتورين من مواطنيه البرتقاليين اليوم يقدّرون الأمة العربية المجيدة حق قدرها ويدرسون مآتيها فيما أبقته من آثارها الخالدة، ولا سيما هندستها فى المبانى التى أصبحت خاصة بها، تفتخر بها الشعوب المتمدنة لعهدنا وتعجب منها . قال : وتاريخ العرب حافل بذكائهم وتقدّمهم وسيادتهم فى كل العلوم والفنون حتى فى الزراعة فقد كانوا بعد غزوهم إحدى المقاطعات واضطرارهم الى خرابها ، يجعلون منها بعد سنين جنات حقيقية، وذلك بفضل مساعيهم وتفوقهم وتدابيرهم العجيبة .

ميزات الحكومات الأندلسية :

ويطول بنا مجال القول إذا حاولنا أن نعرض هنا ، لما خدم به الأندلسيون العلم على فروعه ، والأدب فى عامة ضروبه . فقد أشرنا إلى بعض ذلك فى فصول سابقة كمواطن العربية وأثرها فى اللغات الشرقية والغربية . وحال الغرب فى شباب الإسلام ، وأثر علوم العرب فى الغرب، وأثر شعر العرب وفنونهم فى الأمم الغربية، وتأثير العرب فى البلاد المغلوبة . ويهمنا هنا أن نرسم صورة من صور الأندلس وعمرانها على عهد العرب، لأن من هذه الجزيرة انبعث نور العرب فى غربى أوربا، كما انبعث من جزيرة صقلية إلى أواسط أوربا . وبذلك يثبت أن العرب إذا فتحوا جنوبى أوربا بجيوشهم ، فقد حملوا إليها جيوش علمهم وفنهم وصنائعهم ، يحيون موات تلك الأقطار البعيدة من دار أعرابيتهم، ويلقنون أهلها معنى الحياة الراقية ، ويذيقونها طعم السعادة . والعرب وإن كانوا الى قلة فى تلك البلاد، فقد أصلوا فيها حضارتهم ثمانية قرون . ولولا تخالف نشأ بين رجال الأمر فيهم، لظلوا

(١) تأثيرات سياحة لموسى كريم .

يحكمون تلك البلاد ، وينتجون ما ينفع الأرض وسكانها ، و إن حاربتهم كثير من أمم أوربا بتحمس الباباوات لها ، حتى تعاون الجميع على إخراجهم ، بعد أن قاموا بعملهم الشريف ، ونقلوا الى البلاد اللاتينية والجرمانية والانجليزية وغيرها بضاعة علمهم الزاخر وخلقهم الباهر .

قال بعض الباحثين من الفرنسيس : " لما استولى العرب على ناربون و بروفنسيا وغيرهما عمروهما فأحسنوا عمارتهما ، وكان شانجه أمير ليون يستشير بنفسه أطباءهم ، وممن تعلموا فى مدارس قرطبة لفنرار بل ولابيه دى كلونى . وأخذت فرنسا من العرب أساليبهم فى الزراعة ، وحفر الترع والخلجان ونظام الرى . و بلدوا فى الأندلس النباتات والأشجار التى لم تكن تعرفها ، فانتقلت الى أوربا ، وأتونا بصناعة السجاد و إنشاء السفن . وفى كنيسة سان تروفيم بأرل وسانت سيزر وسانت آن نموذجات من منسوجاتهم الثمينة للغاية ، وفى كنيسة سان بير بأرل نقوش عربية على غاية الجمال ، وقد أدخلت العرب الى بلادنا فى القرن العاشر النقوش الرومانية " .

ضعف السياسة العربية :

وأصاب الأندلس إدبار بعد ذلك الإقبال ، كان من نتيجة اختلاف أمرائها ، فسقطت سياستهم وإن لم تسقط مدنيتهم ، تفرقت كلمتهم حتى أمسى بعض عمال الولايات وقضاتها يحاولون أن ينعتوا بالملك أو الأمير لاستبدادهم بالأمر دون من ولاهم ، بل كثر فى بعض أدوارهم الطامعون من أدعياء الخلافة ، والراغبون فى التلقب بأمير المؤمنين ومن أمرائهم من كان " منكمشة ولايته ، قليلة جبايته ، فإن نظره لم يزد على امتداد ناظر " . وجاء زمن كما قال ابن حزم وطرطوشة وسرقسطة وأفراغة ولاردة وقلعة أيوب فى يد بنى هود ، و بلنسية فى يد عبد الملك ابن عبد العزيز ، والثغر أى ما فوق طليطلة من جهة الشمال فى يد بنى رزين وطليطلة فى يد بنى ذى النون ، وقرطبة فى أيدى أبناء جهور ، وإشبيلية فى يد

بنى عباد ، ومالقة والجزيرة الخضراء فى يد بنى برزال من البربر، والمرية فى يد زهير العامرى ثم ابن صمادح ، ودانيـة وأعمالها والجزائر الشرقيـة " الباليار " فى يد مجاهد العامرى، و بطليوس و يابرة وشـنترين ولشبونة فى يد بنى الأفطس، وقسمت الأندلس بعد سقوط الأمو يين الى تسع عشرة مملكة. منها قرطبة و إشبيلية وجيان وقرمونة والغـرب والجزيرة الخضراء ومرسية و بلنسية ودانيـة وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطليطلة ولشبونة وغيرها ، وكان ذلك بعد ذهاب الحكم من بنى أمية سـنة ٤٠٧ ولو لم يتداركها ملك الغـرب الأقصى ابن تاشـفين أواخر المئـة الخامسة لما بقيت فى أيدى المسلمين الى سنة ٨٩٧ هـ. ولو لم يقم فى سـنة ٦٣٥ رأس ملوك بنى الأحمر و يستولى على غرناطة، و يضم اليها بلدانا أخرى مهمة من أمهات مدن الأندلس فيجمع الشمل، لكان المتحتم انحلالها قبل الأوان .

وكان من اختلاف كلمة المتغلبين ووجودهم وسط أعداء أشداء يسعون كل يوم الى تأييد سلطانهم، والأخذ بالقديم من ثاراتهم، ما قبح أثره، وساء خبره ومخبره . كل هـذا وأمراء الطوائف ساهون لاهون " همة أحدهم كأس يشربها، وقينـة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه " و بلغ من تخاذلهم أن كان ملوك النصارى يأخذون الإتاوة من ملوكها قاطبة مدّة سنين طو يلة، وأن يلتجئ أحدهم الى عدوّه الإفرنجى ليعينه على أبيه وأخيه. ولذلك رأينا عرب الأندلس يهلكون لانقسامهم على أنفسهم، أكثر من هجمات الأجانب عليهم، والمرض الداخلى أشق من المرض الخارجى .

هذا ما كان من فساد سياسة الأندلس وهناك عوامل اجتماعية كان منها ضعف الأندلسيين . وقد أشار الى بعضها ابن خلدون فى المئة الثامنة فقال أنه ذهب من أهل الأندلس رسم التعليم وقلت عنايتهـم بالعلوم لتناقص عمرانهم بها منذ مئين من السنين، ولم يبق من رسم العـلم فيهم إلا فن العربية والأدب ، وأصبح الفقه رسما خلوا وأثرا بعـد عين، والعقليات لا أثر لها ولا عين ، فانقطع سـند التعليم بتغلب العدوّ على عامتها، وشغل الناس بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها، وأخذ القوم

يتشبهون بالجلالقة فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت . قال حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء .

الانحطاط وتعصب الاسبان :

أظننا الآن رسمنا صورة صغيرة من الأندلس فى حكم العـرب ، وما أنتجته من خير للمدنية فى تلك البلاد وما وراءها ، بقى أن نصف ما آلت اليـه حالة تلك الأمة مع خصيمتها لمـا ضعف أمرها . عمل العرب منذ فتحوا أرض الأندلس ما ينفع سكان البـلاد الأصليين ، وكانوا فى أيامهـم الطويلة التى دامت ما يقرب من عمر مملكة الرومان مثال المسامحة واللطف والحرية . ولمـا عاد النصارى فافتتحوا غرناطة آخر معقـل للاسلام فى أوربا[1] لم يروا الاقتداء بالتسامح الذى أظهره العـرب نحوهم خلال عدّة قرون ، بل كان منهم على الرغم من المعاهدات المعقودة مع المسـلمين ، أن اضطهدوا هؤلاء اضطهادا قاسيا ، ولم تصح عزيمتهم على طرد العرب طردا نهائيا إلا بعد قرن ، فكان التفوّق الفكرى فى العرب من موجبات بقائهم على رأس جميع الصنائع ، رغم ما نالهم من الاضطهاد . والحق مع الإسـبان فى اتهامهم العرب بالاستيلاء على الأعمال جميعها ، ولذلك طالب الشعب الإسبانى بطرد العرب فقط ، وأفرط رجال الدين فكانوا يقضون بتقتيلهم على بكرة أبيهـم ، يحاولون أن لا يبقـوا منهم ديارا ، وأن لا يعفى من هذا البلاء النساء والشيوخ والأطفال . واتخذ فيليب الثـانى طريقا بين بين ، مقتصرا فى سنة ١٦١٠ على إعلان طرد العرب ، ومصدرا أمره سرا ، بأن يذبح معظمهم قبل أن يتمكنوا من مغادرة أرض إسبانيا ، فأهلك نحو ثلاثة أرباعهم .

ولمـا انتهى الطرد والمذابح عمت الأفراح البلاد ، وظهر أن إسبانيا سـتدخل فى طور جديد ، وكان هذا التطوّر الجديد ، فنشأت نتائج عظيمة من هذه الإبادة

(١) حضارة العرب لجستاف لبون .

العامة التى لم يقع لها مثيل فى التاريخ . ترك فرديناند للعرب حريتهم الدينية وحرية لغتهم فى المعاهدة التى عقدها معهم، ومنذ سنة ١٤٩٩ بدأ عهد الاضطهادات ، فأخذوا يعمّدون أبناء العرب بالقوة ، مدعين أن العرب كانوا نصارى، وسيقوا الى ديوان التحقيق الدينى فأحرق منهم من استطاع أن يحرقه ، وسار هذا العمل ببطء للصعوبة فى إحراق عدة ملايين من الأنفس . فاقترح الكردينال رئيس الأساقفة لتطهير أرض إسبانيا من العنصر العربى — وكان هذا الكردينال الحاكم المتحكم فى ديوان التحقيق فى المملكة ومن كبار أهل الصلاح والتقوى — أن يقتل بالسيف جميع العرب الذين لم يدينوا بالنصرانية وفى جملتهم النساء والأطفال . وكان الدومنيكى « بليدا » أشدّ قسوة، فقضى أن يقتل العرب بدون استثناء، لأنه رأى أنه لا يتأتى أن يعلم إذا كان جميع المهتدين هم نصارى فى قلوبهم . ولاحظ، وهو على حق فيما لاحظ ، أنه من السهل على المولى أن يميز فى الدار الآخرة بين من يستحقون عذابه ومن لا يستحقونه . يقول فولتير لما فتحت العرب إسبانيا لم يرغموا قط النصارى الوطنيين على انتحال الإسلام، ولما استولى الإسبان على غرناطة أراد الكردينال كسيمنس أن ينصر كل العرب، دفعته الى ذلك غيرة دينية ، أو طموح إلى إنشاء شعب جديد يخضع لصولته، وأرغم خمسين ألف عربى على أن يحملوا رمز دين لا يؤمنون به .

يقول بليدا الدومنيكى إنه قتل ثلاثة أرباع من جلوا من العرب فى طريقهم الى دار هجرتهم، فقتل مئة ألف من حملة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألفا وذلك فى الطريق الى إفريقية . وفقدت إسبانيا فى بضعة أشهر مليونا من رعاياها . ويقول سيديليو ومعظم المؤرخين إن عدد من فقدتهم إسبانيا بلغ ثلاثة ملايين، وذلك من فتوح فرديناند الى طرد العرب الطرد الأخير . وذكر فاريتى[١] وهو من أعظم مؤرخى إسبانيا أنه نفى من إسبانيا فى مختلف العصور مليونان من اليهود، وثلاثة

(١) ديوان التحقيق لمحمد عبد الله عنان .

ملايين من العرب والعرب المتنصرين "الموريسك" ، وبلغ من هلك من المتنصرة أو استرق منهم أثناء هـذه الفاجعة زهاء مائة ألف . قال لبون : إذا قيست مذبحة سان بارتلمى بمثل هـذه المجازر عدّت مناوشة لا شأن لها ، ولم يحدث من أشـدّ الفاتحين توحشا وأقساهم قلبا ، حادث مثل هذا نسب اليه ما نسب لهذه المذابح الثلاث ، ومن سوء حظ إسبانيا أن هذه الثلاثة ملايين من الرعايا التى حرمتهم إسبانيا باختيارها كانوا يؤلفون الطبقة العالية فى العلم والصنائع .

ومع أنه كان فى معاهـدة تسليم غرناطة[(١)] شروط كثيرة لحماية أنفس المسلمين وأموالهم و إطلاق الحرّية الدينية لهم ليقوموا بشعائر دينهم على مايحبون لم تنفذ هذه الشروط زمنا طويلا ، وبدأ التنصـير فى غرناطة بتحريض الكردينال سيزمروس ورئيس الأساقفة فيها منـذ سنة ١٤٩٩ وأخذ هـذا الكردينال يدعو المسلمين الى انتحال النصرانية بالمواعظ والخطب ، ثم حاول أن يرفع ما أمكن الكتب العربيـة فى مختلف فروع العلوم الإسلامية فأمر بإحراقها فثار المسلون فى البيازين والبشرات والمرية وباجة وقادس ورندة . ورأت إسبانيا فى سنة ١٥٠١ أن تخير المسلمين بين الهجرة أو التنصر، والظاهر أن هذا الأمر لم يطبق بحذافيره وظل المسلمون فى الجبال فى حالة أشبه بنصف استقلال أكثر من نصف قرن ، ثم نصر جميع المسلمين فى قشتاله وترك مسلمو أرجون ثم تنصر كثير من المسلمين فى شنت مارية الشرق على الوادى الكبير فى السنين الأولى من القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٦٦ صدرت أوامر مجريط تحظر على من بقى من المسلمين فى إسبانيا استعمال اللغة العربية وكان ضعف أمرها حتى بين المسلمين ، وأمروا بأن يتركوا شعائرهم وينزعوا لباسهم ويبدلوا طراز معيشتهم ، فثار المسلمون فى غرناطة والبشرات ودامت الحرب سنين حتى صدر الأمر الأخير بطرد العرب سنة ١٦٠٤ فرحل فى سنتين عن إسبانيا نحو نصف مليون مسلم وطويت صحيفة الإسلام فى شبه جزيرة الأندلس .

(١) معلمة الإسلام مادة موريسكو .

أما بلاد البرتقال ، أو القسم المعروف بالأندلس أيضا من ديار البرتقال ، فقد استولى عليها العرب عدّة سنين وتخلوا عنها ثم عادوا اليها ، ولما جلا العرب من لشبونة قبل جلائهم عن غرناطة بزمان طويل عاملهم البرتقاليون بمعاونة[1] قرصان من الفرنسيس والإنجليز والنورميين والألمان والبليجيكيين معاملة قاسية : قتلوا الأطفال والرجال ، وسبوا الأعراض ودنسوا كل شيء وأحرقوا أقوات المدينة ، فهلك نيف وعشرون ألف نسمة . ذكر ذلك المؤرخ البرتقالى هركولانو مستشهدا بمؤرخى البرتقال . ولما أراد الإفرنج القضاء على دولة الموحدين بالأندلس (٦٠٥ هـ) نادى البابا بالحرب المقدّسة فخفت جيوش النصرانية من إيطاليا وفرنسا وألمانيا واتحدت قوّاتها باسبانيا وتم للأسبان ما أرادوا .

أباد الاسبانيون فى الأندلس كل أثر للعرب ، فخربوا بيوتهم بأيديهم ، ومن أهم ما قضوا عليه كتب العرب فقد أمر[2] الكردينال كسيمنس — أعدى عدوّ للاسلام والمدنية — فى سنة ١٥١١ بعد أن أحرق فى ساحات غرناطة كمية من كتب العرب ، ولا سيما المصاحف المخطوطة ، أن تباد كتب العرب من بلاد إسبانيا عامة ، فتم ذلك بغيرة عمياء مدّة نصف قرن ، ولولا تلك المترجمات الى العربيــة واللاتينية لقضى على الحضارة العربية بجملتها . وكاد ديوان التحقيق الدينى الذى أخذ على نفسه إبادة كل أثر للعرب أن يجعل طعاما للنار تلك المخطوطات العربية التى حفظت فى خزائن كتب الأسكوريال ، لولا أن تلطف المركيز فيلادا وحال دون إحراقها .

قام العرب بصنيعهم من تمدين إسبانيا قرونا طويلة ، ونقلوا المدنية الى الممالك الأخرى ، فكان جزاؤهم يوم ضعفت سياستهم ، أن يقتلوا شر قتــلة ، وتباد آثارهم أى إبادة ، ولم يستفد قطر من أقطار الغرب ما استفادته إسبانيا من العرب ، ولما جلوا عنها نعق فيها غراب الدمار وفقدت صنائعها وزراعتها وعلومها ، وأصبحت

(١) تأثير سياحة لموسى كريم .

(٢) إسبانيا والعمران العربى لكاباتون فى مجلة العالم الإسلامى الفرنسية .

إسبانيا بعد مدّة من خروج العرب أحط بلاد الغرب . قال ستانلى لانبول : " إن فضـل مسلمى الأندلس يتجلى فى همجية الاسبان وتراجعهم فى مراقى النجاح، بعد أن خلت أرضهم من الاسلام " وقال لبون : " ظن الكردينال كسيمنس لمـا أحرق فى غرناطة كل ماطالت يده اليه من مخطوطات العرب وكانت ثمانين ألفا — عدا ما أحرق فى المدن الأخرى — أنه يحذف الى الأبد من كتّاب التاريخ ذكرى أعداء دينه ، ولكن الأعمال التى قامت على أيديهم فى تلك الأرض تكفى لتخليد ذكرهم على الدهر ، وان نفدت آثارهم المكتوبة " .

مدنية العرب فى جزيرة صقلية

العرب فى حوض البحر المتوسط وغزو صقلية :

قلنا إن البحر المتوسط غدا لغزوات العرب بحرا عربيا منذ أوائل الفتح كبحر فارس و بحر الظلمات والمحيط الهندى . وغلب المسلمون كما قال ابن خلدون على هذا البحر " يعنى بحر الروم أو البحر المتوسط " من جميع جوانبه " وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم . فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة و يابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج" قال : " والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على الأكثر من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الاسلامية تجيز البحر فى أساطيلهم من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الافرنج وتثخن فى ممالكهم ، كما وقع فى أيام بنى أبى الحسين ملوك صقلية القائمين بدعوة العبيديين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقى من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها . وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد بفريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدّة وعددا ، واختلفت فى طرقه سلما وحربا ، فلم تسبح فيه للنصرانية ألواح" .

وهذا أجمل وصف لحال البحر المتوسط وما آل اليه فى الاسلام . وقد غزا العرب جزيرة صقلية أكبر جزائر هذا البحر فى خلافة عثمان يوم قضى أسطول معاوية بن أبى سفيان على الأسطول الرومى فى لجة الاسكندرية (٦٥٤ م) وهى

غزوة الصواري (٣٤ هـ) . وكان قسطنطين بن هرقل فى ألف مركب ويقال فى سبعمائة والمسلمون فى مائتى مركب ونحوها فانهزم الروم . وغزاها عبد الله بن قيس الفزارى[(١)] من قبل معاوية بن حُدَيج الكندى ففتح وسبي وغنم وذهب اليها عبد الله بن قيس لكشف حالها سنة ٤٥ للهجرة (٦٦٥ — ٦٦٦ م) ثم وافاها لهذا الغرض غير واحد من القوّاد فى أوقات مختلفة وكان مما غنم عبد الله بن قيس من صقلية أصنام من ذهب وفضة مكللة بالجواهر، فحملها معاوية بن أبى سفيان من دمشق ، وأنفذها الى البصرة ومنها الى الهند لتباع فيها، لأنه رأى بيعها قائمة أكثر لثمنها، ولم يبال انتقاد المنتقدين له من المسلمين[(٢)] . وأخرج معاوية الخمس من الغنائم ووجهه الى عثمان وكتب اليه بسلامة المسلمين و بما كان من أمر صقلية، ففرح الخليفة بذلك . ولم تزل صقلية تغزى فى أوقات مختلفة، ويكون المتعهد لغزوها صاحب تونس . غزاها عياش بن أخيل من جماعة موسى بن نصير أواخر المئة الأولى ، ومحمد بن يزيد الأنصارى أوائل المئة الثانية، وغزاها وسردانية بعد الثلاثين ومائة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى، وغزاها ابن الأغلب الى أن استقر فيها المسلمون سنة ٢١٢ هـ على يد أسد بن الفرات، أرسله اليها زيادة الله بن الأغلب

(١) معلمة الاسلام — مادة صقلية ، والمكتبة الصقلية لأمارى ، وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب، وأحسن التقاسيم للمقدسى ، والخلاصة النقية فى أمراء إفريقية للباجى ، وبالفرنسية استيلاء المسلمين على صقلية لحسن حسنى عبد الوهاب ، وبلرم وصقلية لشارل دييل .

(٢) يعدّ عمل معاوية فى بيع الأصنام قائمة من الارتقاء الفكرى فى العرب . فقد ذكر التاريخ أن من جملة الغنائم التى وقعت فى أيدى الفاتحين قطف كسرى، فلم تعتدل قسمته مع سعد بن أبى وقاص وأرسل به الى عمر فقال : "أشيروا على فى هذا القطف ، فأجمع ملاؤهم على أن يكون له فأبى ، فقام علىّ حين رأى عمر يأبى قبول البساط ، فقال : لم تجعل علمك جهلا ، ويقينك شكا ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت ، قال صدقتنى ، فقطعه فقسمه بين الناس فأصاب عليا قطعة منه ، فباعها بعشرين ألفا ، وما هى بأجود تلك القطع . وكان هذا القطف ستين ذراعا فى ستين ذراعا بساطا واحدا مقدار جريب ، فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدر وفى حافاته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك .

من تونس فى عشرة آلاف مقاتل ومائة سفينـة ثم عززها بعشرين ألف مقاتل وأسطول ضخم مؤلف من ثلثمائة سفينة، ولما تم الفتح كتب زيادة الله الى المأمون العباسى فى بغداد يبشره به،ودام حصار بلرم عاصمة الجزيرة خمس سنين (٢١٥ — ٢٢٢ هـ) وغزاها ابن الأغلب فى سـنة ٢٤٤ ، وغزاها الواثق العبـاسى وافتتح مدينة مسينة سنة ٢٢٩ وعبد الله المهدى سنة ٣٠٤ لأن أهلها خالفوه فهدم سورها، وفتحها المعزسنة ٣٤٥ ،وافتتح بعض مدنها على بن يوسف بن تاشفين بعد سنة ٥١٥

يقول المؤرخ الانكليزى سنجر(١) إن صقلية دانت للعرب بعـد أن كانت تحت حكم الإمبراطورية البيزنطيـة ، وسقطت بلرم عام ٨٣١ وكان النصر حليف الهلال الذى امتد سلطانه عام ٨٤٦ الى رومية نفسها ، كما سقطت من قبلها طارانت عام ٨٤٠ وتم امتلاك العرب ولايات جنوبى إيطاليا، كما استسلمت نابل وسالرن . أما مونت كاسـينو المشهور بدير الرهبان البندكتيين العظـيم الواقع فى موقع حصين على بعد ٢٥ ميلا الى الداخل و ٧٠ ميلا من سالرن فوقع فى قبضة العرب سنة ٨٨٤ وبهذا تم فتح العرب هناك .

العرب فى جنوبى ايطاليا :

ويطيب لنا أن نقف هنا وقفة قصـيرة بعد أن عرفنا استصفاء العرب جزيرة صقلية ، ورسوخ أقدامهم فيها أكثر من قرنين، لنعرف اذا كانت هممهم فى البحر الرومى وقفت عنـد حدّ ما فتحوه من الجزر والبلدان والحصون ، أم أنهم تعدّوها الى ما وراء ذلك، فالتاريخ يحدّثنا أنهم استولوا على عدّة ولايات من جنوبى ايطاليا وكانوا يطلقون على أرض ايطاليا البر الطويل أو الأرض الكبيرة وقد أخذوا قلورية واستولوا على طارنت وبارة وريو وغيرها من بلاد انكبردة وپوليه وفتحوا جنوة ووصلوا الى رومية .

(١) مجلة الهلال المجلد الحادى والأربعون .

يطلق اسم لنكبردة (Longbardia) أو (Langobardia)[1] ، أو لمبارديا (Lombardia) عند الإيطاليين على عدّة مدن : (١) مملكة لنكبردة الإيطالية أى الدولة التى أنشأها الغزاة من اللنكبرديين التى دامت من سنة ٥٦٨ — ٧٧٤ م. وكانت فى أيام عظمتها عبارة عن إيطاليا الشمالية (ماعدا البندقية وايستريا ونيابة راقّنا اليونانية، وهى جزء عظيم جدا من إيطاليا الوسطى وإيطاليا الجنوبية ما عدا إقليم نابل وقلورية). (٢) مجموع الدوقات اللنكبردية التى بقيت بعد سقوط مملكة لنكبردة أى دوقيات بنفنتو (Benevento) وكابوا (Capua) وسلرن (Salerne) فى إيطاليا الجنوبية . (٣) ما يعرف عند اليونان باسم لابوكليا (بوليه أو أبوليه) وقد عادوا الى استخلاصها أواخر القرن العاشر . وتبدّل اسم لنكبردة فى العهد الحديث باسم لمارديا وهى تتناول الإقليم الذى كان منه نواة مملكة لنكبردة القديمة ، وهذا الاسم اليوم يطلق على مجموع ولايات ميلانو وبركامو وبرشيا وكومو وكريمونا ومانتوڤا وباڤيا وسوندريو وفاريسى ، ويطلق الشريف الإدريسى على هذه الولايات اسم « أنبرضية » .

وقد كانت جميع إيطاليا الجنوبية فى القرن التاسع من الميلاد داخلة فى الإمارة اللنكبردية المعروفة بامارة بنفنتو الملاصقة من الشمال دوقيتى رومية وسبولتو (Spolto) بمعنى أن الحدّ الشمالى من الإمارة يبتدئ من مصب نهر ترنيو فى بحر الأدرياتيك (جون البندقية) واصلا الى تراسينا فى بحر ترانو أوتيرين تاركا للامارة الأرض الشمالية من ايزرينا وكاسينو وسورا، وتتصل الإمارة من الجنوب بمعظم بلاد أپوليه أو پوليه (Pouille) أو (Puglia olpoulia) ويدخل فيها أرض طارنت وبرندزى وبارة (Bari) وجميع بلاد قلورية[2] الشمالية الى جنوب أرض كوزنزا وكانت الأجزاء الجنوبية

(١) معظم هذه المعلومات عن احتلال العرب جنوبى ايطاليا تفضل بها صديقنا كارلو نالينو أحد علماء المشرقيات فى ايطاليا . (٢) قلورية بكسر القاف وفتح اللام وإسكان الواو وكسر الراء والياء ومنهم من يشدّد الياء كما ضبطها ياقوت ومن جغرافيى العرب من سموها قلفريه وهى (Calabre) .

من أرض أبوليه وقلورية تعدّ من مملكة بيزنطية واحتفظت الثلاث دوقيات الواقعة على بحر تيرانو وهى غايتا ونابل وامالفى باستقلالها فلم يكن لإمارة بنفنتوسلطان عليها، وهى مرتبطة بالاسم بمملكة الروم البيزنطية. واضطرت دوقية نابل دفاعا عن نفسها من مطامع أمراء بنفنتو الى أن تحالف العرب فى صقلية سنة ٨٣٥، وقد دامت هذه المحالفة الى سنة ٩٠٠ م .

وحدثت مذابح عظيمة بين أميرين من أمراء تلك الأرجاء سنة ٨٣٩ فاضطر كلاهما أن يفزع الى حماية الجيوش العربية، ثم تصافيا فى سنة ٨٤٩ على تقسيم الامارة الى قسمين: أطلق على القسم الشرقى منها إمارة بنفنتو، وعلى القسم الثانى الشرقى إمارة سالرن . وتولى المسلمون فى بلرم عاصمة جزيرة صقلية غزو البحر من ناحية ايطاليا الشرقية وفى سنة ٨٣٨ احتلوا برندزى، فحاول أمير تلك الجهة أن يدفعهم عنها فما استطاع الى ذلك سبيلا، ثم بلغ المسلمين أنه يعدّ حملة عظيمة فأحرقوا برندزى وعادوا الى صقلية على مراكبهم . واحتل عرب صقلية طارانت سنة ٨٤٠ م وهى قاعدة بحرية مهمة فى بحر الأدرياتيك، ثم خلفهم فيها بعد حين عرب جزيرة اقريطش (كريت ٨٤٢ أو ٨٤٣ م) .

وخاف البنادقة على تجارتهم ودفعهم امبراطور الروم تيوفيل الى حرب العرب، فجهزوا أسطولا مؤلفا من ستين مركبا فأقلع الى صقلية والتقى بالأسطول الاسلامى أمام طارانت فهلك معظم البنادقة وأسر من ظل حيا، وتقدّم المسلمون بأسطولهم نحو الجزء الشمالى من بحر الأدرياتيك من نحو دلماسيا فنهبوا وأحرقوا (٨٤٠ م) مدينة أوسرو فى جزيرة كرسو، واجتازوا البحر فى العرض نفسه فأسروا أناسا من أنكونا، ولما عادوا الى مستقرهم غنموا عدّة سفن للبنادقة . وهذه الغزوات هى التى أشار اليها ابن الأثير فى حوادث سنة خمس وعشرين ومائتين فقال إن أسطول المسلمين سار الى قلورية وفتحها، ولقوا أسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال فعاد الأسطول الى القسطنطينية مهزوما فكان فتحا عظيما . ويقصد بقلورية الجزء الذى

يسمى اليوم شبه جزيرة سالانتينا ، وهو الجزء الجنوبى من ايوليه وفيه طارنت وبرندزى .

ودخل العرب فى سنة ٨٤١ خليج كارنارو وهزموا أسطول البنادقة شر هزيمة بالقرب من جزيرة سانسغو. والظاهر أن قوات العرب فى صقلية انضمت هذه المرة الى قوات عرب أقريطش فاستولوا على بارة وأحرقوا مدينة كابوا . ثم قويت المنافسة بين الأميرين الحاكمين على تلك الأرجاء من الطليان، فلجأ أحدهما الى العسكر الاسلامى من الإفريقيين، واعتصم الآخر بالمسلمين من أهل أقريطش . وعاد المسلمون فاحتلوا طارنت مرة ثانية فى تلك السنة . وتبدلت الحال فى سنة ٨٤٩ م بين المتنازعين على الإمارة ثم تصالحا واقتسما إمارة بنفنتو مشترطين أن لا يلجأ أحدهما الى المسلمين . وقتل القائد المسلم وجنده فى معسكر ملك فرنسا لويز الثانى سنة ٨٥١، ثم عاد العرب فحاصروا طارنت بأمر العباس بن الفضل الذى أسكن المسلمين فى أرض قلورية (٢٢٥ هـ) .

وظلت بارة إمارة إسلامية تواتر غزواتها على الأصقاع المتاخمة . وفى تلك الحقبة فى الغالب سار المفرّج بن سلام وفتح أربعة وعشرين حصنا استولى عليها كما قال البلاذرى وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الامام على ناحيته ويوليه إياها ليخرج من حدّ المتغلبين، وبنى مسجدا جامعا . ولعل هذا الفاتح كان من أهل اقريطش لاصلة له مع الأغالبة فى إفريقية فعمد الى الخلافة العباسية فى بغداد يراجعها مباشرة لتصح ولايته . والغالب أن سلطة المفرّج بن سلام امتدّت الى سائر بلاد أپوليه ثم قام الأمير سَعْزان وأخرب ايطاليا الجنوبية ووصلت غاراته الى جنوبى نابل وسالرن واشتهر بالاثخان فى أهلها الى أن جاء لويز الثانى ملك فرنسا فنزل ايطاليا وفتح بها سنة ٨٧١ مدينة بارة، وقتل كثيرا من المسلمين وبذلك انتهت مدّة حكم العرب فى بارة بعد أن دام تسعا وعشرين سنة (٨٤٢ — ٨٧١م) ولم يخلف المسلمون شيئا

فى تلك الأرجاء من آثار علمهم وصنائعهم كما كان منهم فى جزيرة صقلية لأن مقامهم فيها لم يطل .

فالعرب أنشأوا والحالة هذه إمارة فى بارة ، وكانت العراك بينهم و بين النصارى من أهل جنوبى إيطاليا على أشدّه من سنة ٨٧٥ الى ٩٠٢ م وأنشأوا إمارة صغرى فى سنة ٨٨٣ م فى البلاد الواقعة فى مصب نهر كاريكليانو (Garigliano) فى بحر تيرين (شرقى غايتا أو بحر طسقانة قديما) ودامت هذه الدولة الى سنة ٩١٥ م . واستولت العرب على جنوة سنة ٣٢٣ ه . ثم رحلوا عنها بعد أن نهبوها، واحتلال المسلمين إقليم قلورية كان متقطعا، انتقلت عدّة أماكن ومقاطعات منها من أيدى العرب الى أيدى النصارى و بالعكس، ولم يحتل العرب رومية ولا نهبوها بل بلغوا ربضها فى سنة ٨٤٦ م ونهبوا بيعتى القديس بطرس والقدّيس بولس، وكانتا إذ ذاك خارج أسوار المدينة، وانهال عليهم أهل القرى فاضطروا الى الرجوع عنها . و بنى الحسن ابن على فى ريو (Reggio) مسجدا كبيرا وجعل فى أحد أركانه مأذنة وشرط على الروم أن لا يمنعوا المسلمين من عمارته و إقامة الصلاة فيه والآذان وأن لا يدخله نصرانى، ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو آمن سواء كان مرتدا أو مقيما على دينه، و إن خربوا حجرا منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وافريقية وأن الروم وفوا بهذه الشروط كلها، بيد أن مسجد ريو لم يدم عامرا غير أربع سنين .

تقويم جزيرة صقلية وعمل العرب فيها :

طول هذه الجزيرة بحسب تعريف القدماء سبعة أيام فى أربعة أيام، تدار فى خمسة عشر يوما ، ومساحتها السطحية ٢٥,٧٤٠ كيلومترا مربعا على اصطلاح المحدثين . وكانت فى كل أدوارها مطمح أنظار الفاتحين من الدول البحرية، لأنها من أهم منازل الاتصال بين إفريقية وأوربا وآسيا . وقالوا إنه كان فيها آخر أيام العرب مائة بلد وثلاثون بلدا بين مدينة وقلعة غير مابها من الضياع والمنازل والبقاع .

ومن مدنها الخالصة، أطرابنش، مازر، جرجنت، بُثَيرة، سرقوسة، قطانية، بطرنوا، ميقُس، مسينة، رمطة دمنس، قلعة القوارب، قلعة الصراط، قلعة البلوط، قلعة أبى ثور، بطرلية، ثرمة، قرليون، برطفيف، برطنة.

ولما استولى الفاتحون من العرب على صقلية تركوا لأهلها عاداتهم وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة[1]، واكتفوا منها بجباية قليلة، وكان مقدارها أقل مما كانت عليه على عهد اليونان، وأعفوا منها الرهبان والنساء والأولاد، وحافظوا على جميع الكنائس التى وجدوها لكنهم لم يسمحوا بإنشاء غيرها، على خلاف ما جروا عليه فى الأندلس، وعمدوا الى الزراعة والصنائع فأحيوها. وأدخلوا فى الجزيرة أصنافا من الزراعة لم تكن تعرفها، ومنها البردى والمران، وأقاموا المجارى التى لم تبرح ماثلة للعيان، وعلموا الناس عمل القنى ذات الأنابيب العقف "السيفونات"، وكانت قبلهم غير معروفة، وأنشأوا فى الجزيرة مصانع لصنع الورق، ومنها انتشرت صناعة الورق فى إيطاليا. وعدّنوا مناجم الجزيرة وفيها الذهب والفضة والشب والكحل والزاج والحديد والرصاص والنوشادر. وعلموا أهلها صنع الحرير، وفى مدينة نورمبرج اليوم رداء حرير كان لملوك صقلية، وفيه كتابة بحروف كوفية تاريخها سنة ٥٢٠ مما يدعو الى الاعتقاد بأن صناعة صبغ الأقمشة انتشرت فى أوربا من صقلية. ومن مصانعهم كانت تصدر الأقمشة[2] المحلاة بالجواهر والطنافس المصورة أنواع الصور، والجلد المدبوغ، والحلى البديع الذى كان يعمل فى مصانع بلرم ومازر، وكان مما يتنافس فيه، وله الصيت الذائع فى قصور الملوك فى الشرق والغرب. وكانت التجارة قبل العرب ضئيلة جدا فى هذه الجزيرة، فأصبحت على عهدهم متشعبة النواحى غزيرة المواد، والعرب يصنعون سفنهم فى دور الصناعة فى تونس وبعض موانى الجزيرة.

---

(١) حضارة العرب لجستاف لبون ومحاضرة لو يجى رينالدى (المقتطف م ٥٩).

(٢) الإستيلاء الإسلامى على صقلية لحسن حسنى عبد الوهاب.

ويقول دييل إن العرب حملوا معهم الى جزيرة صقلية مظاهر غريبة من فنهم ، وقناطرهم العالية الجميلة ، ونقوشهم من المقرنصات ، وجمال قاشانيهم ذى الميناء ، وفسيفساءهم المعمولة من الرخام الملون ، وصورهم الجميلة ، وبهيج صناعاتهم الصادرة عن علمهم ، وهى من الأعمال الخاصة بالمترفين وأرباب النعيم ، وكل ذلك لم يضمحل كل الاضمحلال ، لما استولى على الجزيرة سادة جدد بعد أمراء المسلمين . فإن مصانع الدور العربى كانت مثالا ينسج عليه فى إقامة مصانع العهد النورمانى ، وكان المهندسون والبناؤون من العرب الذين عملوا للأمراء وحملوا الى ملوك النورمانيين علومهم وإرث تقاليدهم ، ولكنهم كانوا أسعد ممن سلفهم ، ذلك لأن الحظ حظهم ، فكانت أعمالهم أكثر خلودا وبقاء . وقال أيضا لما سقطت بلرم فى أيدى العرب سنة ٨٣١ م . لم يكن فيها سوى ثلاثة آلاف نسمة ، فلما غدت عاصمة أمراء المسلمين دخلت حالا فى مضمار الفنون ، وكانت خلال عدة قرون فى درجة عالية من الحضارة لم يسمع بمثلها .

وقال إن العرب فى صقلية خلفوا اليونان ، وفى خلال قرنين كانت لهم حكومة ذات مجد ورقى ، وأدخلوا الى صقلية العنصر الإسلامى الذى زاد كثيرا فى الغرب وفى وسط الجزيرة ، فأصبحت نصف صقلية أواخر القرن الحادى عشر من العرب وباقيها من اليونان . قال ثم سار النورمان فى صقلية على سياسة لم يجعلوا بها فارقا بين الكاثوليك واليونان والمسلمين ، على نحو ما فعل النورمان فى الشام بعد قليل ، عرفوا كيف يقتبسون العادات ويتخلقون بأخلاق رعاياهم ، مراعين كلا منهم ، موزعين فيهم عطاياهم على السواء ، وهكذا ظلوا نورمانيين بأصولهم وغدوا بيزنطيين وعربا بمدنيتهم ، وكانوا فى وسط القرن الحادى عشر مثالا جميلا نادرا فى باب التسامح السياسى وعدم التحزب الدينى .

ويقال على الجملة إن العرب استولوا على صقلية فى زمن كانت تتلألأ فيه مدنيتهم فى الشرق والغرب ، فنقلوا إليها كل علومهم وصنائعهم وعوائدهم وآدابهم .

وكان الرعايا المغلوبون على أمرهم يعيشون كما قال آمارى فى كتابه " المسلمون فى صقلية" فى راحة وسرور على عهد حكامها من أمراء المسلمين، وحالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير اللنجورمانيين ، والفرنجة . وقال توفنر (١) : منذ الفتح الإسلامى الى القرن التاسع عشر لم يبرح الشعب النصرانى فى صقلية ينتقل من يد غريبة الى يد مثلها غريبة وما استطاع أن يحكم نفسه بنفسه، وقد بلغ أعلى درجات حضارته بعد القرن الرابع على عهد حكومة المسلمين غير النصارى وعلى عهد النورمانيين الذى دانوا بالنصرانية حديثا .

عمران صقلية :

ولقد استكثر المسلمون فى جميع بلاد صقلية من الجوامع ، ومنها ما كان من الطراز الجميل وقد وصف الإدريسى والقزوينى وابن حوقل وياقوت ما كان فى هذه البلاد، فقالوا كانت صفة الجامع الأعظم فى بلرم " تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المفتعلة والمستخبة والمخترعة . ومن أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات" وكان فى بلرم نيف وثلثمائة مسجد وقد كثرت الجوامع فى أكثر المدن مثل قطانية، وكان فى قرية البيضاء مائتا مسجد قال ابن حوقل : " ولم أر مثل هذه العدّة فى بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولا سمعت به" ووصف الإدريسى مدينة بلرم فقال : " ان بها أحسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها، فى بنائها ودقائق صناعاتها ، وبدائع مخترعاتها، وهى على قسمين قصر وربض . فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد وإقليم، وهو فى ذاته على ثلاثة أسمطة: فالسماط الأوّل يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة، وكثير من المساجد والفنادق والحمامات ، وحوانيت التجار الكبار ؛ والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور سامية ومباذ فاخرة عالية " . وكان للسلمين فى القرن

(١) فلسفة التمدن لتوفنر ..

الحادى عشر فى كل مدينة من مدن صقلية أحياء خاصة ينزلونها ، ولهم أسواقهم وحكامهم وحرياتهم ، والجوامع مفتحة ، والحرية الدينية شاملة ، والكنائس تناوح الجوامع .

رجال صقلية :

أخرجت صقلية جملة من العلماء والمحدثين والفقهاء والأدباء والأطباء والفلاسفة ، وكان فى طليعتهم أسد بن الفرات وهو من أصحاب مالك ، وأسد بن الحرث صاحب الأسديات فى الفقه وكان من أعيان الكتاب ، والقاضى ميمون بن عمر ، وابن حمديس الصقلى الشاعر المبدع صاحب الديوان ، وهو القائل عند الجلاء يذكر صقلية :

ذكرت صقلية والأسى * يهيج للنفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنة * فإنى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا * ء حسبت دموعى أنهارها
ضحكت ابن عشرين من صبوة * بكيت ابن ستين أوزارها

ومن رجال صقلية أبو عرب الصقلى وابن بشرون وابن الفحام والشريف الإدريسى وابن ظفر وابن القطاع صاحب الدرّة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة جزيرة صقلية ، أورد فيه مائة وسبعين شاعرا . والحسن بن يحيى يعرف بابن الخزاز وهو صاحب تاريخ صقلية ، وللجغرافى ابن حوقل كتاب فى محاسن أهل صقلية وكان زارها فى سنة ٣٦٢هـ . ومنهم ابن سابق وعيسى بن عبد المنعم وابنه محمد ، وهذا من أهل العلم بالهندسة والنجوم والحكمة ، والطبيب أبو سعيد بن ابراهيم صاحب المنجح فى التداوى ، وابن القونى الكاتب ، وأبو عبد الله الصقلى الفيلسوف ، وعبد العزيز الأغلبى الكاتب ، والمهرى والقضاعى والصباغ ومنهم السرقوسى والمازرى صاحب التآليف المشهورة والبثيرى والكركنتى والشاقى والطرابنشى والبلنوبى والسمنطاوى ، نسبة الى مدن فى الجزيرة معروفة ، هذا الى عشرات غيرهم كان لهم الفضل على الأمة

العربية بتصانيفهم وتحقيقاتهم وصناعاتهم ، وما فيهم إلا العالم والأديب والحكيم والمنجم والطبيب والمهندس ، وكان لهم يد على الجزيرة بانهاضها فى مادياتها ومعنوياتها

خروج المسلمين من صقلية واستيلاء النورمانيين عليها :

دان معظم أهل صقلية بالإسلام وكثر سكانها حتى قيل إن[1] أهل وادٍ واحد من أوديتها وهو وادى مازر بلغ سكانه ألفى ألف ساكن ولما أخضع النورمانيون صقلية سنة (١٠٩٠م) كان فيها أربعة عناصر الروم والعرب واللنكبرديون (النورمانيون والبروتونيون) واليهود ، يتكلم كل عنصر لغته ويخضع لشرائع بلاده . وحاسن الأمراء الذين تولوها من فى جوارهم من الحكومات النصرانية . وكان من أمرائها بنو أبى الحسين المشهورين بالكلبيين[2] اتصلت أيام إمارتهم بها زمنا طويلا ، واليهم أشار ابن خلدون وقال إنهم ملوكها . وكان واليها فى أواخر عهد حكم العرب فيها يدعى البعباع بعث اليه صاحب مصر فى بعض الروايات يطلب منه المال ، وكان عاجزا عما طلب منه ، فبعث إلى الفرنج ففتح لهم البلد فدخلوه وملكوا الجزيرة . ويعنى بالفرنج ملك إيطاليا ولنكبردة وقلورية . وفى رواية أن الاختلاف كان بين عمال الجزيرة ، وانفرد كل إنسان ببلد ، فاستنصر ابن التمنة[3] المتغلب على سرقوسة وقطانية بالفرنج فى مدينة مالطة ، وكان ملكها روجر وهون عليه أمر المسلمين فسار الفرنج وابن التمنة إلى البلاد التى بأيدى المسلمين فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة واستولوا على مواضع كثيرة من الجزيرة ، ففارقها حينئذ خلق كثير من أهلها من العلماء والصلحاء ، وسار جماعة إلى المعز بن باديس فى إفريقية ، ولم يثبت بين أيديهما غير قصريانة وجرجنت وحصرهما الفرنج وطال الحصار عليهما حتى فتحهما روجر سنة ٤٨٤ هـ لانقطاع أمداد المسلمين ولاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن ، ساق ابن التمنة إلى هذه الخيانة خلاف وقع بينه وبين أمير قصريانة ، فدعا إلى معاونته جيرانه

(١) معلمة الاسلام . (٢) تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب .
(٣) تاريخ أبى الفداء

روبير كيسكار وروجر من أبناء تنكريت دى هوتفيل ودوكات يوليه وقلورية بجاؤا وعملوا لما فيه مصلحتهم لا مصلحة من دعاهم، وكان من ذلك فتح الجزيرة .

وعقد ملوك صنهاجة ولا سيما ابن باديس هدنة مع ملوك النصارى فى صقلية وأخذوا يتبادلون الهدايا والأعلاق وكان ذلك فى سنة ٥٢٩ هـ . وقال الادريسى إن روجر افتتح غربى بلاد الجزيرة فى سنة ٤٥٣ هـ وما زال يشن الغارات على الباقى حتى أكمل فتحها فى ثلاثين عاما، فنشر فى أهلها سيرة العدل وأقرهم على أديانهم وشرائعهم، وأمنهم فى أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم . وكانت المدينة قد بلغت أوجها[١] فى الفتح النورمانى، ونجا العرب من الحروب فانصرفوا إلى العلم والآداب، ورأوا من الفاتح الجديد حاميا لهم ونصيرا ، فأصبحوا فى عهده بأمن ودعة . أما روجر النورمانى فقد اتهم بأنه دان بالإسلام لأنه حاسن المسلمين ، ولم يجعل سبيلا لرؤساء الدين من قومه إلى التسلط عليهم، فأبقى الحكام والقوّاد منهم فى مناصبهم على ما كانوا عليه فى عهد العرب ، واستولى المسلمون على أزمة التجارة ، وكان كبار رجال المال منهم . ورأى روجر بثقوب ذهنه أن يسير فى سياسته مع السواد الأعظم من أهل الجزيرة وهم العرب ، وجعل فى بلاطه الأطباء والمنجمين وأرباب القرائح من المسلمين، واحتفظ بأصول العرب فى الجباية ،وكان يحسن العربية ويحبها . والنورمانيون جاؤا لأول أمرهم من بلاد سكاندافيا فى شمالى أوربا وظلوا مجوسا إلى القرن العاشر للميلاد وفيه انتحلوا النصرانية .

وروجر[٢] هذا هو الذى استقدم الشريف الإدريسى صاحب كتاب "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق" من بر العدوة ليضع له شيئا فى شكل صورة العالم وبالغ فى تعظيمه من وراء الغاية، وصنع له هذا الشكل فأعجب به، وأراده على أن يبقى فى بلاده قائلا له : " أنت من بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك " فأجابه إلى ذلك ، فرتب له كفاية لا تكون

(١) معلمة الاسلام . (٢) الوافى بالوفيات للصفدى .

إلا للملوك، وطاب إليه أن يحقق أخبار البلاد بالمعاينـة، لا بما ينقل من الكتب، فوقع اختيارهما على أناس ألباء فطناء أذكياء، وجهزهم روجر إلى أقاليم الشرق والغرب جنوبا وشمالا، وسفر معهم قوما مصورين ليصوروا مايشاهدونه عيانا، وأمرهم بالتقصى والاستيعاب لما لابد من معرفته، فكان إذا حضر أحد منهم بشكل أثبته الشريف الإدريسى حتى تكامل له ماأراد، وجعله مصنفًا، وهو كتاب نزهة المشتاق.

هكذا كان روجر فى معاملته علماء العرب والانتفاع بعلمهم، وقد غادر كثير من العرب الجزيرة فى الفتح النورمانى قاصـدين إلى بر العدوة من افريقية على السفن الكثيرة التى كانت لهم، ومنهم وهم السـواد الأعظم من اختاروا المقـام فى الجزيرة فطاب لهم بما رأوا من الرعاية والأمنـة، حتى إن ابن جبير الرحالة لما مر بالجزيرة سنة ٥٨٠ أى بعد ست وتسعين سنة من خروجها عن حكم العرب، أثنى على غليام صاحبها وقال إنه عجيب (١) فى حسن السيرة واستعمال المسلمين، وأنه كثير الثقة بهـم، وساكن إليهم فى أحواله، والمهم من أشغاله، وله الأطباء والمنجمون وهو شديد الحرص عليهم. وقال إن زى النصرانيات فى مدينة صقلية مثل زى نساء المسلمين يخرجن ملتحفات متنقبات.

وحرص روجر الثانى وابنه وغليام على استعمال المسلمين جريا على خطة روجر الأول، فتركوا لهم حريتهم، ينعمون بضياعهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم. وكان هؤلاء الملوك يحسنون العربية ويطربون لشعرها وأدبها، وكان فريدريك الثانى كثير العناية بالعربية وآدابها، وقد ضرب فيها بسهم وافر. وظلت اللغة العربية فى الجزيرة اللغة الرسمية، وكان من العرب معلمون وأساتذة وعمال مهرة (٢)، ولا تزال براءات ملوك النورمانيين مكتوبة بالعربية واللاتينية واليونانية. وكانت العربيـة إحدى اللغات التى تضرب بها نقودهم، وعليها شارتا الإسـلام والنصرانية، ولم يقتصر الأمر على

(١) رحلة ابن جبير. (٢) لويجى رينالدى (مجلة المقتطف م ٥٩).

ذلك فقط، بل كان يوضع عليها أيضا "لا إله إلا الله محمد رسول الله" واستمر الأمراء الذين خلفوا النورمانيين على ضرب نقودهم بالعربية زمنا .

وما برح النورمانيون جارين على سنن روجر الأول صاحب صقلية فى الاعتماد على العرب ورعايتهم ظاهرا وباطنا، وكذلك كان العرب فى إخلاصهم حتى إن القاضى جمال الدين بن واصل قاضى القضاة بحماة الفيلسوف المؤرخ، كان أرسله الظاهر بيبرس سفيرا الى الإمبراطور صاحب صقلية فى سنة ٦٥٩ هـ فقال فيه إنه كان مصافيا للسلمين ويحب العلماء، وإنه بالقرب من البلد الذى كان فيه مدينة تسمى لوجارة، أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية، تقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الاسلام، وكان أكثر أصحاب الامبراطور مسلمين ويعلن بالآذان والصلاة فى معسكره . وقال إنه عند توجهه من عند الامبراطور اتفق البابا خليفة الفرنج وريدا فرنس على قصد الإمبراطور وقتاله، بسبب ميله الى المسلمين، ولذلك كان البابا قد حرمه، وقد غلبه الفرنج وذبحوه، وملكوا أخاريدافرنس فى سنة ٦٦٣

تنصير بقايا الصقليين :

وعلى رواية ابن واصل تكون صقلية قد ظلت فى حكم النورمانيين السعيد ١٧٩ سنة كان فيها المسلمون فى راحة . ويقول رينالدى : إن التعصب الدينى لم يتأخر لحظة واحدة عن الظهور بعد زوال ملك المسلمين من صقلية، فاضطر المسلمون أن ينتحلوا النصرانية فاختلطوا بطبقة الشعب، وهذا ما وقع أيضا لمدينة لوشيرا "الغالب هى لوجارة" فقد سمح لهم شارل الثانى بالبقاء فى ملكه على أن يتنصروا وعرف أولادهم بعدهم باسم مرانه (Marrani) وهى كلمة عربية أخذها الطليان عن الإسبان، وكانوا يلقبون بها المسلمين الذين دانوا بالنصرانية فى الأندلس، وكذلك كانت مدينة لوشيرا مدينة إسلامية محضة حتى إن كلمة (Lucerini) "سكان لوشيرا" كانت تؤدى معنى الشرقيين أو المسلمين . ولما استولى ملك سواب على الجزيرة (١١٩٤) بدأ اضطهاد المسلمين اضطهادا شديدا يذكر بما لقوه فى إسبانيا،

فهاجر ألوف الى إفريقيـة ولا سيما الى سواحلها ، ومن تخلف منهم كان مستعبدا استعبادا حقيقيا : يزرع الأرض ، ويرعى الماشية ، ويعمل الأعمال الشاقة ، فى أملاك الملك .

وعلى هذا فقـد تنصر بقايا المسلمين فى الجزيرة ، ولم يجلوا عنها على كل حال بفاجعة كفاجعة الأندلس التى مثلها القسس والأساقفة والكرادلة وديوان التحقيق الدينى والملك والمملكة والشعب ، اتفقوا كلهم باطنا وظاهرا على إبادة المسلمين . والملك شارل هو الذى خلع الصقليون طاعته ، وقتلوا الفرنسيس على بكرة أبيهم يوم ٢١ آذار سنة ١٢٨٢ م ٦٨٢ هـ .

أثر العرب والعربية فى اللغة الايطالية :

أبقى العرب فى الجزيرة كثيرا من عاداتهم ، وهى باقية الى اليوم ، وتركوا ألفاظا كثيرة من لغتهم فى اللغـة الصقلية والإيطاليـة ، ولا تزال عدّة أماكن بصقلية تحمل أسماء عربيـة ، ولا سيما أسماء القلاع والمراسى والشوارع ، وتبـدأ أسماء القلاع بلفظ (قلتا) أى قلعة ، ومنها ما أصبح اليوم مدنا . مثل : قلعة النساء وقلعة فيمى وقلعة الحسن وقلعة البلوط ، وكذلك كلمة مرسى ، مرسى على ، مرسى الميناء ، منزل الأمير ، منزل يوسف ، رمل الموز ، رمل السلطانة ، القنطرة ، وادى الطين ، رأس القلب ، رأس الخنزير ، رأس القرن ، والقصر من أعظم شوارع بلرم . وفى بلرم الآن قصران جليلان من مبانى العرب : اسم أحدهما القبة واسم الآخر قلعة العزيزة ، وكان تأثير العرب بعلمهم فى هذه الجزيرة أكثر من تأثيرهم بمبانيهم . يقول رينالدى : إن الجزء الأعظم من الكلمات العربيـة الباقية فى الايطاليـة التى تفوق الحصر دخلت الايطالية لا بطريق الاستعمار العربى بل بطريق المدنيـة التى كثيرا ما تؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة . وقد عدّد من هذه الكلمات جانبا ولا سيما فى لغة العلم ، ثم قال إن جنوة اضطرت أن تؤسس سنة ١٢٠٧ م مدرسة لتعليم العربية ويدل على ذلك وجود كلمات عربيـة فى لغة هذه المدينة ، وفى اللغات العامية فى جميع المدن

الايطالية التى كانت تتجر مع الشرق وصقلية كلمات كثيرة من أصل عربى، دخلت اليها مع التجارة العربية، ولا تزال معاجم لغتهم تحفظ كثيرا منها . قال وما الهندسة الغوطيـة إذا أنعمنا النظر إلا الهندسة العربيـة تقريبا . ثم أورد أسمـاء الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية التى سرت الى الطليانية من العربية ، وقال إن آمارى « المستشرق الصقلى » أثبت أن صقلية مدينـة للعرب ، وكذلك إيطاليا مدينـة لصقلية ، بابتكار الشعر الوطنى ، بمعنى أنه مذ قلد البـلاط الصقلى البلاطَ الملكى الاسلامى، بدأت العناية بقرض الشـعر، تلك العناية التى كانت السبب فى نهوض الشعر الايطالى . قال رينالدى: لم يساعد العرب فقط على إنهـاض الشعر الصقلى والايطالى بل إنهم أمدّوا قصصنا بشكلها ومادّتها . قلنا : وهذا يؤيد ماذهب اليه وأثبته بالأدلة المعقولة آسين من رجال المشرقيات فى إسـبانيا من أن دانتى شاعر الطليان اقتبس موضوع روايته المهزلة الإلهية من رسالة الغفران للمعرّى .

وفى بلرم أنشأ العرب أوّل مدرسـة للطب ، وما عهد مثلها فى جميع أوربا ، بل إن مدارس الطب فى الغرب أنشئت بعد مدرسة صقلية العربية بأعوام، ومنها انتشر الطب فى بلاد إيطاليـا ، وساعد أن الباباوات كانوا رحلوا الى أفينيـون من أرض فرنسـا فخلا الجو للعـلم العربى ، وأخذ يسرى الى كل من اسـتعدّ للأخذ بمذاهبه من الطليان . هذا مع أن المدنية التى أدخلها العرب الى جزيرة صقلية كانت أضعف من مدنيتهم فى مصر والأندلس . ودلت الآثار أن العرب لمـا خرجوا من هـذه الجزيرة كانت أرقى من اليوم التى دخلوا فيها، فعظم تأثيرهم النافع فى صقلية . والتحسين الذى يدخله شـعب على شعب هو معيار نفوذ الحضارة التى يحملها الأول الى الثانى على ماقال لبون .

ويقول آمارى إنه لا يوجد اليوم فى صقلية كلها بناء واحد يرد عهده الى الحكم العربى ، ويقول حسن حسنى عبد الوهاب[1] : إن جزيرة صقلية تفاخر وحق لها الفخر

(١) استيلاء المسلمين على صقلية لحسن حسنى عبد الوهاب H. H. Abd ul-Wahab : La Domination musulmane en Sicile.

بأن فيها العزيزة والقبة والفوارة وفى بلرم ومدائنها الباسمة « البيضاء » ومعاملها الغنية ومارر وقلاعها التى كانت مما يذكر بالفخر خلال ثلاثة قرون على لسان الشعراء ، كان لهم من الشهرة وسلاسة الشعر ورقته ما كان مثله لمن خلدوا قديما اسم قرطبة وإشبيلية وغرناطة .

المقارنة بين صقلية والأندلس .

كانت صقلية أزهر الممالك الأوربية فى الزمن الذى كان فيه العربى والرومى مرعيا جانبهما ، مأخوذا بأيديهما ، وكان أثر الرجال الذين ظهروا فى جزيرة صقلية أقل بالطبيعة من أمثالهم ممن أنبغتهم الأندلس . والسبب فى ذلك ضيق مضطرب هذه الجزيرة ، وقصر الزمن الذى دام فيه حكم العرب عليها . وهذا لأنها كانت تبعا لإفريقية يتولى أمرها الأغالبة والعبيديون وغيرهم . وحكم الأندلس أعاظم رجال بنى أمية ممن طالت أيامهم ، وكانوا وطدوا النفوس على اتخاذها وطنا أبديا لهم لا يلتفتون الى ما وراءهم إلا بقدر ما ترتبط أمة بأمة بعيدة ، متفقة معها فى النزعة الدينية والعواطف . وكانوا نقلوا كل ما رأوه وسمعوا به فى بلادهم الأصلية من أسباب القوة والعلم والصناعة الى الأندلس نقلا صحيحا وزادوا عليه بثقوب أذهانهم وبما تقتضيه طبائع الأقاليم التى نزلوها .

وإذا جسرنا على الاستنتاج من النتف القليلة التى اتصلت بنا من تاريخ صقلية العربية ندرك أن رجالها فى العلم كانوا أقل عددا أو تأثيرا من رجال الأندلس ، وإنا إذا عددنا فى هذه مئات من النابغين ، لا نستطيع أن نعد فى صقلية عشرات من عيارهم . ومعظمهم من حملة الشريعة والآداب . ويقال إن فيها ترجمت كتب أرسطو وأفلاطون . وليس فى صقلية من الملوك والأمراء الذين تولوا أمرها من كانوا بشهرتهم أمثال عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الثالث والحكم ممن أظهروا نبوغا فى حكم الأندلس .

وليس فى العلماء الذين قادوا الأفكار فيها أمثال ابن رشد وابن زهر وابن باجة وابن الخطيب وأضرابهم . وهناك دواع أخرى فى هذا التفوق فى الأندلس، وهذه على بعدها من مواطن العروبة، هاجر اليها ألوف من صميم العرب وسكنوها وعمروها، وأثر فى أنسالهم هواؤها، فجاء منهم غربيون شرقيون على أجمل مثال فى الشعوب العاملة الذكية . أما صقلية فكان اعتمادها على أناس من العرب وكثير من البربر . وكانت الجزيرة مهاجرا للاتين الذين جلوا من إفريقية يوم فتح العرب لها، ثم جاءها العرب فاتحين فى صقلية . فامتزجوا بأهلها، فلم يكوّنوا فى الحقيقة أمة صقلية كما تكوّنت أمة أندلسية . وإن كان المسلمون فى صقلية كثرة غامرة فى أيام حكمهم وبعد زوال سلطانهم عنها .

آثار العرب فى صقلية بعد قرون من رحيلهم :

وتفيدنا الآثار التى وجدت فى المقابر وغيرها(١) أن اللغة العربية بقيت شائعة فى الجزيرة إلى أواخر القرن التاسع للهجرة ، يؤيد ذلك شواهد القبور التى عثر عليها حديثا علماء العاديات ، فقد وجدت قبرية باسم القائد الأجل أبى النصر بن القائد أبى المسرور الخليرى من سنة ٨٧٣ هـ . وشاهدة لآخر اسمه القسنطينى القاضى من سنة ٨٩٤ هـ . وثالثة من سنة ٨٥٩، وشواهد كثيرة من القرن السابع والسادس من الهجرة، وأغربها قبرية نصرانية كتبت بالعربية بعد خروج العرب من الجزيرة بستين سنة استعمل فيها التاريخ الهجرى وهى " توفيت أنة أم القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية العلية المعظمة السنية القديسية البهية المعتزة بالله المرزوقة بقدرته المنصورة بقوته مالكة ينطالية ولنكبردة وقلورية وصقلية وإفريقية معزة إمام روميه الناصرة للملة النصرانية صرمد الله مملكتها يوم الجمعة والعشر العشرين من أوسة سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ودفنت بالجامع الأعظم، ثم نقلها

(١) وثائق فى تاريخ صقلية لأمارى (بالايطالية)
(Amari : Documenti alla storia di Sicilia)

ولدها بالمستجد الى هـذه الكنيسة صنت مخايله يوم الجمعـة أول ساعة العشاء : العشرين مائة سـنة — أربع وأربعين وخمسمائة وبنى على قبرها هـذه الكنيسـة وسماها صنت أنه على اسم أمه (مر) يم ... ودعا لهـا بالرحمة آمين آمين آمين " .

وهـذا يدل على أن العربية استحكمت ملكتها فى السكان حتى إن نصاراهـم استخدموها لغة التخاطب والكتابة بعد خروج العرب بمدّة طويلة، وأرخوا بالتاريخ الهجرى، ولاعجب أن حاسن روجر النورمانى فاتح الجزيرة وخلفاؤه جمهور المسلمين فلقوا منهم كل رعاية، ولقى الفاتحون من المسلمين كل نصح فى الخدمة . فقد روى مؤرّخونا أن رجار مات قبل التسعين والأربعمائة وملك بعده ولده رجار فسلك طريق ملوك المسـلمين من الجنائب والحجاب والسلاحية والجانداريه وغير ذلك . وخالف عادة الفرنج فانهـم لا يعرفون شيئا منه وجعـل له ديوان المظالم يرفع اليـه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فأحبوه .

المسلمون والغربيون فى الحروب الصليبية

اختلاق الصليبيين الأسباب لقتال المسلمين :

ظن الغربيون بعد انقراض الدولة الأموية من الأندلس فى ٤٠٧ ﻫ أن العرب هناك يتراجع أمرهــم فى الحال ويصبحون لقمة سائغة، لمـا دب فيهم من الفساد السياسى المؤدى الى الانحلال الطبيعى. ولكن عاد يوسف بن تاشفين ملك المرابطين من بر العدوة بجمع الشمل المنصدع ، وضرب المرابطون ملك الإسبان ضربة شديدة فى سنة ٤٨٠ﻫ فى وقعة الزلاقة فأعادوا الى الأندلس حياتها فوقرت فى نفوس الإفرنج . وكان أمراء المسلمين ذلوا أمام أعدائهم وأخذوا يدفعون الإتاوات لملوك اسبانيا، وخرجت جزيرة صقلية من أحكام المسلمين فى تلك الحقبة .

بيد أن رجال الدين ورجال السياسة فى أوربا ما برحوا منذ طلعت طلائع العرب فى البحــر المتوسط، وقوى سلطانهم فى جزرها ، يفكرون فى مخرج يؤدى بالغــرب الى ساحل السلامة . لأن الافرنج أيقنوا أن العرب أعلى منهــم كعبا فى الحروب ، وأرق منهم مدنية، وهم لايخلون فى كل زمان من رجل فذ ينهض بهم، كما كان من المنصور بن أبى عامر (٣٩٢ ﻫ) الذى غزا الإفرنج سبعا وخمسين غزوة موفقــة ، ورفع من شأن الأندلس بنبوغه فوقاها من السقوط .

واتفق أن اشتدّ إرهاق الســلجوقيين لصاحب القسطنطينية ، حتى اضطروه الى دفع جزية سنوية لهم، فاستنجد بملوك أوربا على المسلمين، وأثار العرق الحساس فى البابا، واعدا إياه أن يدخل فى طاعة كنيسته، ويتخلى عن أرثوذكسيته، إذا هو ساعده على دفع صائل المسلمين. وصادف أن بعض زوّار القبر المقدّس من الإفرنج رأوا ما لا يروقهم من إلزام الحكومة الفاطمية حجاجهم بأداء ضريبة زعموا أنها فاحشة،

فأعظم الأمر بعض رؤساء الدين عندهم ، وأهاج أمثال بطرس الناسك الخواطر فى الغرب على المسلمين ، وبالغوا وأكثروا فيما يلقاه النصارى من العنت فى حجهم . على أنه لم يحدث من الاعتداء[1] على حجاج القبر المقدّس سوى حوادث فردية قليلة لا تخلو منها بلاد ، وذلك قبل الحروب الصليبية ، وقد قال برناردى فيس فى مذكراته : إن السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين ، حتى انى لو كنت مسافرا ونفق بعيرى أو حمارى الذى ينقل أمتعتى على الطريق ، وتركتها كلها دون حارس ولا رقيب ، وسرت الى أقرب مدينة لأجلب لى بعيرًا أو حمارا آخر لوجدت عند عودتى أنها باقية على ما هى لم يمسها أحد . ولغايات فى النفس جسم بعض رجال الدين فى الغرب حوادث الاعتداء على حجاجهم فى الأرض المقدّسة ، فأثاروا ضغائن النصارى على المسلمين عند بدء ظهور الحركة الصليبية . قال منرو : كانت هذه الفظائع المنسوبة الى المسلمين ممزوجة بكثير من الأفاويه[2] ، لتوافق روح ذلك العصر الذى كان أشدّ توحشا من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص هذه الفظائع على علاتها ، فعظم تأثيرها فى حماسة الكثير منهم . ولجأ الغربيون الى أنواع أخرى من الدعوة وإهاجة الأفكار على المسلمين ، فاتهموهم بعبادة الأصنام وأنهم يعتقدون بألوهية محمد . واغتنم البابا فرصة عقد المجمع الدينى فى كلرمون فعرض عليه ما يلقاه النصارى من الإرهاق ، وحرض أبناء النصارى على حمل الصليب ليفتحوا القبر المقدّس ، ومنحهم غفرانا عن كل خطاياهم ، وأحل لهم ما تجترحه أيديهم وجوارحهم ، حاميا بسيادته الروحية عيالهم وأموالهم مدة غيابهم ، واعدا إياهم بمغانم دنيوية كثيرة ، يسقطون عليها لامحالة إذا فتحوا الأرض المقدّسة ، فسار بعضهم مدفوعا بسائق الدين ، ومنهم الطامع بالمغانم والأرباح . وكان الغربيون

(١) نظرة الغرب الى الاسلام فى زمن الحروب الصليبية لمنرو (مجلة الكلية م ١٨) .

(٢) الأفواه : التوابل ونوافج الطيب . قال الجوهرى : الأفواه ما يعالج به الطيب ، كما أن التوابل مايعالج به الأطعمة وجمعه فوه وجمع الجمع أفاويه .

فى تلك الفترة قد عضهم الفقر بنابه ، وأصيبوا بأوبئة حصدتهم ، ومجاعات زادت فى عوزهم ، فأوهمهم رؤساؤهم بأن الشرق الاسلامى بلاد الذهب ، لا يلبث نزيله أن يغتنى وينعم .

وفى أواخر سنة ٤٩٠ هـ ١٠٩٦ م اجتمعت فى القسطنطينية جيوش الصليبيين وبعد مصاعب شديدة لقوها فى آسيا الصغرى ، تقدّموا ففتحوا الساحل الشامى ، واستولوا على بيت المقدس ظاهرين فى مظهر من التوحش والقسوة لا يغبطون عليه ، ظانين أن المسلمين لا تهمهم كثيرا قبلتهم الأولى ، ولا يحسبون ألف حساب لاحتلال جزء مهم من صميم بلادهم ، وأنهم متى رئموا للذلة مرغمين فى حاضرهم نسوا كل عاقبة وخيمة على مستقبلهم ، وما أدركوا أن المسلمين كانوا أسودا لا مستأسدين إذا ما وثبوا وثبوا .

جهل الصليبيين والتنظير بين أعمالهم وأعمال المسلمين :

أبان الصليبيون فى مبدأ غزواتهم عن جهل مطبق فى فنون القتال ، وما كتب لهم الفوز فى حملتهم الأولى إلا بكثرة جيوشهم ، وكانوا فى فوضى منذ غادروا ربوعهم حتى دخلوا القسطنطينية واتجهوا الى الشرق ، ونسوا أو تناسوا أن صاحب الروم حليفهم المعنوى ، وما تلكأوا مع هذا عن إهانة قومه ، وإطالة أيديهم بالأذى على بلاده . فخربوا مصانعها ، وسلبوها نعمتها ، وعبثوا ببيعها وكنائسها ، وجعلوها طعاما للنار ، وارتكبوا كل كبيرة أورثتهم العار ، وأثبتوا أنهم من الجهل بحيث لم يهتدوا الى طريقهم ، فضلوا فى بلاد الروم وتخطف عسكر السلجوقيين رجالهم ونساءهم ، وغلوا فى القسوة على أهل كل بلد نزلوه ، مثل الرها وأنطاكية والمعرة وطرابلس والقدس ، فقاتلوا المحاربين والمسالمين على السواء ، وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ لم تأخذهم بهم رحمة .

وليس القصد هنا ذكر تاريخ الحروب الصليبية وما جرته على بلاد المسلمين من الويلات ، بل القصد بيان أثر هذه الحروب فى الغرب والشرق . وقد اغتبط

الصليبيون بأنهم أوقفوا المسلمين بحملاتهم على الشرق دون التوغل فى أوربا . والغربيون ما فتئوا يحذرون بطش المسلمين ، ويقدّرون أنه ربما بلغت بهم الجرأة ذات يوم أن يغيروا عليهم غارة رجل واحد، فيكون فى ذلك ذهاب بلادهم . وحق لهم هذا التخوف، لأن لهم من إذلال ابن تاشفين ملك المرابطين لملك إسبانيا، وضغط السلطان ملكشاه السلجوقى على صاحب القسطنطينية، براهين لا تقبل الرد فى إساءة الظن بالمستقبل، وكان يظن أن العنف الذى شاهده المسلمون فى الشام من الصليبيين المتحمسين، يدعوهم الى أن يسيئوا معاملة المستأمنين منهم، أو يعاملوهم على الأقل بالمثل . ولكن المسلمين فى جميع أدوار الحروب الصليبية ملكوا اعتدالهم وما خرجوا ، وبعض ما نالهم من أعدائهم مما يحرج الصدور، عن حدود شريعتهم ، وما أمرت به من الرفق بالناس فى دار الحرب ودار السلم . وقد أقر بذلك أكثر مؤرخى الصليبيين ، وأعجب بهذه المسامحة كل صليبى، أو كل من لا غرض له من الناظرين فى سير تلك الحروب العجيبة .

مجازر الصليبيين :

أما الصليبيون فقد عاهدوا ملك الروم على أن يسلموا اليه أوّل بلد يفتحونه ، ففتحوا مدينة نيقية ولم يسلموها[1] اليه وكانت بأيدى السلاجقة الأتراك فخانوا بذلك العهد الذى قطعوه على أنفسهم ، ولما جاءوا المعرة معرة النعمان قتلوا على رواية ميشو[2] جميع من كان فيها من المسلمين، ممن لجأوا الى الجوامع واختبأوا فى السراديب، وأهلكوا صبرا[3] ما يزيد على مئة ألف إنسان فى أكثر الروايات ، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام، وافاها سكان الأطراف بعد سقوط أنطاكية يعتصمون فيها . وفتح الصليبيون القدس ، بعد أن أفحشوا القتل فى المسلمين، حتى هلك منهم

(١) خطط الشام للمؤلف م ١ (٢) تاريخ الحروب الصليبية لميشو .

(٣) كل من قتل فى غير معركة ولا حرب ولا خطأ فانه مقتول صبرا وكل من حبس لقتل أو حلف فقد صبر هو قتل صبر .

عشرات الألوف ، فيهم جماعة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد . وارتكب الصليبيون كل محرّم فى دينهم مع المسلمين واليهود . قال ميشو : تعصب الصليبيون فى القدس أنواع التعصب الأعمى الذى لم يسبق له نظير ، حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم . فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاما للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ويجرّونهم فى الساحات ، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين ، ودام الذبح فى المسلمين أسبوعا حتى قتلوا منهم على ما اتفق على روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة ، ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح ، فوضع الصليبيون النار فى المذبح الذى لجأوا اليه ، وأهلكوهم كلهم بالنار . اه .

وكان من عادة الصليبيين أن يقتلوا أهل كل بلد يدخلونه فى الشام ويخربوا عمرانه ويحرقوا كتبه ومتاعه وآثاره . وفى إحراقهم دار الحكمة فى طرابلس ، وكان فيها نحو مئة ألف مجلد ، أكبر دليل على رعونتهم وخشونتهم ، فأوقدوا بما صنعوا نيران التعصب بين المسلمين والنصارى من الشاميين ، ومع هذا أمسك المسلمون عن مخاشنة أبناء ذمتهم ، وظلوا على ما قضى به الاسلام من حسن معاملتهم ، ومن نصارى لبنان من تطوّعوا فى خدمة الصليبيين ، وحاربوا فى صفوفهم ، وكانوا أدلاء لهم وعيونا على جيرانهم الذين كانوا عاشوا وإياهم خمسة قرون على غاية الوئام . خالف الصليبيون تعاليم المسيح فى الشفقة والاحسان ، وامتثل المسلمون أوامر شريعتهم قائلين (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وما خرج ملوك الاسلام فى كل دور عن مراعاة أهل ذمتهم ، عملا بوصية الشارع ، وتفاديا من وعيده من أذاهم ، وكانت سياسة الساسة منهم كما كتب الإخشيد صاحب الديار المصرية والشامية والحجازية الى أرمانوس صاحب الروم على « ما يؤلف من قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية ، ويجمعها على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها الأمن والدعة فى المعيشة ، ويكسبها المودة والمحبة » ، واذا وقع من أحد ملوكهم حيف على غير المسلمين كما

فعـل الحاكم بأمر الله الفاطمى فخرب كنائس النصارى فى مملكته، ثم بدا له فأمر باعادتها الى سالف عمارتها، فهذا شاذ فى الملوك والشاذ لاتبنى عليه القاعدة المطردة.

حسن معاملة صلاح الدين للصليبيين :

كان فى القدس لمـا استرجعها صلاح الدين (٥٨٣ هـ) من الصليبيين مئة ألف صليبى، منهم ستون ألف راجل وفارس، سوى من تبعهم من النساء والأطفال، فأبقى صـلاح الدين على حياتهم، واستوصى بهم خيرا . ونابذ فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهـم بمثل ما عامل به أجداد الصليبيين جمهور المسلمين يوم فتحهم القدس . واكتفى بأن ضرب على كل رجل منهم عشرة دنانير، وعلى كل امرأة خمسة، وعلى كل طفل دينارين، وعجز بعضهم عن دفع هـذه الفدية، فادى الملك العادل أخو صـلاح الدين فدية عن ألفى صليبى، واقتدى به صلاح الدين نفسه فأعفى كثيرين من هـذه الغرامة ، وأغضى عن جواهر الصليبيين وناضهم من الذهب والفضة ، وعامل نساء الإفرنج معاملة لطف وظرف، وسهل سبيل الخروج للملكتين عظيمتين بمـا معهما من جواهر وأموال وخدم ، ورخص للبطريرك الأكبر أن يسير آمنا بأموال البيع وذخائر الجوامع التى كان غنمها الصـليبيون فى فتوحهـم . ولمـا قال المسلمون لصلاح الدين إن هذا البطريرك يقوى بمـا أخذ على حرب المسلمين ثانية قال : لا أغدر به . ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير فقط ، فألقى صـلاح الدين على الصليبيين درسا فى مكارم الأخلاق وسماحة الاسلام .

ونسى الإفرنج بعد حين هذه اليد لصلاح الدين عندهم، وذلك أنهم لمـا استبطأوا دفع الغرامة التى فرضها ريشاردس قلب الأسـد ملك الانجليز على صلاح الدين ، ولم يرد اليه هـذا صليب الصلبوت ، أخذ ألفين وسـبعمائة من أسرى المسلمين (١) ، وقتلهم على رأس تل فى عكا، بمرأى من عساكر صلاح الدين، وبقر عسكره بطون

(١) تاريخ الأمير حيدر.

المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب، ظنا منهم بأنهم ابتلعوا شيئا منها، وحبا بالانتفاع بمرائرهم يتخذونها دواء يستشفون به . ذاك ما عاملت به السياسة الاسلامية غزاة الصليبيين، يوم ضعفهم وقوة المسلمين، وهذا ما عاملتهم به السياسة الصليبية .

بيد أن المسلمين قابلوا بعد حين هذه المذابح بمثلها، فقتل منهم الملك الظاهر في الساحل ألوفا وقتل منهم قلاوون مئة ألف في القدس لأن قومه ما نسوا أن الصليبيين في فتحهم الأول لها، سفكوا الدماء حتى في المسجد الأقصى، بحيث كان الفارس منهم وهو راكب تصل إلى رجليه[1] دماء المسلمين التي قتلت في ذاك الحرم المقدس، وسارت في الحقيقة كالسيل المنهمر .

ما أورثته الحروب الصليبية في أخلاق المسلمين والصليبيين .

كان المسلمون مع الصليبيين أيام المهادنات والسلم على غاية اللطف والمياسرة، يضيفونهم ويكرمونهم ويعاملونهم أحسن معاملة يعامل بها الضيف والغريب[2]، مع أن الصليبيين باقرار مؤرخيهم كانوا مثال الخشونة في الطباع، والجهل في الأوضاع . وأفضت معاملة المسلمين لأعدائهم بالحسنى، الى أن علق هؤلاء يقلدونهم في لباسهم وعاداتهم، ومنهم من تعلموا العربية فأتقنوها، وجروا على مصطلح المسلمين في كثير من شؤون حياتهم .

قال منرو : إن اتهام المسلمين بالجبن قد زال من أذهان الصليبيين، لما التحموا معهم في القتال، ولم يقف تأثير احتكاك الصليبيين بالمسلمين عند حد الاعجاب بشجاعتهم ، بل تجاوزه الى إزالة تحاملات أخرى عليهم ، فقد امتزج الصليبيون في سورية وفلسطين امتزاجا دائما متصلا بأهل البلاد نصاراهم ومسلميهم، ولما كان عدد الصليبيين ضئيلا، اعتمدوا على أهل البلاد في أعمال الزراعة وبناء الكنائس والقلاع ، بل وفي التجنيد أيضا، وقلما كانوا يميزون بين المسلمين وملاحدة

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو . (٢) الاعتبار لابن منقذ .

النصارى، وإذ كانوا يعيشون بالقرب من أشراف المسلمين، كانوا يتبادلون وإياهم فروض المجاملات، ويبرمون معهم عهود الصيد، وأسر المسلمون كثيرا من الإفرنج وظلوا أمدا طويلا فى أسرهم، فكانوا فى العادة يعاملونهم معاملة حسنة، ويمنحونهم قسطا وافرا من الحرية، فعرف الصليبيون المسلمين عن كثب، وهكذا كان حظ بعض المسلمين فى أسرهم عند الصليبيين، وقد نشأت بين الأسر فى الأحايين علاقات ودّ بين الفريقين، وكان اتجار كل فريق فى أرض الفريق الآخر من عوامل التعارف مع المسلمين، وتزوج الصليبيون من غير جنسهم من السوريات والأرمنيات أو من العربيات اللواتى قبلن المعمودية، ونشأت صداقات بين أفراد الفريقين، عقبى المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والصليبيين، بسبب استعانة فريق بآخر ليقاوم منافسا له أو منازعا من أبناء دينه . اهـ .

ومن أهم ما نفع الصليبيين من احتكاكهم بالمسلمين، أن القابضين على زمام الأمر فى الغرب لم يعودوا كما كانوا فى الثمانين السنة الأخيرة التى مضت قبل سقوط القدس بأيدى المسلمين يأتمرون فى الحال بأوامر الكنيسة البابابوية، يحمسون الناس ليسيروا بهم على العمياء، يقتلون ويقتلون على غير فائدة محسوسة . وكان الصليبيون يتجرون فى غضون المهادنات فى بلاد المسلمين أحرارا، لا يؤدّون سوى رسم خفيف . وكذلك كان المسلمون فى البلاد التى احتلها الصليبيون . وأهم الأمم التى انتفعت من ماديات الحرب الشعوب النازلة على شواطئ البحر المتوسط، ولا سيما البنادقة والبيزيون والجنويون من أهل إيطاليا، وكانوا أصحاب السفن التجارية والموانى البحرية، وكان من وراءهم من سكان أوربا مضطرا الى أن يقصد بلادهم فى ذهابه الى الأرض المقدّسة وفى عودته منها، لأن القوم استطالوا طريق البر وهى غير أمينة، وصاحب الروم يعارض فى مقدمهم عليه، لغدرهم ببلاده، وعيثهم فيها، وعبثهم بمقدّساتها، وربما خادن المسلمين وعاهدهم، وابتعد عن مخادنة الصليبيين لأنهم يغدرون ويخونون .

أما متعصبة الشعوبيين من الغربيين فما برحوا بعد أن تجلى تاريخ الحملات الصليبية، وعرف معرفة لا مجال للشك فيها، يمتدحون من نظام الصليبيين وحسن إدارتهم وسياستهم، ويحاولون أن يبرءوهم من كل وصمة ألصقت بهم بشهادة مؤرخيهم أنفسهم، وأن يظهروهم بمظهر العطف واللطف، ويظهروا المسلمين فى صورة القسوة والخشونة. منكرين أنه كان بين أمم الشرق القريب، وذاك الغرب البعيد، بون شاسع فى الحضارة والثقافة على ما أجمع عليه عقلاء الفريقين، إلا من أعمى الغرض قلوبهم وعيونهم.

من عاون المتحاربين ومن عاندهم :

وبعد فاذا أحب الشرق أن يحاسب الغرب فيما عادت عليهما هذه الحروب من ربح وخسارة، تكون الصوافى للفريقين على هذه الصورة إجمالا. علمت الحرب المسلمين أنه لا حياة لهم بغير التضامن، ولقنتهم معنى الجامعة الدينية والمدنية، وكانت ضعفت فى بلاد الشام العصبية العربية، فحلت العصبية الدينية محلها. رأى المسلمون جيوش الصليبيين مؤلفة من نورمانيين وإيطاليين وافرنسيين وألمانيين ونروجيين وسويسريين وغيرهم من أمم أوربا، فاجتمع عربهم وتركمانهم وأكرادهم على قتال عدوهم المشترك، وتفانى فى تحقيق هذا المقصد أولئك الذين كان الاختلاف بينهم على أشدّ حالاته من الملوك والأمراء، تساوى فى التماسك لبلوغ هذا الغرض الفاطميون والأتابكيون ثم الدولتان النورية والصلاحية ثم المماليك من بعد، وكذلك كان شأن غيرهم من صغار الأمراء. واتحدت كلمة أرباب المذاهب المختلفة من المسلمين، ولم يخرج على الجماعة غير شيعة الساحل فانهم اضطروا على ما يظهر الى بذل الطاعة للصليبيين، لمكان بلادهم من الأصقاع المحتلة. وكان الدروز الى جانب أهل السنة، والمعنيون والتنوخيون على رأسهم، وكذلك فريق من النصيرية. أما الاسماعيليون فقد كان غرامهم فى الاستيلاء على بعض الحصون لينشئوا لهم دولة بانقاض البلاد وسكانها، ولطالما اغتالوا كل

من يعتقدون عداءه لهم من الأمراء والعلماء، بل بلغت بهم القحة أن يطيلوا أيدى أذاهم على مثل السلطان صلاح الدين، ووثبوا بكثيرين ومنهم صاحب دمشق تاج الذين بورى، ونظام الملك . واعترف الصليبيون فى إحدى هزائمهم وحملاتهم أنه كان من نصارى البلاد من خدموا الدولة الاسلامية وقلبوا لهم ظهر المجن، أى أن طائفة من نصارى الشام ناصرت أصحاب البلاد، لأنهم رأوا منهم عطفا وعدلا فى الدول المختلفة التى تقلبت عليهم منذ كان الاسلام . وقاتل الأرمن فى صفوف الصليبيين وشكرهم على ذلك البابا غريغوار الثالث عشر فى كتاب سنة ١٣٨٣ م .

ولم تأخذ الناس ولا قادتهم هوادة فيمن كان يَفْتُون فى عضد المسلمين ، ويتهمون بأن هواهم مع الصليبيين، فقد دبرت الخاتون صفوة الملك على ابنها شمس الملوك صاحب دمشق من يقتله، لما أيقنت أنه استدعى الافرنج من بلادهم ليسلم اليهم الملك . ذلك لأن دمشق والمدن الداخلية عصت على الصليبيين، وحاول هؤلاء غير مرة الاستيلاء عليها، بجيوش جيشوها، ومكايد دبروها، فضربوا ضربة قاسية كانت لطخة فى تاريخهم الحربى، ولطالما أتوا بجيوش جرارة الى حوران، بل الى داريا، بل الى المرج الأخضر من ربض مدينة دمشق، ورجعوا مدحورين مخذولين . ولما شعر صاحب دمشق سنة ٥٢٣ أن الباطنية فاوضوا الصليبيين ليسلموهم دمشق قتل المزدقانى وزيره الخائن، وأمر الناس فثاروا بالاسماعيلية فقتلوا منهم ستة آلاف فى يوم واحد ، وقيل أكثر من ذلك، فطفئت فتنتهم، وكانوا يحاولون تسليم دمشق الى الصليبيين ، وتواعدوا وإياهم الى يوم مخصوص يهجمون فيه عليها، وأحرق الاسماعيلية أسواق حلب فى غضون ذلك فافتقر أهلها . وكثيرا ما استنجد بعض أمراء الصليبيين بالمسلمين فأنجدهم ملوكهم ، واستفادوا من تفرق كلمة أعدائهم . ولم يخرج أمراء المسلمين عن القوانين الحربية ، ولم يعطوا عهدا اليوم فينقضوه من الغد .

الفوائد التي عادت على المسلمين من حروب الصليبيين :

وعني المسلمون عناية فائقة بفنون الحرب التي طالت أيامها ، واستكثروا من السلاح والعدّة والخيل والمنجنيقات والدبابات ، واخترعوا أشياء في هذا الباب أدهشت الصليبيين يوم حصار عكا ، وحارب المسلمون بكل ما يحسنونه من ضروب الكر والفر ، وصنوف الدهاء والخديعة ، وقاتلوا كما قال شاهد العيان من المؤرخين " مرة بالأبراج ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوما بالنقب ، وليلا بالسرابات ، وطورا بطم الخنادق ، وآنا بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر في المراكب " وصارت الحرب للمسلمين عادة وصناعة . فكان منهم من يقاتل ساعة كذا من الليل أو النهار ، أو في الشهر الفلاني والموسم الفلاني ، وذلك لئلا يتبرموا بالقتال ، ويبتعدوا كثيرا عن عيالهم وأشغالهم . وقد عرض[1] صلاح الدين العساكر لما تجهز لحصار عكا ، فكانت مائة وثمانية وأربعين طلبا حاضرة ، ذكروا أن منها عشرين طلبا غائبة ، ورأس كل طلب أمير مقدم بالطبول والأعلام والكوسات واللبوس والزردخانات ، وأقل عبرة[2] الأطلاب من المائتي فارس الى الخمسمائة غير الأتباع .

ولقد كان من هذه النازلة الصليبية أن ظهر نبوغ ولاة المسلمين في فن الحرب والسياسة ، وقدّر أن ينشأ ملكان نابغتان نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولولا هذه الغائلة ما ظهرت فضائلهما الكثيرة ، ولا اشتهرت مزاياهما النادرة ، فذكر المسلمون بسيرتهما سيرة العمرين ، وأرجعت قوة نفسيهما الى الاسلام بهاءه ، ولولا الحروب الصليبية ما ظهر طغتكين نابغة السياسة والادارة ولا نوابغ الحرب الكامل والظاهر وقلاوون والأشرف وعشرات من القواد والزعماء . ومن حسن التوفيق أن أمراء المسلمين في العهد الصليبي قدروا كلهم

(١) التيسير والاعتبار للأسدي (مخطوط) .

(٢) عبرة : تقدير ، بكسر الأول .

حرج الموقف الاسلامى فتضامنوا ولم يختلفوا ، وربما لم تتألف قلوبهم فى عصر من العصور السابقة واللاحقة تألفهم فى تلك الأيام العصيبة، على حين كان أمراء الصليبيين يتنازعون بينهم، وربما تقاتلوا وسفكوا دماء بعضهم بعضا، ولجأوا الى المسلمين ليستعينوا بهم على منافسيهم .

وأجمع المسلمون فى مصر والشام والعراق والجزيرة (ديار بكر وديار ربيعة) وما وراءها أنهم اذا لم يشدّ بعضهم أزر بعض يضمحل الاسلام، ويزول سلطانه فى الأنام ، لأن من ملوك الصليبيين من كانوا يحاولون فتح الحجاز ، وهو أرنولد صاحب الكرك ، فأنشأ لذلك أسطولا فى بحر القلزم (الأحمر) على أيلة مما يلى الشام. وسار فى البحر فرقتين : فرقة أقامت على حصن أيلة تحصره ، وأخرى سارت نحو عيذاب تقفى المسلمين فى تلك الأرجاء . وأهان صاحب الكرك الرسول مرة بكلام روى عنه ،فحلف صلاح الدين أن يقتله بيده اذا ظفر به ، فتمت لصلاح الدين أمنيته فى وقعة حطين، لما أخذه أسيرا مع غيره من أمرائهم وملوكهم، فأبقى عليهم كلهم وضرب عنق هذا بسيفه . وكانت وقعة حطين ، وبعدها فتح الساحل والقدس، أوّل وقعة فاصلة بين العدوين المتقاتلين ، ظهر فيها جيش الاسلام بمظهر من مظاهره العظيمة فى الفتوح العربية الأولى .

ويلات الحروب الصليبية ومعالجة المسلمين ما كان لهم من نقص :

ويعدّ فى باب الخسائر أن من مدن الساحل الشامى ما خرب برمته، خربه أحد الفريقين عمدا لمقصد حربى، وخرب المسلمون كثيرا من الحصون والأسوار، مخافة أن تقع ثانية فى أيدى العدوّ ويتحصن بها، فتطول مدّة الحرب ويهلك الناس على غير طائل، وكانت أكثر أيام الحرب فى ضيق شديد من العيش، لارتفاع أسعار الحاجيات خمسة أو ستة أضعاف ، فظهر البؤس فى البلاد لانقطاع الناس عن استثمار زراعتها كما كانت من قبل ، ولأن غلاتها لا تكاد تسد حاجة جيوش المسلمين الجرارة ، ولأن من الأرضين الصالحة للزراعة ما تعطل بحكم الطبيعة،

فكانت حمًى يحجز بين المتقاتلين، وربما ابتعد الزراع عن هذا الحمى فراسخ وأميالا لأن العدوّ يتقدم ويتأخر فى أرض عدوّه تبعا للأحوال العسكرية ، وهلك عشرات الألوف من المسلمين فأحدث فقدهم نقصا فى الصفوف ، وقلة فى اليد العاملة . أما الغربيون فكانوا يقاتلون، فاذا نقص عددهم أتتهم النجدات من أوربا . وجملة حملاتهم الكبيرة سبع حملات ، منها ما جاوز عدده النصف المليون ، وقلت فى بعض الأحايين نجدات المسلمين، وعددها أقل من عدد نجدات الصليبيين .

قدر المسلمون قوّة أعدائهم حق قدرها، وعرفوا كثرة سوادهم فى بلادهم، واعترفوا لهم بالشجاعة، وإن عدّوا أحيانا شجاعتهم خرقاء، بالقياس الى من يقدّرون المسائل بقدرها ، لا يجبنون عند اللقاء، ولا يغامرون حين لا تنفع المغامرة . وكان التهوّر يبدو فى صفوف الصليبيين، فيكثر قتلاهم على غير طائل . ومن النقص فى المسلمين أنهم قلت معرفتهم بالغربيين ، وقلما عُنوا باستطلاع طلع أحوالهم . ولو كانوا على اتصال بهم بادئ بدء، ملمين بأحوال الغرب حق الالمام، ربما استطاعوا أن يثنوا عزم الغربيين عن إشهار هذه الحرب الزبون، فيعقدون معهم معاهدات ومحالفات ويمنحونهم امتيازات ومسامحات، ويزيلون أسباب الشكوى . وأيقن المسلمون أن الصليبيين كانوا أشدّ منهم عناية بأخذ أخبار بلاد الاسلام فى أوقاتها . ولذلك كتب لهم النصر أحيانا، وما لبث المسلمون أن أتقنوا أيضا فن استقاء الأخبار ، بحيث لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من أحوال أعدائهم، "وكان الرسم فى أيام الديلم ومن قبلهم ومن بعدهم من الملوك أنهم لم يخلوا جانبا من صاحب خبر وبريد، فلم تخف عندهم أخبار الأقاصى والأدانى" واحتال الصليبيون لاستمالة جيرانهم من المسلمين ، فما عدّوهم إلا غاصبي أرضهم، دخلاء على الملك الاسلامى، لا يهدأ لهم بال إلا اذا طردوا آخر صليبي عن وطنهم .

استعمل أمراء المسلمين أنواع الخدع الحربية مع أعدائهم، فتوصلوا بدهائهم الى أن يرشى صاحب دمشق جماعة الصليبيين فى القدس بمائتين وخمسين ألف

دينار ، وأرسلها زيوفا طليت بالذهب كما قيل . وكان أمراء المسلمين فى هذه الديار يعترفون لخلفاء العباسيين بالخلافة ، ويستخدمون نفوذهم المعنوى فى تقوية أمرهم وسوق الناس الى الحرب ، ولكن كان نفوذ بنى العباس الى ضعف ، وتقل المساديات التى تصل الى الجيش الاسلامى من طريقهم وبواسطتهم .

سياسة المسلمين مع ملوك الصليبيين :

لقى أمراء المسلمين عجبا من شطط ملوك الصليبيين أيام انتصارهم وأيام انكسارهم ، وما عاملوهم إلا بالسياسة الرشيدة ، وحاسنوهم ما ساعدتهم الحال بما لا ينتظر أكثر منه من خصم شريف . هكذا كان طغتكين ثم نور الدين ثم صلاح الدين فى الحملات الأولى ، أما فى الحملات الأخيرة فقلب أمراء المسلمين للصليبيين ظهر المجن ، لإيقانهم أن لين الجانب ما نجع فيهم ، ثم عرفوا أن الحال تبدّلت فى الغرب ففترت حماسة المتحمسين لنجدة الصليبيين فى الشرق ، فكان من الحزم فى ملوك الاسلام أن يستأصلوا الفرنج من أرضهم .

كان نور الدين رجل الاسلام العظيم أسس ملكا ضخما ما كلفه فتحه مالا ولا رجالا ، فلما توطد أمره أكثر من الغارات على حصون الصليبيين ففتح أكثرها بقوة نفسه وشدّة إخلاصه وإجماع الناس على محبته ، فتح أكثر من خمسين حصنا وبلدا ، وكان اذا كسر الصليبيين لا يشتط فى الطلب ، ولا يتسامح كل التسامح بحقوق أمته ، يسير بحسب الحال سير رجل عملى . كسر الصليبيين على حارم وكانت عدّتهم ثلاثين ألفا من الروم والأرمن والفرنج[1] ووقع بيمند أحد ملوكهم أسيرا فى قبضته فباعه نفسه بمال عظيم أنفقه فى الجهاد . وافتدى أحد ملوكهم نفسه أيضا بمبلغ جسيم فأخذه وبنى به مستشفى عظيما ، واشترط عليه أن لا يحارب المسلمين سنين عينها ، فما إن وصل الصليبى الى أهله حتى قضى نحبه . وكان أمراء الدولة لا يرون إطلاقه بحال لايقانهم بأنه ينكث عهده .

(١) كتاب الروضتين لأبى شامة .

أما صلاح الدين فكانت علائقه بالصليبيين أشد ظهورا ، وعلى يده كانت الوقائع المهمة الحاسمة، وفى أيامه جاء أعظم ملوك أوربا الى الشام فى حملة عظيمة، وهو ريشاردس قلب الأسد ملك الانجليز (الانكتار) ، وحاول أن يفض الحرب ونوع لذلك الأساليب، فصادق جماعة من مماليك صلاح الدين، ودخل معهم دخولا عظيما بحيث كانوا يجتمعون به فى أوقات متعددة، وكان فى كل هذا يخلط الجد بالهزل، حتى يتوصل الى مأربه من استرجاع الأرض المقدسة، وصلاح الدين يعرف ذلك ويغضي عن هذا التلاعب .

كتب ريشاردس الى صلاح الدين إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد، وتلفت الأموال والأرواح، وقد بلغ الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس متعبدنا ماننزل عنه ولو لم يبق منا أحد، وأما البلاد فيعاد الينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم ، فيمنُّ به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم . فأرسل السلطان فى جوابه : القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهى أيضا لنا فى الأصل، واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، لا يجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة على الاسلام هى أوفى منها .

وبعث ريشاردس أيضا الى صلاح الدين يقول له : لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لى أن أهلك الفرنج كلهم . قال ابن شداد[1] بعد أن ذكر ما عرضه ملكهم من شروط الصلح العجيبة : فانظر الى هذه الصناعة فى استخلاص الغرض باللين تارة وبالخشونة أخرى، وكان مضطرا الى الرواح ، وهذا عمله مع

(١) سيرة صلاح الدين لابن شداد .

اضطراره، والله المسؤول فى أن يكفى المسلمين مكره، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشدّ إقداما منه اهـ . ووقعت هدنة فى سنة ٥٨٨ هـ ، بين المسلمين والفرنج، وحلف ملوك الفرنج وعظماؤهم، أما ملك الانجليز فأعطى يده واعتذر عن الحلف مدعيا أن الملوك لا يحلفون .

بعض ما استفاده الصليبيون من حربهم :

أخذ الصليبيون عن المسلمين حياة الرفاهية، وفارقوا عيش البداوة، واشتد ولوعهم بالزراعة والتجارة ، وعرفوا أن فى بلاد الشرق الاسلامى صنائع أرقى من صناعاتهم، وزراعة ناجحة، وتجارات رابحة، ورقة معاملة، وتسامحا غريبا . وحبب اليهم الترحال فربطوا صلات تجارية مع الشرق، وأيقنوا أن المسلمين اذا سكتوا زمنا عن طلب الثأر لا يقعدون عنه طويلا ، متى أعدّوا أسباب الغلبة، وجاء فيهم أعاظم القوّاد والزعماء، وهؤلاء يُخلقون عند الحوادث فى العادة، وهم لا يَخلقون الحوادث، ولا يرتجلون زعامتهم ارتجالا .

وعرف الصليبيون[1] أن قد دعا عدم التجانس فى جيوشهم، وقلة الوحدة فى قيادتهم، الى أن ركب أعداؤهم أكتافهم فى بلاد الروم وبلاد الاسلام، وقربت هذه الحرب بين شعوب أوربا، وجمعتهم تحت لواء واحد، وأشعرت قلوبهم حب الوحدة الأدبية ، وساعدت على إيجاد فكرة أوربية ، وعلمتهم كيف يحترمون خصومهم ، وعلمت خصومهم كيف يحترمونهم ، وعقدت بينهم المعاهدات والصلات، خلال المهادنات وأيام السلام، وقد جهز ريشاردس قلب الأسد فئة من العرب جعلهم فرسانا، وعقدت عقود أنكحة بين الطائفتين، ودخل التسامح المتبادل فى الأخلاق ، قال منرو : كان النصارى يؤثرون استشارة أطباء المسلمين

(١) تاريخ الشعوب العام لمكسيم بتى .

لتفوقهم على أطباء النصرانية فى علاج الأمراض ، ولتجافيهم عن استعمال السكين والمبضع فى الجراحة . وبعث بورشارد من قبل الامبراطور فريدريك بربروسا الى صلاح الدين، فوصف معتقدات الاسلام وصفا حسنا، وأطرى روح التسامح عند المسلمين ، وذكر الحرية التى أطلقوا عنانها لأتباع كل دين، وقال إن أكثر المسلمين يكتفون بزوج واحدة . قال منرو : وكان صلاح الدين محبوبا فى الغرب لرأفته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم ، ولسلوكه سلوكا آخر غير سلوك الصليبيين سنة ١٠٩٩ ، فأثار دهشة الغربيين وعجبهم ، وكان كما هى العادة عند المسلمين، شديد التسامح مشهورا بتأدبه ، وبهذا الاختلاط ارتفع من أذهان الغربيين ما كان دسه بعض رؤساء دينهم عمدا أو عن غير عمد على الاسلام، حتى عاد بعضهم يشرح معتقدات الاسلام بضبط ودقة . وقال : ان المسلمين مولعون باقراء الضيوف، ومتفوقون فى الأدب واللطف . وكتب ريكولدوس حوالى سنة ١٢٩٤ فى مدح المسلمين قائلا : ومن لا يعجب بحماستهم وبخشوعهم فى صلاتهم وبرحمتهم الفقير وبتقديسهم اسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة، وبحسن عشرتهم ولطفهم مع الغريب ، وباتفاقهم وتحابهم . قال منرو : وعلى الرغم من مثل هذه الشهادة بقيت نظرية أكثر الكهنة على ما كانت عليه دون تغيير، فهم مافتئوا يشعرون أنه من المستحيل استمالة المسلمين الى النصرانية ، ولطالما تخوفوا من كثرة من دانوا بالاسلام من النصارى . اهـ .

وأبقى الصليبيون فى الشام ، أى فى الساحل والأرض المقدسة منه ، بعض الحصون والكنائس من الآثار، ولما ضربوا الضربة الأخيرة بيد الملك خليل (٦٩٠ هـ) سكن بعض الافرنج فى جبل لبنان ، وآب قسم آخر الى بلاده على مراكبهم . وعادت الحروب الصليبية على الغرب بخيرات لاتستقصى، ولو لم يكن منها غير تحطيم قيود التعصب الكنسى لكفى ، وذلك لما رأى الصليبيون من تسامح المسلمين، وتساهل مشاهير أمرائهم كنور الدين وصلاح الدين، فانتشرت التجارة بعد الحروب

الصليبية ، أكثر من انتشارها أيام المملكة الرومانيــة ، وأخذت أوربا عن العرب عادات الفضــيلة والمدنية ، وكل ما يهوّن الحياة ويحليها للأنفس . قال سذيو بوس بعد إيراد هــذا : بدأت الصــلات بين الغربيين والشرق بحرب بين المؤمنين ، وانتهت بمسائل قامت بين المتجرين ، وتحضر الغربيون باحتكاكهــم بالشرقيين ، وأثر هــذا الاختلاط فى أفكار النصارى الدينيــة ، فتحمسوا أوّلا للنزال والطعان ، ولمــا شاهــدوا المسلمين عن أَمَم ، ورأوا فيهم رجالا أشــدّاء منورين كرماء أمثال صلاح الدين — الذى أخلى سبيل أسرى النصارى بدون فدية ، وبعث بطبيبه الى أحد زعماء الصليبيين ليداويه من مرضه — بدأوا باحترام المسلمين .

رأى لبون فى مضار الحروب الصليبية ومنافعها :

وأفاض لبون فى نتائج العــراك الذى حدث بين الغــرب والشرق فى الحروب الصليبية ، فقال انها كانت عقيمة من حيث غايتها الأولى ، وهى الاستيلاء على فلسطين ، فان الصليبيين على ما أهرقوا من الدماء ، وبذلوا من الأموال ، رجعوا بعد قرنين ، بخفى حنين . أما من حيث النتائج غير المباشرة فى هذه الحروب ، فيمكن أن يقال إن منافعها عظيمة . وذلك أنه كان الاختلاط بالشرق مائتى سنة من العوامل القوية فى انتشار المدنية فى أوربا ، وحدث أن الغاية من الحروب الصليبية جاءت على غير ما أريد منها . ولهذا التناقض بين الغــاية المتوخاة ، والغاية التى وصلوا اليها ما يماثله فى التاريخ . وليتمثل لذهنه من شاء أن يقــدّر التأثير المشترك من احتكاك الشرق بالغــرب حالة تمدن كل الشعوب التى اختلطت بالأمم الأخرى . ونحن نعرف أن الشرق بفضل العرب كان ينعم إذ ذاك بمدنية زاهرة ، على حين كان الغرب غارقا فى التوحش . وقد استدللنا من مجموع أعمال الصليبيين أنهم كانوا فى كل مكان متوحشين حقيقة ينهبون ويذبحون ، لافرق عندهم بين عدوّهم وصديقهم ، خربوا فى القسطنطينية أثمن كنوز العاديات اليونانية واللاتينية . ولم يربح الشرق باحتكاكه

بهؤلاء البرابرة من الصليبيين ، بل خسر ونتجت له كراهة الغربيين كراهيـة دامت قرونا ، وهذا من النتائج المضرة .

أساء الشرقيون الظن بالشعوب النصرانية فى أوربا ، وتظننوا الظنون بدينهم ، لمـا رأوا من جهل الصليبيين وخشونتهم وقسوتهم الحمقاء ، وقلة دينهم ، فانفرجت مسافة الخلف بين الشرق والغرب ، بحيث يتعـذر تلافى ما فرط . وكان من ذلك زيادة نفوذ الباباوات وفساد رجال الكهنوت ، فأنتج ذلك الدعوة الى الاصلاح الدينى ، وما أعقب ذلك من المجالدات الدامية . ومن أشأم نتائج تلك الحروب ، أن تأصـل التعصب وعدم التسامح فى العـالم عدّة قرون ، وبدأ الدين فى مظهر من القسوة الوحشية ، لم يكن لنحلة عهدٌ بهـا ما خلا اليهودية . وبلغ التعصب بعـد تلك الحروب درجة الجنون ، وما زالت آثاره متجلية الى اليوم ، فقـد اعتاد رجال الدين أن يهرقوا الدماء ، فأنشأوا يطبقون على قومهم طرق الإبادة التى طبقوها على أعدائهم من قبل ، بدعوى نشر الإيمان وإبادة الإلحاد ، وكل من بدرت منه بادرة خفيفة من الخلاف ، كان حريا أن يلقى أشدّ العذاب ، وما مذابح اليهود والالبيجاويين وطبقات كثيرة من الملحدين ، وما ديوان التحقيق الدينى والحروب الدينية ، وجميع المعارك الوحشية التى سالت فيها الدماء فى أوربا زمنـا طويلا ، إلا نتائج مشؤومة نشأت عن التعصب الذى أوقد الصليبيون ناره . اهـ .

وفى الحقيقة إن الصليبيين كان يُشعر ظاهرهم بأنهم يقصدون خدمة دينهـم بالاستيلاء على القبر المقدّس ، مهوى أفئدة الأمم النصرانية ، ولكن الواقع أنهم كانوا منحلين من جوهر الدين ، وأقرب الى نزع شـعاره متى رأوا مغنما لهم ، أو فاحشة يأتونها ، أو حيلة يحتالونها ، أو جناية يجنونها ، ولا يدركون عواقبها عليهم وعلى قومهم وأممهم . فقد ذكر العماد(١) الكاتب كيف أرسـل الصليبيون فى الغرب الى إخوانهم الصليبيين فى فلسطين بضع مئات من النساء يبذلن أنفسهن للمتحاربين من إخوانهم ،

(١) الفتح القسى للعماد الكاتب .

ممـا تأباه الشرائع السماوية كل الإباء . وهـذا معنى قول لبون إن الصليبيين كانوا متوحشين جهلة قليلا دينهم ويقينهم . خلافا لمن يحاول أن يلبسهم ثوبا براقا شفافا من المدنية، وما دثارهم إلا الجهل والحماقة، وما شعارهم إلا التعصب والاستهتار .

سياسة صلاح الدين واستفادة الصليبيين :

قبل الحروب الصليبية كان لا يعـرف الشرقَ من الغربيين غير أفـراد أذكياء رحلوا فى التجارة، أو جاءوا فاسطين للزيارة ، أو نزلوا الأندلس وصقلية فى طلب علم لا يعرفونه . أما فى هذه الحروب فقد عرفوا الشرق الإسلامى، وكان الواغلون عليه من مختلف الطبقات ، فرأوا المسلمين فى عقر دارهم ، وحققوا أنهـم ممتازون بصفات حربية وأدبية وعلمية واجتماعية، رأوا أمة تحررت من قيود الدينيين بعض التحرر، وأنها أمة من طراز غير ما يعرفونه من أجيال النـاس . نقول تحررت من قيود الدينيين لأنا رأينا صلاح الدين لم يرض أن يشرك رأيه مع رأى الفقهاء فى هذه النازلة . فكان اعتماده على رأيه ورأى قواده وأهل الحنكة من رجاله ، لعلمـه بأن نظر رجال الدين يختلف فى مثل هـذه الأحوال عن نظر رجال السياسة، ولو عمل يوم فتح القدس برأى الفقهاء وعامل الصليبيين بالقسوة التى عاملوا بها المسلمين غداة فتحهم تلك المدينة، لأقام فى كل دار فى الغرب مأتما ، ولمـا انحلت العقدة المهمة من الحروب الصليبية، فكان نظره أرقى من نظر من أشاروا عليـه بقتلهم عن بكرة أبيهم، ومعاملتهم بمثل ما عَمِلوه .

أما الصليبيون فكانوا تحت سلطان رجال الدين مباشرة، اذا أحب رجال السياسـة المسامحة مع المسلمين دعوهم الى المشاكسة . واذا رأوا من الحكمة الوفاء بالعقود والعهود، أباحوا لهم التفلت من كل الايمانات والقيود . أراد ملك انجلترا أن يزوج أخته من الملك العادل أخى صلاح الدين ، وأن تكون لها البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية ؛ فللافرنجية من جانب أخيها ، وللمسلم من جانب السلطان . فأنكر رجال الدين على ملك الانجليز وضع أختـه تحت مسلم بدون مشاورة البـابا ،

و بالطبع لم يشر هذا إلا بأن يدين الملك العادل بالنصرانيـة ، فلم يتم شيء من هذا التدبير . ورأى بعضهم[1] أن الحروب الصليبية التي بدأت في القرن الحادى عشر وانتهت في القرن الثالث عشر تعدّ بالنسبة للغرب نهضة انبعثت من الطبقات النازلة بدعاية بطرس الناسك الذى جنـد تحت علم الصليب جمهورا من الفلاحين وأبناء الشعب . وهـذه الثلاثة القرون التي استغرقت بالحروب الصليبية وانتهت بالقرن الثالث عشر ودعيت بعصور الايمان كانت الدور الذى خلا في أوربا النصرانية من عقد ديوان التحقيق الديني بأمر الكنيسة أو بأمر الحكومات .

وفي التاريخ العام ان من الفوائد التي عادت على الغربيين من الحروب الصليبية تحرير أصحاب الأرضين من رقهم ، وتقوية السلطة الملكية ، وإدخال تعديل على نظام الاقطاعات ، وانتشار الشعر الغنائي واغتناء ايطاليـا ، وضعف قوّة التدين ، ووهن سلطة البابوات الخ . وربما كان من أهم ما استفادت أوربا انتقال الثروات من أيدى الأمراء والزعماء الى أرباب الطبقات الوسطى والدنيا من أهلها ، فباع من باع من الكبراء ، وابتاع من عمل بأرضه ومتجره فاغتنى واقتنى الرباع والضياع .

وذكر ميشو أن الفرنسيس والنورمانيين وسائر شعوب شمالى أوربا المتوحشة في القرن الثـانى عشر للميلاد ، كانوا في حالة البداوة ، وهذا ماساعدهم على اعلان الحروب الصليبية في الشرق ، فلما نشأت المدنية الحديثة في القرن السـادس عشر وتسربت أولا الى الملوك ، أصبحوا لايرون الاغتراب عن أوطانهم ، ولا الشعوب أن تفارق مساقط رؤوسها ، وعمت الصناعات ، وحسنت الزراعة ، وانتشر العلم ، وغدا ذكرى كل مدينـة ، وكل أسرة ، ومصطلح كل شعب وقطـر ، والألقاب والامتيازات ، والحقوق المستحصلة والأمل في تنميتها ، كل ذلك قد غير من أخلاق الفرنج ، وبدّل من ميلهم لحياة التنقل والارتحال ، وجعلها صلات تربطهم بالوطن ، وكتب التوفيق للملاحة في القرن التـالى بالكشف عن أميركا ، واجتاز الملاحون

(١) فلسفة المدنية لتوفنر .

رأس الرجاء الصالح ، فنشأ من هذه المكتشفات تبدل كثير فى التجارة ، وأخذت الأفكار تتجه وجهة جديدة . وأنشأت المضاربات الصناعية التى كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو أميركا والهند الشرقية ، ففتحت أمام الغربيين ممالك كبرى وأقطار غنية ، تسدّ مطامعهم ، وتشبع نهمة التائقين الى المجد والثروة والمطوّحات ، فأنست حوادث العالم الجديد ما فى الشرق من عجائب الخ .

هذا ما استفاده الصليبيون من حرب المسلمين فى الشام ، وهذا ما استفاده المسلمون من مهاجميهم فى ديارهم ، و بذلك رأيتم أن الصليبيين كانوا ظالمين لأنفسهم ولغيرهم فى اثارة تلك الحرب المشؤمة . جُنّوا باغراء رجال الدين منهم ، فألقوا بهم الى التهلكة ، وأضاعوا من صيت فرسانهم ، وفقدوا من شممهم وعزة أنفسهم ، لما حلوا غير أرضهم يقتلون كل برىء ، ويخالفون القوانين المرعية بين البشر . ومهما كان من النتائج التى نشأت للفريقين من هذه الحروب الطويلة ، فان الخسائر المادّية يصعب تقديرها . وتعلم الصليبيون أمورا كثيرة من مدنية العرب ، ولكن كانوا يستطيعون أن يدرسوا حضارة هذه الأمة فى الأندلس وصقلية ، من دون تقتيل مئات الألوف منهم ومن غيرهم . "رجع[(١)] الآلاف من الغزاة الصليبيين الى بلادهم وحملوا الى الناس أخبارًا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدّسة وأجلوا عنها دين التوحيد ، ونفوا منها كل فضيلة واخلاص ، وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة ، فلما قفل الغزاة الى ديارهم قصوا على قومهم أن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة وذوى ود ووفاء وفضل محبة "

اعتصم المسلمون فى هذه الكارثة العظمى بحبل الله ، ورضوا بما قدّره وقضاه ، وخلعوا عنهم ثوب الخمول ، وابتعدوا عن كل هزل وفضول ، التحفوا شعار الجدّ والاجتهاد ، لخوض غمرة هذا الجهاد ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا .

(١) الرد على هانوتو لمحمد عبده .

غارات المغول والاتراك على الحضارة العربية

حضارة المدن الاسلامية :

لئن كان من استقلال بعض أمراء القاصية عن الخلافة العباسية ما دعا الى فصم عرى الجماعة، فان هـذا الانفصال مهما كان نوعه نشأت منه أيضا فوائد عظيمة فى عمران البلاد ورسوخ الحضارة العربية فيهـا . فبنو الأغلب فى إفريقية ، وبنو طولون وبنو عبيـد فى مصر، وبنو سامان فى بخارى، وبنو بويه فى شيراز، وبنو سُبكتكين فى غزنة — كل هؤلاء نسجوا على منوال بنى العباس فى بغداد، فصارت كل عاصمة من هذه العواصم بتراتيبها وعلمها مثل دار السلام مصغرة .

وكأىّ من قاعدة كقرطبة والقيروان والفسطاط ودمشق وبخارى وسمرقند وبلخ وهراة وأصبهان والرى ومرو ونيسابور وشيراز ومراغة وهمذان وخُوارِزم بل سجستان وجُرجان وطبرستان وقزوين وجُوين وبُست وسرخس وبيهق وأُشر وسنة وفرغانة والصُّغد والشاش وطوس وغيرها من بلاد الشرق كانت آية فى حركتها العلمية، وضع الأمويون أساسها، وترسم خطاهم فيها بنو العباس فأُلبست ثوب القطر الذى انتشرت فيه . ودخلت معظم هذه المدن فى طور مدنية أصبحت معها كل واحدة منها دار علم وحكمة، تدرس فيها العلوم على اختلاف صنوفها باللغة العربية، والناس فى أرض الترك والفرس والخزر يتقدّمون كل يوم خطوة من التعرّب . أما البربر فى الغرب فانهم أنشأوا بسيوفهم ممالك فى تاهرت وسلجماسة وتلمسان والريف وفاس ومكناس، واستولوا على الأندلس لكن المدنية أضرت بهم لمـا[1] احتكوا بأهلها فى البلاد الأندلسية فقضت عليهم كما قضوا عليها ، فكان شأنهم شأن المغول فى فك عرى المدنية الاسلامية

(١) معلمة الاسلام . المرابطون .

وقلة الاستعداد للأخذ بمذاهبها، فان مذاهب الترف استولت على صنهاجة ومنهم المرابطون فهلكوا فيها كما هلك قبل ثمانية قرون أسلافهم الفانداليون فى شمالى افريقية. وصف المقدسى الرىّ فى القرن الرابع فقال : " إن فيه مجالس ومدارس وقرائح وصنائع ومطارح ومكارم وخصائص، لايخلو المذكّر من فقه، ولا الرئيس من علم، ولا المحتسب من صيت، ولا الخطيب من أدب، هو أحد مفاخر الاسلام وأمهات البلدان، به مشايخ وأجلة، وقراء وأئمة، و زهاد وغزاة وهمة" . ووصف قصر عضد الدولة فى شيراز، وكان فيه ثلثمائة وستون غرفة يجلس كل يوم فى واحدة، فقال فى خزانة كتبه إن عليها وكيلا وخازنا ومشرفا من عدول البلد، ولم يبق كتاب صنف الى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها، وهى أزج[1] طويل فى صُفَّة كبيرة فيه خزائن من كل وجه، وقد ألصق الى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق، عليها أبواب تحدر من فوق، والدفاتر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب . وكان عضد[2] الدولة محبا للعلوم وأهلها فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب . ولا تظن أن عضد الدولة كان كأكثر الملوك يخرب أقاليم ليعمر له قصرا، بل كان عاقلا فاضلا حسن السياسة شديد الهيبة . أما أبوه ركن الدولة وكانت إمارته أربعا وأربعين سنة «فقد أصيب به الدين والدنيا جميعا لاستكمال خلال الخير فيه» .

ولقد كانت بخارى وسمرقند عاصمتى العلم على عهد السامانيين حتى كادت حضرتهم تماثل حضرة بنى العباس . «وكانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر» وكان فى مراغة[3] الى القرن السابع آثار وعمائر ومدارس وخانكاهات حسنة، وكان فيها أدباء وشعراء ومحدثون وفقهاء وكذلك كانت همذان، ومازالت الى تخريبها بجند تيمورلنك «محلا للملوك ومعدنا لأهل الدين والفضل» . وأنشأ محمود بن سبكتكين

(١) الأزج بيت بنى طويلا . (٢) تاريخ أبى الفداء . (٣) معجم ياقوت .

فى عاصمته غزنة من المصانع الجميلة ما يعدّ دهشة الأمصار، وكان قصره مجمع الشعراء والعلماء، ومنهم البيرونى[1] سيد علماء العالم فى القديم، وأعظم رياضى نبغ فى الاسلام، ومنهم الفردوسى الشاعر، والعتبى الكاتب الى عشرات أمثالهم من المغنين والشعراء[2].

وما لنا ووصف تلك العواصم، واستقصاء أخبار كل واحدة منها، وما أبدع فيها رجالها من علم وعمل يحتاج الى مجلدة، وكذلك تاريخ[3] المدن التى أنشأتها العرب أو جدّدتها كالبصرة والكوفة وبغداد وسامرة وواسط ومراغة وشيراز وقصر ابن هبيرة وعسكر مكرم وأردبيل ومرخس وسمرقند وبيكند وبوزجان وسامان وشهرستان ودهسيان وأذنة والمصيصة وسلمية والفسطاط والقطائع والقاهرة والقيروان والمهدية وبونة وبجاية ووهران ورباط الفتح وتامدلت ومراكش وفاس والمسيلة وبطليوس وتطيلة والمرية والزهراء إلى غيرها من المدن العربية .

والغاية هنا أن نمثل تمثيلا خفيفا لتلك الحضارة الرائعة فى قواعد البلاد، وحسبك فى تصويرها أنه كان فى مدينة مرو فقط — وكانت مرو ونيسابور وبخارى مستقر ولاة خراسان من أول ماملكها العرب — عشر خزائن للوقف، قال ياقوت انه لم ير فى الدنيا مثل كتبها كثرة وجودة . وما خلت كل مدينة من مدارس وخزائن كتب وعلم وعلماء، وكثيرا ما كانت بعض القرى تشبه المدن فى هـذا المعنى على صورة صغيرة، دام ذلك الى أوائل المئة السابعة، وقد طغى المغول على بلاد الاسلام تحت راية جنكيز، أعظم فاتح عرفه التاريخ، وأعظم مخرّب قام فى الأرض، خرب أقطارا وأمصارا، وماعرف له من غرض فى ذلك إلا حب التخريب، ولذلك قالوا ما دهى الاسلام بمثله . امتدت مملكته من بحر الصين الى البحر الأسود[4]، واستولى على ماوراء النهر وخوارزم وخراسان وهرات وقندهار وملتان وأفنى أهلها، وقتل كل من

(١) معلمة الاسلام . غزنة . (٢) يتيمة الدهر للثعالبي .

(٣) مدن العرب للؤلف (مجلة المقتبس م ٦ ص ٤٠١) .

(٤) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى .

كان فيها من كبير[1] وصغير، ثم خربها حتى ألحقها بالأرض، وتركها بلقعا ينعق الغراب في ربوعها ، وأتى على ماتعب العرب بإيجاده ستة قرون في غزنة ونيسابور وشيراز وبخارا وسمرقند وغيرها من البلدان، وكانت من أعظم عواصم العلم وحواضر الاسلام، وبمن قام فيها من العلماء والفضلاء تمت آيات باهرة من الحضارة العربية ممزوجة بالحضارة الفارسية، فقضى المغول على كل ذلك حتى أن بعض المدن الكبرى هلك سكانها كلهم وخربت بوتها ، وكم من خزائن[2] كتب أحرقت ، ومن مدارس علم قوضت، ومن مراصد فلكية دمرت ، وكان أهم سبب في فقدان أكثر ما ألفه علماء المسلمين وحكماؤهم من التصانيف ما أتاه جنكيز وأولاده وأحفاده . ثم جاء هولاكو المغولى فدك أعظم ركن للاسلام، وخرب مدينة دار السلام، وناهيك بها من فاجعة قضت على آخر معقل من معاقل الحضارة . وما أفاد تلك الأقطار استرجاع حكومات الاسلام لها فيما بعد، فان جنكيز في أول القرن السابع، وهولاكو في منتصفه وتيمور أواخر الثامن وأول التاسع، الى غيرهم من أمراء المغول الأشرار كانوا اذا سلم بلد أو إقليم من عبث الأول جاء الثاني فأتم ما أغفل الأول، واذا فرض أن نجا صقع من الثاني فالثالث يأتي عليه لامحالة . وعلى الجملة فان المغول من الشرق والبربر من الغرب قضوا على المدنية الاسلامية[3] .

استعداد المغول للحضارة :

التتر والترك والتركمان أجيال كثيرة، يرجعون بأصولهم الى الجنس المغولى ، ومنهم بادية رحالة ومنهم حضر ينزلون القرى والمدن . وكان الترك من أول من دان بالاسلام من هـذه الشعوب ، وبقي المغول والتتر الى القرون الأخيرة على أديانهم القديمة . ونزل السلجوقيون الأتراك بلاد فارس والعراق والروم وكرمان والشام، وكان ملكشاه وألب أرسلان من أول ملوكهم الذين كانوا على شيء من العـدل وحسن

(١) معجم البلدان لياقوت . (٢) قاموس الاعلام لشمس الدين سامى .

(٣) معلمة الاسلام .

التدين . وكان أكثر هؤلاء السلجوقيين[1] يحبون العلم والآداب ، ولا سيما ملكشاه ومحمد وسنجر، ويعطفون على العلماء ، وقد ارتقت البلاد الاسلامية فى أيامهم ارتقاء محسوسا ، وانتشرت العلوم والآداب ونبغ العلماء والأدباء . وهذب الاسلام من نفوسهم، وألقى الرحمة والشفقة فى قلوب جيوشهم ، فما ارتكبت ما ارتكبه جنكيز وهولاكو وقومهم وكان هؤلاء ما زالوا على وثنيتهم ووحشيتهم . يقول هوتسما[2] أن المغول والترك كانوا فى كل زمان لا يحفلون كثيرا بالأديان المختلفة وليسوا من طبيعتهم متعصبين لها .

خرب جنكيز عواصم العلم فى فارس مثل طوس ونيسابور وقزوين وأصفهان وشيراز ومراغة وغيرها[3] ، وأكمل من أتى بعده تدميرها وكان سلاطين السلاجقة ووزراؤهم يتبارون فى إقامة المصانع كالجوامع والمدارس والجسور والفنادق[4]، واهتم ملكشاه بالعلوم وان لم يكن عالما ، فكان ورجاله يقدرون قدر ما حرموه من نعمة المعرفة، وتركوا إدارة البلاد لوزرائهم مثل نظام الملك الذى كان مطلق اليد فى الحكم، فكان السلجوقيون بما لقفوا من الثقافة العربية الفارسية يدافعون قومهم عن العبث بالمدنية ويحمونها من غاراتهم ، ويسوقونهم الى الأخذ بحظ منها . وللسلجوقيين أياد بيضاء على الاسلام يوم جدّت غارة الصليبيين عليه، وكفاهم أنه كان من أمرائهم أمثال آل زنكى ومنهم نور الدين محمود مثال العادلين فى السلاطين، ومن وزرائهم أمثال نظام الملك نصير العلم والعلماء .

وبينا كانت فى هذا الشرق القريب تتألف كتلة صغيرة تدفع الصليبيين عن سرة بلاد الاسلام مصر والشام ، فتخرب مدن وحصون، وتندك معالم وجوامع ، كان جنكيز يخرب فى أواسط آسيا بلاد المسلمين . ولم تكد تدفع الشام عنها عادية الحروب الصليبية حتى جاء هولاكو بغداد يخرّبها ويقتل الخليفة المستعصم ويقضى على جلة

(١) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى . (٢) مقدّمة زبدة النصرة للعماد الكاتب .
(٣) مقدّرات تاريخية لجلال نورى . (٤) معلمة الإسلام . مادة السلجوقيين .

الفقهاء ورجال الدولة، يضع السيف فى دار السلام[١] أربعين يوما، ويستخرج الأموال والتحف بأنواع العذاب، ويحرق معظم تلك المدينة الساحرة، وزادت عدة القتلى عن ثمانمائة ألف، عدا الأطفال ومن هلكوا فى السراديب والقنى والآبار، وأحرق قبور الخلفاء ونبش عظامهم، وبنى بكتب العلماء إصطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضا عن اللبن . وقيل إن ماء دجلة تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه التتر من الكتب والأوراق، وقيل إنه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة . هذا عدا مانهب من البلاد التى احتلها، فملأ فى مراغة خزانة عظيمة من الأسفار، نهبها من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف[٢] مجلد .

ومن أعظم البلاء فى القضاء على الخلافة العباسية بدار السلام أن الرافضة عاونوا[٣] هولاكو على المسلمين، لما جاء الى خراسان والعراق والشام، كما كانوا عاونوا جده جنكيز قال ابن تيمية : وكان العلقمى وزير الخليفة منهم فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين ويسعى فى قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم وينهى العامة عن قتالهم، ويكيد أنواعا من الكيد حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين مايقال إنه بضعة عشر ألف ألف إنسان أو أكثر أو أقل، ولم ير فى الإسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالتتر . اهـ

وجاء فى آخر القرن السابع (٦٩٩) غازان التترى يفتح الشام، وكان أسلم قبيل توليه ملك الايلخانية فى تبريز، فخرب وأحرق وقتل وصادر وعذب على استخراج المال وأحرق قسما مهما من دمشق، منها بعض أمهات مدارسها وجوامعها، وأخذ من دمشق ثلاثة آلاف ألف دينار وستمائة ألف دينار سوى التراسيم والبراطيل والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء، وحجته فى حرب أمراء مصر والشام أنهم

(١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة لابن القوطى .

(٢) فوات الوفيات للكتبى . (٣) منهاج السنة لابن تيمية .

خارجون من طريق الدين ليس لهم وفاء ولازمام ، يجورون على الرعيـة و يمدّون أيديهم العادية الى حريمهم وأموالهم .

وأغار تيمورلنك التترى أوائل القرن التاسع ، يصفى حسابات التخريب فى ممالك الإسلام ، فأخرب مدنا فى طريقه الى الشام . ومن أهم ماأخرب مدينة بغداد (٨٠٣) فذبح أهلها ودك معالمها وخربت بيوت الناس والدور العامة . وخرب أيضا ثلث دمشق و بعض حلب ، وقضى فيهما على المدارس والجوامع وخزائن الكتب ، وكانت دمشق أغنى مدينة فى العالم فضرب عليها غرامة عظيمة أفقرتها ، وكان قبل أن يلقى النار يستصفى لنفسه وقواده وجنـده ماراقهم من العروض والأموال ، ثم ارتحل عن دمشق يحمـل منها أصحاب الحـرف والصنائع[(١)] وأرباب الفضائل ، وقـد أخذ وجماعته مرـ نفائس الأموال فوق طاقتهم ، فجعلوا يطرحون ذلك فى الدروب والمنازل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ، وأصبحت القفار والبرارى والجبـال من الأمتعة والأقمشة كأنها سوق الدهشة[(٢)] ، وكأن الأرض فتحت خزائنها ، وأظهرت من المعادن والفلزات[(٣)] كامنها ، وأخذ تيمور من دمشق كل ماهر فى فن من الفنون ، وجملة من العلماء ، و ربما أخذ أناسا من الأعيان والسادة والنبلاء ، وكذلك كل أمير من أمرائه أخذ الفقهاء والعلماء وحفاظ القرآن وأهل الحرف والصناعات والعبيد والنساء والصبيان والبنات بمـا لا يسعه الضبط . هـذا ما عمله فى عاصمـة واحدة وكذلك شأنه فى معظم عواصم الإسلام .

على أن تخريب تيمورلنك لا يقاس الى تدمير جنكيز وهولاكو ، لأنه كان مسلما خرب قسما وأبقى آخر ، ونقل ـ شأن كثير من الفاتحين ـ كنوز البلاد التى وطئها الى أرض أخرى ، ومع أنه استحل إهراق الدماء[(٤)] على غير طائل فقد كان محبا للمعارف والعلماء ،

---

(١) عجائب المقدور لابن عربشاه .
(٢) سوق الثياب الطريفة فى دمشق .
(٣) يطلق على جواهر الأرض كلها .
(٤) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى .

وجعل ما جمعه من آثار المدن المخربة فى عاصمته سمرقند ، زينها بها وعمرها ، وأنشأ عدّة مدارس وخزائن كتب وغير ذلك من أساليب نشر العلم .

وبينا كانت بلاد الإسلام بعد الغوائل التى انتابتها بالصليبيين الآتين من الغرب ، والمغول الواغلين من الشرق ، تكفكف العبرات التى سفحتها فى القرن الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع ، قام من فروق فى القرن العاشر سلطان تركى ، يعدّ من أعظم السلاطين العثمانيين ، ففتح قسما من بلاد فارس واستولى على الشام ومصر وسائر بلاد الجزيرة على أيسر سبب ، ولم يقصد مباشرة الى تخريب ما احتل من المدن العامرة ، بل أراد تعريتها من ذخائر العلم والصناعات ، فعمل على انتزاع بقايا المدنيــة العربية من القسم العامر من بلاد العرب فى آسيا وإفريقيــة ، محاولا أن يعيش بالتراث العظيم الذى صار اليه من هــذه الحضارة ، ساكتا عن أصلها وسندها وعن أبى عذرتها[1] . فبدأ ينقل معظم أدوات المدنيــة الى القسطنطينية ليعمرها على الصورة الاسلامية فى الجملة ، ويخرجها من الرومية المتأصلة فيها ، لتكون محط الأنظــار بين الأقطار ، ويجعل مدنيــة الترك الاسلامية نعمت الخالفة ، لمدنية اليونان الوثنية النصرانية السالفة . فحمل هــذا الفاتح من مصر الى فروق كتب العــلم ورجاله ، وآلات الصــناعة وصناعها ، وأجمــل الأعلاق وأثمن الجواهر ، فسلب مصر مدنيتها . وكانت الأيام سالمتها قليلا فأصبحت عاصمة مهمة على عهد المماليك البرجية والبحرية ، وقويت صلاتها التجارية بالغرب ، وأنشأوا لهم مدنية لا بأس بهــا ، وراجت فى أيامهم التجارة . وخرج السلطان سليم من مصر[2] ومعه ألف حمل من الذهب والفضة ، دع التحف والسلاح وأعمدة الرخام والصينى والنحاس ، وأخذ من كل شيء أحسنه ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة ، وعمرت خزائن الاستانة وقصورها من كتب بلاد العرب التى نجت فى القرنين السالفين

(١) العذرة : البكارة . يقال هو أبو عذر هذا الكلام أى أوّل من افتضه واقترحه .

(٢) تاريخ مصر لابن إياس .

من هولاكو وتيمور، وحبس الأتراك كتب العرب فى قصورهم وجوامعهم ومدارسهم، على قلة الراغبين فيها من بنى قومهم، وبذلك محيت من الأذهان أول المظاهر العربية فى أرض العرب، وغض الأتراك الطرف عن معاهد العلم ومصانع البلاد فخربت خرابا مبكيا، ولم تعد لها قائمة. كأن هذا الجنس التترى حلمة طفيلية لا يعيش إلا بامتصاص دم غيره، وكأن السلطان سليما بعثته الأقدار للقضاء الأخير على الحضارة العربية فى فارس والشام ومصر، وهى من الأقطار التى كانت على غابر الدهر موطن الحضارة العربية وكهفها الأمين.

تخريب الأتراك ما بنته الدول قبلهم :

ومن أهم ما قضى على مدنية العرب فى عهد الترك إهمال المدارس وامتداد أطماع الطامعين فى استصفائها، ونزع وقوفها وأحباسها. وفى الخطط التوفيقية إن النظار فى مدارس القاهرة تصرفوا خلال ثلاثة قرون من العهد التركى على غير شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسة والطلبة والخدمة، وانقطع التدريس بالكلية لكثرة الاضطرابات، وبيعت كتب المدارس وانتهبت، حتى آلت الحال ببعض المدارس الفخمة والمبانى الجليلة أن أصبحت زوايا صغيرة، وزال بعضها جملة أو صار زريبة أو حوشا أو غير ذلك.

ومثل هذا وقع فى عاصمة الشام فقد دخل الأتراك دمشق وفيها أكثر من ١٥٠ مدرسة للقرآن والحديث والفقه على المذاهب الأربعة ومدارس الطب ومدرسة الهندسة، عدا الرُّبط والخوانق والمستشفيات، وخرجوا منها بعد زهاء أربعة قرون وليس فيها سوى بضع مدارس عامرة بعض الشيء ولا تدريس فيها. هذا عدا ما كان من المدارس الجليلة فى مدن الأقاليم كالقدس وحماة وحمص وحلب وطرابلس وغيرها، وكلها أصيبت بما أصيبت به مدارس دمشق[1]، وجميع هذه المدارس كان فيها خزائن

(١) الجزء السادس من خطط الشام للمؤلف. والدارس فى المدارس للنعيمى (مخطوط).

كتب، وعامة المرافق وأسباب الراحة والتشويق والاستفادة تامة . ومثل ذلك قل فى مدارس العراق، ولا سيما الموصل والبصرة وبغداد، وناهيك بالمدرسة النظامية (٤٥٩ هـ) والمدرسة المستنصرية (٦٣١ هـ) فى بغداد، ولم يقتصر نظام الملك على إنشاء المدرسة البغدادية أو الجامعة البغدادية، بل بنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارس للعلماء، وأسس الرباطات للعباد والزهاد، ثم رتب لهم الجرايات والكساوى والنفقات، وأجرى الخير والرزق لمن كان من أهل الطلب للعلم مضافا الى أرزاقهم وعم[1] بذلك سائر أقطار مملكته، فلم يكن من أوائل الشام وهى بيت المقدس الى سائر الشام الأعلى وديار بكر والعراقين وخراسان بأقطارها الى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم، حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد فى زاويته إلا وكرامته شاملة له وسابغة عليه . وكان الذى يخرج من بيوت أمواله فى هذه الأبواب ستمائة ألف دينار فى كل سنة . وكانت غلة المدرسة المستنصرية نحو سبعين ألف دينار، وقيل إن قيمة ماوقف عليها يساوى ألف ألف دينار جعلت على المذاهب الأربعة، وأقيم فيها مستشفى وأطباء يدرسون الطب كما يدرس فيها علم الحيوان والنبات والفلك والرياضيات على اختلاف ضروبها، والآداب بأنواعها والتاريخ وعلوم القرآن والحديث[2]، وهكذا الحال فى عامة مدارس بلاد العرب .

ولقد تفنن ملوك المسلمين وأهل الخير من رعاياهم فى أعمال البر والإحسان، وأقاموا من المصانع ما يشبه من أكثر وجوهه أعمال الغربيين اليوم، فقد كان كوكبورى صاحب إربل من أهل القرن السابع من بعض أولئك المحسنين، ومما بنى أربع[3] خانقات للزمنى والعميان وقرر لهم ما يحتاجون اليه، وبنى دارا للنساء الأرامل ودارا للضعفاء ودارا للأيتام ودارا للملاقيط، ورتب بها جماعة من المراضع وأجرى على

(١) سراج الملوك للطرطوشى .

(٢) النظامية والمستنصرية (ورثاء المستنصرية ووصفها الأخير مجلة المقتبس م ١) .

(٣) شذرات الذهب لابن العماد .

أهل كل دار ما يحتاجون اليه فى كل يوم . ولا تزال الى اليوم بقايا من هذه الخيرات العجيبة فى بلاد الاسلام فقد ذكر الاخوان تارو أن فى مدينة مراكش ملجأ لامثيل له فى الدنيا بأسرها، وهو بناء يكاد يكون بلدة يضم ستة آلاف أعمى يأكلون فيه ويقرأون، ولهم قوانين يجرون عليها وتراتيب تنظم من شؤونهم .

كانت العربية ماثلة فى الشام يوم دخلها العثمانيون فى سنة ٩٢٢ ﻫ فى معظم مظاهر الحياة ، فأطفأوا شعلتها وأضعفوا قوتها ، ولو نجا الشام وحده من حكمهم لنشر — لتوسطه بين الولايات العربية — أنوار الحضارة، ولو كتب له الانضمام الى مصر منذ استقلت بها الأسرة العلوية، لتساند القطران الشقيقان فى مهمة التمدين، ولما آضت هذه الولايات وكانت مستنبت العربية ، أشبه بالقرى منها بالمدن ، يوم دعا الترك داعى الرحيل . لا جرم أن صنعاء ومكة والمدينة والبصرة وبغداد والموصل وحلب ودمشق كانت الى عهد قريب من الانحطاط فى عمرانها، والجهل المتأصل فى سكانها، على ما تذرف له الدموع حزنا . ومن أين يرجى لها مدنية وقد اصطلحت على جسمها جميع أمراض الانحلال ، وهل المدنية غير ابنة الراحة والسكون، والعمل المتصل، والتفكير الطويل، وهذا ما كان مفقودا فيها .

فكروا فى المدارس القديمة التى دثرت بدخول الدخلاء والأعاجم . وكيف كان لها عمل عظيم فى القضاء على الأمية بين الناس ؟ كانت معاهد هى غاية ما وصل اليه العقل البشرى ظرفا ومظروفا فى العصور الغابرة ، وبها أثبت أجدادنا فى القرون الوسطى أنهم كانوا شيئا فى إتقان الهندسة والبناء ، وأنهم على جانب من سلامة الذوق ، وأنهم حراص على المجد . هذه المدارس تنطق بلسان حالها أن الأعمال العظيمة لم تقم لو لم تفكر بها عقول كبيرة، وأن تلك المدارس والمصانع ما كانت تعمر لو لم يدرس فيها رجال الدين والعلم والأدب ، وما كانت تسير سيرا ضمن لها الخلود قرونا، لو لم تجهز بقوانين معقولة وتراتيب متسلسلة . وما قام فى الأرض شىء من العظمة إلا كان الى جانبه عظماء يتعهدونه، ويفيضون عليه من معين قرائحهم .

قامت معظم معاهدنا فى القرون الوسطى بتأثيرات دينية ، وكانت المسائل المدنية تابعة لها وعالة عليها . ولعمرى هل كانت أوربا على غير تلك الحال أيضا فى تلك العصور . وهل البيع والديرة فى الغرب إلا وليدة الدين ومن صنع رجاله ، أو من أحبوا التقرب من قلوب المتدينين ، أو قامت بأيدى المتظاهرين بالدين من الحكام والملوك ، فلما جاء دور النهضة والإصلاح ، ونجا الغرب من تأثيرات تلك القرون بالثورة على النظم القديمة ، انتهى عمل تلك المصانع ، فانقلبت على التدريج من معاهد دين الى دور علم ، وأصبحت الدينيات تقرأ فى بعضها على أساليب جديدة من البحث والنظر ، بل إن الأموال الطائلة التى كان يجمعها ملوك الغرب بإرهاق رعاياهم ، ليبنوا بها قصورا لهم ولأتباعهم وحظاياهم ، جعلت عندهم فى عصور الارتقاء متاحف ومحاكم ومدارس . ولو تركت مدارس الإسلام وشأنها فى هذه الأقطار العربية لاستحالت مع الزمن معاهد علم وفن .

المقابلة بين الفرس والترك :

هذا ما كان من موجبات تراجع الحضارة العربية ، أو ضعف العلم والعمل فى أبناء العربية . أما الحضارة فى البلاد الإسلامية الأخرى كفارس والأفغان والهند وتركستان والقوقاز التى تأثرت قرونا طويلة بالمدنية العربية ، فشأنها غير شأن البلاد العربية منذ نفضت أيديها من دولة العرب . وكانت تعلو وتسفل بحسب روح المتغلبين عليها ، وما برح أثر العرب ماثلا فى أهلها لمكان الدين فيهم الى اليوم والى ما بعد اليوم ، مهما حاول المفرطون فى حب قومياتهم من بنيها أن يعيدوها سيرتها الأولى قبل الإسلام ، على ما نرى الفرس البهلويين والترك الكماليين لعهدنا ، يحاولون أن يصطنعوا لهم مدنيتين جديدتين ، طلاؤهما مدنية الغرب ، وروحهما المدنيتان الفارسية والطورانية ، قبل أن يتعاورهما الإسلام بالمحو والإثبات . والزمان كفيل بالحكم على تينك الأمتين بهذا النظام الجديد . ولقد طردت فارس وتركيا الجهلة من رجال الدين ، واكتفى منهم بالدارسين والعالمين ، فكان هذا الصنيع أعظم بشارة

خير لمستقبل الأمتين . وبالقضاء على الجهال الذين كانوا يضعون العثرات فى كل سبيل الى النهوض ، وودّعت فارس وتركيا ماضيا منحطا، وباتتا على رجاء استقبال عهد جديد .

أثبت الفرس بالإسلام فى القرون الخالية أنهم على استعداد لقبول العلوم والآداب وتمثلها ، فأخرجوا نوابغ اختلطوا بأصحاب السلطان ، وأفادوا المجتمع العربى ، ولم يثبت الترك منذ تشرفوا بالإسلام أنهم مستعدون لمثل ما عرف عن الفرس من كفاءة علمية وصناعية ، وإن شهد لهم العارفون منذ الأعصر المتطاولة أنهم جدّ كفاة فى الجندية، ولا بأس بهم فى السياسة الدولية (١) . فقد هيأ بعض الملوك العثمانيين عامة الوسائط لنشل أبناء جنسهم من عثرات الجهالة، وحاول سيد ملوكهم محمد الفاتح أن يجعل من دار ملكه فى فروق موطنا علميا يضاهى به على الأقل دولة المماليك فى مصر والشام . وبذل لذلك أنواع البذل والمعاونة، واستدعى العلماء من الأقطار يغدق عليهم الجرايات والمشاهرات وأنواع التكرمة والتجلة . ومن جملتهم عالم عصره فى بلاد ما وراء النهر علاء الدين بن محمد القوشجى (٢)، أراده السلطان على

(١) سألت فى الحرب العامة صديقى سليمان نظيف وجناب شهاب الدين من أعاظم أدباء الترك وعلمائهم أن يمليا على جريدة بأسماء كتب العلم التى وضعها الأتراك العثمانيون فى العهد الأخير فأنكرا سؤالى وقالا : وهل تذهب الى أننا أمة علم ، ومن أين نأتيك بهؤلاء المؤلفين الذين لم ينشأوا بين أظهرنا الى اليوم ، نحن أمة خيال وأدب، وجل ماعندنا من هذا القبيل هو شعر وقصص نقل أكثره عن اللغات الأوربية ، وما خلفه الموسومون بالعلم من أبنائنا فى فنون الحرب والبحر والقانون والإدارة فانما هو مترجمات ، لا يدلنا فى متونها وشروحها وحواشيها إلا القليل الذى لا يؤبه له . قالا ذلك وكانا يأسفان لأنه لم يتم للسلطان سليم تنفيذ منهاجه فى نشر اللغة العربية ، وجعلها لغة الدولة الرسمية ، قائلين لو وفق إلى تحقيق أمنيته لكان العثمانيون غير ماهم عليه اليوم ، يكتبون العربية مشبعة بهواء الإستانة الجميل ورقة بيزنطية ، ولأدمجوا حضارة العرب فيهم وكثروا سوادهم ، فأتوا بمدنية جديدة توحدت فيها جميع عناصر السلطنة . ولطالما ذكرا أمامى ما وقع من الارتقاء لبلغاريا ورومانيا وصربيا واليونان منذ سلخت عن جسم السلطنة ، وتم لبلادها فى سنين قليلة ما لم يكتب مثله للبلاد العثمانية فى بضعة قرون ، أوكما وقع لمصر فى هذا الشأن فنقلت بنزعها من العثمانيين على يد الأسرة العلوية من الجحيم الى النعيم .

(٢) الشقائق النعمانية لطاشكبرى .

استيطان بلاده هو وتلاميذه وأعطاه مدرسة أيا صوفيا، فلما هلك الفاتح اضمحل كل ما أسسه القوشجى، لأن من العادة هنا أن يزول كل عمل بزوال عامله الأول، وكل ملك يغير طريقة حكمه بحسب معرفته، وقد يحسد سلفه على ما صنع من جميل ولو كان أباه، فيقضي عليه أو يتراخى فى إنجازه. وما كانت المدارس الدينية فى الإستانة بل فى الأناضول والروم ايلى فى الأدوار السالفة إلا صورة من انحطاط التعليم، لا نور فيها إلا بقدر ما تخرج تلاميذ وسطا لتولى الوظائف الدينية. وقل أن جاء فيهم عالم كبير يذكر، وعالمهم من كان يحسن النقل والاختصار والجمع، مع ركاكة أعجمية بادية، وإبهام فى كتبهم لا تحل رموزه ومعمياته، خلافا لما ألفه الفرس وعلموه باللغة العربية. على أن العثمانيين يشكرون على أن لم يغفلوا فى معظم أدوارهم العناية بالدروس الدينية باللغة العربية على رسوم دول الاسلام.

هذا فى العلوم الدينية أما فى العلوم المادية فقد قال مؤرخو الترك والافرنج إن الأتراك طاردوا[1] علماء بيزنطية فكانوا سبب نهضة ايطاليا ونشر المدنية الحديثة. ولا ينكر أحد أن الأتراك أرسلوا من الاستانة مواد بناء المدنية، فان أوربا على ماقيل مدينة بمعارفها الحاضرة الى بضعة من فضلاء بيزنطية هاجروا منها الى ايطاليا بدخول العثمانيين، أمثال بناديس وساريون ويوركى الطربزونى وكسطى وسكارديس وفرانجس وميخال دوكا.

بيد أن كل تدبير للنهوض يضعف تأثيره إذا لم تكن الأمة متأهبة لقبوله. ويعترف علماء الترك أنه لم يظهر فيهم رجل[2] من عيار ابن رشد الفيلسوف، فكّر بحرية ثم كتب ما فكر فيه بجرأة، ولم ينبغ فيهم ولامؤلف واحد يشبه من خرج من العرب فى أدوار ارتقائهم. والأتراك بعد ستمائة سنة فى الحكم لم يفارقوا الأخلاق التى عرفوا بها يوم جاءوا من بلادهم الأصلية — كما قال جناب شهاب الدين — ونزلوا بلاد صاحب قرمان شراذم[3] يرعون أغنامهم ومواشيهم، ولما استصفوا تلك

(١) تاريخ تدنيات عثمانيه لجلال نورى. (٢) تاريخ تدنيات عثمانيه لجلال نورى.

(٣) شرذمة بالكسر القليل من الناس وفى التنزيل إن هؤلاء لشرذمة قليلون، جمع شراذم.

البلاد وأنشأوا لهم حكومة ، وتوسعوا فى السلطان وتبسطوا فى رحاب المدنية القديمة ،وأسسوا على أنقاضها تلك الامبراطورية العظيمة، لم يتجردوا من صفاتهم، وظلوا بعد كل هذا على أخلاق الرعاة ، يظنون كل الناس غنما لهم وسائمة، يقودونها كما يشاءون، و يتصرفون بأوبارها وألبانها، بل بلحمها وعظمها ، ولكن رعية الغنم غير رعية الأناسى، وهيهات أن تقوم بهذه الذهنية مدنية تذكر . يريد أن يقول، وهو تركى الجنس، إن قانون الرجعة قضى على الترك أن يظل دمهم كما كان، وإن قضوا أجيالا فى بيزنطية الجديدة .

رأى لبون فى الترك والتتر :

رأينا البلاد التى خضعت للترك قرونا متقهقرة متراجعة، خرجوا منها كما دخلوا اليها على مركبات البقر، على ما وقع لهم فى الروم ايلى، وكانوا إذا فتحوا بلدا عمروا فيه ثكنة أوّلا وجامعا ثانيا . أما المدرسة فلا تعمر إلا بعد سنين طويلة وبدواع كثيرة، يعمرها بعض نبهاء عمالهم على الأكثر بالسخرة وأموال المظالم والمغارم، وذلك فرارا بأموالهم من المصادرات، أو بأنقاض الجوامع والمدارس القديمة،وما أكثر ولوعهم بالبناء على الأنقاض . وهذه المدارس إذا قيست بما كان من نوعها فى مصر لا تعد شيئا.وقد نظر لبون الى عمل الترك فى التمدين نظرة قدّر معها الأشياء بقيمتها فى الجملة فقال : جاء الأتراك بعد العرب فاستولوا على جزء عظيم من بلاد الشرق ومنها مصر، والأتراك إذا نظر اليهم من الوجهة السياسية كان لهم عصر عظمة ، فان سلاطينهم الذين خلفوا إمبراطرة القسطنطينية ، ورفعوا علم الهلال على كنيسة أيا صوفيا بدلا من الصليب اليونانى، قد أدخلوا الرعب زمنا طويلا على قلوب أشد ملوك أوربا شكيمة، وتوسعوا فى نشر كلمة الإسلام، بيد أن سلطانهم كان أبدا عسكريا محضا، أثبتوا كفاءتهم لتأسيس مملكة ضخمة، وكانوا الى العجز فى كل أيامهم عن إحداث مدنية لهم ، وما كان أقصى همهم إلا أن ينتفعوا بما كان تحت أيديهم، فأخذوا

عن العرب العلم والفنون والصناعة والتجارة وما إلى ذلك . وفى جميع المعارف التى برز فيها العرب لم يؤثر للترك أدنى ارتقاء . وكما أن الشعوب التى لا ترتقى تتراجع بحكم الطبيعة، ما عتمت ساعة انحطاط الترك أن حانت . وترجع نهاية تاريخ مدنية العرب فى الشرق الى اليوم الذى انتقلت فيه القوة الحربية فى بلادهم الى أيدى غيرهم . وظل التاريخ يذكر العرب لما لهم من التأثير الدينى ؛ ولكن مستوى المدنية التى بلغوها لم توفق العناصر التى خلفتها الى الاحتفاظ به . وكانت مصر أعظم البلاد التى ابتليت بهذا الانحطاط العظيم ، فبدأ تدنيها من العصر الذى انتصر فيه السلطان سليم، وجعل مصر ولاية من ولايات السلطنة العثمانية . فضعفت فيها الفنون والعلوم والصناعة بالتدريج ، وكانت مصر كسائر الولايات التى ربطت بالاستانة ، يديرها ولاة يتوالى تبديلهم، ولا يفكرون إلا بأن يغتنوا سريعا، فمسخ رونق البلاد القديم، ولم يقم أقل مصنع جديد، وأهملت المصانع التالدة . وخلت من يد تتعهدها ، ولم يبق منها إلا ما غفلت عنه الأيام . قال وإن من الرعايا من هم أرقى أخلاقا من حكامهم، وإن الشعب التركى خلق جنديا لامثيل له ، وإن بلادهم بأسرها خراب ، وهى مزيج من عناصر أذلها الأتراك وما تمثلوها . قال إن المغول خلفوا العرب فى الهند فأخذوا عن المدنية العربية ، وإذا عجزوا عن أن يرقوا بها فقد أحسنوا الانتفاع منها فرقيت الهند على عهدهم .

وقال أيضا[1] : كانت الشام على عهد الأمويين وأوائل عهد العباسيين من البلاد التى رأت حضارة بلغت أقصى حدود رقيها ، وأصبح العرب أساتيذ بعد أن كانوا تلاميذ . واستفاضت العلوم والشعر والفنون الجميلة أى استفاضة . ودام نجاح الشام الى عهد التقسيم الذى مزق مملكة الخلفاء، وعندها أخذت بالضعف، ولكنها لم تنطفئ شعلتها كل الانطفاء إلا عندما سقطت فى حكم الأتراك . ولم يكن الخراب

(١) حضارة العرب لجستاف لبون .

مطلقا، فان معظم عجائب البذخ والفنون والصناعة التى جمعتها العرب قد زال أثره . ولم تلبث بعض العواصم مثل صور وصيدا أن أصبحتا فى حكم قريتين كبيرتين ، وعريت الجبال من أشجارها كل التعرية ، وأقفرت القرى من سكانها ، وكانت من أغنى الأرضين . وفى هذه الأماكن التى طالما أمرعت فى غابر الدهر، أصبح العشب لا ينبت، منذ ضغطت عليها أيدى الترك . اه .

هذا رأى لبون فى حكمه على الأتراك واستعدادهم للحضارة، وما أثروه فى بلاد العرب ، ومن العدل أن لا يفوتنا أن انحطاط العرب بدأ بذهاب الدولة العباسية، وبأمثال هولاكو وجنكيز وغازان وتيمور من المغول . وكان العلم يعيش فى البلاد الإسلامية بقوة التسلسل المنبعثة من أصله المتين ، فلما جاء الأتراك العثمانيون لم يزيدوا أوضاعا من شأنها تقوية العلم ، بل سكتوا على ما كان ، فزاد بهم التأخر، لأنهم لم يسعهم أن يأخذوا بأيدى الناس الى مضمار التقدم فى العلوم والآداب ، ولو بصرف العناية فى إخراجهم من الأمية .

جهل الترك وتجهيل العرب :

ومن أدهش ما يدوّن فى عهدهم أن أحد وزراء المعارف المتأخرين كان يضع مناصب التدريس فى المدارس الثانوية فى المزاد ، ويتولى المنصب أجرأ المدرسين على تنقيص المشاهرة، يوسد الى من اقتنع بالقليل فى هذه التولية، مهما بلغ من جهله فى الفن الذى أخذ على نفسه تدريسه بهذا الراتب الضئيل . وحدث أنهم وسدوا دروس الدين الى غير المسلمين فى المدارس الثانوية . وكان من العادة فى المدارس الوسطى بالبلاد العربية أن يعهد الى أبناء العرب الذين لا يحسنون التكلم والكتابة بالتركية بتدريس الآداب التركية، والى الأتراك الذين لا يجيدون تأليف جملة واحدة بالعربية أن يدرسوا الصرف والنحو والمنطق والبيان العربى . أما المدارس الابتدائية فمعلموها خرجوا على الأكثر من غمار الجهلاء، وليس غير بعض

المدارس العالية فى العاصمة كالمدارس الملكية والحربية والطب والهندسة، فى أواخر أيام الدولة ، يتولى التدريس فيها علمـاء أجلاء من الترك والعرب والأرمن والروم والفرنسيس والألمـان وغيرهم .

ولو عنى العثمانيون بالتعليم عنايتهم بالجيش منـذ القديم، لمـا وصلت بلادهم الى ما وصلت من الجهل، ولمـا صار المسلمون فى أيامهم الى الانحطاط المبـكى ، ودولتهم جعلت التعليم صوريا لا حقيقيا . و بينا لا نجد فى كل مئـة قرية فى بلاد العرب مدرسة ابتدائية واحدة، نرى الدولة من جهة أخرى قد بلغت بها الغيرة على نشر لغتها أن تكتب العقود واسناد الضرائب والمواثيق والأحكام باللغة التركية. وأعظم من هذا أن حظرت استعمال اللغة العربية فى المحاكم النظامية فى التقاضى والكتابة، فحاربت بذلك العرب والعربية جهارا، حربا ليس فيها شيء من المنطق، وأتى زمن ولا من يحسن القراءة العادية فى عدّة قرى كبيرة . بل حدث أن بعض النابهين فى بليدة إسلامية أراد أن يعلم ابنه القرآن فلم يجد له فيها شيخا يستطيع إقراءه إياه، فعمد الى راهب يقرئه لابنه ففعل . وكان المسلمون أيام كان لهم بقـايا من العـلم يقرئ علماؤهم أهل الذمة كتبهم الدينية . فقد وقع لكمال الدين بن يونس[(١)] فى الموصل وعز الدين الإربلى فى دمشق من أهـل القرن السابع أن قرأ عليهما أهـل الذمة التوراة والإنجيل وكانا يشرحانهما لهم ويعلمانهم الكتابين على طريقة حسنة ليست فى استطاعة الحاخامين والقسيسين أن يقرأوهما لهم فى ذاك العهد، يدرسان ذلك على نحو ما كانا يقرئان المسلمين والفلاسفة[(٢)] .

هذه صورة من غزوات المغول والترك على الحضارة العربية ، والمـامة بالعوامل العظيمة التى تحيفتها فى القرون الأربعـة الأخيرة بقيام دولة حربية أعجمية

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان وفوات الوفيات للصلاح الكتبي .

(٢) نكت الهميان للصفدى .

خربت فى أيامها المدارس ، وضاعت الأوقاف ، وتراجعت المصانع والصنائع ، وفقدت الكتب وأدوات الصناعة ووسائل إخراج الثروة ، فكان هذا المرض الذى استحكم فى البلاد زمنا طويلا بفعل الدولة وعمالها الخائنين أشد عليها من جميع أمراضها السالفة ، يشبه ما حل بساحتها من مصائب المغول المرة بعد المرة . وعابر سبيل اذا حاول التدمير قد يكون ما جنته يده الأثيمة أقرب الى الاصلاح ، من مقيم يخرب كل يوم فى المعنويات والماديات ، على غير اطراد ولا نهج معقول ، ويطول عهد تخريبه وتخريفه .

غارات المستعمرين من الغربيين على بلاد المسلمين وغيرهم

تاريخ الاستعمار واستعمار البرتقاليين :

بين الاستعمار والاستثمار تقلب البشر فى أرجاء الأرض ولا يزال يتقلب : يستأثر العامل بالخامل، ويتحكم العالم بالجاهل، يغزو القوى الضعيف، ويستهوى الأعز الأذل، والجهاد فى ذلك على أشكال تختلف طريقتها، وتتفق أبدا نتيجتها . والغاية المنشودة تحصيل الرزق من كل وجه وبكل حيلة، والأخذ بحظ من النعمة، تعين على الاستمتاع بمباهج الحياة ومناعمها . والطبيعة ما حادت عما رسمته من قانون : يأكل المستبسل المستسلم، والأرض على الدوام بين غالب ومغلوب، وصائد ومصيد، والدنيا ما انفكت طعمة لمن غلب .

الاستعمار ضرب من الهجرة ينزل المهاجر بلدا يسكنه سكنى دائمة على غير أمل العودة الى موطنه الأصلى فيعمر الأرض بكده، ويستخرج خيراتها ببذل أوفى نصيب من سعيه . يزيد فى إمراعها، للاستكثار من ريعها، على أتم منوال، وأجمل مثال . واذا سألت المدركين من المستعمرين قالوا لك (١) إن استعمارنا تقاضانا كثيرا من الشجاعة والبطولة والمفاداة والعبقرية، واننا استصفينا كل مدرة من أرض مستعمراتنا بنقطة هريقت من دم أولادنا، ونحن نقصد من جهودنا أن يؤسس لنا أبناؤنا فى كل مكان ملكا يضاهى بعظمته بلادنا، يفلحون بما ينتجون، وينتشرون ويتكاثرون، ويحتفظون بلغتهم وأخلاقهم ونبوغهم، فتنمو ثروتنا، ويخلد مجدنا، وتستفيض شهرتنا .

(١) زهرة التواريخ الفرنسية لهانوتو. G.Hanotaux : La fleur des histoires françaises.

ينشأ الاستعمار فى العادة من حركة[1] رجال تختلف درجات حضارتهم وأساليب انتفاعهم فى أصقاع مختلفة الأوضاع ، تتباين صور السير فيها . ويتم هذا الاستعمار بوسائل سلمية ، ولا يستلزم منه أن يكون أبدا استعمارا مدنيا ، فما كل حين يقوم الاستعمار على الزراعة والتجارة ، بل كثيرا ما كانت تهاجم البلاد المستعمرة فتؤخذ حربا . والاستعمار عريق فى القدم ، ومن أقدم الأمم التى عانته الفينيقيون والرومان واليونان . واستعمار الفينيقيين تجارى ، كانوا يجتزئون فيه بإنشاء مكاتب لمتاجرهم فى البلاد التى ينزلونها ، وما سكن قط أبناؤهم فيما استعمروه من البلاد سكنى دائمة . وطريقة الرومان واليونان فى استعمارهم أن يسكنوا بنيهم فيما يحتلون من الأرض ، ولذا أزاحوا الفينيقيين عن متاجرهم . وكان العرب أرباب خبرة واسعة فى الاستعمار شهد لهم الإفرنج بذلك ، وذكروا أنهم ظلوا معروفين بهذه الصفة فى كل أدوار تاريخهم[2] . وما استطاع الجنويون والبيزيون والبنادقة وهم أجداد الطليان ، أن يتعدّوا حدّ الاستثمار فى مستعمراتهم ، فأشبه استعمارهم الاستعمار الفينيقى والقرطاجنى .

كان البرتقاليون فى بدء العصور الحديثة أوّل الأمم الغربية التى نهضت للاستعمار ، فبدأوا باحتلال سواحل الغرب الأقصى حتى لم يبق بيد المسلمين من ثغوره غير سلا[3] ورباط الفتح واستولوا على بلاد الهبط وضايقوهم بها ، حتى انحازوا الى الأمصار المنزوية عن الأطراف . ثم أخذوا يتقدّمون فى بحر الظلمات حتى كشفوا شواطئ إفريقية الغربية والشرقية ، متقدّمين الى الشرق للاتصال بجزائر الأبازير "البهارات" كشفوا هذه الطريق على عهد الأمير هنرى[4] بن الملك جوان الأوّل البرتقالى المتوفى سنة ١٤٦٠ م . وكان عالما باحثا انقطع اليه بعض اليهود وعلماء من الفاسيين والمراكشيين المغاربة كانوا يعدون لذاك العهد علماء العالم . فأخذوا ينقبون فى جغرافيات العرب وغيرها ،

---

(١) لا روس الجديد المصوّر Nouveau Larousse illustré

(٢) لاروس الجديد المصوّر . (٣) الاستقصا للسلاوى .

(٤) حاضر العالم الإسلامى .

حتى عرفوا إمكان الدوران حول إفريقية، فكان لهذا الأمير الفضل على أوربا كلها، وما تم ذلك على يده إلا بأبحاث علماء العرب وكتبهم .

ووصل البرتقاليون بعد حين الى جزائر الأبازير فأصبحت ميدانا لتجارتهم أمدا طويلا . انتهوا الى مليبار فى الهند فى سنة أربع وتسعمائة من الهجرة[1] (١٤٩٨ م) ودخلوا الى كاليكوت واشتغلوا بالتجارة وقالوا لعمال السامرى : ينبغى منع المسلمين من تجاراتهم، ومن السفر الى بر العرب، والفوائد الحاصلة منهم يحصل منا أضعافها. وقال كبيرهم لراعى كش : أخرج المسلمين عن كش يحصل لك منا من الفوائد أضعاف مايحصل منهم . فأجاب بأنهم رعيتنا من قديم الأزمان، وبهم عمارة بلدنا فلا يمكننا إخراجهم . وكان البرتقاليون يطلقون على المسلمين اسم «الكفار» وكان من أوّل مقاصد فاسكودى جاما الملاح البرتقالى من طوافه بحر الهند محاربة السفن[2] العربية، بل كان الغرض من تطوافه فى هذا البحر أن يحارب الصليب الهلال فى أقصى بقاع المعمور، أو أن تحارب رومية مكة فى مكان يبعد أكثر من ألف وخمسمائة فرسخ عن الميادين المألوفة لاقتتالها ، ترسل البرتقال جنودها وبحارتها الى ما وراء القارة الافريقية ، لتحيط بالاسلام وتجعله بين نارين لتجفف ينابيع ثروته ، وتقضى على صروح عظمته وشوكته . حتى ان البوكرك الملاح البرتقالى لما هاجم عدن عزم على إغراء الحبشة بتحويل النيل عن مجراه الى البحر الأحمر، كما خطر بباله أن يهاجم مكة بجيش من الفرسان . وأهم ما كان الغرب يهتم له فى الواقع أنه كان للهند طريقان فى منتصف القرن الخامس عشر، أحدهما من البر والآخر طريق مصر والشام فى البحر، وكان كلاهما فى أيدى المسلمين . فالبرتقال تولت فتح هذه الطريق لأبناء الغرب .

ذلك لأن البرتقاليين كانوا يعرفون العرب منذ استولوا على بلاد البرتقال أواخر القرن الأوّل من الهجرة ، ويعرفون بأسهم وشدّة مراسهم ، ويقدرون غناءهم

(١) تحفة المجاهدين فى أحوال البرتكاليين لزين الدين .

(٢) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية لجيان تلخيص يوسف كمال .

فى أعمـال الحياة قدره، ولا ينسون أنهم ذاقوا الأمرّين مدّة قرنين حتى أخرجوهم من ديارهم . ثم عادوا بعد سنين واستولوا على بلادهم دهرا، ولذلك كانت عداوة البرتقاليين للسلمين فى جنوبى الهند بالغة حدّا كبيرا على ماقال زين الدين : يهزأون بهم، ويظلمونهم، ويعطلون حجهم، ويحرقون مساجدهم، ومنها مااتخذوه بيعا لهم، ويأخذون مراكبهم وأموالهم، ويطأون مصـاحفهم وكتبهم بأرجلهم، ويحرقونها بالنار، ويهتكون حرمة المساجد، ويحرضون على قبول قول الردّة والسجود لصليبهم، وإذا سـقط أسرى المسلمين رجالا كانوا أم نسـاء فى أيدى البرتقاليين ينصّرونهم قسرا، الى غير ذلك مما كانوا ينزلونه فيهم خاصة من العذاب ليخلو لهم الجو فى تلك الأصقاع، ويقبضوا على زمام تجارة الهند، ويطردوا عن أسواقها وموانيها المنافسين لهم . ورجع البرتقاليون لأول مرة من مليبار الى البرتقال يحملون فى سفنهم الأبازير، وتتابع فى كل سـنة وصول مراكبهم العديدة تقلّ من البرتقال الرجال والأموال، وتوالت أسفار مراكبهم الكثيرة بهذه الحاصلات الثمينة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والقرنفل والبسباس مما تكثر فائدته . ولم يبـق للسلمين غير تجـارة القوقل والنارجيل ونحوهما .

أما أمراء المسلمين وغيرهم فى تلك البلاد فمـا استناموا للضيم الذى أصابهـم ممن جاؤهم متجرين ثم مستعمرين، وكانوا كثيرا ما يحاربون البرتقاليين وينال بعضهم من بعض "ولم تتوطد سلطة البرتقاليين فى الساحل دون غارات ومصاعب، فان العـرب كانوا يطرقون كل باب لاثارة خواطر الأهلين على مزاحميهم البرتقاليين وطردهم عن المراكز التجارية التى كانوا هم أصحاب التصرف المطلق فيها" . وخاف الغورى صاحب مصر فأرسل فى بحر القلزم أسطولا لقتالهم، يصدّهم عن بلاده وينقذ تجارة مصر منهم، لأن معظم تجارة الشرق كانت تصدر اليها، وقد عاونته البندقية على عمله، وأرسلت اليه الخشب لعمل السفن فى البحر الأحمر، لأنها كانت تخشى أيضا على تجارتها . ولمـا سقطت دولتـه أرسلت الدولة العثمانيـة بإمرة أحد قوادها

أسطولا مؤلفا من مئة مركب، فقتل سلطان عدن وبعض كبرائها من العرب حتى جعلها فى قبضته، ثم وصل الى جزرات وشرع فى حرب ديو (١٥٣٨ م) وكسر أكثر القلعة بالمدافع العظام التى كانت معه، ثم تهيب الافرنج فرجع أدراجه من غير فتح الى مصر فبلاد الروم . وعاد الأتراك يحاربون البرتقاليين فى تلك الاصقاع النائية، وشغلوا قسما من قواتهم فيها، توقفوا معها عن تحقيق أمانيهم من فتوحهم فى أوربا، لأن الترك كانوا بلغوا أسوار فينا وألقوا الهلع فى قلوب أهل الغرب .

ومُكِّن للبرتقاليين فى كثير من البنادر كبنادر ماليبار وجزرات وكنكن وغيرها واستولوا "بحكمتهم وإجماع رأيهم" على كثير من البلدان فبنوا القلاع فى هرموز ومسكت وديومحل وسمطرة وملاقة وملوكو وميلابور وناك فتن، والأخيران من بنادر شولمندل، واستولوا على بنادر كثيرة من جزيرة سيلان، كما استولوا على زنجبار وممبسة وموسامبيق وملندة، ووصلوا الى الصين وصارت لهم التجارة فى هذه البنادر وغيرها، وذل تجار المسلمين وصاروا لهم كالخدمة لا يمكنونهم من التجارة إلا فيما قلت رغبتهم فيه . وأما ما أهمهم اقتناؤه من البضائع وكثرت فائدته فيستأثرون به لا يمكنون غيرهم من الاتجار به، وقطعوا على المسلمين طريق السفر الى بر العرب وملاقة وأشى ودناصرى وغيرها، وانقادت لهم رعاة البنادر حتى صار الحكم فيها حكمهم، وانقطعت أسفار البحر إلا بأمانهم وجوازاتهم، وكثرت تجاراتهم ومراكبهم ومنازلهم وقلاعهم، وقلت تجارات المسلمين إلا على السفن البرتقالية . وفى سنة تسعين أو احدى وتسعين وتسعمائة اشتدوا فى المرابطة على متعلق السامرى، فتعطل سفر المراكب وانقطع جلب الأرز الى بلاده فوقع فيها قحط عظيم .

استندنا فى أكثر هذا الى ما رواه زين الدين، وقد وصف البرتقاليين بأنهم "أهل مكر وخديعة، عارفون بمصالح أمورهم، يتذللون لأعدائهم وقت الحاجة غاية التذلل، وإذا انقطعت حاجتهم سطوا عليهم بكل ممكن، وكلهم كلمة واحدة لا يخالفون أمر كبرائهم، ولا يختلفون بينهم مع بعد المسافة عن رعاتهم، ولم يسمع

أن أحدا منهم قتـل كبيرهم لأجل الولاية ، ولذا دانت لهم مع قلتهـم رعاة مليبار وغيرها ؛ بخلاف ما عليه عساكر المسلمين وأمراؤهم من الاختلاف وطلب الاعتزال عن الغير ولو بقتله ".

ولقد استعمر البرتقاليون سواحل إفريقية على بحر الظلمات ، وأسكنوا قومهم بلاد البرازيل وعمروها برجالهم كما احتلوا بعض سواحل أميركا ، ثم نزعت أيديهم عن أكثرها ، وداموا[1] نحو مائتى سنة أصحاب شأن فى الاستعمار ، واغتنوا من تجارة الأبازير والأحجـار الكريمة والعبيد أى غنى ، واغتنى ملوكهم بما جبى اليهم من أموال الخراج والمكوس والاحتكارات والأرض من بلدان افريقية الشرقية وغيرها ، وكان عمالهم يرتكبون ضروب المظالم والارهاق فى جمعها ، فكثرت أموال البرتقال بهذه الفتوحات العظيمة ، وأصيب البرتقاليون فى أقل من نصف قرن بزهو وغرور وما يتبعهما من فساد الطباع والأخلاق ، مما تولدت منه أحقاد فى صدور من نزلوا عليهم وحكموهم بالجبرية والعنف ، ولا سيـما العرب الذى حاربوهم نحو قرن ونصف للقضاء على سلطانهم ، حتى جمع العرب شملهم تحت راية صاحب عُمان من أمراء المسلمين ، وانتزع الحكم فى سنة ١٦٥٨ م من يد البرتقاليين ، وذلك من رأس دلجادو الى جردفون ، وذل البرتقاليون وقتل ألوف منهم ، ولطالـما قتلوا المسلمين وأحرقوا مساكنهم ، وكم من مدينة دمروا ومن أصقاع تركوها بلاقع على ماروى ذلك «جيان» الملاح الفرنسى .

واستعمر الإسبان بفضـل خريستوف كولمبس البـلاد التى احتلوها فى القرن السادس عشر ، وهى تتناول معظم سواحل القارة الأميركية من جنوبها ، ثم خرجت كلها عن حكمهم أوائل القرن التاسع عشر لسوء إدارة رجالهم . وكان من قواعدهم فى استعمارهم أن لا يذهب الى أميركا إلا من كان من أسرة إسبانية كاثوليكية لم يحكم ديوان التحقيق الدينى على أحد من أفرادها منذ جيلين ، وذلك لمدة سنتين فقط .

(١) مجد البرتقال وجمالها لشاغاس فرانكو

Chagas Franco : Les gloires et les beautés du Portugal.

وتاريخ استعمار الإسبان فى جنوبى أمريكا وما فيه من أنواع الفظائع التى ارتكبوها من غير نكير، لاستلاب الذهب والأحجار الكريمة من العبيد سكان البلاد الأصليين، وإخاشهم فى ظلم من امتنعوا من التنصر، يشبه ما أتاه البرتقاليون من الظلم، للاستئثار بتجارة الأبازير والجواهر فى الهند وما إليها .

الاستعمار الهولاندى والانجليزى والفرنسى وغيره :

واغتنم الهولانديون فرصة استيلاء اسبانيا على البرتقال[1] فأنشأوا لهم فى الشرق الأقصى مستعمرة عظيمة بقى لهم منها الى اليوم جزائر ماليزيا « الملايو » العظيمة «جاوة وسمطرة» ، استثمروها على طرائق هدتهم تجاربهم إليها ، فكانوا يبدّلون الحسن بالأحسن اذا أيقنوا أنه أنجع لهم، فأبانوا فى ذلك عن ذكاء عظيم ومرونة غريبة . وكانت بحريتهم التجارية فى القرن السابع عشر أكبر بحرية لدولة أوربية، ومستعمراتهم تجارية يتجر فيها من يحب . وشركة الهند الهولاندية أو شركة البلاد البعيدة التى أنشئت سنة ١٥٩٩ هى التى استولت على هذه المستعمرات وأخذتها من البرتقال[2] . وساعد الهولانديين على رسوخ أقدامهم[3] فى بحر الهند أثر الكراهة الذى بقى فى نفوس أهل الهند والصين من البرتقاليين، ولم تلبث هذه الكراهة أن تناولت الهولانديين، لأنهم لما قويت سواعدهم مالت نفوسهم الى الظلم والقسوة ، وأصبح ما كانوا يظهرونه من اللطف واللين والدعة فى خبر كان، بعد أن استعانوا بهذه الصفات والمحامد على الحلول محل خصومهم البرتقاليين .

وكان من الاضطهاد الدينى فى انجلترا أن هاجر كثير من أبنائها أوائل القرن الثامن عشر الى أميركا الشمالية، ونزلوا شواطئ الأطلنطى ينشئون مستعمرات مهمة

---

(١) معجم لاروس المصوّر .

(٢) تاريخ المدنية الحديث لسنيوبوس

Ch. Seignobos: Histoire de la Civilisation contemporaine

(٣) وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية بلجيان تلخيص يوسف كمال .

تألفت بأخَرَة من مجموع ولاياتها جمهورية الولايات المتحدة، مستقلة عن الحكم الإنجليزى، وأصبحت فى القرون التالية من أعظم دول الأرض علما وغنى، وذلك لأنها فتحت صدرها للمهاجرين من كل أمة، وقرضت الزنوج سكان البلاد، فلم يبق منهم إلا ما يشبه بقايا الوشم فى ظاهر اليد. فزاد إحصاء سكانها فى مئة سنة على مئة مليون من البشر. وهذا من أنجع ضروب الإستعمار المدنى مملوء بكثير من الحساب للعواقب، والنظر البعيد فى تمثل الأجناس المختلفة، لا يكاد يسمع بمثله فيما سلف من الأعصار. دخلت عناصر كثيرة فى البوتقة الأميركية «فتأمركوا»، ثم بدا لأميركا أن تحدد عدد المهاجرين اليها، وكان من جملة الأسباب التى حملتها على ذلك أن الصقالبة «السلافيين» والبلقانيين من أعصى الأمم على التمثل والتمثيل.

واعتبر الإنجليز بما جرى لهم فى أميركا من نفض أيدى أبناء جلدتهم من أيديهم، فما فرطوا بعد ذلك ولا أفرطوا. وكانوا أرسلوا الى الهند شركة تجارية سموها شركة الهند الشرقية، فاستولت بعد مدّة بلطيف حيلتها على الهند أغنى مستعمرة فى الأرض. وعرف الإنجليز من أين تؤكل الكتف، بخروا فى استعمار الهند وأوستراليا وجنوبى إفريقية على أساليب فيها المرونة كلها والدهاء الجملى والتفصيلى، فكانوا لا يتلكأون فى عامة مستعمراتهم عن تغيير طرائقهم السياسية والإدارية والتجارية، بما توحى اليهم تجاربهم، وبعد ثورة السباهى سنة ١٨٥٧ وهى التى كادت تخرج إنجلترا من الهند، وضعت صورة إدارة كانت أساسا للامبراطورية الهندية، وهو عمل إدارى لم توفق إليه أمة، ولم يخطر[1] فى خاطر حاكم.

وأرادت فرنسا أن تجرى على هذه الطريقة فى الإستعمار فلم توفق فى ذلك كثيرا، وفقدت أجمل مستعمراتها، مثل كندا والهند، إلى أن قدّر لها فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين أن تستولى على بعض الأقطار، ومنها الجزائر وتونس والغرب الأقصى وبعض بلاد السودان والجابون والكونجو وغينية وكليدونيا الجديدة

(١) استعمار الهند عن المجلة الزرقاء الفرنسية تعريب المؤلف (مجلة المقتبس م ٤).

ومدجسكر والسنيغال والهند الصينية، وبلغت مساحة مستعمراتها عشرين ضعفا من مساحة فرنسا نفسها أو نحو عشرة ملايين كيلو متر مربع، وأربى سكان المستعمرات على الخمسين مليونا (١).

وبينا كان الهولانديون والإنجليز والفرنسيس يتنازعون الاستيلاء على البلاد الحارة، كان الروس فى هدوء وسكون، يستعمرون البلاد الواقعة بين جبال الأورال ومضيق بهرنغ، ويقيمون فى تلك السهول الفسيحة أعمالا مهمة فى العمران لاتنهض بها إلا دولة تنفق عن سعة، ثم توسعوا وراء حدودهم التى رسموها لأنفسهم حتى جاوروا فى القرن التاسع عشر أملاك الانجليز فى جنوبى آسيا. أما الدول الأوربية الأخرى فقد دفعتها أيضا الحاجة الى التوسع فى الاستعمار، فاستولت إيطاليا على الأريترة ثم على ليبيا «طرابلس وبرقة» وأعمرت ليبيا وأنزلت فيها عشرات الألوف من أبنائها، أسكنتهم فيها حتى زاد عددهم فى سنين قليلة على نصف أهل البلاد الأصليين من المسلمين. واستولت ألمانيا على الكرون والتوجو ثم نزعتا منها بعد الحرب العامة، على ما قضت بذلك معاهدة فرساى، وراحت البلجيك تستعمر الكونجو فى إفريقية، استعمرها ملكها أولا لحسابه الخاص ثم تنازل عنها لأمته. وللدانيمرك والسويد مستعمرات من الجزر تشكو قلة نفوسها.

ونشبت بين الدول المستعمرة حروب حتى استقرت الحال فى تقسيم العالم على هذا الوجه، وخرجت البرتقال وإسبانيا عن مستعمراتهما، وبقيت لها بعض الجزر والبلاد. وتمتعت إسبانيا بامتلاك الريف فى الغرب الأقصى، بعد نكبات عظيمة حلت بجيشها، ولو لم تساعدها فرنسا على حرب الريف ما استطاعت نزع تلك المستعمرة الصغيرة من الريفيين، ولكانت ردّت عنها كما كانت ردّت إيطاليا عن بلاد الحبشة بخسائر فادحة، ولعل ما [illegible] قذ الحبشان من الإستعمار الأوربى كونهم نصارى، وربما لم يجد سكان الريف لهم نصيرا فى الغرب لأنهم عرب مسلمون.

(١) الايجاد لهريو Herriot : Créer.

وأصبحت بريطانيا العظمى بما خص به الإنجليز من التؤدة والمعرفة الواسعة بحكم البشر، ومنها إبداع إدارات خاصة لكل إقليم وجنس انضوى إلى علمهم — أعظم مملكة فى العالم لا تغيب الشمس عنها ، ولا تقل مساحتها عن ثلاثين مليون كيلو متر مربع وسكانها عن نحو أربعمائة مليون من البشر . مملكة بل ممالك، واسعة السلطان، مستفيضة العمران، ما طمع الرومان، بأعظم منها ولا أغنى ، وهى مأمونة الطرق محفوظة المسالك ، مستأثرة بأهم المضايق والخلجان والفُرَض ، ومن ورائها أسطول عظيم كان منذ قرنين أوّل أسطول بين أساطيل الدول العظمى .

ولم يبق أوائل القرن العشرين أرض فى العالم يصح أن تتقاسمها الدول الغربية : تقاسمت إفريقية وآسيا الجنوبية[1]، ونجت الصين من القسمة لتنافس الدول الأوربية عليها . وما فتئت اليابان تطمح الى امتلاك بعض أقطار الصين المتاخمة لبلادها ، تستعمرها لإنقاذها من الغربيين وإبعادهم عن أرضها وأرض الصين معا ، وكان الغربيون حاولوا غير مرة أن يلجوا بلاد الشرق الأقصى فاصطدموا فى الصين واليابان بمدنية أقدم من مدنيتهم[2] ، وفى القرن الماضى والذى قبله كانت البرتقال وإسبانيا وهولاندة وانجلترا وفرنسا تتنافس فى الاستئثار بالذهب والأحجار الكريمة، والنادر من حاصلات الأرض الثمينة ، فأصبحت الدول الأوربية فى هذا القرن تتنازع على كل ميل من اليابسة والبحر والجو . ولولا الحرب العالمية التى أفقرت الدول كلها، حتى كاد يقضى على المدنية بتأثيراتها المنهكة ، لاتسع نطاق الاستعمار أكثر مما اتسع ، ولزاد عدد الشعوب الداخلة فى غماره .

ولكل دولة مستعمِرة اليوم سياسة استعمارية خاصة . كما أن لكل أمة خصائصها وميزاتها . وليس من شك فى أن الاستعمار علامة نشاط أمة تريد أو تحاول أن يكون لها مقام لائق فى العالم ، وصفقة المستعمرين تعود بأعظم الأرباح المادية، مقابل

(١) بيان سياسة العالم لبول لوى Paul Louis: Tableau politique du monde .

(٢) تاريخ الحضارة لسنيوبوس .

خسائر فى الأرواح تتحملها الدولة المستعمرة، ولا تعدّها شيئا يؤسف له اذا نجحت التجارة، واغتنى أفراد وشركات، وارتاش بعض الموظفين والمقرّبين من أعيان الدولة المستعمرة، ويقول من كتبوا فى استحسان الاستعمار من الإفرنج إنه نفع الانسانية والمدنية، كلام مجمل يحتاج الى تفصيل .

البلاد المستعمرة وطرق الاستعمار الحديث :

لاجدال فى أن معظم البلاد المستعمرة اليوم آخذ بالنهوض من حيث تراتيبه وعمرانه. أما دوام حياة المستعمرات والاحتفاظ بكيانها فتبع لقوّة أهل المستعمرة الأقدمين، فإن كانوا من جنس ضعيف التراكيب، كالجنس الأحمر والأسود، ضعفت مقاومتهم لهذا الجنس الآرى الأبيض الذى جاءهم بكلّ ضروب القوّة، ففنى الضعيف فى القوى، على نحو ماحدث فى كثير من أصقاع إفريقية وأميركا . واذا كان أهل البلاد المحتلة أو المستعمرة من عنصر راق ذى مدنية معروفة كالهندى، فهناك المشادة بين الدخيل والأصيل، لأن سكان البلاد لاتفوتهم فائتة من نيات من نزلوا عليهم . ولا يرجى بحال من صاحب السلطة القاهرة أن يربى من يستتبع إلا على ما يوافقه، ليتسنى له الانتفاع به أطول مدّة ممكنة، أو تكون بلاده للمحتل ولأعقابه ملكا مؤبدا على وجه الدهر . ولذلك نرى هذا المحتل يحاول أن يلقن من يستعمره أو يحميه، جماع منازعه ومآتيه، ولا يفتأ يعمل على إدماجه فى جملته، وتجنيسه بجنسيته، وإلحاقه بقوميته، يلقنه عظمته وعظمة قومه، ويحاول أن ينسيه ماضيه ويخرجه عن مميزاته، يتصرف بقلبه وروحه على ما يهوى، والغالب ألا يترك له من موارد الحياة إلا سدادا من عوز وما يمسك عليه الرمق . وفى النادر أن ترحم أمة ذات سلطان أمة لا حول لها ولا طول، وما عهد ذلك لغير الأمة العربية على ما أكد ذلك العارفون من الغربيين اليوم . ولا يستغربن أحد ما يشاهد من غارات الدول المستعمرة مادمنا موقنين أن المدنية الحديثة هى ابنة "المادة" والإنصاف يقل فى أهل المادة، وهم يحتقرون فى سبيلها المثل العليا والأخلاق الفاضلة، وتقبل أذهانهم

كل وسيلة ما دامت الغاية جمع المال كما قال أحد كتاب الأميركان . وساغ بعد هذا أن يقال إنه ليس من العدل فى قليل ولا كثير ما أوردته الشعوب اللاتينية من المبررات للاستيلاء على شمالى إفريقية مثلا .

يقول تولستوى[1] "إن عاطفة الوطنية فى زماننا هذا هى عاطفة غير طبيعية، خارجة عن الصواب ومضرة، وهى علة أكثر أمراضنا الاجتماعية التى يئن منها النوع البشرى، ومن المدهش أن تكون الوطنية هى سبب التسليح العام والحروب المهلكة للانسان ، وكان من قانون التجنيد العام فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى أوربا أن خضعت هذه لرق أخبث من الرق القديم . ولم تقف لجة الحكومات وقسوتها وجنونها عند هذا الحد، بل تنازعت لاغتصاب ممالك آسيا وافريقية وأميركا مسوقة بعوامل الهوى والصلف والجشع، وأعقب ذلك تفاقم سوء الظن والعداوة بينها ، وصاروا يعتبرون ماينال الأمم المقهورة من الخراب والدمار أمرا عاديا ، ويهتمون بالبحث عن شىء واحد فقط، وهو لأى الحكومات الحق فى أن تستولى على أرض غيرها وتبيد سكانها . إن جميع الحكومات لاتسىء الى الأمم المقهورة وتظلمها ، بل يعتدى بعضها على بعض وترتكب جرائم الغش والغدر والرشوة والخداع والتجسس والسرقة والقتل . ومع هذا ترى الأهالى يشجعونها على ذلك كله ويبتهجون اذا كانت حكومتهم لاغيرها هى المرتكبة لأمثال هاتيك الجرائم . وقد بلغت العداوة بين مختلفى الشعوب والحكومات فى الأيام الأخيرة مبلغا عظيما جدا ، حتى علم كل انسان أن الحكومات طراً تقف بلاسبب معقول ناشبة أظفارها مكشرة عن أنيابها، رجاء أن تخور قوى احداهن فتفترسها الأخرى وتمزقها شر ممزق، بلا كبير عناء ومخاطرة . وقد انحطت الأمم النصرانية بالوطنية الى أسفل دركات الوحشية فأصبح سكان أوربا وأميركا حتى غير المجبرين على الحرب يودون المذابح ويسرون للقتل ، ومع أنهم مقيمون فى ديارهم آمنون فى أوطانهم بغيدون

(١) الآفات الاجتماعية وعلاجها لتولستوى تعريب محمد رضا .

عن كل خطر ، وكان شأنهم عند نشوب كل حرب شأن الرومانيين النظارة في المصارعة ، يتهجون بالذبح ويصيحون صيحة الظمآن لسفك الدماء ، مشيرين بالاجهاز على المهزوم ...» .

استراحت الأقطار التى سقطت فى أيدى الدول المستعمرة من فوضى الأحكام ، ودخلت على الجملة فى طور تنظيم ونظام ، وتلقف أهلها ما طاب لهم تلقفه من الحضارة العصرية . ولكن أتبقى لهم خيرات بلادهم ، وتبقى عليهم الدول الفاتحة مشخصاتهم وخصائصهم ؟ هذه هى المسألة المهمة فى المستعمرات . ذلك لأن الغربى مجهز بالصفات التى تؤهله للكفاح فى سبيل الرزق ، وهو معتز بعز الحكم فى قومه ، والوطنى قد ضعفت فيه هذه الأجهزة الى حدّ غير قليل ، وفترت فيه بعض الفتور الحرارة الضرورية لمحاكاة غيره فى جهاده ، بما هجم عليه من مغريات الحضارة الحديثة ، ومن الفتنة بمذاهب غيره فى الحياة . فكان بين أمرين لا ثالث لهما ، إما قبول مدنية الغرب بما فيها من منافع ومضار ، أو المجاهرة بالعصيان عليها ، وفى كليهما الانقراض والفناء .

نحن نعلم أن من أهم الأسباب التى تدعو الدول الصناعية الى ركوب مراكب الأخطار فى الاستعمار هو جلب الغذاء لبلادها ، والاستئثار بالمواد الأولية لمصانعها ، وإيجاد مصارف لصناعاتها ، ومخارج لبضائعها ، وأن أرض الأوربيين ضاقت بهم ، ولا سيما بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وعلمتهم حضارتهم أن لا يقنعوا فى طلب الربح ، وأن يتوسعوا كل التوسع فى مطامعهم . ونعلم أن الشرق مهمل متسع الرحاب ، يعول أهله ويعول أضعاف أهله ، إذا حسن استثماره ، ونعلم أن هذه المدنية الحديثة حملت فى مطاويها من الجشع والأثرة ما لا نسبة بينه وبين دعوى نعومتها ونعمها ، وأنها مزجت أحيانا بكثير من العنف والخسف ، وقست قلوب دعاتها فما رجعوا فى عملهم الى عاطفة ، ولا حفلوا تعاليم المسيح فى الحب والسلام . ولو ظل الغرب نصرانيا بالمعنى الذى نفهمه من هذا الدين لما تعدّى سلطانه ماوراء حدوده ، ثم

لما كانت هذه الحضارة الغنية بجميع مظاهرها . وكيف نطلب الرحمة ممن لا يرحم نفسه ، ولا يتراحم وأقرب الناس اليه . تكثر روابط الأمم الغربية بعضها مع الآخر ، فهم أبناء عناصر متشاكلة متقاربة ، وأصحاب مذاهب ترجع فى جوهرها الى أصل واحد، ومع هذا رأيناهم كيف عامل بعضهم بعضا فى الحرب العالمية الأخيرة . تعاملوا — شهد الله — بقسوة ما شهدها الإنسان فى قرون الهمجية الأولى.

وبعد فمن العبث أحيانا مطالبة من يعتز بقوّته بأداء الحق كله، لا سيما اذا كان بذل مالا ورجالا حتى تمت له الغلبة على ما طمح اليه ، وتوطد سلطانه فى أرض استنفضها واستقراها واستنبتها . والفتح الحديث لا يراد منه أوّلا وبالذات غير فائدة القوى قبل الضعيف . وهذه سنة الكون منذ دحيت الأرض وسار البشر على سطحها . ثم إن الأمم الكبرى هى أيضا تحت وصاية طبقتين متغلبتين فيها : طبقة رجال الجندية وطبقة المموّلين، أو طبقة أرباب الصولة فى الدولة ، وأصحاب الأموال فى الأمة . ولا يلذ لهاتين الطبقتين إلا أن ينعما الحين بعد الآخر بانتصارات جديدة، وأن يستنزف الأفراد ثروة الجماعات ، يهنأون بما جمعوا من القريب والبعيد . قالوا إن بعض المستعمرات لا يفى دخلها بخرجها ، أو لا توازى كل هذا العناء للاحتفاظ بها ، ومع هذا نشاهد الدول متماسكة فيها ، ومتمسكة بحقوقها عليها، لئلا تستهدف لغضب أصحاب السيطرتين الماديتين الجندية والمالية . وإن أغضبت أهل المذاهب الاشتراكية والشيوعية وغيرها من أصحاب النزعات السياسية الهدامة الدائبة على تمزيق نظم حكم الجمهور (الديمقراطية) وهو يرجع فى جوهره الى الاستبداد يوما بعد يوم ، ولذلك قالوا إن هذا الضرب من الحكم أفلس وخابت الآمال فيه، وإن كانت مظاهره مجالس نيابية وأنظمة دستورية ووزارات مسؤلة عن أعمالها.

ولقد آدعى بعض الدول لتبرير مقامها فى بلدان الشرق أن غايتها هى حماية الأقلية من ظلم الأكثرية ، وهى دعوى اخترعوها فى العهد الذى قويت فيه نغمة الاستعمار، ولإثباتها قد يثيرون ثائرة التعصب المذهبي فى الناس، ليتخذوا من فريق

على فريق نصيرا ، يلقون العداوة والبغضاء بين أبناء الوطن المشترك ، بواسطة غلاة دعاتهم ومبشريهم ، ليحصل التوازن بزعمهم بين أهل التعاليم المختلفة . وما رأينا بلادا قط حكمت بغير رأى سوادها الأعظم ، وما كان لنا أن نقول اليوم مثلا لرومانيا و يوجوسلافيا ، وفيهما مئات الألوف من عنصر واحد ودين واحد ، أن تعاملا المسلمين فى بلادهما ، وهم عشرات الألوف ، بما يريدون لا بما يريد السواد الأعظم من مواطنيهم .

فرّق الاستعمار بين أجزاء القلوب فى الشعب الواحد ، فرّق بين البربر والعرب وهم متحدون فى دينهم ولسانهم ، وفرّق بين المسلم والنصرانى فى كل مكان ، وفرّق بين المسلم والوثنى والبرهمى ، وضرب الأخ بأخيه والابن بأبيه ، و باعد بين الأحمر والأسود ، والأسود والأبيض ، على حين رأينا البلاد التى نجت من تأثيرات الاستعمار كجمهورية ليبريا المؤلفة من مليون ومائتى ألف مسلم وثلثمائة ألف نصرانى وخمسمائة أور بى عاش أهلها كأبناء بيت واحد ، ما فرّق الدين ولا الجنس بينهم فى المسائل الوطنية .

رأينا من هذه الدول من اذا كان لها مآرب فى أمر لا تعدم حيلة مؤلفة من ألف برهان لبلوغ غرضها . ونحن نضرب لذلك مثلا بدولتين ، وهما من أكثر الدول اتصالا بالشرق والإسلام ، ومن أعرقها فى الحضارة ، عنينا بهما فرنسا وانجلترا . فقد رأينا فرنسا لما بدا لها أن تضرب جارتها انجلترا فى هندها عملت لمصر فى القرن الماضى كل ما يستقيم به أمرها ، ولم تعمل لأهل شمالى إفريقية شيئا منه ، وفكرت فقط فى مصلحتها ، وأبقت سكان البلاد فى دائرة معينة لا تريدهم أن يتعدّوها . ورأينا إنجلترا تأخذ أوائل هذا القرن بيد مصر أيضا فتصلح إدارتها ، وتنمى زراعتها ، وتنظم ماليتها ، حتى اذا تمت لأبناء النيل أدوات التفوّق ، قالت بريطانيا إنها تخاف على الأجانب اذا هى ألقت حبل مصر على غاربها ، وقالت غير ذلك من الحجج ، والحقيقة أن مصر طريق الهند ، وتخاف أن تجعل باب الوصول اليها يشرف عليه غيرها .

كان لفرنسا وانجلترا فى باب سياسة الاستعمار والتعليم فى البلاد التى احتلتاها طريقتان متشابهتان ، لم تعودا عليهما بعد تجارب طويلة بفوائد تستحق ما بذل فيها من العناء . ورأينا عدولا من الفرنسيس والانجليز ممن لا يتأثرون بمؤثرات الأحزاب ولا المذاهب، ينقدون فى الأسفار والصحف هاتين الطريقتين فى الاستعمار . فقد دارت سياسة فرنسا فى الجزائر مثلا على محورين : نزع الأرضين من مالكيها الأصليين وإعطاؤها للمستعمرين،[1] حتى يضطر أبناء البلاد الى التشرد فى الصحراء . وتلقين العرب تعليما إفرنسيا ليمسوا فرنسيسا قلبا وقالبا، فلم تنجح الطريقة الأولى ولا الثانية . ذلك لأن ما أعطى من الأرض للمستعمرين امتلكه أناس من الآفاقين والمتشردين ممن لا يعرفون من الزراعة إلا بقدر ما نعرف من اللغة السنسكريتية . وضعفت آمال أهل البلاد فى إبقاء أملاكهم لهم ، فتراخوا فى تعهدها فخسرت الدولة والبلاد من وجهتين، من غباوة الآخذ ومن إهمال المعطى . وانبعثت العداوة تأجج بين المستعمِر والمستعمَر، وحدثت حوادث تندى لها الجباه لخلوّها من روح العدل .

وبنزع الأملاك من أصحابها نتج بؤس عظيم كان باعثا على القلق[2]، ذلك لأن سكان البلاد، وهم ستة أضعاف الأوربيين النازلين عليهم من الفرنسيس والطليان والإسبان وغيرهم، لم يبق لهم غير نصف مجموع الأرض فى البلاد والنصف الآخر وهو الأعمر والأمرع أصبح ملك المستعمرين (الأوربيون فى الجزائر ٩٢٥ ألفا ، والمسلمون زهاء ستة ملايين، والأوربيون فى تونس نحو ١٨٠ ألفا، والمسلمون زهاء مليونين) . ويقول ثلاثة من المؤرخين المشهورين "جسل ومارسيه وايفر" فى كتابهم "تاريخ الجزائر" : إن مجموع مساحة الأرض المستعمرة التى انتقلت الى أيدى المستعمرين فى الجزائر يبلغ (١٦٠٠٠٠٠) هكتار أى اثنين من خمسة من

(١) النفسية السياسية لجستاف لبون .

(٢) يقظة الإسلام والعرب لأوجين يونغ

Eugène Jung : Le réveil de l'Islam et des Arabes

الأرض القابلة للفلاحة ، ومن فساد الرأى بل من قلة الإنسانية تقليل مساحة الأرض التى يملكها الوطنيون لتجعل ملكا للمستعمرين . اهـ .

أما «الفرنسة» من طريق المدرسة وغيرها فلم تأت أيضا بثمرة جنية، لأن من تعلموا على الأساليب الفرنسية البحتة من الوطنيين تلقوا تربية لا تتفق وعقليتهم ، فلم ينفعوا أنفسهم ولا غيرهم . وغاية ما كان ممن أخذوا بهذه التربية أن خرجوا من عاداتهم وأهملوا مقدساتهم ، وأصبحوا كالعقعق حاول تقليد الحجل فى مشيته فنسى مشيته الطبيعية . وأكد الباحثون فى شؤون الجزائريين من علماء الغرب أن هذه الثقافة لم تورث من أخذوا بمذاهبها إلا نفاقا وشعوذة واستهزاء بكل قديم ، وأنها أقبستهم أبشع ما فى المدنية الحديثة من النقائص كالسكر ونحوه . ومن الصعب أن يغير شعب تركيبه العقلى ليختار تركيبا آخر . ومن الثابت أن حضارتين مختلفتين اذا وضعت إحداهما بجانب الأخرى تعارضتا ولم تلتئما . والشعوب الفاتحة التى أثرت فى غيرها من الأمم نجحت بمعالجة شعوب كان لها من العواطف والأفكار والأوضاع والمعتقدات مثل ما للداخلين عليهم . فالشرقيون يؤثرون فى الشرقيين أمثالهم ، وما أثر الغربيون قط فيهم مثل هذا التأثير . وهذا سر النفوذ العظيم الذى بسطه العرب فى الشرق ، ولا يزال لهم حظ منه فى إفريقية والصين ، فقد نجحوا فى كل مكان ببث أهم عناصر مدنيتهم ، وهى الدين واللسان والأوضاع ، بدون كبير عناء ، والإسلام ينتشر كل يوم فى إفريقية من دون أن تبذل همة فى سبيل نشره ، ويخفق المبشرون من الأوربيين فى سبيل دعوتهم الى دينهم إخفاقا شقيا . هذا رأى لبون ثم يعود فيقول إن السياسة التى اتبعت لفرنسة المسلمين واستتباعهم استتباعا أدبيا كانت فى شدتها قريبة الشبه بالطرق التى اتبعتها أميركا مع الزنوج فى بلادهم ، فقد كانت تسلبهم أرضهم التى كانوا يصيدون فيها تاركة لهم حريتهم المطلقة أن يموتوا جوعا .

وأفرطت فرنسا فى تلقين لغتها وفى حرصها على حمل من نزلت عليهم أن يهجروا

لغتهم وعاداتهم، فخرج من تخرجوا بأساتذة مدارسها بتربية مخلطة خلاسية ليسوا عربا ولا إفرنجا . ولا يعقل أن ترقى أمة بغير لغتها ، ومن أراد الخير لشعب كان جديرا بأن ينهضه داخل حدود عقليته، لا أن يفرض عليه تربية تخالف عاداته ومزاجه ، ومتى حمله على تناسي ما يلائمه، وأعطاه ما لا يوائمه، كان فى عمله الغبن الذى لا ينكر محله . يقول المؤرخ إيفر(١) إن الرأى القائل منذ سنة ١٨٣٠ بتمثيل الجزائريين قد أخفق، واذا كان من اللائق العدول عن فكرة تبديل العقلية الأهلية فى الجزائر تبديلا من أساسها، فليس من الوهم فى شيء البحث عن تنشئة المسلمين فى حجر مدنيتهم الخاصة، ولكن هذا عمل يحتاج الى صبر، ولا تظهر نتائجه إلا بعد مدد طويلة . اه . وجمهور العقلاء من الفرنسيس والعرب على أن الواجب تلقين لغتين العربية والفرنسية بدرجة واحدة فى شمال إفريقية .

وجرت انجلترا فى الهند على مثل الطريقة الفرنسية فى سياسة التعليم وكان حكامها من قبل يتحامون تعليم الهنود الألسن الأوربية والأفكار الغربية لما وَقَر فى نفوسهم من احترام المدنية القديمة(٢)، ومنذ سنة ١٨٣٦ م فتحت انجلترا المدارس والجامعات وأسست الأندية والجمعيات ، تبذل فيها أموال الهند لتعليم أبنائها لغة الانجليز وتاريخهم وطرائق تفكيرهم، وتلقينهم أساليب من التربية الغربية يصعب تطبيقها، وأنست انجلترا من اغترفوا من مناهل تلك المدارس كثيرا من مقدّساتهم وعاداتهم . وغاية ما ربحت ممن علمت أن أخذت منهم الى دواوين الحكومة وأعمال السكك الحديدية ودور البريد والبرق وغيرها ألوفا من المستخدمين، يكلفها الواحد منهم أقل من عشرين ضعفا مما يكلفها الانجليزى الذى كان عليها أن تأتى به من الجزائر البريطانية . وتلقفت تلك الطبقة من الهنود تربية خرجت بها عما غرس فى دمائها من معتقدات، وما عتم مواطنوها أن أضمروا لها الكراهة لانطواء الفئة المتعلمة على

(١) معلمة الإسلام ـ الجزائر .

(٢) تاريخ المدنية الحديث لسنيوبوس .

الرياء والمكر والخديعة ، ولأنها تدأب على رفع القضايا المزورة والاعتداء على أبناء جلدتها ، وما عرفت بغير القحة والبخل والانحلال من الأخلاق ، ثم هي لا تحسب لغير أرباب الصولة من رؤسائها حسابا ، لكن إذا آنست منهم ضعفا انقلبت عليهم كل الانقلاب .

ومع كل هذه العناية التي بذلتها إنجلترا في مئة سنة لنشر ثقافتها في الهند لا يتجاوز من يتكلمون الإنجليزية من الهنود مليوني إنسان من أصل ثلثمائة وخمسة وخمسين مليونا ، وكلما حاولت انجلترا أن تطبعهم بطابعها زادوا لها جفاء ، وحاولوا نزع أيديهم من يدها . يقول[1] كبلنغ شاعر الإستعمار الإنجليزي : الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولا شيء يجمع بينهما ، فهما ضدان لا يأتلفان . ومن المتعذر أن تنشأ بين ابن الشرق وبين ابن الغرب ألفة حقيقية ومودة ثابتة أو ثقة تامة ، فإنهما يتكلمان لغتين متباينتين كل التباين ، ولا يستطيعان أبدا أن يتفاهما . وعدم الألفة وقلة الوئام هما الأصل في ارتخاء علائق الشرقيين والغربيين على مدى الأيام . اه .

وقال أحد المفكرين من ساسة الانجليز : سيبقى الشعب الهندي على الدوام شاهدا ناطقا بالماضي غير ممسوس بيد الغرب إلا مسا خفيفا . وقال أحد الباحثين من الفرنسيس ان قوة الحكومة البريطانية في الهند نشأت من كونها تحكم عناصر مختلفة من السيخيين والمسلمين والماهراتيين والهندوسيين والبرمانيين ، وكلهم يتحاسدون ويتخالفون في الجنس والعادات والديانات .

وفي الثورات العديدة التي قام بها الهنود في أزمان مختلفة ، وفي العصيان المدني الذي قاموا به في هذه السنين الأخيرة ، وما لاقته إنجلترا من الخسائر المادية ، بحيث كان نشوزهم من العوامل الكبرى في إفقار إنجلترا الغنية ، دليل محسوس على فساد تلك الطريقة في تنشئة الهنود واستثمارهم ، وأدركت إنجلترا ، وقد حسبت الهند

---

(١) الهند الانجليزية تعريب عبد الوهاب الانكليزي نشرت في المجلد الخامس من مجلة المقتبس .

مزرعتها ومخزنها ودكانها و بيتها ، أنها لم تستطع أن تنفذ الى قلوب أهلها ، وتلقنهم حبها و جميل صداقتها . وذلك لأن الهنود موقنون أن كل عناية إنجلترا مصروفة لاغناء الأفراد و إفقار الجماعات، وأن الهندى مهما بلغ من ثقافته ومقامه، محتقر فى نظر الإنجليزى : لا يواكله، ولا يجالسه ، ولا يزامله ، ولا يعاشره، ولا يكاد يضمه وإياه ناد، ولا قطار، ولا فندق، ولا مطعم .

هذه سياسة إنجلترا فى الهند بلاد المتناقضات فى غناها وفقرها، وعلمها وجهلها، وتنوع طبقاتها ودياناتها ولغاتها . أما سياسة هولاندة فقد زعم بعضهم أن فيها بعض الرفق بالمستعمرين من الجاويين، ومنه الابتعاد عن هذه الفوارق المنفرة[1] على ماهو حال الإنجليز مع الهنود . فالهولانديون يختلطون بالوطنيين و يمتزجون بهم "وارتضوا أن يزوّجوهم و يتزوّجوا منهم، وهذا فى الحق صنع جميل، وعمل يدل على الرأفة التى تشبعت بها عقول المستعمرين الهولانديين دون سواهم ، وليست مسألة الاختلاط الجنسى كل ماأخذ الهولانديون أنفسهم به من التقرب إلى سكان الجزيرة، بل إن هناك مسألة قل أن أخذ بها الإنجليز والأميركيون، وقل أن آمنوا بأنها دليل واضح على حسن الطوية وسلامة الضمير، تلك هى أنك ترى الجاويين يخالطون الهولانديين فى النوادى والمجتمعات ، وترى أنهم فى هذا الاختلاط لا يبدون أقل شأنا ولا أيسر احتراما فيها من أفرادهم من الأجانب، بجميعهم فى هذه الحلبة إخوان وعلى قدم المساواة " .

فالاستعمار الهولاندى لطيف الملمس من هذه الجهة ولكن "مهما قال القائلون فى ارتقاء زراعة جاوة وسمطرة وكثرة سكانهما والعناية بصحتهم وراحتهم، فان هذه البلاد تديرها فى كل مظاهرها الأيدى الهولاندية ، والوطنيون عملة بأجور قليلة، وموارد الثروة فيها تنتهى الى خزائن الهولانديين وجيوبهم ، والهولانديون ينظرون الى جاوة كما ينظر الإنجليزى الى الهند يغتنى من خيراتها أغنياؤهم، وقد جعلوا منها ذلك المصدر الذى لاينتهى خيره، ولن تخبو شعلة حياته" وعاملت هولاندة المسلمين

(١) رحلة محمد على إلى جاوة .

وهم كثرتها الغامرة معاملة لا تحرجهــم لئلا تخرجهم ، تقربهم من مناحيها فى أناة ورفق ، ولا تقطع عنهم التعليم ولا تفيضه فيهم .

أما سياسة سائر الدول المستعمرة كألمــانيا وروسيا أمس والبلجيك وإيطاليا اليوم فتشابهة . كانت روسيا فى معاملة المسلمين قاسية على نحو ما كان المغول فى معاملة الروس أيام استيلائهم عليهــم فى القرون الوسطى . كتب كاستلنو فى تاريخه الذى قدمه للقيصر اسكندر الأول بشأن وقائع الروس فى القريم لمــا أخذوها من العثمانيين : "ان الحملة لم تول روسيا شرفا فان بلاد القريم أحرقت ودمرت ، وربما كان مثل هذا العمل يغتفــر على عهد البربر لمــا فطروا عليه من الجهل ، ولكن إحراق المدن فى القرن الثامن عشر ، وتخريب أهم المصانع والآثار ، وتدمير المعابد وإبادة المدارس العامة ، وادخال الظلام على العقول باحراق كتب الأمة التى تريد الانتفاع بها فى إنارة أفكارها ، وإلقاء الشيوخ والنساء والأولاد طعاما للنار ، لا يقصد منــه الحرب بل إهلاك شعب عن بكرة أبيه" . هذا وحكومة البلاشفة اليوم تريد المسلمين على أن يبدلوا أوضاعهم وعاداتهم ليحاكوا سائر مواطنيهم .

وأساءت ألمــانيا بسـياستها العسكرية فأبادت قبائل الهرورس برمتهــا ليحل محلهم البيض ، لأن من قواعد المدنية الغربية قرض الزنوج ، وبلغ عدد من يموت من العملة السود فى الترنسفال ٢٨ فى المئة ، يموت نصفهم بأمراض الكبد والنوام . أما البلجيــك فاستعمارهم ثقيــل الوطأة موفور الظلم للانســان . واستعمار الأميركان كاستعمارهم جزائر الفيليبين فانهم يراعون فيه مصلحة السكان ، وقد عاونوا مســلمى تلك الجزائر على النهوض ، وهم فيما قيــل نحو مليونين من الأنفس ، فأخرجوهم من الوحشية الى ساحة المدنية . ولطالمــا كانت اسـبانيا مدة حكمها[1] الطويل على تلك الجزائر ترهقهم وتذلهم وتحملهم على انتحال الكثلكة فلمــا عصوها دمرت مساجدهم ومصانعهم . وتعلم نحو ثلثهم فى عهد الأميركان فأنشأوا المدارس والمساجد وتمتعوا

(١) من مقالة لزكى على فى جريدة البلاغ المصرية عدد ٣١٩٨ (١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م) .

بحرياتهم كلها . والأميركان سكان الولايات المتحدة الشمالية هم الشعب الوحيد الذى لا ينفق على المبشرين فى بلاد المتوحشين، وينفقون عليهم فى بلاد المتمدنين . أما الأمم المستعمرة الأخرى فتجعل التبشير بالدين مقدّمة لاستعمار ما تريد من البلاد ، وقد تقول بدين العقل وحده، وتتخذ من المبشرين أداة لبلوغ أغراضها ، حتى قالوا إن بضاعة التبشير لا تروج فى أرضها وإنما صنعت لتصدر الى بلاد أخرى .

رأى لبون فى استعمار الغرب للشرق والاستعمار العربى :

أفاض علماء الاجتماع والسياسة والتربية من الغربيين فى نتائج هذا التعليم الذى حاول الغرب أن يلقنه ابن الشرق . وممن عنى به عناية خاصة ، ورحل الى الشرق غير مرة لدرس أسبابه ونتائجه، وقابل بين عمل الغربيين وعمل العرب جستاف لبون فما قال : إن[(١)] الأسباب التى حملت غير الأوربيين على النفرة من الحضارة الأوربية ترجع الى كون هذه المدنية هى نتيجة نشوء ماض طويل لم يصل اليه الأوربيون إلا بالتدريج ، وذلك باجتيازهم مراحل لا بدّ من قطعها . وكل من يحاول أن يكره شعبا على أن يخترق هذه الدرجات بغتة كان عبد أوهامه وأحلامه ، وما حاله إلا حال من يؤمل أن يبلغ بولده سن الكمال، قبل أن يقضى دور الشباب . ولئن كان فى مدنية العرب أمور سهل على الشرقيين التماسها واقتباسها ، فقد كان السبب فى ذلك أن الشرقيين ليس لهم شىء من حاجيات الغربيين الكثيرة، يتبلغون بالقليل ويلبسون الساذج . وفى المدنية الغربية حاجات مصنعة قادت أوربا الحديثة الى اضطراب شديد وعمل لا ينتهى، وهذا مما يكرهه الشرقيون . ولطالما فاق العامل الصينى العامل الغربى لقلة مطالبه فى الحياة . وقد غرست الصناعات فى فطرته حتى اضطرت أميركا وأوستراليا الى منع الصينيين من دخول بلادهما . وكما كان الاختلاف بين حاجيات الشرقيين والأوربيين عظيما انفرج الاختلاف فى طرق

(١) حضارة العرب لجستاف لبون .

حسهم ، وبعدت المساوف بين تفكيرهم وتفكيرنا . فالآسيويون لا يحسدون الغربيين على مدنيتهم، ولاسيما من زار منهم أوربا، ويرون في تسرب مدنية الغرب الى الشرق مصيبة عظيمة، وهم مجمعون على أن الشرقيين أسعد حالا وأكثر حشمة وأدبا من الغربيين ما داموا لم يختلطوا بأهل الغرب .

قال وما نفرة الشرقيين من حسنات المدنية الغربية اليوم إلا لروغان الشعوب الممدنة ، ولفظائع أتتها مع من كانوا من عيار أحط فى موازين المدنيـة، وكان من حال الممدنين مع المتوحشين، أن الأولين أبادوا الآخرين، وقرضوا نسلهم وجنسهم. أباد المتمدين غير المتمدين فى أميركا وأوقيانوسيا ، وهلك التاسمانيون برمتهم كما هلك هنود أميركا فى أوقيانوسيا . واذا عزت الرحمة فى الطرق التى سار عليها الأوربيون مع المتوحشين ، فان عمل الأوربيين مع الشرقيين الممدنين كالصينيين والهنود مثلا ليس أحسن من ذلك على ما يظهر . واذا صرفنا النظر عن حروبنا التى تجردت من العـدل، فان معاملتنا كل يوم للشرقيين تكفى لأن نربى منهـم أعداء أشـداء على الدهر . ويرى كل من دخل الشرق أن أضعف أوربى يعتقد نفسه فى حلّ من كل مايجريه . واذا لم يستثمر الشرقى مباشرة، كما هو الحال فى الهند، بضرائب تسلبه آخر قطعـة من خبزه ، تنصب له خدائع فى التجارة يفقد فيهـا كل حياء ، وتنم على أن طلاء الرجال الممـدنين عَرَض ينصـل لونه، وأن الأوربى فى الشرق يفقد صفاته الحسنة ، وينزل عن أخلاقه الى ما تحت مستوى الشعوب التى يستثمرها . ولو عومل التجار الأوربيون من حيث صـلاتهم بالشرق بمقتضى قوانين بلادهم ، لا ينجو من العقوبات الفاضحة منهم غير أفراد[1] .

هـذا ما علل به لبون نفرة الشرقيين من الغربيين، وما أدى المشارقة الى سوء ظنهم بالحضارة الحديثة وقد أورد على ذلك أمثلة فقال: إن حوادث صلات الغرب

---

(١) ذكر أحد العارفين من الاسبان فى الجزء الخامس (م ٥) من مجلة العالم الإسلامى الفرنسية إن الأوربيين فى المملكة العثمانية أخس شعب .

بالشرق فى القرن التاسع عشر كانت من أشوه صفحات التمدن . قال وماذا يقول الناس فى مستقبل الأيام فى هذه الحرب الطاحنة التى شهرها الانجليز على الصين ليحملوها بالقوة على استعمال الأفيون ، فيهلك من الصينيين كل سنة ستمائة ألف إنسان، لتربح انجلترا من هذه التجارة الممقوتة مائة وخمسين مليونا . ومن جهة ثانية يرسل البريطانيون الى الصينيين دعاة التبشير ليهدوا بنيها الى الفضائل . فيقول الصينيون للبشرين : إنكم تسموننا وتهلكوننا وتأتون بعد ذلك لتعلمونا الفضيلة . قال فالشرقيون يتجافون عن قبول حضارة لا تلتئم مع أفكارهم وشعورهم وحاجاتهم ، وأى داع يكرههم على قبول مدنيــة تقل سعادتها، وفيها من الشــقاء ألوان ، ومن العوامل المضعفة ضروب . الى أن قال : لما فتحت العرب الشرق لم تحمل هذه الشرور، فان العرب كانوا مشارقة مثلهم تتشابه عواطفهم وحاجاتهم . غلبت العرب على الهند وفارس ومصر ثم غلبت المغول والأتراك على هذه البلاد ، فما كان على أهلها أن يعدلوا حالاتهم كلها بقبول حضارة جديدة . وعلى العكس اضطرت هذه الشعوب باحتكاكها بالأوربيين أن تغير جميع أوضاعها . وإذا كانت تلك الأمم ضعيفة جدا كالهنــدى مثلا فيكون نصيبها الشــقاء الأسود والثورات التى يولدها اليأس . تلك حال القوى مع الضعيف . وللأمم الحديثة هموم أعظم من اهتمامها بتمدين الشعوب الأخرى . ثم اذا كان ثمت ما يقال له العلائق بين الأمم تفقد كلمات العدل والإنصاف معناها وما فيها من قيمة، فتكون ألفاظا جوفاء خدّاعة لا تجوز على إنسان . والشعراء يحدّثوننا بعهد سعادة يسمونه العصر الذهبي تجمع بين العالم أواصر الإخاء العام . ومثل هـذا العصر ما كان ولن يكون . دخلت الإنسانية فى العصر الحديدى الذى يهلك فيه كل ضعيف بحكم الطبيعة .

وقال ان الشرق خضع لأمم كثيرة كالفرس واليونان وغيرهم، ولئن كان نفوذهم السياسى فيه عظيما أبدا فان عملهم فى التمدن كان ضعيفا جدا . فهم لم يفلحوا فى نشر أديانهم ولغاتهم وصنائعهم فى غير المدن التى احتلوها مباشرة . وامتنعت مصر عن قبول هذه

المدنيات فلم تبدل أوضاعها على عهد البطالسة ولا فى أيام حكم اليونان، واحتفظت بماضيها، وكان من الغالبين أن أخذوا عن المغلوبين دينهم ولسانهم وفنهم، وبقيت المصانع التى شادها البطالسة ورمّتها القياصرة على الطراز الفرعونى . وما تعذر على اليونان والفرس والرومان تحقيقه فى الشرق سهل على العرب الوصول إليه من دون ما قسوة ولا إعنات . وكان يتراءى أن مصر هى القطر الذى يأبى الخضوع للتأثير الأجنبى ، ومع هذا لم يَمض أقل من قرن على فتح عمرو بن العاص لها حتى نسيت سالف مدنيتها التى أنشأتها فى ستة آلاف أو سبعة آلاف سنة، وأخذت تدين بالدين الجديد وتتكلم لغة جديدة . وكان لها فن طريف بلغ من رسوخه أن خلفه الشعب الذى قبله الى الشعب الذى قام بعده . ولم يغير المصريون قبل العرب دينهم إلا مرة واحدة، وذلك على عهد إمبراطرة القسطنطينية عند ما نهبوا البلاد، وانهالوا على مصانعها القديمة يدمرونها ، ويشتدون فى الضغط على أهلها ويحظرون انتحال الأديان القديمة مهدّدين كل من يجرأ على ذلك بالقتل . فانتحل المصريون الدين الجديد بالإكراه لا بالرضا . وكان من تسارعهم إلى ترك النصرانية وانتحال الإسلام برهان على ضعف الإيمان فى نفوسهم . أما التأثير الذى أثرته العرب فى مصر فقد ظهر فى جميع البلاد . ظهر فى إفريقية والشام ومصر وغيرها من الأصقاع التى رفعوا علمهم عليها . وأثرهم ظاهر فى الهند وإن كانوا قد مروا بها مرورا . بل وصل تأثيرهم إلى الصين وما عرّج عليها غير تجار منهم . وما عهد التاريخ مثالا محسوسا لشعب عمل عمل العرب . فقد تقبلت مدنيتهم عامة الشعوب التى مازجتهم ولو مدة وجيزة . ولما تراجع أمرهم فى التاريخ كان ممن غلبوهم عليه كالترك والمغول وغيرهم أن اقتبسوا منازعهم وقاموا يدعون بدعوتهم فى العالم . قضت المدنية العربية منذ قرون، وليس اليوم فى العالم من المحيط الأطلانطى الى نهر السند ، ومن بحر الروم الى البادية، غير دين واحد، ولسان واحد؛ هو دين أشياع محمد ولسانهم . ولم يتجل نفوذ العرب فى الشرق فى دينهم ولسانهم وصناعاتهم فقط ، بل امتد الى الثقافة

العلمية ، فان المسلمين كانوا على اتصال مستديم مع الهند والصين، فنقلوا الى تلك الأصقاع جزءا عظيما من المعارف العلمية ، فظنها الأوربيون بعد ذلك من أصل صيني أو هندي ، واقتبست الهند من العرب أكثر مما اقتبس هؤلاء من الهنود . وكذلك أدخل العرب الى الصين فى العهد المغولى الفلك والطب . وتأثير العرب فى الفرس ما زال بحاله الى يومنا هذا ، يقرأون العلوم فى كتب العرب ، ومقام اللغة العربية فى فارس يشبه ما كان للغة اللاتينية فى الغرب خلال القرون الوسطى . وبظهور العرب خاصة فى إسبانيا فى القرن العاشر احتفظت ناحية من الغرب بحب الآداب والعلوم، وكان مزهودا فيها فى كل مكان حتى فى القسطنطينية .

وفى القرن الثالث عشر أيام تراجع العرب وسقط سلطانهم كما قال رنان فى أيدى عناصر ثقيلة الوطأة ، متوحشة المظاهر، ضعيفة المدارك، كالترك والبربر وغيرهم، بدأت تباشير الضعف عند المسلمين. وقد لا تكون التعاليم متعصبة بل يكون الناس متعصبين . وكان العرب عنصرا رقيق الحاشية، كثير التسامح، لا يخرجون قيد شبر عن هذه المياسرة، وبرهنوا بأعمالهم على أنهم كانوا متشبعين بها منذ ابتداء فتوحهم . لا ريب أن التساهل الدينى كان مطلقا خلال العهد الذى أزهرت فيه المدنية العربية . ولقد عظم تأثير العرب فى أجزاء من أرض أوربا ما استطاعوا التسلط عليها إلا بعلمهم وعملهم . وكان هذا التأثير أشدّ قوة فى البلاد التى خضعت مباشرة لسلطانهم أى فى أسبانيا . وأحسن ذريعة الى تقدير هذا التأثير حق قدره أن تلق نظرة على ما كانت عليه إسبانيا قبل العرب، وما صارت اليه أيام حكمهم، وما انتهت اليه حالها بعد ذهابهم . فقد دب فيها الهرم بعد جلائهم عن أرضها ولما تنتفض من عوارضه حتى اليوم . مثال من تأثير شعب فى شعب، والتاريخ لا يذكر مثله ناصعا جليا . اه .

وبعد فلا علينا أن ندعى بعد ما تقدّم أن الحضارة العربية كان منها خير كثير للبشر، وان الحضارة الحديثة بالنسبة للشرق قد خلطت عملا صالحا وآخر سيئا، وفيها

من فاحش التعقيد ما يصعب على كل الناس تمثلها . عبث الاستعمار الغربي عمدا أو عن غير عمد بمشخصات المستعمَرين فلقنهم تهذيبا بخا بالقياس الى عقولهم ، فنقلوا الى غمرة الأمة المستعمرة نقلا غير مفيد ولا سديد . وكان من البلاد التي حدّدت سلطة الغرب فيها كمصر والشام والعراق أن أظهرت استعدادا ونبوغا أكثر من غيرها من الأمصار التي اشتد ضغط الغريب عليها ، وما منع احتفاظ هذه الأقطار الثلاثة بالمدنية العربية القديمة من قبول المدنية الغربية الحديثة ، ولا يبعد اذا تمتعت البلاد العربيــة بوحدتها يوما أن تظهــر في مظهر دولة راقيــة تُتساند مع غيرها من الدول في خدمة التمدين في العالم ، ولا تقل مكانتها عن أرقى دول الأرض بعد سنين قليلة ، ونقول بعد هذا لأرباب المنازع الغربية في حكمهم على العرب ومدنيتهم إن أحكامكم هي الجور حق الجور . ولكن " إذا أقبلت الدنيا على قوم أعارتهم محاسن غيرهم ، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم " .

أثر المدنية الغربية فى البلاد العربية

حالة البلاد فى القرن الماضى :

طلع القرن الثالث عشر من الهجرة، وقد قلّ فى البلاد العربية من يفكر فى شىء اسمه حضارة، وغاية ما فيها آثار بالية من مدنية قديمة، يظنها أهل البلاد كل شىء وما هى به : إنقطع سند العلوم ، وبطل إعمال الفكر ، وهجعت القرائح ، حتى لتظنها ميتة، وأصبح ما يقال له علم صُبابةً من فروع علم الدين واللسان . والناس فى غفلة عن الغرب، قلما يعرفون ما أتاه فى نهضته خلال أربعة قرون . ضعف فى الأرض العربية أو كاد كل مظهر من مظاهر القوة فى الأمم ، وأصبح العرب من الجهل بمقومات الحياة فى حالة مبكية . وكأن نسبة الترقى عند أهل الغرب فى تلك الأحقاب، كانت على مقدار التدلى فى كل شأن فى البلاد العربية . ومن أهم العوامل فى هذا الاستخذاء ، أن الدولة الباسطة ظل جناحها على العرب ، حاولت فى بعض العصور والأدوار أن تفلّ من غربهم . فقل جدًا فى البلاد المفكرون والعارفون ، وتراجعت المدنية فيها تراجعا لم يعهد له مثيل فى تاريخها منذ مئات من السنين . وأمست هذه الأقطار الواسعة، بلا علم ولا مال ولا زراعة ولا صناعة ، وفقد فيها معظم ما يبقى على الأمم حياتها ، ويدل على مجدها وعظمتها، ويشعر بجميل حاضرها ومستقبلها . فكان دور التتر دور الفتور المطلق، والفقر المدقع، والعبث بالكرامة :

وإنما الناس بالملوك وما يفلح عرب ملوكها عجم

يكاد لم يبق فى القرنين السابقين على قرن النهضة العربية،وهوالقرن الماضى، رجل يذكر فى باب الهندسة والتصوير والنقش والشعر والإنشاء والخطابة والفلك والكيمياء والطب ، ومعظم من يذكرهم المؤرخون ضعاف فى فنهم أى ضعف :

استحكمت حلقات الجمود فى العقول، وشغل النـاس عن الجدّ بالهزل والفضول، وراح من يكتب ويؤلف، ينسخ ويمسخ ويسلخ، ويعدّ ذلك علمـا وفنا، وفسد الذوق وضعف الخيال .

علمـاء فرنسا فى مصر :

وبينا كانت البلاد متدهورة فى أعمـاق هذا الانحطاط، جاء نابوليون بونابرت فى سنة١٧٩٨م يفتح مصر ويحمل فى جملة ما يحمله من العدد والعدد، طائفة من علماء[1] فرنسا ونوابغها فى الرياضة والهنـدسة والطب والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء والاقتصاد السـياسى والآثار والمعادن وطبقات الأرض والحيوان والنبات وفن المعمار وهندسة الرى والقناطر والجسور والميكانيكا، وزمرة من رجال الفنـون من المصوّرين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والمثالين وعددهم (١٤٦) عالمـا وفنانا. وأنشأ فى مدينـة القاهرة مجمعا للعـلوم والفنون، يرمى الى تقـدّم العلوم والمعارف فى مصر، ودراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية . وقسم المجمع الى أربعة أقسام، قسم الرياضيات، وقسم الطبيعيات، وقسم الاقتصاد السياسى، وقسم الآداب والفنون . ويتألف كل قسم من اثنى عشر عضوا .

ولم يدخر أعضاء هـذا المجمع وبعثة العلوم والفنون وسعا فى متابعـة جهودهم العلميـة فى مختلف الفروع والفنون، فأنشأوا مكتبة تحوى أنفس الكتب التى أحضروها من فرنسـا، أو جمعوها من خزائن الكتب فى مصر . وأسسوا معملا للطبيعة والكيمياء، جهزوه بالآلات والأدوات الخاصـة بدراسة العـلوم الطبيعية والرياضية . وأخذوا يجوبون البلاد فاكتشفوا الآثار، وأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة، ورسموا خرائط مفصـلة للبلاد ونيلها وترعها وسواحلها . وبحثوا فى طبائع الحيوانات والنباتات والمعـادن، ودرسوا مياه النيـل وطميه وطبقات

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى .

الأرض، وجابوا الواحات والبحيرات ، وأقاموا فى القاهرة مطبعة أخذت تطبع منشورات نابوليون العربية وجريدة الكوريه ديجبت والديكاد، وبعض المطبوعات العربية والفرنسية .

وحل الأثرى شامبوليون الحجر الذى عثروا عليه فى رشيد فحل بذلك الخط الهيروجليفى، فأولى باكتشافه مصر خاصة ، والعلم عامة ، يدًا تشكر . ولئن رحل جيش الاحتلال الفرنسى عن مصر فما رحلت ثقافة فرنسا عنها . ولئن فشلت حملة نابوليون فان "العمل العلمى الذى قام به رجال البعثة العلمية من بحث وفحص وتأليف وتصوير ... أبقى الى اليوم أثرا علميا فاخرا باهرا ... تطأطئ أمامه الرؤوس إجلالا وإكبارا"[1] .

مبدأ النهضة المصرية :

كان احتكاك المصريين بالفرنسيس أول احتكاك علمى مع الفرنج . وممن كانوا فى طليعة المستفيدين مؤرخ مصر فى تلك الحقبة عبد الرحمن الجبرتى، وعالم آخر اسمه حسن العطار وهو الذى تولى مشيخة الأزهر بعد حين، وألف فى الفلك والطبيعيات والرياضيات . فان هذين الشيخين وأمثالهما علموا بعض علماء حملة نابوليون اللغة العربية وغيرها، وتعلموا منهم مالم يكن لهم به عهد من العلوم المادية . واختلط رجال الإدارة والسياسة من أهل مصر برجال الحملة ، ونشأ بين الفريقين تعارف كان انقطع منذ عهد سان لوى أحد ملوك فرنسا فى القرون الوسطى الذى جاء مصر فأخذ أسيرا فى دمياط . وهكذا عرفت المدنية الفرنسية فى هذا الشرق القريب، وظلت وارفة الظلال فى بلاد الفراعنة ، حتى لقد مضى على الاحتلال الإنجليزى أكثر من خمسين سنة، والأولية للغة الفرنسية . هذا مع حرص البريطانيين على نشر لغتهم .

(١) فتح مصر الحديث لأحمد حافظ عوض .

وتولى مصر محمد على واليها منذ سنة ١٨٠٥ م ، فأوحى اليه ذكاؤه النادر أن يقتبس النظم الإدارية الحديثة . وكان شغوفا بتمدين (١) مصر فأحضر من مختلف بلاد أوربا أساتذة وأطباء وصيادلة ومعلمين ، شيدوا فى أماكن اختيرت أحسن اختيار ، تلك المدارس والمستشفيات فى القطر المصرى . و "شعر رغم أميته بأن الملك لا يشيد إلا على أمتن أساس من العلم ، وأن العلم الذى تدعم به الممالك ليس هو الذى يسمونه علما فى الشرق ، إنما هو الذى قامت به المدنية الغربية ، وشيدت عليه صرح عليائها وقوتها ، فأقرت لها الأمم بالغلبة ، ووقفت أمامها صاغرة ذليلة " .

بدأ والى مصر منذ سنة ١٨١٣م يرسل الطلبة المصريين الى أوربا . فأوفد الى ايطاليا طائفة لدرس الفنون العسكرية وبناءِ السفن وتعلم الهندسة وغيرها . ثم اتجه نظره الى فرنسا فأرسل اليها زمرة صالحة . وبعث الى إنجلترا بعض التلاميذ لتلقى فن الملاحة ومناسيب الماء وصرفه والميكانيكا . ثم جعل جل اعتماده على مدارس فرنسا فى تخريج الطلبة ، وصرف عليهم من سنة ١٨٢٦ الى ١٨٤٧ — ٣٠٣٣٦٠ جنيها . وغدا معظم الطلبة الذين تخرجوا بأساتذة الغرب من دعائم النهضة التى تم على يدها إنشاء مصر الحديثة . وأسس أول مدرسة للهندسة فى سنة ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) ثم أسس مدرسة الطب إجابة لاقتراح الطبيب كلوت الفرنسى (١٢٤٢ هـ ١٨٢٧ م) . وكان القائم مقام سيف الفرنسى الذى دان بعد بالاسلام وسمى سليمان (١٨١٩ م) هو الذى نظم الجيش المصرى . ونظم أمير البحر بيسون البحرية المصرية ثم خلفه هوسار فى هذا العمل . وبعد مدة أنشأ ماريت متحف بولاق . واستدعى غير هؤلاء من رجال الغرب ومنهم البولونيون . ودام عِلم الفرنسيس ، يفيض على مصر مدة حكم محمد على وأسرته الكريمة . ولو أحصى ما كتبه علماؤهم فى مصر من الأسفار ، وما رسموا لها من الآثار والمصوّرات والتصميمات

(١) الصنائع والمدارس الحربية والبعثات العلمية على عهد محمد على لعمر طوسون .

لبلغ خزانة كبرى . ولا تزال هذه التحفة العظيمة الى اليوم مرجع الباحثين والدارسين .

قال لنا صديقنا عثمان غالب[1] من علماء مصر الذين شاهدوا تلك الحركة العلمية فى إبانها ، ثم شاهدوها فى انحطاطها ، وحضروها فى تجددها : إن أكثر أساتذة المدارس التى أنشئت فى مصر على عهد نهضتها الأولى كانوا من الفرنسيس المستعربين ، يكتب الأستاذ درسه بالفرنسية ، والمترجم معه ينقله الى العربية ، فيلقى على الطلبة بلغتهم . دام ذلك من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٧٤ وقد كتب فيها بروجر رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية الى خديوى مصر فى عهده يقول له فى تقريره السنوى : إن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين ، إذ قد أصبح فيهم الكفاة الان ، وإن عمل فرنسا فى تربية أبناء مصر فى هذه الفروع العلمية قد انتهى أو كاد .

وقال أحد كتاب الانجليز[2] ان المدنية المصرية الحديثة هى مدنية إفرنسية صرفة . ويكفى لتصديق هذا القول أن نلقى نظرة واحدة على أعمال فرنسا فى هذه البلاد . فمن من العالمين لم يسمع باسم شامبوليون الذى سهل لنا باجتهاده وثباته قراءة تاريخ مصر القديم باللسان الهروجليفى وأضاف الى مصر باكتشافه حلّ تلك الرموز شهرة فوق شهرتها السابقة ، وجعلها ملتقى الأنظار ومحط الرجال . ومن ينكر أن إصلاح الرى فى عهد محمد على وبناء القناطر الخيرية ، وعمل الخزانات لخزن ماء النيل ، وأن كل ما نراه اليوم فى مصر مما يتعلق بالانتفاع بهذا النهر ليس إلا من عمل المهندسين الفرنسيين الذين كانوا عضد محمد على ويده اليمنى . ومن ينكر أن المهندسين الفرنسيين قاموا بالأعمال الهندسية عندما كان المستخدمون الفرنسيون قائمين بالأعمال الإدارية . بل من ينكر علينا أن ترعة السويس وهى أكبر عمل فنى تم فى القرن

(١) غرائب الغرب للؤلف .

(٢) تحرير مصر تعريب محمد لطفى جمعة .

التاسع عشر هو من صنع الفرنسيس فكرا وعملا . إن الاصلاح الذى جلب لمصر أكثر من نصف ثروتها الحاضرة ليس إلا من غرس الفرنسيس وما جاء الانجليز إلا منفذين ومكملين » .

لولا عمل محمد على فى تمدينه مصر، لأشرفت اللغة العربية على التلف ، على الرغم من وجود جامع الأزهر فيها منذ قرون ، لأن الأزهر ما كان يعنى بغير المسائل الدينية ، واللغة تنقرض إذا لم تكن لغة علم . وهذا ماحاول محمد على أن يعمله فظهرت تباشير اصلاحه بعد عشر سنين من البداءة به ، على أيدى من خرجهم من المصريين فى مدارس الغرب، فألفوا وعلموا وهذبوا،ومن حسن توفيقه أنه وجد من المصريين مشايعين له على عمله خلافا لما كان من تصلب رجال الدين الأتراك وعصيانهم على الاصلاح الذى كان بعض سلاطين بنى عثمان يحاولونه . مما جاء برهانا آخر على أن حب الحرية مغروس فى فطرة العرب، مهما انحطوا وانحط أمرهم، وأنهم من أكثر العناصر الإسلامية تسامحا، وما اشتهروا منذ قاموا إلا بفتح صدورهم للمدنية ، وكانو دعاة الدين والأمناء عليه فى كل عصر .

وكان من محمد على وطريقته المبتكرة فى التمدين الذى أقبسه نبهاء أولاد مصر، كل ما قرب الأمة المصرية من المدنية الغربية . وكان وادى النيل بجميل صنعه المثال الحى الذى دل به العربى بصورة محسوسة، على أن ليس فى دينه ما يحول بينه وبين الحضارة، وأنه حفيد أولئك الفاتحين إن نامت فيه زمنا جراثيم النهوض تدب فيها الحياة عند أقل محرك لها . وفى مصر أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات سنة ١٨٧٣ م على عهد اسماعيل الذى أخذ من مدنية الغرب بالكبير والصغير، وفاخر بأن بلاده أصبحت قطعة من أوربا بتمدنها . وكان الخديوى اسمعيل يشبه محمد على كثيرا ويعنى بالتعليم عناية خاصة . وقد أنشأ[1] فى أيامه مدارس ثانوية وغيرها ومنها دار العلوم التى خدمت اللغة أعظم خدمة .

(١) تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل لالياس الأيوبى .

كانت الحركة الأدبية المصرية مبدأ كل نور فى الشرق العربى . استفادت منه البلاد المجاورة بحكم الطبيعة، ولا سيما أبناء الشام . فان منهم من درسوا فى مدارس مصر، وتمصروا فخدموا البلاد التى هذبتهم ، ومنهم من نقلوا قليلا من النور الى بلادهم، ولما استولى محمد على على بلاد الشام سنة (١٢٤٧ هـ) ودام حكمه فيها تسع سنين، أثر بابنه ابراهيم ورجاله فى ادارتها وتمدينها، ورأى الشاميون الفرق المحسوس بين حكم الترك وحكم أحد ولاتهم محمد على . فمصر اذًا هى التى بدأت تقتبس من نور العلم الصحيح، ومصر أدخلها من تخرجوا بعلم الغرب فى دور ارتقاء لم يسبق له مثيل فى بلاد العربية، ومصر هى التى ظهرت فيها آثار المعارف قبل أمها الدولة العثمانية، ومصر أثبتت استعدادها للأخذ بأساليب الارتقاء، وأنها كل ساعة مستعدة لقبول الخير، لاتسأل عن مَصْدره ومُصْدره .

عمل الرهبان والقسيسين فى الشرق العربى :

وكان للغرب فى هذا الشرق منذ زمن بعيد رهبان ومبشرون . ولا سيما فى الأرض المقدسة من فلسطين وفى جبل لبنان من الساحل الشامى . يعلمون أبناء طوائفهم مبادئ العلوم باللغة القومية، مع إحدى اللغات الغربية ، وفيهم الايطالى والفرنسى والأميركى والرومى والبروسى والاسبانى والنمساوى والأسكتلندى وغيرهم. وزادت صلات الطوائف البابا وية فى الشام مع رومية، وكانت منذ القرن السادس عشر مستحكمة ، وفيه أسست للموارنة فى عاصمة النصرانية مدرسة يتخرج فيها خدمة الدين فى اللاهوت وغيره من العلوم . وكثر توافد الانجيليين منذ سنة ١٨٣٨ م للدعوة الى البرتستانتية ، وأسسوا مطبعة عربية كانت لهم فى مالطة أوّلا، يطبعون عليها الأناجيل بلغات مختلفة لنشرها فى المشرق. ثم تبعهم اليسوعيون من الطوائف الكاثوليكية ينشئون مطبعة لهم . وجعل دعاة البرتستانتية والكثلكة من ثغر بيروت وما فى ضواحيه من القرى مثل عبيه وعين طورا، أس حركاتهم الدينية والعلمية فى الشرق القريب، يتنافسون بينهم ، و يبثون فى عقول الناشئة

من غير أبناء المسلمين على الأكثر المبادئ التى رأوا فيها مصالح أممهم الدينية وغيرها، بما أقاموه من المدارس العالية والثانوية والابتدائية للذكور والأناث . وبعد أن كانت بيروت أشبه بقرية ، سكانها بضعة آلاف فقط، أصبحت مدينة علم كبيرة يقصدها المتعلمون من القاصية، على نحو ما كانت اشتهرت أواخر عهد الرومان بمدرسة الفقه، تخرج قضاة للملكة الرومانية .

هذا والمسلمون قانعون بأن من أبنائهم من يتعلم فى مدارس الدولة التى أنشأتها قرابة ذلك الزمن، لتخرج من أبناء البلاد ضباطا وموظفين لمعسكراتها وإداراتها . وبقدر ما كانت نفوس غير المسلمين تنصرف الى التجارة والصنائع، كانت وجهة المسلمين تتجه نحو الاستانة تعلم أبناءهم شيئا من التركية ، وبعض العلوم النظرية، فيكون منهم قادة وضباط وعمال ونواب. وكانت غاية التعليم العثمانى تلقين الأفراد الاعتماد على الحكومة فى كل شيء، والفناء فى خدمة الوطن التركى ، وكان تتريك العناصر على اختلاف أجناسهم ومدنياتهم من أهم ما تعمل له الدولة التركية ولاسيما فى أواخر أيامها . وغاية التعليم المصرى أو التبشيرى تثقيف الناس بالعربية ، والالمام باحدى اللغات الأوربية، أو العناية باللغة الأجنبية والأخذ بحظ قليل من العربية ، مشفوعة بمبادئ علمية تنفع من يتلقنها فى حياته ومعاشه . وكان الاحتلال الفرنسى فى شمالى إفريقية ، الجزائر وتونس ومراكش ، والاحتلال الانجليزى فى مصر والسودان، ثم الاحتلال الايطالى فى طرابلس و برقة، فزاد امتزاج العرب بالغربيين ، وأخذ الناس يدركون نقصهم، ويسعون جهدهم ليقلدوا فى منازعهم من تقدموهم فى سلم الحضارة .

ما أخذناه عن الغرب :

من الغرب تعلمنا معنى الوطن والوطنية، وحب الجنس والقومية، وهذا شيء جديد لم يعهد للعرب مثله ، بعد أن ذاق الناس الأمرّين من ظلم الولاة، ومن داناهم

ووالاهم قرونا طويلة، ولم يقدروا أن يغيروا أوضاعهم، بل ما وسعهم التفكير، فى مثل هذا التغيير، أو فى شىء يماثله لقيام أمر الجماعة، واسترجاع الحقوق المضاعة. ونقلنا عن الغرب بعض أوضاعه الاجتماعية والمدنية والسياسية كالمجالس النيابية والحكومات الدستورية. وأصبح الناس يوقنون أن بقاءهم مناط تضامنهم وتكاتفهم، وأن الشعب يقوى على إملاء إرادته، إذا كانت مادياته سليمة موفورة، وبقدر حظ الأمم من الماديات، تصح لها معنوياتها. وكان القوم من قبل يعجبون بكل ما هم فيه من علم وعمل، ولا يتوقفون اليوم مع هذا، عن نقد كل شىء بمنطق جيد أحيانا، فكثر النقادون، والنقد حياة المجتمعات.

تعلمنا من الغرب أصول الصحافة، وأنشأنا ننشئ صحفا تعنى بالأمور المالية والسياسية، وأخبار الدول والممالك. واقتبسنا إنشاء المجلات الدورية، ننقل أكثرها عن مجلات الغرب الفرنسية والانجليزية، وننسج على منوالها، ونجوّد فيها النقل، ونلخص آراء الغرب ومذاهبه السياسية والإجتماعية والإقتصادية والأدبية. ونترجم من الكتب العلمية والأدبية ما لم نكد نعرف اسم فنه من قبل. وكانت مصر المجلية فى هذا المضمار، نشرت منها مئات بمعاونة حكومتها، وعناية أبنائها الذين اغترفوا من الينابيع الصافية فى العلم الحديث. وكل بلد سبق فى هذه السبيل وعلم أبناءه كمصر، كتب له التقدّم على غيره من الأقطار. ولا عجب أن أصبحت مصر بعد جهاد جيلين من الناس، تشبه بعمرانها بعض الممالك الغربية الحديثة.

أثرت الصحافة فى عقول من أدمنوا تلاوتها، ودخلت الأفكار الجديدة أوساطا ما كان يظن أنها تهتم بها وتستفيد منها، وبدلت من طرق التفكير، وأصول المعايش ونظام المجتمعات. وعلمت الناس ما لم يكونوا يعلمون، علمتهم بسائط فى التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والزراعة، وحال الأمم وسياسة السياسيين، ومجادلات المشرعين، واستعمار المستعمرين، وتدليس المدلسين، حتى غدا بعض من أطالوا

تلاوتها وتفهمها، أرقى عقلا من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مئة أو مئين من السنين . علمتهم أن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربيـة ، وأن الدين وحده لا ينجيهم مما هم فيـه، وأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معا . فاقبلوا على المدارس والكتاتيب شاعرين بما هم عليه من النقص، والشعور بالعيوب أول مراتب الكمال .

كان الناس قبل سبعين أو ثمانين سنة يساق أولادهم الى الكتاتيب فى الديار الشامية بقوة الجند والدرك، وكان التعليم على عهد محمد على فى الديار المصرية[1] مكروها عنـد المصريين كرها شـديدا، حتى ان الأمهات كن يفقأن عيون أولادهن حتى لا يدخلوا المدارس ، بل اضطرت الحكومة المصرية فى بعض أدوارها الأولى أن تخطف تلامذة المدارس من الطـرق وأفناء القرى كما يخطفون عساكر الجيش[2] . فزاد إقبال المتعلمين على المدارس زيادة مستغربة وغدا أهـل كل قرية، بل أهل كل قبيل من البوادى، يتطالون الى تعليم أبنائهم بكل حيلة، دع سكان المدن، فانهم من ذلك على حصة موفورة .

التمازج بالغربيين والانتفاع بما اخترعوه وكشفوه :

لمـا اخترعت أوربا البخار حوالى سـنة ١٨٣٠ وسهـل السفر على النـاس فى قطارات البر وسفن البحر، زاد اختـلاط الفرنج بالعـرب، فزاد هؤلاء ثقافة، يحملها إليهم طلاب العـلم وأرباب الرحلات والتجار ، وسياح الغربيين وحجاجهـم القاصدون إلى بلادنا ، يزورون آثارها المدنية والدينية، ومنها ما تقدسه أمم الغرب النصرانية ، لأنها موطن المسيح ومظهر عجائبه ، ومنها ما يدهش له الغربيون كآثار الفراعنـة أم المدنيات القـديمة المعروفة فى مصر، وكمصانع تدمر وبعلبك وجرش

(١) تقرير لورد كرومر عن مصر سنة ١٨٩٤

(٢) تاريخ الأستاذ الامام لمحمد رشيد رضا .

والبتراء فى الشام، وآثار قرطاجنة وغيرها فى افريقية . وزاد هذا الاختلاط شدة لما صحت عزائم سكان جبال الشام على نزول أميركا طلبا للرزق (١٨٧٦م)، وكان أهل أوربا سبقوهم إلى نزولها منذ أكثر من ثلاثة قرن ، أى استعمروا الأميركتين منذ فتحهما كريستوف كولمبس وفاسكودى جاما . ومن نصف قرن كان من لا يعود الى بلاده بمال، يرجع إلى أهله بما اقتبس من بسائط المدنية . لأنه رأى فى ذهابه وإيابه بلادا أرقى بعمرانها من بلاده ، واختلط بجماعات أعلى كعبا فى المدنية من جماعته .

إذا عرفنا هذا فلانكون الى الغلو إذا ادعينا أن الفرق عظيم اليوم بين مصر والشام وتونس مثلا ، وفيها تمازجت الحضارة الحديثة بالقديمة، وتوفر أهلها على الأخذ عن الغرب علمه وصناعته، وبين الحجاز ونجد واليمن ، وسر ذلك كون أهل الجزيرة انقطعوا عن العالم المدنى طوعا أو كرها ، وقل اختلاطهم بالغربى ، إلا فى بعض سواحل البحر الأحمر والبحر المحيط الهندى وخليج فارس، وتجافت نفوسهم عن اقتباس ما جدّ عند الأمم من أساليب العلم والصنائع .

كان الوباء إذا انتشر فى بلدة لا يبقى من سكانها ولا يذر ، وفى الغالب أن يعقب الأوبئة قحط، لقلة العاملين فى الحقول، فيهلك الناس بمئات الألوف . وكانت هذه الأمراض الوافدة، تحصد الأرواح فى كل عقدين أو ثلاثة من السنين، فقد انتشر وباء فى الشام أوائل النصف الثانى من القرن الخامس ، وأعقبه قحط وإضاقة فى العيش، مع ماهنالك من مظالم ومغارم لايكاد يتصورها ابن هذا العصر، فأكل الناس الكلاب والسنانير والفيران ، ثم أكل بعضهم بعضا ، ونزل سكان دمشق الى ثلاثة آلاف إنسان ، وكانوا من قبل خمسمائة ألف . ومثل ذلك كان فى مصر سنة ٤٦٢ هـ أفنى القحط العظيم الناس ، وأكل الإنسان الإنسان، وبلغ أردب القمح مائة دينار ، وخرجت امرأة فى القاهرة وبيدها مدّ جوهر فقالت : من يأخذ هذا بمد قمح، فلم يلتفت إليها أحد، فألقته فى الطريق وقالت :

ما نفعتنى وقت الحاجة فلا أحملك . قالوا والعجب أنه ما كان له من ملتقط . هكذا كانت حال الناس قبل أن يكشف الغرب الجراثيم ، ويفيد بنى الانسان والعرب منهم ، بهذا المكتشف العظيم .

كانت الأوبئة والطواعين والحميات والوبالة "الملاريا"، بل وجميع الأمراض الوافدة والأمراض العضالة كالكَلَب ونحوه ، تهلك عشرات الألوف من الخلائق . ولا من يعرف دواءها ، ولا من يفكر فى تخفيف ويلاتها ، ومنهم من يعزو ذلك الى أسباب سماوية ، يغضب الديان على الانسان ، فيرسل عليه هذه المهلكات . أو يقوى سلطان الجن على الإنس ، فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، أو يحل بهم نكد الطالع ، فتساورهم النقم ، وتتخطاهم النعم . ولكم أفضل الغرب علينا بمطعوم الجدرى ، وكان يهلك به كل سنة جزء عظيم من الأطفال ، وكم من عيون دعجاء به قلعت ، ومن خدود جميلة ببثوره تشوهت .

عرف الغربيون(١) حقيقة البول السكرى والصرع والتشنج وغيرها من الأمراض ، فوصفوا لها الأدوية وأقاموا لها حواجز تحول دون آلامها وأخطارها فخفت وطأتها ، ولطفوا بما اخترعوا ويلات الأمراض الزهرية والكزاز « تيتانوس » والخناق والنقرس الحاد . ووفقوا الى إتقان فن الجراحة ، فأفادوا الإنسانية وقللوا من أوجاعها . ورقوا الطب والصيدلة على اختلاف ضروبهما . ولو لم يكن لهم غير « الكينا وصبغة اليود » لكفى فى خدمتهم الإنسانية ، وانتفعوا ونفعوا بالكيمياء حتى تم لهم من التفنن فيها ما هو غريبة الأيام والليالى . واذا نقلت أوربا الى آسيا وأميركا وجزء من إفريقية الحمى التيفوئيدية وبعض الأمراض الزهرية ، فقد نقلت آسيا الى أوربا الكوليرا أو الهواء الأصفر ، ومع هذا قاتلته أوربا بعلمها وبحثها حتى قتلته وأخاه الطاعون .

(١) حسنات القرن الماضى وسيئاته للؤلف (مجلة المقتبس م ١) .

تعلمنا طب الحيوان والدواجن ، ومكافحة الحشرات ، وكانت تعبث بالأشجار والنبات والزروع ، واستفدنا أصنافا من البقول والأزهار والثمار لم يكن لنا بها عهد، وعرفنا طيورا ودجاجا وأسماكا جديدة، واستطعنا بالأخذ بالوسائط الجديدة القضاء على الجراد، ولطالما أقفر أقطارا وأفقر أمصارا، وتعلمنا استعمال الأسمدة الكيماوية والتفنن في تطعيم الغرسات ، والاستكثار من المعرشات المبهجات ، ومعالجة الآلات الحراثة والبذّارة والحصادة والرجادة والدراسة والذّراية بل والخيّاطة، وكل ما يقلل من عمل الأيدى ، ويوفر على الخلائق راحتهم، ويقتصر لهم طرق الانتفاع بما تنبت الأرض وتجود السماء .

وتعلمنا تمديد الخطوط الحديدية ، وفتح الأنفاق وبناء الجسور والطرق والمرافئ، والخزانات والمنائر وحفر الآبار الارتوازية، واقامة الدور ذات الطبقات الكثيرة، وتوليد الكهرباء ومد أسلاكها وانارة المدن والقرى بها، وتسيير عجلاتها في الحواضر والضواحى ، ووضع البريد الجديد والبرق والهاتف واللاسلكى والسلك البحرى ثم الراديو، وتنظيم المدن والبلديات، وفتح الشوارع والساحات، ورصف الطرق وتذليل العقبات، وجر المياه النقية فى قساطل ومناهل،وتجفيف الأصقاع المستنقعة، وتخفيف ويلات أمراض العين، وكان يعمى بها طوائف من الناس .

واقتبسنا أصول الجندية ، وتنظيم المراكب البخارية ، وتدوين الدواوين ، وأسلوب الجباية ، وإدارة المصارف والجمارك، وأبدلنا أساليب التجارة بأساليب الغرب القريبة المأخذ، المضمونة النتيجة ، وما عرفنا من قبل المصارف ولا المصافق، ولا السفاتج والحوالات المالية، ولا الشركات المساهمة والمضاربة والمغفلة، ولا كل ما يسهل على التاجر عمله ، وعلى الصانع صناعته، ويوفر للناس أموالهم . وكأن الأدوات والآلات هى خاصية من خاصيات المدنية الحديثة ، لتفرد الغرب بالفحم الحجرى وضروب المعادن، ومن أهمها الحديد، ولأن الاخصاء فى العلوم جرى تطبيقه على الصناعات عندهم .

ومن الغربيين أخذنا أساليب الدعوة والإعلان، وطرق المفكرات والجزازات والاحصاآت، بله تأليف المؤتمرات والمؤامرات، واستخدام المعاصر والمحالج والمغازل والمناسج والمطافئ والمدافئ والمضخات، ونسجنا على أساليبهم فى إنشاء الجمعيات الخيرية، والأحزاب السياسية، والشركات الصناعية، وإقامة حدائق لتربية الحيوانات، ومغارس لتربية النباتات والأزهار والأشجار، واستفدنا مسائل أخرى كثيرة نجهد لوضع أسماء تقابلها بالعربية، ولم نعرف من قبل اقامة المستشفيات والمصاح والملاجئ لليتامى والزمنى والصم والبكم والمسلولين والمعتوهين، على هذا الطراز من العناية والطهارة .

أبطل الغرب القرصنة[1] من البحار والأنهار، وقضى على الغزوات حتى من البرارى والقفار، فأمن الغادون والرائحون والمبحرون والمقفرون[2] على أرواحهم وأموالهم . وحرر الرقيق فكان ذلك من موجبات فخره، وأزال بذلك وصمة عار عن الانسانية، وأبطل النخاسة، وكانت أفظع تجارة وأحط عمل شائن فى استعباد البشر . علم الغرب السود حتى ألحقوا بالبيض، ودرب الحيوان حتى قام بكثير من أعمال الانسان . فاستفاد من كل قوة ادخرتها الطبيعة، وانتفع من كفاءة كل كفء، وفضل كل قريحة فى هذا المجتمع العظيم .

أثر الغربيون فى أرواح الشرقيين وعقولهم من حيث يدرون ولا يدرون، وذلك بفضل ما يبثونه كل يوم من معارف جامعاتهم ومدارسهم وأنديتهم ومعاملهم ومخابرهم، وبفضل ما كشفوه واخترعوه وحققوه وصححوه من العلوم، وبثوه من الأفكار الجديدة وخاضوا عبابه من الموضوعات، فقلبوا بأوضاعهم أوضاعنا، وبدلوا بتصوراتهم أشكال تصوراتنا، وبدلوا من أساليب الفكر فى رجالنا الدارسين وغير

(١) القرصنة لفظ أعجمى دخيل فى لغة شمال إفريقية ويطلق على الغارات البحرية التى كان يأتيها رجال البحر فى العصر الماضى (تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب) .

(٢) السائرون فى البحر والقفر .

الدارسين، فتغيرت مادة أحاديثنا ودوافع أهوائنا، ولطفت أذواقنا، ولم يكن لذلك كبير أثر قبل اختلاطنا بهم، وتسهيل المواصلات بيننا وبينهم. وسنظل على الأخذ عنهم فى معظم مطالب الحياة، حتى نستوى أمة ناهضة من كل وجه، على ما استوت اليابان الشرقية فى القرن الماضى.

كانت الأمية غالبة على الكبير والصغير، يربى الأطفال فى أماكن مظلمة نتنة لاشمس فيها ولا هواء يسمونها الكتاتيب أو المدارس. ثم هم يضربون بالعصى على رؤوسهم ووجوههم وظهورهم وأرجلهم بدون شفقة، وبذلك يتعلمون للخلاص من هذا العذاب الاحتيال والحلف الكاذب. فأصبح الولد بتنظيم التعليم اليوم، يعرف من المواد ما لا يكاد يعرفه العالم أمس. واختصرت مراحل التهذيب، حتى لنرى فى شبابنا اليوم من هم مفخرة بمعارفهم، ما رأى أجدادنا أمثالهم فى عصورهم وما كنا نسمع بمثل هذه المعارف تجتمع لفتى فى الخامسة عشرة من عمره، ولا بالأطفال من البنين والبنات يربون فى رياض الأطفال هذه التربية العملية الصحية، ولا بربات الحجال، ينافسن فى التعليم العالى الرجال.

بفضل المدارس والصحف السيارة ودور التمثيل وبيوت الغناء واسطوانات الحاكى، واذاعات "الراديو" أصبحت الفصح من الألفاظ العربية فى ألسن الناس، وعلى أقلامهم ومكتوباتهم، كأنها من المتعارف. وظهر فينا رجال نقرأ أعمالهم فى كتبهم ورسائلهم وخطبهم وأعمالهم فنعجب بها. وكثر فى أبنائنا رجال القانون والادارة والجندية والطب والهندسة والزراعة والكيمياء والطبيعة والفلك والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والشعر والكتابة والأدب والتصوير والموسيقى والنحت والنقش والطيران، ومنهم من لا يقل عن أرقى الطبقات أمثالهم فى الغربيين، ولا يفرقون عن النابهين من الرجال عند الأمم الممدنة، إلا بفروق مرجعها الى المحيط، الذى يعلو كل حين مستواه.

يعترف[1] الشرق العربى بصنيع علماء الغرب لمعاونتهم له على احياء مدنيته، فقد أنشأوا منذ القرن الرابع عشر للميلاد مدارس لتعليم العربية فى جامعاتهم ، وكلما كان بعض أبنائه يتلقفونها ، كانوا يفكرون فى اقتناء كتب العرب، و يتنافسون فى ذلك تنافسهم فى الاحتفاظ بالآثار التى هى محصول القرائح العربيــة . ولمـا اخترعت الطباعة كانت المخطوطات العربيــة أوّل ما طبع فى بلاد الغــرب . وأوّل مطبعة أنشئت فى مدينــة فانو فى جون البنادقة "بحر الادرياتيك" سـنة ١٥١٤ م طبع فيها القرآن وكتب الطب والحكمة والطبيعة باللغة العربية . وفى مدينة البندقية طبع الايطاليون تآليف يوحنا بن ما سو يه فى الطب والفلســفة . ومثلوا بالطبــع قانون ابن سينا فى الطب مع كتاب النجاة فى رومية وذلك سنة ١٥٩٣ . وفى سنة ١٦١٥ م بدأ الهولنديون فى مدينة ليــدن بطبع كتب العرب ، وما زالوا الى اليــوم يطبعون من أمهاتها كل مفيد . وقــد أنشأت معظم الأمم الأوربية والأميركية مطابع عربية طبعت عليها عشرات من كتب العرب النفيسة. ودلوا قومهم وغير قومهم على فضل العــرب، ونوهوا بحضارتهم ونبوغ أفرادهم . كانوا يأتون ذلك والعــرب يغطون فى سباتهم غطيطا غريبا، تحت ظل خلفاء العثمانيين ودولتهم المباركة ! و بينا كانت العربيــة توشك أن تدخل فى دور الانقراض فى مصر والشام والعــراق، دع سائر الأقطار العربيــة الأخرى ، كانت أوربا لا تخلو جامعة من جامعاتها منــذ القرن السادس عشر من القاء دروس عربية، وابحاث فى مدنية الاسلام .

جمع الإفرنج فى كل دولة صغيرة كانت أم كبيرة، خزائن عامة أو خاصة فيها نفائس الكتب العربية المخطوطة، عنوا بها أشد عناية ورتبوها ونشروا فهارسها . ولا تقل كتبنا التى احتفظوا بهــا فى خزائنهم عن مائتين وخمسين ألف مجلد . نشروا منهــا بالطبع جزءا من الأسفار الدينية والفلسفية والتاريخية والجغرافيــة والعلمية والأدبية

(١) أثر المستعربين من علماء المشرقيات فى الحضارة العربية للمؤلف ، وعدة مقالات له فى حركة المشرقيات فى الغرب نشرت كلها فى مجلة المجمع العلمى العربى .

واللغوية وغيرها مما لا يقل عن خمسمائة مجلد، ونحن لم نعرف بعد الطبع بالحروف، مجتزئين بطبع الحجر السقيم . وفى خزائن الكتب العمومية والخصوصية فى الاستانة ومصر من المخطوطات العربية ما لا يقل بعدده عما عند أهل أوربا منها، ولم يطبع منها غير مصنفات قليلة، ومنها التافه الذى قصدوا به التجارة لا خدمة العلم ، كما كان منزع علماء المشرقيات من الغربيين . وجاء القرن التاسع عشر ولم يطبع منها غير بضعة كتب نافعة . فبفضل الغرب عرفنا الطبع ، وعرفنا فضل أجدادنا ، وتعرفنا الى الطرق الموصلة الى إحياء كتبنا ، ولكن طالت مدّة تعليمنا أكثر من مائتى سنة .

وعن علماء الغرب اقتبسنا أساليب الاستفادة مما أملته قرائح الأسلاف، وأبقته الأيام من تراثهم الثمين ، على نحو ما كان لهم الفضل فى البحث عن دفائن بلادنا، ونبش عادياتها ومصانعها القديمة . فاهتدينا الى معرفة آثار أرضنا وتاريخها وعظمتها السالفة ، وعرفنا لغات الأقدمين ممن سكنوا ديارنا قبلنا ، وتعلمنا كيف نحتفظ بآثارنا الثابتة والمنقولة، ونُعْنى بتركة أجدادنا ونحترمها ونقدسها ونولع بها .

وكان من تعليم رجالنا أن سمت بهم الهمم الى إدخال الأنظمة الجديدة على مدارسنا الدينية الكبرى، والتى تقدّمت غيرها فى قبوله كانت لها الشهرة الطائرة، وعموم النفع للاسلام والعرب . تخرج علماء حقيقيين منورين ، وكانت من قبل تخرج علماء نظريين جامدين . وكلما ارتقى أسلوب التعليم وثقف الخاصة لغات الغرب زادت اللغة العربية رشاقة، حتى كاد كتّاب مصر وما اليها من الأقطار العربية يرجعون الى العربية نضرتها القديمة .

*

أخذ الغربيون عن العرب كل ما نفعهم يوم نهضتهم من ضروب المعارف البشرية، وهاهم اليوم يعيدون الينا شيئا مما تعلموه من أجدادنا، وزادوه بعلمهم وبارتقاء الزمن وتداول الأيام ، وهذه سنة المدنيات التى درجت عليها أجناس

البشر، والعالم فريسة العامل، ومن كدح ربح : تقلبت على الحضارة أيد كثيرة منذ دون تاريخها، واليوم وصلت الى هذا المظهر الباهر، ولا غضاضة على المتأخر إذا أخذ عن المتقدم .

سيئات الغرب فى البلاد العربية :

ولا يفوتنا النظر وقد بلغ بنا نَفَس الكلام الى هذا الحدّ، أن نعرض لما حوته المدنية الغربية من المساوئ، بعد أن ألممنا بما حملت من عظيم المحاسن، ولكل مدنية سيئات تندمج فى مطاوى الحسنات، وقد لا يكون الخير تاما والشر تاما . وكان علينا أن نقتصر على اقتباس النافع وتحامى الضار . والظاهر أن المدنية وحدة لا تتجزأ من أخذ بخيراتها، لابد أن يستهدف لشرورها طوعا أو كرها . وما هذه السيئات بالذى أقره عقلاء الغرب، دعاة الحضارة الحديثة .

يقول قاسم أمين[1] "إن أهل أوربا يقسمون الى ثلاث طبقات كسائر الأمم: عليا ووسطى ودنيا . فالدنيا أكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة وقليل من مبادئ العلوم، وهم فى أخلاقهم الشخصية أشدّ فسادا من عامتنا فى أخلاقهم . وأما الطبقة العليا فتصيب حظًا عظيما من التربية الفعلية. ولكن يغلب عليها ما يغرى به الغنى والبطالة، وتستولى عليها الشهوات، فهم يتفننون فى اللذائذ، تفنن أهل الجد فى الاختراعات والصنائع . قال وهذا الفساد مما تحمله المدنية الغربية وتصبر عليه، لأنها لا تستطيع محوه، فإن هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية، مضطرة لأن تقبل ما يتبع هذه الحرية من الضرر، فانها تعلم أن منافعها أكثر من مضارها، ووجود الفساد فى الغرب إنما هو لاحق طبيعى من لواحق الحرية الشخصية، ونتيجة من نتائجها، فى الطور الأدبى الحالى الذى توجد فيه تلك البلاد الآن . قال وهذا الفساد فى الأمم الغربية لم يضعف فيهم الفضائل من بذل الأنفس

(١) المرأة الجديدة لقاسم أمين .

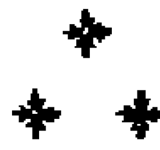
والأموال فى سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه، فأدنى رجل فى الغرب كأعلى رجل فيـه، اذا دعا داع الى هجـوم، أو قيام لدفاع أو الى عمل نافع؛ يترك جميع لذائذه وينساها، وينهض لإجابة الداعى، ويخاطر بنفسه، ويبذل ماله الى أن يتم للأمة ما تريد، وأما الطبقـة الوسطى فلا ريب أنهـا أرقى من التى تقابلها عندنا اه. قلنا وهذه الأخلاق الأخيرة هى التى يدعو اليها رجال الإصلاح الاجتماعى فى بلادنا.

ولقد هجمت علينا المدنيـة الغربية بأصـناف من المسكرات والمخـدرات كان أجدادنا لا يعرفونها، وعاشوا بدونها قرونا فى هناء وراحة، وكان يقتصر من يعاقرون الراح سرا، وهم قلائل جدا، على ما تنتج البلاد من خمور، وضررها على الجملة أخف من مضار الغول الجديد. وهكذا الحال فى عامة المخـدرات كالمورفين والكوكايين والهرويين التى جاءت مع القرن المـاضى، فأضعفت العقول وقتلت الأنفس. وفتح التوسع فى الحرية أبواب العهر والفجور والإسراف على النفس، فأنشأ الفحش يمارس تحت سمع القانون وبصره، وزادت الأمراض السرية، وتعطل التناسل فى بعض الرجال والنسـاء، ثم انتشر القمار على اختلاف صـوره، ومنه المضاربات وألعاب النصيب، وكان النـاس فى غابر الأيام يقنعون بالرزق المخلل، يأتيهم من أعمـالهم الصناعية والزراعية والتجارية، لا يغامرون هذه المغامرات التى يردها العقل.

وأدت الحرية الشخصية بالسلطة الأبوية فى بعض البيوت الى الارتخاء، فكان فى المـاضى الإفراط فى هـذا المعنى وصار اليوم التفريط، وضعفت سلطة الأب على ابنه وابنته بالنسبة، وضعفت معها الشفقة والرحمة والكرامة. وأصبح كل أمر يقاس بمقياس المـاديات، ولا يسأل الرجل من أين اكتسب ماله، اذا اجتمع له مال، لأن المعنويات قلمـا تكون ذات شأن فى نظرهم، وإنمـا الشأن كل الشأن للماديات، وقضت الحضارة على من قبلوها أن يجدوا ويسرعوا، إن أمكن بقوة البخار والكهرباء والأثير. وكان الناس منذ قرن على تؤدة وتأن وصبر لا تشاهده فى أهل هذا الجيل. ولذا رأينا التشاؤم أكثر من التفاؤل فى كل بلد، والقناعة والرضى أقل

من الشراهة والطمع، وأمسى كل صعلوك يحاول أن يغتني بين عشية وضحاها، بأى الطرق التى تفتح أمامه . وكثر حب الظهور بل الجنون فيـه ، وتبع ذلك البـذخ والتفخل والإسراف، بحيث يتعـذر التوازن بين الدخل والخـرج، فكان فى ذلك خراب بيوت كانت عامرة لولا التقليد المصطنع ، والعادات المستحدثة . وكثرت بذلك السويداء والمـاليخوليا والخبل وضعف الأعصاب وفقر الدم والسل . كانت الرفاهية فى الأيام المـاضية مقصورة على قصور الملوك والأمراء، فشارك فيها اليوم أهل الطبقات الثانية والثالثة . وكان للمجتمع فى الشرق عادات مستحسنة من جمال الألفة ، وحسن العشرة ، وصحة العهد والوفاء، وقوّة الإيمـان ومعرفة الجميل ، فعرا هذه الصفات بعض الفتور خصوصا فى البيئات التى اقتبست مدنية الغرب بعجرها و بجرها . وبعبارة ثانية إن الناس انغمسوا فى الأثرة، وكانوا من قبل أميل الى الإيثار .

هذه جريدة بما لقفناه عن الغرب ، ذكرنا فيها الحسنات واتبعناها بالسيئات، وربمـا كان فيها بعض النقص غفلنا عنه بخيانة الذاكرة ، أوردنا منهـا ما أوردناه على سبيل الذكرى لننصف غيرنا وننتصف منهم .



كَمُل طبع الجزء الأوّل من كتاب "الاسلام والحضارة العربيـة" بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم السبت ١٣ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ (٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٤) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصـرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٣/٤٣/٢٠٠٠)



Bibliotheca Alexandrina
02444575